المركز القومي للترجمة

أورسولا ك. لوجوين

ساحر من إيرثسي

ترجمة: منى النموري



2548

سلسلة الإبداع القصصي

ساحر من إيـــرثسى

راويـة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2548
- ساحر من إيرثسى
- أورسولا ك. لوجوين
- منى النمورى
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
A Wizard of Earthsea
By: Ursula K. Le Guin

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ساحر من إيرثسى

روايـــــــة

تـــألـــيـــف : أورسـولا ك . لوجـوين

ترجمة وتقديم : منى النمورى

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لوجوين ، أورسولاك
ساحر من إيرثسى ، تأليف : أورسولا ك . لوجوين ؛ ترجمة وتقديم : منى النمورى
المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥
٢٤٤ ص ، ٢٠ سم
١ - القصص الأمريكية
(أ) النمورى ، منى (مترجمة)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٥٥٨٤ / ١٥
الترقيم الدولى 1 - 0375 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

رقم الصفحة

تقديم المترجمة

" حكاية سباروهوك، ساحر من إيرثسى بلاد البر والبحر"

سباروهوك؟ ساحر؟ إيرثسى؟ ما هذا العالم الخيالى الجديد الذى تقدمه لنا هذه الترجمة؟ سباروهوك هو صبى أسمر نحيل صلب ويتيم، عنيد ومتسرع وغاضب، وُلد بقدرات سحرية هائلة، ويتبناه ساحر كبير وحكيم اسمه أوجيون ليعلمه السحر والحكمة، لكنه لا يصبر لتعليم أوجيون الرصين البطيء، فيرسله بناءً على طلبه لمدرسة السحرة فى جزيرة روك؛ حيث يلمع نجمه أسرع من بقية الصبية، ويفتنه تفوقه فى المدرسة، ويضايقه صبى آخر مغرور من أصل نبيل ويستفزه، فيجرب استدعاء روح من أرواح الموتى للتفاخر، لكنه بدلًا من هذا يستدعى ظلًّا شبحيًّا ثقيلًا من عالم آخر يطارده، ويكاد يقتله، ويهدد عالم إيرثسى كله بالاستحواذ على جسد الساحر الصغير وقوته، وتدور المغامرة المثيرة لمطاردة هذه القوة السوداء الشريرة. يتعلم سباروهوك من خلالها الصبر واحترام موهبته، ومواجهة مسئولية خطئه؛ حتى يعرف من أين يأتيه الظل، ويصحح مسار حياته، ذلك الصبى العنيد الذى نتوقع نهايته الأليمة فى كل فصل، والذى نشهد عذابه، وهو يجوب البحار والبلاد بحثًا عن الظل الشبحى الأسود، يكبر ليصبح ساحرًا شابًّا مسئولًا، ثم الساحر الأكبر لكل عالم إيرثسى.

وإيرثسى، عالَم لوجوين المتخيَّل، عبارة عن أرخبيل يضم مئات من الجزر المحاطة بمحيط عظيم، لا يعلم أحدٌ مداه ولا نهايته. تقول الكاتبة فى خلق هذا العالم إن الجزر الأندونيسية ربما هى أصله فى خيالها. إيرثسى، بلاد البر والبحر، يتشابه جوها مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتتشابه عادات أهلها غير الصناعية مع القرن الخامس عشر.

من أورسولا ك. لوجوين؟ هى أشهر كاتبة للخيال العلمى والفانتازيا وأدب الأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية. فى ١٩٦٨، وقبل عقود من ظهور روايات هارى بوتر الشهير، تبدأ أورسولا ك. لوجوين كتابها "ساحر من إيرثسى" استجابة لناشر طلب منها الكتابة للناشئة، وبعد تفكير قررت أن تكتب هذا الكتاب عن النضج وبلوغ الرشد.

تبدأ الرواية بسؤال غير معلن عن كيفية بدء السحرة الكبار حياتهم؛ هل يولدون حكماء بعصىٍّ سحرية وذقون بيضاء؟ أم أنهم مثل كل الناس يبدءون حياتهم أطفالًا ومراهقين، محاطين بالصعوبات والتجارب المؤلمة الصعبة النسيان؟ هكذا يبدأ السؤال، ومثل كل الحكايات يقودنا السؤال للمزيد من الأسئلة حول الناس والحياة، الموهبة والفن، الخير والشر. ويصبح الكتاب ستة من الكتب عن إيرثسى. ساحر من إيرثسى هى روايةٌ تعلم ونضج للناشئة، ولأنها حكاية حقيقية – وإن كانت متخيلة – فهى ممتعة للكبار الذين قد يعيشون ويموتون دون تعلم أو نضج، فهى رحلة واقعية، رغم كونها فانتازيا عن عالم آخر.

لكن لماذا الفانتازيا؟ تقول لوجوين إن الفانتازيا هى النمط الأدبى الأفضل لرحلة النضج هذه؛ لأن الفانتازيا برموزها البدائية (الساحر، الظل، الشبح، السيف، المتاهة، الخاتم، الرحلة) هى الأفضل فى نقل عمق

الرحلة النفسية داخل العقل الباطن التى يقطعها الإنسان لفهم نفسه ولتحقيق النضج. وهى رموز يزخر بها عالم إيرثسى.

تلك الرحلة النفسية الأخلاقية تحمل جدلًا قويًا، ما بين احتمالات الخير والشر داخل النفس البشرية، والهدف من هذا الجدل هو تقليل ميل القارئ الصغير نحو اليأس أو الإنكار، حين تأتى اللحظة الحاسمة لمواجهة الشر والحزن والمعاناة والظلم فى العالم، والذى هو جزء من النفس البشرية. ولهذا يطلق على فانتازيا إيرثسى: فانتازيا أخلاقية.

أجمل ما فى كتب لوجوين أنها تتجنب الانتصارات الأخلاقية البسيطة والساذجة، مثل انتصار الخير على الشر الذى نلقمه لأطفالنا، وكأننا نعلمهم الازدواجية من البداية. فعلى عكس قصص الفانتازيا الأمريكية والأوروبية تتجنب لوجوين هذه الازدواجية، وتقدم لنا الشر جزءًا من النفس، لا بد من رؤيته وقبوله، وبالتالى تحجيمه، ثم منعه بقدر الإمكان. فمثلًا على سباروهوك أن يقبل ظله الأسود (ذكرياته المؤلمة، غروره، تسرعه، عمله السيئ) على أنه جزء منه، ويقبل بصبر تصحيح الخطأ، وعليه أن يحتضن ما ظل يهرب منه طول حياته القصيرة؛ حتى ينغلق جرحه ويواصل العمر بشجاعة، فيصبح يومًا الساحر الأكبر بعد أن كان ملعونًا مطاردًا.

فى عالم إيرثسى، تلعب الأسماء دورًا مهمًا، فالاسم الحقيقى للشىء أو الشخص هو اسمه فى الكلام الحقيقى، أو اللغة القديمة، لغة الخلق ولغة التنانين المعمرة، وهو الذى يحمل جوهره، وتستطيع أن تسيطر عليه من خلاله. ففى الرواية لبطلنا الساحر الصغير اسم وُلد به (دانى)، واسم عُرف به فى القرية، اسم الحرفة (سباروهوك أو الميسان أى الصقر الصغير) واسمه الحقيقى الذى يعطيه له معلمه الأول الساحر الكبير أوجيون وهو (جِيد).

لا يمكن أن يكذب شخص فى اللغة القديمة، والساحر القدير فقط هو الذى يحدث التغيير فى الواقع عن طريق الكلام أو التعويذ بها. ولتصبح ساحرًا كبيرًا عليك أن تعرف الأسماء الحقيقية لكل الأشياء والأشخاص، وتتعلم لغة التنانين فى صبر وتروٍّ.

التنانين فى إيرثسى جنس قديم، قديم قِدَم إيرثسى نفسها، جنس قوى خطر لا يكترث للإنسان ولا يلحظه إلا إن كان يستحق أن يكون سيدًا للتنانين، مثل سباروهوك نفسه. لا تصف لوجوين التنانين بأنها خَيِّرة أو شريرة، تصفها فقط بأنها جنس مختلف عن الإنسان، وأنها تعرف الكلام الحقيقى: اللغة القديمة، لغة الخلق والتغيير.

من أخلاقيات إيرثسى أنه لو كنت ساحرًا وغيرت أى شىء بالسحر، أى شىء حتى لو كان حَجرًا ملقى على الطريق، فسيغير من العالم حولك؛ لذا يجب أن تتوخى الحرص، وتضع الكلمات والتعويذات فى مكانها. هذا ما يتعلمه قارئ إيرثسى؛ أن السحر (الفن، الموهبة) مسئولية لا بد من التفكر بها، وأن التوازن ضرورة حتمية للحفاظ على العالم.

فى عالم إيرثسى السحرى نترك عوالم "الهابرا كاديبرا" والتعويذات الرنانة، وندخل عالم من المسئولية الأخلاقية تجاه العالم. فالساحر الحقيقى لن يلجأ للسحر إلا فى الضرورة القصوى، وما بين الأسحار سينصت، سيصغى، سيتعلم بصبر أن كل الموجودات مهمة ومقدسة، وأنه بموهبته ليس أفضل من أى مخلوق ولا كائن، بل هو مسئول أكثر منهم.

وقع اختيارى على "ساحر من إيرثسى" لعدة أسباب: أولها أننى وددت أن أقدم الأصل الحقيقى لظاهرة هارى بوتر، والتى رغم اعترافى بأنها قد قدمت المتعة والإثارة لعالم الشباب، كما شهدت فى تجربة ابنى،

فإننى لم أرها قد أثرت فى حياتهم بثوابت الفضائل وعظيم الأفكار، بل اعتمدت اتجاهًا تجاريًّا يعتمد على التشويق والإثارة والتكنولوجيا، ولهذا كان من السهل تحويل القصص إلى أفلام فلكية الإيرادات، واكتفى الكثير من الشباب بمشاهدتها دون قراءتها، ومرت السنون ولم أجد عميق الأثر فى شخصية ابنى ولا فى جيله سوى الولع بالعوالم السحرية.

وشهرة عالم بوتر شكلت أكثر الصعوبات تحديًا أمامى فى الترجمة؛ لأن كل ما كنت أحاول ترجمته من غريب المصطلحات كان موجودًا بالفعل للقارئ العربى بالعربية، لكن بمعان أخرى تخص عالمًا آخر، ولهذا يجب التنبيه على الطبيعة الفضفاضة لفن الفانتازيا، فالفانتازيا لا قواعد ولا حدود لها؛ لأن كل كاتب يضع الشروط كما يتراءى له، وقد يغيرها، أو يضيف لها لو لزم الأمر فى الأجزاء التالية، وهو / هى بهذا يفكك، ثم يعيد تركيب الفانتازيا كنمط أدبى، بمعنى أن النمط يتراكم ويتفكك ويتغير طوال الوقت. هنا على القارئ أن يسلم نفسه تمامًا فى بداية دخوله هذا العالم الجديد للكاتب، يأخذه أينما يشاء فى عالمه المختلق، ليرجع بعد القراءة (لو كان العمل جيدًا) وقد تعلم عن نفسه وعالمه الجديد. وعلى هذا تختلف ترجمة المصطلحات نفسها مع كل عمل.

السبب الآخر : هو أننى وددت تقديم هذه الكاتبة العبقرية للقارئ العربى، وشعرت أن قلب أعمالها ودرة فلسفتها هو ذلك العالم الصغير "إيرثسى"، الذى كتبت فيه ستة من أعمالها على مدار أربعين عامًا. وسباروهوك الساحر المتسرع الذى بدأت به، انتهت به فى الجزء الخامس ساحرًا أكبر للبلاد، بلغ من الحكمة والثقة أن يرضى بالبقاء فى البيت، ليترك زوجته تجوب العالم، وتعرف نفسها كما فعل.

وقد واجهتنى الكثير من الصعوبات فى ترجمة إيرثسي:

أولها وأعظمها: محاولة جعل النص الجميل الحكيم مشوقًا ليجذب القارئ الشاب دون أن ينفر القارئ الأكبر سنًّا. ساحر من إيرثسى هو كتاب يبدو كأنه يشيخ فى سباق خفى مع سلسلة هارى بوتر السريعة المثيرة والعنيفة أحيانًا، والبعيدة عن التنظير أو التوجيه. يحتوى النص على معان مختلفة للأشياء نفسها الموجودة فى بوتر، والمستقرة فى ذهن القارئ العربى عن طريق الترجمة. كان علىَّ إذن أن أقدم ترجمة شيقة لنص أخلاقى قديم نوعًا ما، يتعارض فى بعض الأحيان مع عمل آخر شبيه مترجم مشهور ومحبوب فى العالم العربى بالفعل منذ سنوات! ساعدنى ابنى يوسف فى هذه الصعوبة كثيرًا لكونه القارئ الأول للترجمة.

ثانى الصعوبات: كانت فى إيجاد مقابلة مقبولة وجذابة للكثير من الكلمات والمصطلحات المُختَلَقَة، البعض منها لا تفسره إلا الأجزاء التالية من المجموعة، والبعض الآخر لا يفسره أى شىء، ولا حتى الكاتبة نفسها، والتى تؤمن بأن الفانتازيا مثل الأحلام، تقدم الكثير من الرموز التى على القارئ أن يتخيل معانيها كما يتراءى له.

مرة أخرى كان علىَّ أن أجد المعانى المناسبة التى تسمح للقارئ بالتخيل دون فرض أى تخيل خاص، مهمة شبه مستحيلة. من أمثلة ذلك مصطلح (Old Powers) أو القوى العتيقة للكون، والتى من الممكن أن تكون قوة الضوء والحجر والهواء والمعادن وغيرها، مما قد تحب - قارئًا - أن تتخيله، أو مثل الإشارات الكثيرة للاحم وبطولات لن تعرف عنها سوى بقراءة بقية الأجزاء (Erreth Akbe, Elfarren,Morred)

الصعوبة الثالثة: كانت فى ترجمة الكثير من الكلمات التى تعبر عن وظيفة الساحر، والمختلفة بالإنجليزية بعضها عن بعض، وإن كانت كلها تترجم إلى: ساحر أو مشعوذ أو عرَّاف، بالعربية، (Wizard, mage,archmage, sorcerer, witch, baby-witch) آخذين فى الاعتبار أن معظم معانى السحر لها معان سلبية بالعربية فى الثقافة العربية والقرآن والتراث الشعبى.

وبعد الكثير من التفكير والمشاورة استقرت الترجمة على التراتبية الآتية للسحرة على جزيرة روك.

١- سيجوى (ساحر قديم أو تنين، رفع جزر إيرثسى بمقدرته السحرية) Segoy

٢- الساحر الأكبر (ساحر كبير منتخب من كل السحرة الكبار لعمادة روك جزيرة السحر). Archmage

٣- ساحر قدير (ساحر اكتسب خبرة وحكمة ومقدرة سحرية) mage

٤- ساحر (ساحر اكتسب خبرة كافية للحصول على عصاه) Wizard

٥- مشعوذ (ساحر متدرب، ساحر محدود المقدرة أو الخبرة، وبدون عصا) Sorcerer

٦- صفات سحرية قد يكتسب بعضها العامة، لكن لا بد من توافرها عند أى ساحر (تحريك الطقس. Weather- worker غناء الملاحم البطولية Enchanter. العلاج بالتعاويذ. Heal-all)

٧- ساحرة أنثى، وهى فى الجزء الأول من عالم إيرثسى ضعيفة وقليلة القيمة، حتى غيرت الكاتبة صفاتها هذه فى الأجزاء التالية Witch

٨- ساحر طَفل، ويُطلَق على جيد فقط فى هذا الجزء، وهو طفل يستخدم قدراته السحرية الطبيعية، وقليلاً من المعرفة لإعمال السحر. Wizard Child

ومصطلحات أخرى لها معان مباشرة تختلف عن معانيها فى النص، وتختلف عن المعانى المستقرة للترجمة الأشهر، ألا وهى ترجمة هارى بوتر، مثل عصا الساحر A Wizard staff مثلاً، والتى لا يتم تفسير قدرتها فى إيرثسى، وتبدو دائمًا فى يد أوجيون أو الساحر الأكبر كعصا يتكئ عليها.

وكان هناك ضرورة أن تقدم الترجمة هذه المصطلحات ومقابلاتها، وتشرح دون أن تخل بسلاسة النص الأدبى، ودون أن تصيب القارئ بالملل من كثرة الهوامش أو الشرح.

الصعوبة الرابعة: كانت فى ترجمة الكثير من المصطلحات المختلقة من كلمتين موجودتين بالفعل فى اللغة الإنجليزية، لكن تجميعهما معًا يخلق معنى جديدًا، مثل: Earthsea . Lastland. Landgate.. والتى كان لا بد من إيجاد مقابلات مقبولة لها، خاصة Earthsea الذى تتكرر كثيرًا اسمَ مكان ومضافًا إليه، وكان الحل هو ذكر المعنى فى العنوان والفصل الأول، ومِن ثم الاعتماد على وصولها للقارئ، والرجوع لاستخدام اللفظة الأجنبية.

كلمة Shadow كانت من الكلمات الإشكالية أيضًا، فالمقصود بها هو "الظل"، وهو ما تُرجمت له فى الفصول الأولى. لكن لكون هذا الظل يتحول لقوة خارجية غير مرتبطة بجسد جيد فى لحظات، وتمتلك هذه القوة

قدرة أحيانا للدخول فى كائنات أخرى والتحكم بها، وجدت أن كلمة الظل لا تناسب هذه الكلمة عند مرحلة معينة، وكان الحل هو استخدام "الظل الشبحى" فى الفصول الوسطى، ثم استخدام "ظل" أو "شبح" حسب الموقف فى الفصول الأخيرة.

صعوبة أخرى واجهتها جاءتنى من مشاهد البحر ومصطلحاته، وهو الأمر الذى لم أكن أعرف عنه الكثير قبل ترجمتى لهذا الكتاب، ولم يساعدنى فيها سوى تقنيات شبكة الإنترنت الحديثة، التى كنت أرى بها صورَ ما أجهله، وكذلك مساعدة صديقتى المترجمة الأمريكية مارشا لينكس كويلى، وزميلى متخصص الترجمة د.عبد الوهاب خليفة، مثل مصطلح تجاويف الموج Hollows of the waves وهو مصطلح خاص بركوب الأمواج، ومثل الكثير من المواقف التى تصور صعوبة فى مواجهة عاصفة، أو أجزاء المركب المختلفة.

وأخيرا كانت صعوبة المحافظة على بصمة النثر الجميل الذى يميز لوجوين، وهذا النوع من الصعاب يواجه جميع المترجمين الأدبيين؛ حيث إن الأدب بوجه عام ما هو إلا نحت جديد لغوى يخص كل كاتب وكاتبة، ومحاولة الحفاظ عليه أثناء الترجمة هو من المهام الانتحارية.

إلا أننى لابد أن أعترف أن سباروهوك قد ساعدنى خلال العامين الماضيين تحت وطأة أظن أنها (الكثير) من المتغيرات السياسية والاجتماعية حولنا، كنت أنقلب إلى الترجمة لأجد بعضًا من الحكمة وقليل من الراحة يأتياننى من عالم بعيد، رغم كونه مختلفًا وأجنبيًا، لكنه بات قريبًا لأنه حقيقى وأخلاقى.

ولابد أن أعترف أن ظل الإنسان الأسود- أى ماضيه وكراهيته وطبعه وغله بفهمهم -الذى يطارده ولا يشفى سوى بفهمه وقبوله قد نَوَّرَ لى حياتى الخاصة ورأيت فيه شفاءً عظيمًا لأحزان نضجنا جميعًا .

عزيزى القارئ، أقدم لكم حكاية سباروهوك الساحر الشاب من عالم إيرثسى الخيالى، ساحر من بلاد البر والبحر، حكاية كل منا الواقعية فى عالم خيالى. حكاية الإنسان وظله.

فقط فى الصمت تكون الكلمة

فقط فى الظلمة يكون النور

فقط فى الموت تكون الحياة

براق هو طيران الصقر

فى السماء الخالية

خلق إيا





(١) محاربون فى الضباب

تشتهر جزيرة جونت، حيث وُلد بطلنا، بالسحر والسحرة، وجونت هى جزيرة على شكل جبل ترتفع قمته ميلًا فوق البحر الشمالى الشرقى الهائج. يجوب أهلها المدن فى الوديان العالية والموانئ فى الخلجان الكثيرة؛ ليخدموا سادة الأرخبيل[١] كسحرة أو سحرة كبار، أو حتى مغامرين، يجوبون كل جزر إيرثسى، بلاد البر والبحر، جزيرة جزيرة وهم يمارسون السحر.

من كل هؤلاء السحرة يقال إن بطلنا سباروهوك هو الأعظم، وبالطبع هو أعظم الرحالة، ساحر شاب أصبح فى أيام عزه سيدًا للتنانين والساحر

(١) الأرخبيل هو أحد شكال سطح الأرض التى ترمز الى مجموعة متجاورة ومتقاربة من الجزر.

الأكبر، حياته مروية فى كتاب "ملاحم جيد"، وفى أغان كثيرة أخرى، أما حكايته هنا فعن حياته قبل الشهرة وقبل الأغانى والملاحم.

وُلد سباروهوك فى قرية منعزلة اسمها الشجرات العشر، فوق الجبل فى بداية الوادى الشمالى، تنحدر تحت القرية المراعى وأراضى الزراعة، مستوى بعد مستوى باتجاه البحر، أما بقية القرى فتقع على منحنيات نهر آر، ومن فوق القرية نجد الغابات ترتفع تلًا فوق تل حتى القمم الجليدية.

ماتت أمه قبل أن يتم عامه الأول، ولم تعطه مع الحياة سوى اسمه الأول: دانى الذى حمله طفلًا. أما الأب فقد كان حدَّاد القرية، رجلًا عبوسًا قليل الكلام. ولدانى ستة من الإخوة يكبرونه بأعوام عديدة، رحلوا من البيت واحدًا تلو الآخر؛ ليزرعوا الأراضى، أو يبحروا فى البحار، أو يجوبوا البلدان الأخرى فى الوادى الشمالى. وهكذا نشأ الطفل الصغير محرومًا من الحنان.

وكان من الطبيعى أن ينشأ جامحًا مثل الأعشاب البرية، وُلد طويلًا، سريعًا مثل الصاروخ، مغرورًا، صعب الطبع، يرعى الجديان مع عدد من الأطفال الآخرين على المروج المنحدرة فوق النهر، لكن عندما أصبح قويًا بشكل كاف ليدفع ويجذب منفاخ الحداد، اتخذ منه والده صبيًّا، وأشبعه الكثير من الضرب والسياط.

لم يكن سباروهوك نافعًا من وجهة نظر الجميع، كان يجول بعيدًا فى قلب الغابة، أو يسبح فى نهر آر البارد السريع، أو يتسلق جرفًا أو منحدرًا ليصل للمرتفعات فوق الغابة، فيرى البحر والمحيط الشمالى الواسع؛ حيث لا توجد أية جزر بعد جزيرة بيريجال.

فى القرية نفسها عاشت خالته التى اعتنت به وهو رضيع، لكنها تركته أول ما استطاع أن يعتمد على نفسه لتتفرغ لعملها الخاص. وفى يوم وحين كان الولد فى السابعة من عمره، جاهلًا بكل المهارات وقوى الكون، سمع خالته هذه تقول كلمات لأحد الجديان كان قد قفز على سقف أحد الأكواخ رافضًا النزول، فحضر على الفور قفزًا. ولهذا، وفى اليوم التالى حين كان دانى يرعى الجديان فوق مراعى الشلال العظيم، أخذ يردد الكلمات نفسها التى سمعها بالأمس من خالته عاليًا، دون أن يعرف شيئًا عن معناها أو نوعها:

نورث هيرث مالكمان

هويلك هان ميرثهان

أطاعته الجديان على الفور، وحضرت دون صوت وهم يرقبونه بعيونهم الصغيرة الصفراء. ضحك الولد، وأعاد الكلام نفسه مرة أخرى، فإذا بالجديان تقترب أكثر وأكثر وتتزاحم حوله. ملأ الخوف دانى من الجديان بقرونها السميكة المدببة وعيونها الغريبة وسكوتها المخيف. وعندما حاول أن يتحرر منهم ويهرب جرت معه الجديان، وهى تحكم حوله الخناق. وأخيرًا هبطوا جميعًا على القرية، دانى فى المنتصف والجديان من حوله كأنهم مربوطون كلهم بحبل، والولد يبكى ويصيح، والقرويُّون يخرجون من أبواب بيوتهم ضاحكين على المنظر، إلا خالة الولد التى لم تضحك، بل قالت بضع كلمات للجديان جعلتها تغثو وترعى وتتجول متحررة من التعويذة.

– فقالت الخالة للولد: "تعال معى".

أخذته فى كوخها حيث كانت تعيش وحدها، ويخشى الأطفال الاقتراب منها.

كان الكوخ منخفضًا ومعتمًا، بدون نوافذ، يفوح برائحة الأعشاب التى تدلت لتجف من قضبان من السقف، نعناع ومولى وزعتر وألفية ومشقوقة القدم وحشيشة الدود وإكليل الغار وغيرها. هناك جلست الخالة متربعة بجانب حفرة نار، ونظرت للولد نظرة جانبية من خلال خصلات شعرها الأسود، وسألته عما قاله للجديان، وإن كان يعرف تلك الكلمات أم لا. وعندما تأكدت أنه لا يعرف شيئًا، ولكنه سَحَرَ الحيوانات، وجعلها تأتى إليه وتتبعه، عرفت أن بالولد قدرات سحرية خاصة.

لم يكن الولد مهمًا لخالته من قبل، لكن الأمر اختلف الآن، فقد أصبحت تراه بشكل جديد، فبدأت تمدحه وتعده أنها ستخبره بتعويذات جديدة، مثل التعويذة التى تجعل الحلزون يخرج رأسه من قوقعته، أو التعويذة التى تجلب الصقر من السماء.

- "نعم، نعم، علمينى كل هذا". هكذا رد عليها الولد بعد أن تخلص من خوفه من الجديان، وامتلأ بالرضا من مديحها له.

- "ولكنك لن تخبر أصحابك بأى من هذا؟"

- "أعدك بهذا."

ابتسمت الساحرة أمام جهله الواضح: "عظيم عظيم، ولكننى سوف أتأكد من وعدك لى؛ سأربط لسانك فلا تستطيع نطق التعويذات، حتى أختار أن أفك عقدته، وحتى ذلك الوقت، وحتى عندما تتكلم، لن تستطيع أن تنطق ما سأعلمك، بينما هناك حولك من يسمعك، لا بد من التكتم على أسرار صنعتنا."

– فرد قائلًا: "حسنًا". الحق أنه لم يكن لديه أية رغبة فى مشاركة أصحابه فى أسراره، فهو يحب أن يعمل ويعرف ما لا يستطيعون.

جلس دانى ساكنًا بينما عقدت له خالته شعره المنكوش، وربطت له حزام ردائه، ثم جلست متربعةً مرة أخرى، وهى تلقي بأوراق الأشجار في حفرة النار، حتى ارتفع الدخان، وملأ الظلام الغرفة. ثم بدأت تنشد، كانت نبراتها تتغير أحيانًا لمنخفضة أو مرتفعة، كما لو كان هناك صوت آخر يغنى من خلالها، واستمر الغناء واستمر، حتى لم يعد الصبى يدرى أمستيقظ هو أم نائم. وطوال هذا الوقت يجلس كلب الساحرة الأسود العجوز، الذى لا ينبح أبدًا بجانبه، وينظر إليه بعينيه الحمراوين من تأثير الدخان. وأخيرًا تحدثت الساحرة لدانى بلسان غريب، وجعلته ينشد معها حتى أثَّرت فيه التعويذة وقيدته ساكنًا.

– فأمرته الساحرة قائلة: "تكلم".

لم يستطع الولد الكلام، ولكنه ضحك.

خافت الخالة من قوته، فقد كانت هذه أقوى تعويذة تعرفها. وحاولت بها أن تسيطر على كلامه وصمته، وأن تقيده لخدمتها فى حرفة السحر فى الوقت نفسه. ولكن رغم أن التعويذة أسكتت لسانه إلا أنه ضحك! لم تقل الساحرة شيئًا بعدها، وإنما ألقت بالماء النظيف على النار حتى انقشع كل الدخان، وأعطت بعضًا منه للصبى. وعندما صفا الهواء مرة أخرى، واستطاع سباروهوك أن يتكلم ثانيةً، علمته الاسم الحقيقى للصقر، ذلك الاسم الذى لا بد أن يطيعه الصقر(٢).

(٢) الاسم الحقيقى للأشياء أو الأشخاص في الرواية هو الجوهر، الذي يمكن من خلاله إحداث السحر أو التأثير فى أى شىء أو السيطرة الكاملة عليه وحبسه فى ماهيته.

كانت هذه الخطوة الأولى فى مشوارٍ سباروهوك المحتوم، ذلك المشوار الذى سيجد نفسه فيه يومًا يطارد ظلاً فوق الأرض وفوق الماء، حتى السواحل المظلمة من مملكة الموت، لكن فى تلك الخطوات الأولى من الطريق بدا مشرقًا وواسعًا.

عندما وجد الصبى أن الصقور تسرع له من قلب الرياح عندما يستدعيهم بالاسم، مندفعين كالبرق على معصمه يرفرفون بالأجنحة، مثل عاصفة رعدية من طيور الصيد الخاصة بأحد الأمراء، اشتاق إلى معرفة المزيد من هذه الأسماء، وحضر إلى خالته متوسلاً أن يتعلم الأسماء الحقيقية لطيور الميسان والعقاب والنسر. وحتى يحظى بكلمات القوة هذه، انصاع لكل أوامر خالته فى عمل ما تطلبه منه، وتعلم منها كل ما عندها لتعلمه رغم أن بعضا من هذا لا يسر أبدًا، لا فى معرفته ولا فى عمله.

هناك مقولة شهيرة فى جونت: "ضعيف ضعف سحر المرأة، أو حقير مثل سحر المرأة". ورغم أن ساحرة قرية الشجرات العشر لم تكن مشعوذة سحر أسود، ولا حاولت أبدًا العبث مع الفنون الرفيعة المتصلة بقوى الكون العتيقة، لكن لأنها امرأة جاهلة وسط قوم جهلة، كانت تستخدم مهاراتها لأغراض حمقاء ومريبة. لم تكن تعرف أى شىء عن التوازن والنسق اللذين يعرفهما، ويعمل لهما الساحر الحقيقى، واللذين يمنعانه من استخدام تعويذاته إلا عند الضرورة القصوى. ولهذا فقد كان لساحرتنا تعويذة لكل مناسبة، رغم أن معظم ما تعرفه مجرد هراء ودجل، ولا تستطيع أن تفرق بين التعاويذ الجيدة والزائفة. ولكن الأكيد أنها تعرف العديد من اللعنات، وتبرَع فى التسبب فى الأمراض أكثر من علاجها. ومثل أى ساحرة قرية كان بإمكانها صنع خليط الحب، وأيضًا خلطات لخدمة أغراض الغيرة والكراهية، ولكنها أخفت كل هذه الممارسات المريبة عن دانى، وحاولت أن تعلمه الحرفة النزيهة للسحر بقدر الإمكان.

فى البداية كانت كل متع الصبى فى السحر طفولية، مثل القوة التى مارسها فوق الطيور والحيوانات، ومعرفته بهذا أو ذاك. والحق أن هذه المتعة استمرت معه بقية حياته، ولهذا، ولأنه كان دائم الوجود فى المراعى العالية مع الطيور الجارحة من حوله، أطلق عليه الأطفال اسم: الميسان أو سباروهوك، وهو الاسم العُرفى الذى احتفظ به حينما كان اسمه الحقيقى لا يزال سريًّا.

وبينما ظلت خالته الساحرة تكلمه عن المجد والثروات التى يحظى بها الساحر، إلا أنه حدد لنفسه هدفًا: أن يتعلم ما هو نافع، وبسرعة بدأت الساحرة تمدحه، بينما يخافه بقية الأطفال، وهو بينهما فى تمام الثقة أنه فى القريب العاجل سيصبح رجلًا ذا شأن عظيم. لذا انطلق من كلمة لكلمة، ومن تعويذة لأخرى على يد الساحرة، حتى بلغ الثانية عشرة، وقد تعلم الكثير من القليل الذى تعرفه، والذى كان بالقطع كافيًا لساحر فى قرية صغيرة مثل قرية الشجرات العشر، وأكثر من كافٍ لطفل فى الثانية عشرة.

علمته الساحرة كل ما تعرفه عن الأعشاب والعلاج، وكل حِيَلها فى الإيجاد والربط والإصلاح وفك الربط والكشف. أنشدت له ما تعرفه من حكايات المنشدين والمآثر العظمى وكل مفردات الكلام الحقيقى التى تعلمتها يومًا من المشعوذ الذى علمها. ومن محركى الطقس والمحتالين المتجولين الذين يتنقلون من بلدة لأخرى فى الوادى الشمالى والغابة الشرقية، تعلم دانى مختلف الحيل والدعابات وتعويذات الإيهام. كانت إحدى تعويذات الإيهام هذه هى أول ما أظهر قوته السحرية للناس.

فى هذه الأيام كانت إمبراطورية كارجاد، وهى التى تشغل الأراضى الواقعة ما بين الطرف الشمالى والشرقى: كاريجو-آت وهور-آت-هور

وأتينينى، إمبراطورية قوية، يتكلم سكانها من الهمج الوحشيين لغة غريبة عن أية جزيرة أخرى، كانوا بِيض البشرة، شقرًا، يعشقون الدم والدمار. فى العام السابق هاجموا جزر الترويكلز وجزيرة تورهيفين القوية فى أساطيل قوية من سفن ذات صوارٍ حمراء، ووصلت هذه الأخبار إلى جزيرة جونت التى انشغل أهلها فى القرصنة، ونسوا مصائب الآخرين. ثم أسقط الكارجيون جزيرة سبيفى ونهبوها ودمروها واستعبدوا أهلها؛ لتظل حتى الآن جزيرة خربة.

وتلهفًا للمزيد من السلب والنهب أبحر الكارجيون فى حشود ضخمة من سفن طويلة باتجاه الميناء الشرقى لجونت. غزوا هذه المدينة وأخذوها وأحرقوها، تاركين سفنهم عند مصب نهر آر، ثم صعدوا إلى الوادى محطمين وناهبين وذابحين الماشية والناس. ثم تفرقوا إلى مجموعات، وانطلقت كل مجموعة على هواها. ورغم أن الفارين حذروا القرى والبلدان فى المرتفعات، لكن أهل القرية رأوا دخان الحرائق يتصاعد، يُظلم السماء من الشرق، ويصبغ الوادى الغائم باللون الأحمر من كثرة الحرائق التى اشتعلت فى الحقول والبساتين. هناك احترقت الفاكهة على الفروع، وغطى الدمار الإسطبلات والمزارع.

بعد ذلك هرب البعض من الوديان، واختبئوا فى الغابة، ووقف البعض مدافعًا عن حياته، وتفرغ البعض للعويل ممن هربوا، كانت الساحرة التى اختبأت فى كهف بعيد، وأغلقت فتحة الكهف بالتعاويذ. أما والد دانى الحداد فقد بقى لأنه لم يكن ليهرع بعيدًا عن مكانه الذى قد عمل به خمسين عامًا. ظل يعمل هو وآخرون طوال الليل على صك الحديد الموجود عنده؛ لتحويله

إلى حراب مدببة، وتطويع سنان الحراب فى مجارف، فلم يكن هناك متسع من الوقت لصنع رماح حقيقية. كانت القرية خالية من الأسلحة، فيما عدا أقواس الصيد والسكاكين الصغيرة؛ لأن الجونتيين لا يشتهرون بكونهم محاربين، بل هم لصوص جديان وقراصنة بحار وسحرة.

مع شروق الشمس حطّ ضباب كثيف على المرتفعات، كما يحدث فى الكثير من الصباحات الخريفية. ووقف القرويون بين أكواخهم وبيوتهم فى الشوارع المزدحمة، ينتظرون قدوم الكارجيين بأقواسهم ورماحهم الجديدة، دون أن يعرفوا إن كان الكارجيون بعيدين أم قريبين. كانوا جميعا صامتين، وهم يمعنون النظر فى الضباب الذى يخفى الأشكال والمسافات والخطر عن أعينهم.



كيبش
كوموكومى
سورت
A Scale of Miles
أنواس الشمالية
أنواس الجنوبية
الاليونولس
N
W
E
S
فيهنس
الأندرادز
أراضى الكارجاد
أورانيراد
بيرجال
جونت
كمبير
البحر
الجونتى
سبيفى
كاريجوآت
أتوان
أتيهى
تورهيفين
التوركيز
واى
أوتراد
اليلين
سانينس
فيمش
فينواى
يور
اسلى
توك
تول البعيدة

عمل دانى طوال الليل معهم، يدفع ويجذب فى ذراعى منفاخ الحداد، اللذين يغذيان النار بنفحات الهواء. تخدلت يداه من التعب، حتى إنه لم يستطع حمل الرمح الذى اختاره. حاول أن يفهم كيف يمكنه أن يكون ذا نفع لنفسه وأهله وهو بهذا الضعف. شعر بغليان فى صدره، وهو يتصور أنه سيموت طفلًا مرشوقًا بحربة أحد الكارجيين، ويذهب إلى الأرض المظلمة دون أن يعرف اسمه الحقيقى. نظر إلى ذراعيه النحيفتين المبللتين بالندى البارد، واستشاط غضبًا من ضعفه البدنى الذى يعرفه جيدًا. كان يعلم أن ثمة قوة بداخله دون أن يفهم كيف يستخدمها. فتش فى كل التعويذات التى يعرفها بحثًا عن وسيلة تعطيه هو وقومه أية ميزة أو فرصة أمام الأعداء، ولكن لا تتحرر القوى الدفينة داخلنا بالحاجة لها وحدها، وإنما تظل المعرفة هى المفتاح.

كان الضباب يذوب تحت تأثير حرارة الشمس التى تلمع فوق قمة المرتفعات فى سماء صحوة. وبينما كانت كتل الضباب تتحرك وتنجرف مثل خيوط من الدخان، رأى القرويون فرقة من المحاربين يصعدون الجبل. كانوا مدرعين بالخوذات البرونزية وواقيات الصدر من الجلد السميك، ودروع من الخشب والبرونز، مدججين بالسيوف والحربة الكارجية الطويلة الشهيرة ذات الريش. وقف الكارجيون على الضفة المنحدرة لنهر آر بحرابهم فى صف يتحرك، ويتفرق على مسافة قريبة، لدرجة أنه كان بالإمكان رؤية وجوههم البيضاء، وسماع لغتهم الغريبة، وهم يصيحون لأحدهم الآخر. كان فى هذه المجموعة ما يقرب من مائة رجل مقابل ثمانية عشر رجلًا وصبيًا فى القرية كلها.

الآن استدعت هذه الأزمة القوة الدفينة بداخل دانى، فعندما رأى الضباب يتبخر ويذوب من أمام الكارجيين بدأت تتراءى له تعويذة قد

تساعده. فقد علمه أحد محركى الطقس فى الوادى بعض التعويذات الخاصة بالجو أملًا فى أن يكسبه صبيًا له. إحدى هذه التعويذات اسمها حياكة الضباب، وهى أن تجمع الضباب كله فى مكان واحد لبعض الوقت. ومن الممكن لشخص خبير أن يشكل هذا الضباب فى صور أشباح مخيفة تستمر بعض الوقت، ثم تذوب. ورغم أن الولد لم يمتلك مثل هذه المهارة لكنه كان ينوى شيئًا آخر، واستطاع تعديل التعويذة لأهدافه الخاصة. لهذا أخذ ينطق بأسماء أماكن وحدود القرية بسرعة وبصوت عالٍ، ثم ألقى بتعويذة الضباب رابطًا بها تعويذة إخفاء، وأخيرًا نطق بالكلمة التى تُشغل كل السحر.

وبينما دانى يقوم بهذا أتى والده من الخلف، وضربه على رأسه، فطرحه أرضًا قائلًا: "اهدأ يا أحمق!، وأغلق فمك الثرثار، واختبئ إذا لم تكن تستطيع أن تحارب".

قام دانى على قدميه، كان باستطاعته أن يسمع الكارجيين الآن فى نهاية القرية مقتربين. كان صوتهم واضحًا، وكذلك صلصلة وصرير عدتهم وعتادهم، ولكنهم كانوا مختفين فى الضباب. كان الضباب قد تكاثف وانغلق على القرية معتمًا الضوء، وطامسًا على المكان حتى يصعب على المرء رؤية أصابع يده أمامه.

قال دانى متجهمًا ورأسه تؤلمه من ضربة أبيه: "لقد أخفتنا جميعًا"، وكانت التعويذة المزدوجة قد استنفدت قوته: "سأحافظ على هذا الضباب أطول فترة ممكنة، فلتستدع الآخرين ليدفعوا بالغزاة إلى الشلال العظيم."

حملق الحداد فى ابنه الذى وقف مثل الشبح فى قلب ذلك الضباب البارد الغريب. احتاج الرجل بعض الوقت ليفهم معنى كلام دانى، ولكن

أول ما أفاق انطلق على الفور ليخبر الآخرين دون أدنى صوت، فهو يعرف كل سُور وزاوية فى البلدة. الآن ومن خلال الضباب الرمادى لمعت شرارة حمراء فى الجو، حينما أشعل الكارجيون النار فى السقف القشِّى لأحد البيوت. ولكنهم لم يقتربوا من البلدة، بل انتظروا على الأطراف فى انتظار انقشاع الضباب عن غنيمتهم المنتظرة.

أرسل الدباغ الذى احترق بيته صبيين من البلدة ليقفزا تحت أنوف الكارجيين يصرخان، ثم يختفيان فى الضباب مثل دخان وسط دخان. فى الوقت نفسه اجتمع الرجال الأكبر سنًّا، وأخذوا يزحفون تحت الأسوار، وينتقلون من بيت إلى بيت وصولا إلى الجانب الآخر، ممطرين الكارجيين الذين احتشدوا فى مكان واحد بوابل من السهام والرماح. سقط أحدهم يتلوَّى من حربة اخترقت جسده، والباقون أصابتهم السهام، وانتابهم جميعًا الهياج. انطلقوا ليشقوا لهم طريقًا وسط المحاربين الضعفاء، ولكنهم لم يجدوا سوى الضباب يلفهم من كل جانب، ضباب تملؤه الأصوات. تبعوا الأصوات وهم يدفعون بحرابهم العظيمة ذات الريش مختلطة بالدماء فى الضباب. كان الكارجيون الآن يصرخون بعرض الشارع دون أن يعرفوا أنهم قد دخلوا القرية بالفعل، فالبيوت والأكواخ الفارغة كانت تظهر وتختفى فى ثنيات الضباب الرمادى. سبق القرويون الكارجيين بحكم أنهم يعرفون الأرض جيدًا، ولكن بعض من الصبية والعجائز تأخروا وأبطأوا. ثم تعثر بهم الكارجيون، وظلوا يدفعون بحرابهم وبسيوفهم، وهم يطلقون صيحات الحرب وأسماء الإله الأبيض - إخوة آتوان:

"ولوها! آتواه".

توقف بعض الغزاة عندما شعروا أن الأرض صلبة من تحتهم، بينما استمر البعض الآخر وهم يتبعون ما يرونه من القرية الوهمية، والأشكال

الضبابية المتراقصة تهرب من أمامهم، وكأن الضباب قد أصبح حيًّا مع هذه الأشكال المراوغة المضطربة والمتلاشية من كل جانب. طارد مجموعة من الكارجيين أشباح الضباب الهاربة هذه، حتى وصلوا إلى الشلال العظيم عند حافة الجرف الصخرى على نهر "آر"، وهناك تلاشت الأشباح، وذابت فى الهواء، بينما تهاوى من طاردوها من على ارتفاع مائة قدم على البحيرات الضحلة بين الصخور، وهم يصرخون، وهؤلاء الذين لم يسقطوا تسمَّروا واقفين على حافة الجرف، وهم ينصتون السمع فى هذه العتمة. ملأ الرعب قلوب الكارجيين، وبدءوا يبحثون عن بعضهم البعض فى ذلك الضباب الغريب. تجمعوا عند الجبل، بينما كانت الأشباح الضبابية لا تزال ترقص بينهم وحولهم، وأخرى تطعنهم من الخلف بحربة أو سكين، ثم تختفى مرة أخرى.

بدأ الكارجيون فى الجرى عبر المنحدر، وهم يتخبطون صامتين حتى خرجوا من الضباب الرمادى التام، ورأوا النهر والوديان تحت القرية كلها واضحة ولامعة فى ضوء النهار. ثم توقفوا ونظروا للخلف، ليجدوا جدارًا كاملًا من الضباب الرمادى المرتعش عبر الطريق يُخبِّئ كل ما خلفه. ومنه خرج بعض من فلولهم، يندفعون ويتخبطون، وحرابهم الطويلة تتراقص على أكتافهم. لم يجرؤ أى منهم على النظر إلى الوراء من بعدها، بل اندفعوا جميعًا للأسفل خارجين من ذلك المكان المسحور.

على كل الوادى الشمالى أشبع سكان القرى الباقى من هؤلاء الغزاة قتالًا. فقد حشدت المدن على طول الغابة الشرقية رجالها من أوفارك إلى الساحل، وأرسلوهم ضد غزاة جونت، حتى أجبروهم على التقهقر إلى الخلف حتى السواحل؛ حيث وجدوا سفنهم تحترق، واضطروا للحرب وظهورهم للبحر، حتى تم القضاء على آخر رجل منهم، وظلت رمال أرموث بُنِّية من كثرة الدماء حتى حلول المد.

لكن فى ذلك الصباح فى قرية الشجرات العشر، وبأعلى الشلال العظيم ظل الضباب الرمادى الرطب عالقًا لبعض الوقت، ثم اختفى فجأة حين حركته الرياح، وذاب بعيدًا. فى الصباح المشمس العاصف وجد الناس أحد الكارجيين يرقد بشعره الأشقر المنساب، تغطيه الدماء، وهناك يرقد دباغ القرية مقتولاً فى معركته مثل الملك.

كان البيت المحترق لا يزال مشتعلًا، فأسرعوا جميعًا لإطفائه بعد ما انتصروا فى المعركة. لكن فى الشارع، بالقرب من شجر الصنوبر، وقف دانى ابن الحداد وحده سليمًا من أى جرح، وإن كان عاجزًا عن الكلام تائهًا ومذهولاً. كانوا على دراية تامة بما فعله، فقادوه لمنزل أبيه، وأسرعوا لاستدعاء الساحرة لتحضر من كهفها، وتعالج الفتى الذى أنقذ حياتهم وممتلكاتهم. لم يُقتل غير أربعة من القرية، ولم يحترق سوى بيت الدباغ.

لم يكن الصبى مصابًا بأى جرح، ولكنه لا يتكلم ولا ينام ولا يبدو أنه يشعر بهؤلاء الذين يحضرون لرؤيته. لم يكن فى كل تلك النواحى شخص على دراية كافية بالسحر لعلاجه مما أصابه. علقت خالته على الأمر قائلة: "لقد استنفد كل قوته". ولكن لم يكن عندها ما تساعده به.

وبينما رقد الصبى الأسمر مذهولاً كانت حكايته مع الضباب والأشباح تُروى فى كل مكان، كان الناس يتعجبون كيف لهذا الفتى أن ينسج ضبابًا، ويجعل فيه أشباحًا ترعب المحاربين الكارجيين، وتلقى بهم بعيدًا عبر الوادى الشمالى والغابة الشرقية، وحتى ميناء جونت العظيم. لهذا ففى اليوم الخامس بعد مذبحة آرموث، حضر أحد الغرباء إلى القرية رجلٌ ليس بالعجوز ولا بالشاب، يرتدى عباءة طويلة دون غطاء رأس، ويمسك بعصا من البلوط فى مثل طوله تمامًا. لم يأت الرجل من الطريق المعتاد عبر نهر

آر، وإنما خرج من الغابات على الجبل الأعلى. عرف النساء في القرية على الفور أنه ساحر، وعندما أخبرهن بأنه يشفى جميع الأمراض أحضرنه إلى بيت الحداد على الفور.

عندما حضر الرجل إلى دانى صرف كل من حوله إلا والده وخالته، ثم انحنى فوق فرشته حيث يرقد محدقًا فى الظلام، ووضع يده على جبهة الولد، ولمس شفتيه مرة واحدة.

جلس دانى ببطء وهو ينظر حوله، وفي خلال فترةٍ بسيطة تكلم، ثم بدأت القوة والجوع يعودانِ إليه تدريجيًا. أعطوه قليلا من الطعام والماء ليأكل ويشرب، ثم رقد ثانية، وهو دائم النظر فى وجه الرجل الغريب بعيون سوداء متسائلة.

– قال الحداد للرجل: "لست برجل عادى!"

– "ولا هذا الصبى سيكون رجلًا عاديًا" أجاب الرجل. "حكايته مع الضباب وصلتنى فى مسقط رأسى، رى ألبى. جئت كى أعطيه اسمه إذا لم يكن قد وصل إلى مرحلة الرجولة كما يُقال عنه."

– همست الساحرة فى أذن الحداد: "يا أخى، لا بد أن هذا هو الساحر الكبير فى رى ألبى: أوجيون الصامت، الرجل الذى هدأ البركان."

– "سيدى" قالها الحداد، ولم يكن بالرجل الذى يخاف اسمًا عظيمًا، "ولدى سيبلغ الثالثة عشرة هذا الشهر، ولكننا فكرنا أن نؤجل طقوس رجولته حتى عِيد عودة الشمس هذا الشتاء."

– "دعه يتخذ اسمه الحقيقى فى أسرع وقت ممكن" قال الساحر، "لأنه يحتاجه. لدى عمل آخر الآن، ولكننى سأعود فى اليوم الذى تختاره من أجل الصبى. أود أن آخذه معى حين أحضر. سأتخذ منه صبيًا، أو أرتب له أن يتعلم في مدرسة حسَب مواهبه. إن حبس عقل ساحر موهوب بالفطرة خطر عظيم."

كان أوجيون يتكلم بلطف شديد وبثقة بالغة لدرجة أنه حتى الحداد ذى الرأى الصلد وافق فى النهاية.

وفى اليوم الذى أتم فيه الولد عامه الثالث عشر، وكان يومًا من أيام الخريف الأولى الجميلة ولا تزال الأوراق النضرة على الأشجار، عاد أوجيون إلى القرية من مرتحله فى جبل جونت، وبدأت طقوس رجولة دانى. أخذت الساحرة اسم دانى منه ذلك الاسم الذى أعطته له أمه عندما وُلد. ومشى فى ينابيع نهر آر الذى يرتفع بين الصخور تحت المنحدرات العالية. وبينما هو يدخل الماء عبرت بعض السحب على وجه الشمس، وانخفضت الظلال وتداخلت مع ماء البركة من حوله. عبر للناحية الأخرى وهو يرتجف من البرد، ولكنه ظل يمشى ببطء واستقامة كما ينبغى أن يفعل داخل هذا الماء المثلج الحي. وبينما يقترب من الضفة الأخرى مد أوجيون الذي وقف منتظرًا يده، وأمسك بيد الصبى، وهمس فى أذنه باسمه الحقيقى: "جِيد".

لقد تلقى الصبى جِيد اسمه الحقيقى من رجل حكيم فى استخدام القوة.

كان الاحتفال لا يزال مستمرًّا، وكل القرويين مبتهجون، وحولهم الكثير من الطعام والشراب، والمنشد فى الوادى يغنى لهم سيرةِ فرسان التنانين، وقتها تحدث الساحر بصوت هادئ إلى جيد قائلا: "تعالَ يا بنى، ودَعْ أهلك واتركهم فى احتفالهم."

أحضر جِيد ما عليه إحضاره، سكينًا جيدًا من البرونز صنعها له والده، ومعطفًا من الجلد صنعته له زوجة الدباغ، وعصا خشبية نحتتها له خالته، وقميصًا وبنطالًا كان كل ما يمتلكه. ودَّعَ دانى كل الناس الذى عرفهم يومًا فى هذا العالم، ونظر مرة أخيرة إلى القرية التى بدت متفرقة ومجتمعة هناك تحت المنحدرات وفوق ينابيع الماء. وانطلق مع ولى أمره الجديد عبر الغابات المنحدرة لجزيرة الجبل، ومن خلال أوراق الأشجار وظلال الخريف المشمس.



(٢) الـظل

ل جيد مع أوجيون الساحر الكبير تخيل أنه سيدخله على
السحر الغامض القوى. ظن أنه سيفهم فى لحظتها لغة
م أوراق الشجر فى الغابة، ويحرك الرياح بكلمته، ويتعلم
ـه أى شكل يرغب به. بل ربما يجرى هو ومعلمه كظبيين، أو
شى يطيران إلى رى ألبى فوق الجبل على أجنحة الصقور.

كان عكس هذا تمامًا، فى البداية نزلا مشيًا إلى الوادى،
مين تدريجيًا إلى الجنوب حول الجبل تستضيفهما القرى
لطريق، أو يقضيان الليالى فى العراء مثل مشعونين، أو
و عمالًا، أو شحاذين. خلا الأمر من أى سحر حتى عصا

أوجيون البلوطية، تلك التى كان جيد يخشاها، لم تكن سوى عصا متينة يتكئ عليها. ثلاثة أيام مرت، أربعة أيام مرت وأوجيون لم يتفوه بأى كلمة سحرية فى أذن جيد، ولم يعلمه اسمًا واحدًا ولا حرفًا من "اللغة الرونية"، ولا حتى تعويذة واحدة.

وعلى الرغم من أن أوجيون كان رجلًا صموتًا، لكنه كان لطيفًا وهادئًا، لدرجة أن جِيد لم يعد يرهبه، وفى فترة وجيزة تجرأ وسأله: "متى يبدأ تدريبى فى السحر، سيدى؟"

- "لقد بدأ بالفعل". أجاب أوجيون.

ساد صمتٌ كبير بينهما، وكأن جيد يُخفى شيئًا ما داخله لا يقوله، ثم قاله أخيرًا: "ولكننى لم أتعلم أى شىء!"

- "لأنك لم تكتشف ما أعلمه بعد". أجاب الساحر، وهو يمشى مشيته الثابتة الواسعة فى طريقهما العالى ما بين أوفارك ووِس.

كان أوجيون رجلًا أسمر اللون مثل معظم الجونتيين فى سمرة النحاس البنى، فضى الشعر أعجف وصلب العود مثل كلاب الصيد، لا يكلّ ولا يمَلّ، ونادرًا ما يتكلم، قليل الأكل والنوم. ثاقب العين والأذن، وفوق كل هذا كانت هناك تلك النظرة الصاغية على وجهه دائمًا.

لم يردّ جيد، ليس من السهل أبدًا أن ترد على ساحر.

- "هل تريد أن تلقى تعويذات إذن؟ أردف أوجيون وهو يحث السير، "لقد شربت من بئر التعويذات أكثر مما ينبغى، صبرًا يا بنى، الرجولة صبر، والمهارة تحتاج إلى تسعة أضعاف هذا الصبر. ما هذا العشب فى الممر؟"

– "زهرة القش."

– "وهذا؟"

– "لا أعلم."

– يسمونه فورفويل (زهرة الأوراق الأربع). أشار أوجيون بقاعدة عصاه النحاسية إلى العشبة الصغيرة، لذا نظر جيد بإمعان اليها، واقتلع جراب الحبوب الخاص بها، وبما أن أوجيون لم ينطق بشىء آخر سأله جيد: "ما استخدام هذا النبات يا مُعلم؟"

– "لا أعرف."

احتفظ جيد بجراب الحبوب بعض الشىء فى يده، وهما يمشيان، ثم ألقى به بعيدًا.

"حين تتعرف على نبات الفورفويل فى كل مواسمه، وتميزه بالجذر والورقة والزهرة، بالنظر وبالرائحة يمكنك وقتها أن تعرف اسمه الحقيقى، فقد عرفت جوهره، وهذا أفضل من معرفة فائدته. فماذا إذن عن فائدتك أنت؟ أو فائدتى أنا؟ هل جبل جونت مفيد؟ ما فائدة البحر المفتوح؟ ظل أوجيون يمشى حوالى نصف ميل هكذا، ثم أخيرًا قال: "على المرء أن يصمت ليسمع."

عبَس الولد ،فهو يكره أن يبدو غبيًا، لكنه كتم استياءه ولهفته بداخله، وحاول أن يكون مطيعًا حتى يوافق أوجيون فى النهاية أن يعلمه شيئًا من السحر؛ لأنه يشتهى التعلم واكتساب القوة. ولكن مع مرور الوقت ملأه الملل، وشعر أن بإمكانه أن يتعلم أكثر لو مشى مع أى جامع للأعشاب، أو مشعوذ فى قرية. وبينما يمشيان حول الجبل باتجاه الجنوب داخل الغابات

البعيدة بعد وِس أخذ يتساءل عن سر عظمة ذلك الساحر الكبير أوجيون. كيف يكون أوجيون ساحرًا كبيرًا وهو إذا ما أمطرت الدنيا لا يلقى بتعويذة لترسل بالعاصفة بعيدًا، تلك التعويذة التى يعرفها أى محرك للطقس؟ ففى أرض تمتلئ بالمشعوذين مثل جونت أو إنلاندز فمن الطبيعى أن ترى سحابة ممطرة تنتقل ببطء من جانب إلى آخر، ومكان إلى مكان تبعدها التعويذات من هنا وهناك، حتى تلقى بحمولتها بعيدًا فوق البحر لتمطر فى سلام. لكن أوجيون الساحر كان يترك المطر ليتساقط فى أى مكان. ولهذا حين أمطرت بحث أوجيون عن شجرة ونام تحتها، أما جيد فقد تكوَّم تحت الشجرة نفسها، والماء يتقاطر منها وهو مبلل ومتضايق، حيرته تلك القوة التى تجعلك حكيمًا فلا تستخدمها، وتمنى وقتها لو عمل صبيًّا لمحرك الطقس فى فال، فعلى الأقل كان سينام جافًّا. ولكنه لم يتفوَّه بأى من أفكاره هذه، لم ينطق بكلمة واحدة، بينما ابتسم أستاذه، ونام فى قلب المطر.

وفى طريقهما إلى سانريتورن بدأت الثلوج الثقيلة الأولى فى التساقط على المرتفعات فى جونت، وصل أوجيون وجيد إلى رى ألبى مسقط رأس أوجيون. بلدة على حافة الصخور العالية لأوفرفيل، واسمها معناه (عش النسر)، ومنها يستطيع المرء أن يرى ميناء جونت العميق، وأبراجه والسفن الداخلة والخارجة من البوابة. وإلى الغرب عبر البحر يستطيع المرء أن يتبين الأبراج الزرقاء لأورانيا، فى أقصى الشرق من إنوارد أيلاندز.

وعلى الرغم من أن بيت أوجيون الساحر كان واسعًا، ومبنيًا بعناية من الخشب، وبه مدفأة ومدخنة، وليس مجرد حفرة نار، وإنه كان بسيطًا مثل أكواخ قرية الشجرات العشر، غرفة واحدة، وبها حظيرة للجديان فى أحد الجوانب. كان هناك تجويف فى الحائط لينام فيه جيد، وفوقه نافذة تطل على البحر، ولكن مصاريعها لا بد أن تظل مغلقة طوال الشتاء؛ بسبب الرياح

القوية التى تهب من الغرب والشمال. قضى جيد هذا الشتاء فى الدفء المظلم لهذا البيت، وهو يستمع إلى هطول المطر أو اندفاع الرياح، أو إلى صوت هطول الثلج، ويتعلم أن يقرأ ويكتب بالستمائة حرف رونى من اللغة الهاردية. كان سعيدًا أنه بهذا يتعلم سر المهنة، فبدون هذه اللغة الهاردية لن يفيد تعلم أية تعاويذ أو أسحار، ولن يكون له أية قوة أو سلطان. ورغم أن اللغة الهاردية للأرخبيل لم يكن لها أى قوة سحرية خاصة فوق بقية لغات البشر، فإن جذورها كانت تمتد إلى اللغة القديمة، لغة الأسماء الحقيقية، ولتفهم هذه اللغة لا بد أن تبدأ بالحروف الرونية التى كُتبت حين ارتفعت جزر العالم لأول مرة فوق البحر، عند خلق إيرثسى.

ومع هذا لم يحدث أى شىء، لا أعاجيب ولا أسحار. لم يكن هناك طوال الشتاء سوى صوت تقليب الصفحات الثقيلة لكتاب الرونية، والمطر وهطول الثلج، وأوجويون يأتى بعد تجواله فى الغابات الثلجية، أو بعد رعاية جديانه، يضرب بقدميه الأرض لينفض الثلج، ويجلس فى هدوء قبالة النار. وتمتلئ الغرفة وعقل جيد معًا بصمت الساحر الطويل المنصت، حتى إن جيد قد نسى صوت الكلمات، وإذا ما تحدث أوجيون أخيرًا فكأنه قد اخترع الحديث توًا. فما يقوله حينها لا يكون بالأمر المهم، فقط يتحدث عن أشياء بسيطة مثل : الخبز والماء والطقس والنوم.

وعندما أتى الربيع سريعًا ومشرقًا، كان أوجيون يرسل جيد إلى المروج فوق رى ألبى، ويخبره أن يمكث كما يحب لجمع الأعشاب، وأن يأخذ حريته التامة فى قضاء اليوم متجولا عند جداول المياه، وفى الغابات، وفوق الحقول الخضراء الندية المشمسة.

كان جيد يسعد بالذهاب كل مرة، ويقضى الوقت هناك حتى الليل، ولكنه لا ينسى الأعشاب أبدًا. كانت عينه عليها دائمًا، وهو يصعد ويتجول ويخوض ويكتشف، ودائمًا ما يحضر بعضها معه وهو عائد.

في يوم جاء إلى مرج بين غديرين؛ حيث تنمو زهرة الهالو البيضاء بكثافة، ولأن هذه الزهور نادرة وذات قيمة كبيرة عند المعالجين، فقد جاء خصيصًا لها في اليوم التالي. لكن كان هناك من سبقه إلى المكان، ابنة لورد رى ألبى العجوز، عرفها على الفور، رغم أنه لم يكن ليتحدث إليها من تلقاء نفسه، ولكنها اقتربت وألقت عليه التحية بلطف: "أعرف من أنت، أنت سباروهوك، الطالب النجيب لأوجيون الساحر، حدثني عن السحر من فضلك."

أخذ جيد يتطلع إلى الزهور البيضاء التي أخذت تداعب أطراف تنورتها البيضاء. في البداية شعر بالحرج من أن يحادثها، وبالكاد كان يفتح فمه ليجيب عن أسئلتها. ولكن مع استمرارها في الحديث بالطريقة نفسها المنطلقة غير المبالية والواثقة، تحرر من الخجل شيئًا فشيئًا. كانت فتاة طويلة تقريبًا من سنه نفسه، شاحبة اللون، بيضاء البشرة. يقولون في القرية إن أمها من أرض غريبة. شعرها الطويل متهدل مثل شلال من المياه السوداء، ورغم أن جيد وجدها قبيحة جدًا لكنه رأى بنفسه رغبة قوية في إرضائها، وكسب إعجابها. رغبة كانت تنمو كلما مشى معها. جعلته الفتاة يخبرها عن كل حكايته مع حيل الضباب التي هزمت المحاربين الكارجيين، مظهرةً له الدهشة والإعجاب دون مديح. وبسرعة غيرت دفة الحديث إلى سؤال آخر:

"هل تستطيع أن تستدعي الطيور والوحوش؟"

- فرد قائلًا: "أستطيع."

كان يعلم بوجود عش للصقور في المنحدرات فوق المرج، استدعى الصقر باسمه فجاء، لكنه بالطبع لم يحط على رسغه بسبب وجود الفتاة. صرخ وضرب الهواء بجناحيه الواسعين المخططين، ثم اعتلى الهواء مرة أخرى.

– "ماذا تسمى هذا النوع من السحر، ذلك الذى جعل الصقر يأتى؟"

– "تعويذة إحضار."

– "هل تستدعى أرواح الموتى أيضًا؟"

ظن أنها تسخر منه بهذا السؤال؛ لأن الصقر لم يطع أوامره تمامًا أمامها. ولكنه لم يكن ليدعها تسخر منه، فقال لها بصوت هادئ: "أستطيع إذا أردت هذا."

– "أليس من بالغ الصعوبة والخطورة أن تستدعى روحًا؟"

– "صعب، نعم. لكن خطير!" قال وهو يهز كتفيه. من عينيها أدرك أنها بدأت تُعجب به الآن.

– "هل تستطيع أن تلقى تعويذة حب؟"

– "وهل هذه مهارة؟"

– "صحيح! أى ساحرة يمكنها أن تفعل هذا. حسنًا، هل تستطيع إذن أن تلقى تعويذات تحوُّل؟ هل تغير شكلك كما يقال إن السحرة يفعلون؟"

شك جِيد فى أنها تسأله تهكمًا، وللمرة الثانية أجاب "أستطيع إذا أردت".

فبدأت تلح عليه أن يحوِّل نفسه إلى أى شكل يريده: نسر، ثور، شجرة. أبعدها عنه ببعض كلمات سرية من التى يستخدمها أستاذه، ولكنه لم يستطع التملص منها نهائيًّا عندما ألحت عليه. الحق أنه لم يعرف إن كان قادرًا على فعل ما يزعم. تركها زاعمًا أن أستاذه ينتظره فى البيت، ولم يأت إلى المرج فى اليوم التالى. ولكن فى اليوم الذى تلاه جاء إلى المرج ثانية،

وهو يقنع نفسه أن عليه إحضار المزيد من الزهور بينما هى يانعة. فى المرج وجدها هناك، ومعًا خاضا فى النجيل وهما يقطفان زهور الهالو البيضاء الثقيلة. كانت شمس الربيع ساطعة، والبنت تكلمه بمرح مثل أى فتاة ترعى الجديان فى قريته. سألته مرة أخرى عن السحر، وأنصتت له مفتوحة العينين مندهشة بكل ما قاله لها، فوجد نفسه مدفوعًا للتفاخر أمامها مرة أخرى. ثم سألته إن كان يستطيع أن يلقى تعويذة تحول، وعندما صدها نظرت إليه وهى ترجع شعرها الأسود إلى الوراء: "هل أنت خائف؟"

– "لا، لستُ خائفًا."

ابتسمت بتهكم وقالت: "ربما أنت أصغر من هذا."

لم يكن ليتحمل هذا، لم يتكلم كثيرًا، ولكنه قرر أن يثبت نفسه أمامها، طلب منها أن تأتى إلى المرج مرة أخرى فى اليوم التالى إذا أرادت، وتركها عائدًا للبيت، بينما كان أوجيون بالخارج. ذهب إلى رف الكتب مباشرةً، وأخرج الكتابين التقليديين للسحر اللذين لم يفتحمها أوجيون أبدًا فى وجوده.

بحث فى الكتاب عن تعويذة للتحول، لكن لأنه كان بطيئًا فى قراءة الرونية، ولم يفهم سوى أقل القليل، لم يجد ما يبحث عنه. كانت الكتب قديمة جدًا، ورثها أوجيون عن معلمه هيليث فريزر، وورثهما هيليث من معلمه ساحر بريجال، وهكذا وصولًا إلى زمن الأساطير. كانت الحروف صغيرة وغريبة، ويوجد الكثير مما هو مكتوب فوق السطور، وما بين السطور بأياد كثيرة أصبحت ترابًا الآن. لكنه فهم شيئًا من هنا، وشيئًا من هناك، وبينما كانت أسئلة الفتاة واستهزاؤها به تطنُّ فى أذنه، توقف أمام صفحة تعويذة تحضير لأرواح الموتى.

وبينما هو يقرأ ويفك بصعوبة بالغة طلاسم اللغة الرونية ورموزها واحدًا تلو الآخر، تسمرت عيناه ولم يرفعهما إلا بعد أن قرأ كل التعويذة. رفع عينيه من على التعويذة أخيرًا ليجد المنزل مظلمًا. العجيب أنه كان يقرأ دون أى ضوء فى الظلام. لكن عندما نظر ثانية للكتاب لم يستطع أن يتبين الحروف مرة أخرى. ملأه الرعب، وبدا كما لو كان قد قُيد فى كرسيه. شعر ببرد شديد، ونظر خلفه ليرى شيئًا ما يزحف بجانب الباب المغلق، رأى كتلة غير محددة أكثر ظلامًا من الظلام ذاته. كانت تزحف تجاهه، وتهمس له، لكنه لم يفهم الكلمات.

وهنا انفتح الباب بعنف، ودخل رجل محاط بهالة بيضاء، كانت له قامة كبيرة مضيئة، وحين علا صوته فجأة، تبدد الظلام وسكت الهمس فور ظهوره.

ذهب الرعب أخيرًا عن جيد، ولكن اعتراه خوف آخر؛ لأن من يقف هناك عند عتبة الباب كان الساحر أوجيون بنفسه، وكل ما حوله يلمع حتى العصا فى يده تشتعل بضوء أبيض براق.

ودون أن ينطق بكلمة تجاوز الساحر جيد، وأشعل المصباح من خلفه، وطوى الكتب بعيدًا على الرف. ثم استدار للولد وقال: "لن تتمكن من إلقاء هذه التعويذة سوى فى عنفوان شبابك وقوتك، هل فتحت الكتب من أجل هذه التعويذة؟"

- "لا يا أستاذ." تمتم الولد، ثم حكى لأوجيون ما حدث، وما الذى كان يسعى له، ولماذا.

- "ألا تتذكر ما قلتُه لك عن أم هذه البنت، زوجة اللورد، وأنها ساحرة؟"

بالفعل قال أوجيون هذا، لكن جيد لم يُعره أي انتباه، إلا أنه عرف الآن أن أوجيون لا يقول شيئًا إلا وهو يعنيه تمامًا.

"البنت نفسها هي نصف ساحرة بالفعل، ربما تكون الأم هي من أرسلتها لك، وقد تكون هي من فتحت لك هذه الصفحة بالتحديد لتقرأها. إن القوى التي تخدمها هذه الساحرة ليست هي القوى نفسها التي أخدمها. لا أعرف ما نِيتها، ولكني أعلم أنها لا تنوي خيرًا. اسمعني الآن يا جِيد، هل فكرت يومًا فِي المخاطر التي تحيط بأي قوة مثلما يحيط الظل بالنور؟ ليس السحر لعبة نلعبها للمتعة أو المديح. فكر في هذا: كل كلمة وكل تصرف في السحر هو إما للخير أو للشر. قبل أن تتكلم أو تفعل شيئًا عليك أن تعرف ما الثمن الذي ستدفعه!"

رد جيد، والخجل والخزي يكويان قلبه: "كيف سأعرف هذه الأشياء، وأنت لا تعلمني أي شيء؟ منذ عشت معك، وأنا لم أرَ أو أفعل شيئًا."

– " الآن قد رأيت شيئًا... عند الباب، في الظلام، عندما دخلت".

سكت جيد.

انحنى أوجيون، وأوقد نارًا علي المدفأة، فقد كان البيت باردًا. ثم قال وهو لا يزال محنيًا بصوته الهادئ: "جيد، يا صقري الصغير، لست ملزمًا بخدمتي أو البقاء معي. لم تأت أنت لي، بل أتيتُ أنا لك. لا تزال أصغر من أن تختار، ولن أختار لك. لو أردت سأرسلك إلى جزيرة روك لتتعلم كل الفنون العليا للسحر. هناك ستعرف كل ما ترغب في تعلمه؛ لأن قوتك عظيمة، أعظم حتى من غرورك كما أرجو. أستطيع أن أبقيك معي، فما لدي هو بالضبط ما ينقصك، ولكنني لن أبقيك رغمًا عنك. الآن اختر ما بيني وما بين مدرسة السحر، ما بين ري ألبي وروك.

وَجم جيد وشعر بالخوف، وجد فى قلبه أنه بدأ يحب هذا الرجل أوجيون الذى شفاه يومًا بلمسة واحدة، ذلك الرجل الذى يخلو من الغضب. يبدو أنه قد أحبه دون أن يدرك هذا قبل الآن. نظر على العصا البلوطية المسنودة على زاوية المدخنة، وهو يتذكر بريقها الذى طرد الشر من الظلام حوله. فى هذه اللحظة تمنى أن يبقى مع أوجيون، وأن يتجول معه طويلًا وبعيدًا، وأن يتعلم كيف يصمت. ومع هذا فبداخله كانت رغبات أخرى لا تنطفئ، رغبة فى المجد ورغبة فى الفعل. أدرك جيد أن اتباع طريق أوجويون نحو التمكن والبراعة فى السحر هو مثل السير فى طريق بطىء وطويل، بينما من الأسهل أن يبحر مع رياح البحار مباشرة إلى البحر المخفى، إلى جزيرةٍ الحكمة التى يلمع هواؤها بالأسحار، ويمشى الساحر الأكبر فيها محاطًا بالمعجزات.

"أستاذى، سأذهب إلى روك."

بعد عدة أيام، وفى يوم مشمس من أيام الربيع، مشى أوجيون بجانب جيد على الطريق المنحدر فى أوفرفيل على مسافة خمسة عشر ميلًا من ميناء جونت العظيم. هناك عند البوابة بين تماثيل التنانين المنحوتة انحنى حراس مدينة جونت كلهم، وسيوفهم خارج أغمادها احترامًا عند رؤية الساحر الكبير بأمر من الأمير، ومن تلقاء أنفسهم؛ لأن أوجيون قد أنقذ جونت منذ عشر سنوات من الزلزال الذى كاد أن يسوى أبراج الأغنياء بالأرض، ويغلق قناة المياه بالانهيارات الجليدية. ما فعله أوجيون وقتها هو أنه تحدث إلى جبل جونت وهدأه، وروَّض جَرف الأوفرفيل المرتعش مثلما يروض الوحش. كان جيد قد سمع هذا الكلام من قبل، ولكنه تذكره الآن ثانيةً، وهو يرى الحرَّاس ينحنون لمعلمه الهادئ. نظر برهبة على ذلك الرجل الذى أوقف الزلزال، ولكن وجه أوجيون ظل هادئًا كالعادة.

انطلقا إلى رصيف الميناء، وهناك جاء ضابط الميناء مسرعًا ليرحب بأوجيون، ويسأله كيف يخدمه. وعندما أبلغه الساحر بما يريد أخبره الضابط باسم السفينة المبحرة إلى البحر المخفى، والتى يستطيع جيد أن يركبها إما بوصفه راكبًا عاديًا، أو كما قال الضابط: "بوصفه مُحركًا للرياح لو يمتلك تلك المهارة، فليس لدى المركب مُحرِّك للطقس".

ردَّ أوجيون وهو يربت على جيد بخفة: "هو ماهر بعض الشىء مع الضباب، ولكنه لا يفهم شيئًا فى رياح البحر." ثم وجه كلامه لجيد: "لا تحاول أيًا من الألاعيب مع رياح البحر يا سباروهوك، ما زلت كائنًا بريًا. يا ضابط الميناء، ما اسم السفينة؟"

– "الشبح، ستذهب إلى ميناء هورت محملة بالفراء والعاج، سفينة ممتازة يا سيد أوجيون".

تغير وجه الساحر عند سماع اسم السفينة، ولكنه قال: "حسنًا سباروهوك. أعطِ هذا الخطاب إلى عميد مدرسة روك، وانطلق يصاحبك الجو الجميل، معَ السلامة."

كان هذا هو كل وداعهما، ثم استدار الساحر مبتعدًا، وهرول بعيدًا عن الرصيف. وقف جيد قليلًا وهو ينظر على أستاذه، وأفاق على صوت ضابط الميناء: "تعال يا فتى!" وأخذه إلى الرصيف؛ حيث كانت السفينة جاهزة للرحيل.

من العجيب أنه على جزيرة مساحتها خمسون ميلًا، فى قرية تحت المنحدرات الصخرية العالية، قرية تحدق فى البحر منذ قديم الأزل وحتى نهاية الكون، قد ينشأ طفل ويكبر دون أن يضع إصبعه فى الماء المالح، أو

يخطو بقدمه فى قارب، ولكن هذا ما يحدث فى جونت. سواء أكان الشخص مزارعًا، أم راعيًا للغنم، أم مربيًا للماشية، أم صيادًا، أم حرفيًّا، جميعهم كانوا ينظرون على البحر على أنه عالم مالح، وغير مستقر لا علاقة لهم به، بل إنَّ قرية على بعد يومين من المشى كانت بالنسبة لهم عالمًا آخر، بينما إذا بعدت جزيرة ما عنهم مسافة إبحار يوم واحد تصبح هذه الجزيرة مجرد إشاعات، أوهام مثل جبال فى الضباب يراها المرء فى الماء، وليست أرضًا صلبة مثل التى يقف المرء عليها.

لهذا، كان ميناء جونت مكانًا مخيفًا وساحرًا للفتى جيد الذى لم ينزل يومًا من المرتفعات والجبال، مكان ملىء بالبيوت والأبراج الكبيرة المبنية من الصخر المقطع، وصفحة المياه تجاورها أرصفة مدعومة، وأحواض للسفن والمراسى؛ حيث يوجد ما يقرب من خمسين قاربًا شراعيًّا ترسو على جانب الرصيف، أو ترقد مقلوبة للصيانة، أو تقف فى المرفأ الطبيعى، وأشرعتها ملفوفة ومجاديفها مغلقة. فى الميناء البحارة يصيحون بلكنات مختلفة، والحمَّالون يجرون وهم يحملون البراميل والصناديق، ولفات الحبال وحزم المجاديف، والتجار الملتحون فى أرديتهم ذات الفراء، وهم يتحدثون بهدوء، بينما يحاولون المشى على الصخور اللزجة فوق الماء، والصيادون يفرغون صيدهم، وصنَّاع البراميل يصنعون براميلهم وصنَّاع السفن يدقون فى سفنهم، وبائعو سمك البطلينوس ينادون على بضاعتهم، ورؤساء المراكب يصيحون، ومن وراء كل هؤلاء تجد الخليج الصامت اللامع. وقف جيد مبهورًا قلبًا وأذنًا وعينًا، وهو يتبع ضابط الميناء إلى الرصيف الواسع؛ حيث كانت سفينة "الشبح" لا تزال مربوطة. هناك سلَّمه ضابط الميناء لرئيس السفينة.

وافق رئيس المركب على اصطحاب جيد باعتباره راكبا إلى جزيرة روك، بعدما أقنعه ضابط الميناء إكرامًا للساحر الكبير، ثم تركه لرئيس المركب. كان رئيس المركب رجلًا ضخمًا سمينًا، بعباءته الحمراء والمزينة بالفراء البيلاوى[٣]. ودون أن ينظر إلى جيد سأله بصوت عميق: "هل تحرك الطقس يا بنى؟"

- "نعم."

- "هل تجلب الريح؟"

اضطر جيد أن يقول إنه لا يستطيع، فأمره الرئيس أن يجد له مكانًا بعيدًا عن الطريق ويمكث فيه.

بدأ المجدفون فى الصعود للسطح الآن، حتى تدخل السفينة المرفأ قبل الليل، وتبحر مع المد فى الفجر. لم يكن هناك مكان لجيد بعيدًا عن الطريق، فصعد إلى أعلى ما يستطيع فوق الحمولة المخفية المرصوصة والمربوطة فى مؤخرة السفينة، وأخذ يرقب كل ما يحدث وهو هناك. جاء المجدفون يتقافزون على السطح، رجال أقوياء بأذرع قوية، بينما دحرج الحمَّالون براميل المياه، وصوتها مثل الرعد يملأ المرسى، وخزنوها تحت مقاعد المجدفين.

فى البداية عامت المركب المتين ببطء تحت ثقل حمولتها، واهتزت قليلًا فوق الأمواج المحيطة بالشاطئ، وهى تستعد للرحيل. ثم أخذ مسئول الدفة مكانه على يمين قائم مؤخرة السفينة، وعينه على رئيس السفينة الذى وقف

---

(٣) الفراء البيلاوى هو فراء من حيوان مختلق اسمه البيلاوى فى شمال إيرثسى.

على لوح خشبى ما بين مؤخرة السفينة والعارضة، محفور على شكل ثعبان الأندراد القديم، وأخذ يأمر البحارة هنا وهناك. انفكت السفينة الشبح، وسُحبت خارج الحوض بواسطة قاربى تجديف. ثم ترددت كلمات الرئيس عالية: "افتحوا الموانئ!" انطلقت المجاديف مسرعة وهى تحشرج، كل خمسة عشر مجدافًا على أحد الجوانب. انحنى المجدفون بظهورهم القوية، بينما وقف صبى بجانب الرئيس يدق على طبلة، تنطلق السفينة الآن مثل طائر يطير على مجاديفه، بينما صخب المدينة وجلبة الميناء يختفيان من ورائهم. دخلت السفينة فى صمت مياه الخليج، وفى الخلف ارتفعت قمة الجبل كما لو كانت معلقة فوق البحر الجنوبى، رفعوا الهلب وركبوا الليل.

من بين طاقم السفينة المكوَّن من سبعين بحارًا، كان هناك شباب صغير جدًّا مثل جيد يخطون خطواتهم الأولى فى طريق الرجولة. دعوه ليأكل ويشرب معهم، تملؤهم النكات والمزاح وإن ظلوا متحفظين معه. نعتوه براعى الماعز بالطبع؛ لأنه كان من الجونتيين، لكنهم توقفوا عند هذا الحد. كان فى طول وقوة من هم فى الخمسة عشر عامًا، وكان سريع البديهة فى رد الكلمة أو السخرية؛ لهذا وجد طريقه بينهم، وعاش منذ الليلة الأولى مثلهم، بل تعلم عملهم، مما أرضى ضباط السفينة، فلم يكن هناك مكان لراكب كسول على الشبح.

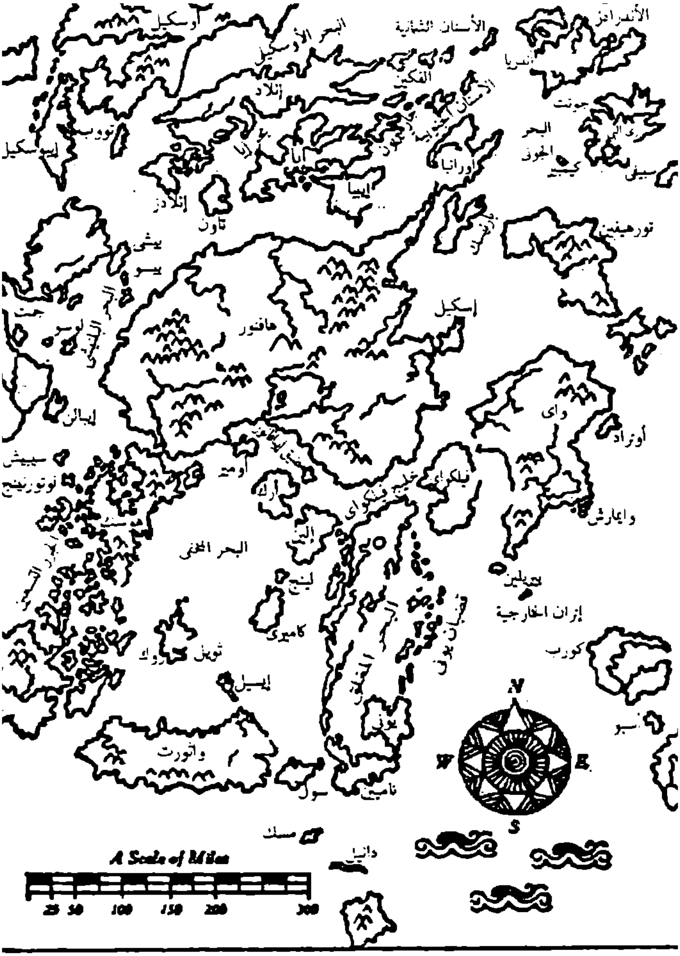
كانت المساحة بالكاد تكفى الطاقم ذاته، ولا توجد وسائل للراحة على الإطلاق فى مطبخ السفينة المزدحم بالرجال والحمولة والمعدات، ولكن ما الراحة بالنسبة لجيد؟ لذا رقد تلك الليلة بين لفات الجلد الخام المستوردة من الجزر الشمالية، وأخذ يشاهد النجوم الربيعية وأضواء المدينة الصفراء فوق مياه الميناء من عند قائم السفينة الخلفى، ونام وقام ثانية وهو مفعم بالنشاط. قبل الفجر تحول المد، فجدفوا بنعومة بين المنحدرات العالية. وبينما الشمس تخضب جبل جونت بالحمرة، رفعوا الشراع العالى وأبحروا باتجاه الجنوب فوق البحر الجونتى.

بين بارنسك وتورهيفين أبحرت السفينة برياح هادئة، ومع اليوم الثانى ظهرت جزيرة هافنور العظيمة، قلب الأرخبيل. ظلت جبال هافنور على امتداد البصر ثلاثة أيام، وهم يجاهدون لاجتياز ساحلها الشرقى دون أن ينزلوا على الشاطئ. منذ سنوات عديدة لم تطأ قدم جيد تلك الجزيرة، ولا رأى الأبراج البيضاء لميناء هافنور العظيم فى قلب العالم.

فى إحدى الليالى تعطلت السفينة عند كيمبيرماوث، الميناء الجنوبى لجزيرة واى، وفى اليوم التالى له تعطلوا عند مدينة صغيرة عند مدخل خليج فيلكواى، وفى اليوم التالى مروا بجانب رأس أو، ودخلوا مضيق إبفانور، أرخوا الأشرعة وجدفوا، والبر دائمًا على أحد الجانبين، أو فى إثر إحدى السفن، سفن كبيرة وصغيرة، تجار وسفن تجارية، بعضها قادم فى رحلة امتدت سنوات من البحار الخارجية، ومحمل بحمولة غريبة، وبعضها يتقافز فوق الماء مثل العصفور من جزيرة لأخرى فى البحر المخفى. وبعد أن خرجوا من المضايق جنوبًا تركوا هافنور وراءهم، وأبحروا بين الجزيرتين الجميلتين آرك وألين، والمدن من أمامهم أو من خلفهم، ومن هناك أحاطتهم الأمطار والرياح المتصاعدة فى طريقهم لجزيرة روك عبر البحر المخفى.

وعندما تحولت الرياح إلى عاصفة أرخوا الأشرعة والصوارى، وجدفوا طول الليل واليوم الذى تلاه. ورغم أن السفينة الطويلة استقرت على المياه ببراعة، إلا أن مُوجِّه الدفة كان ينظر إلى المطر الذى يضرب البحر ولا يرى غيره.كان يعلم أن السفينة تتجه جنوبًا حسب البوصلة، ولكنه لم يعرف جنوبًا فى أى مياه. سمع جيد الرجال يتحدثون عن المياه الضحلة فى جنوب روك، وعن صخور البوريلوس شرقًا. آخرون جادلوا مقتنعين أنهم على الأرجح قد بعدوا تمامًا الآن، وأنهم فى المياه الخالية هناك جنوب كاميرى. أخذت الرياح تزداد عصفًا وتقطع أطراف الموج إلى قطع متطايرة

من الرغاوى، وهم لا يزالون يجدفون إلى الجنوب، والرياح خلفهم طول الوقت. عندها أصبحت فترات التجديف أقصر؛ لأن العمل أصبح أصعب، وكان جيد يأخذ دوره فى العمل مع الآخرين، مثلما كان يفعل منذ تركوا جونت. ما بين دورات التجديف كانوا ينزحون ماء البحر الذى انصب على السفينة من كل جانب. كانوا يعملون بلا كلل وسط الأمواج التى كانت تجرى مثل البراكين تحت الرياح، والمطر يضرب بعنف، والبرد فوق ظهورهم، والطبلة تضرب تحت صوت العاصفة مثل ضربات القلب.


البحر الأوسكيل
الأسنان الشمالية
تاون
هافنور
إسكيل
واي
البحر الخفي
كاميري
إيران الخارجية
A Scale of Miles
25 50 100 150 200 300
N
W
E
S

أتى رجل ليأخذ مكان جِيد، ويرسله إلى الرئيس فى مقدمة السفينة. كانت المياه تتساقط من عباءته، ولكنه وقف متماسكًا فى مكانه فوق سطح المركب ضخمًا مثل البرميل، ونظر إلى أسفل حيث يوجد جيد، وسأله: "هل تستطيع التغلب على هذه الرياح يا بنى؟"

- "لا يا سيدى."

- "هل أنت ماهر فى التعامل مع الحديد؟" وكان ما يقصده رئيس المركب إن كان باستطاعة جيد أن يجعل البوصلة تتبع اتجاههم وليس اتجاه الشمال كما هى العادة، واضطر جيد أن يرد بالنفى على هذا أيضًا.

- "حسنًا، عليك أن تجد سفينة ما تأخذك إلى روك من هورت تاون؛ لأن روك على الأرجح فى الغرب الآن. السحر فقط يمكنه أن يأخذنا هناك الآن، لا بد أن نستمر فى التوجه جنوبًا". صاح الرئيس بهذه الكلمات فى قلب المطر والرياح.

لم يرتح جيد لهذا الكلام، فقد سمع البحارة يتكلمون عن هوت تاون، وكيف أنها مكان خارج عن القانون، ملىء بالتجارة الشريرة: حيث يتم أسر الناس، ويُباعون عبيدًا فى الأطراف الجنوبية، ثم عاد إلى عمله عند المجداف، وأخذ يشد مع رفيقه الشاب الأندريانى القوى، وهو يسمع الطبلة تدق، ويرى المصباح معلقًا فوق قائم السفينة يتحرك، والرياح تضربه فى كل اتجاه مثل شعلة حائرة من الضوء فى الغسق الممطر. ظل ينظر باتجاه الغرب بقدر استطاعته بين حركات المجداف الثقيلة المنتظمة. وحين ارتفعت السفينة فوق دوامة عالية رأى ضوءًا بين السحب، كما لو كان الضوء الأخير قبل الغروب، ولكن الغريب أنه كان ضوءًا أبيض وليس أحمر.

ورغم أن زميل جيد على المجداف لم يرَ هذا الضوء، لكنه صاح وأشار إليه. حاول مدير الدفة أن يتبينه مع كل ارتفاع فى الأمواج، ورآه مثلما رآه جيد، ولكنه صاح بأنه ضوء المغيب. ثم نادى جيد على أحد الشباب كان ينزح الماء من على المركب ليأخذ مكانه على المجداف، وأفسح لنفسه الطريق بصعوبة مرة أخرى عبر الممر المزدحم بين المقاعد، وهو يتمسك بمقدمة السفينة حتى لا يجد نفسه مرميًا من فوق سطح المركب، وصاح لرئيس المركب: "سيدى، الضوء القادم من الغرب هو جزيرة روك".

– "لم أرَ أى ضوء." صاح الرئيس، ولكن حتى وهو يتكلم كان جيد يشير بذراعه باتجاه الضوء، فرأوه جميعًا واضحًا فى الغرب رغم صوت البحر وسحابه المضطرب.

– أمر الرئيس فورًا أن تتجه السفينة إلى الغرب باتجاه الضوء، ليس من أجل جيد، بل حتى ينقذ سفينته من خطر العاصفة. ولكنه قال للصبى: "يا صبى، تتكلم بثقة وكأنك ريس المركب، ولكن لو كنت تأخذنا فى الطريق الخاطئ في هذا الجو فسألقيك فى البحر لتصل إلى روك عائمًا."

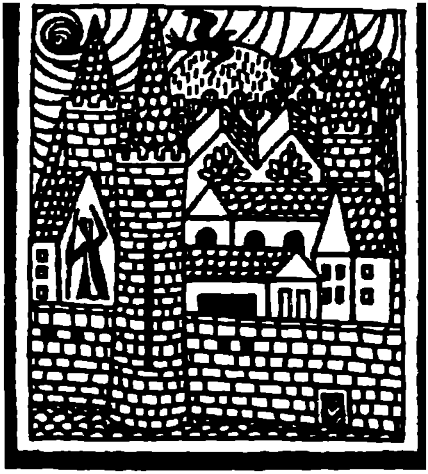
كان عليهم الآن الإبحار عبر العاصفة بدلًا من أمامها، وهو أمر شاق، فالأمواج المتلاطمة بجانب السفينة تدفعها دومًا باتجاه جنوب الطريق الجديد وتلفها، وتملؤها بالماء؛ مما يجعل النزح متواصلًا، والمجدفون عليهم مراقبة المجاديف، وإلا فلتت منهم، ووجدوا أنفسهم مدفوعين تحت المقاعد. أظلمت الدنيا، وإن استطاعوا رؤية الضوء من حين لآخر ليحددوا طريقهم على هداه، ولهذا جاهدوا للاستمرار. أخيرًا هدأت الرياح قليلًا، وامتد الضوء أمامهم. ووجدوا أنفسهم فجأة خارجين من قلب العاصفة كأنهم يخرجون من ستارة ما بين ضربة مجداف وأخرى، ووجدوا الهواء

الصافى وضوء الغسق يلمع فى السماء، وعلى سطح البحر. وفوق الأمواج المزبدة بالرغاوى رأوا تلًا أخضر مستديرًا، وتحته مدينة مبنية على خليج صغير، حيث ترسو القوارب فى سلام.

أدار موجه الدفة رأسه، وقال وهو يستند على عصاته الطويلة: "سيدى، هل ما نراه حقيقى أم سحرى؟"

- "استمر فى طريقك كما هو يا غبى، جدفوا يا فشلة، هذا خليج ثويل وجزيرة روك، أى أحمق أبله يستطيع أن يرى هذا!"

وعلى صوت الطبلة جدفوا منهكين داخلين إلى الخليج الذى كان هادئًا، لدرجة أنهم استطاعوا أن يسمعوا أصوات الناس والأجراس فى قلب المدينة، أما بعيدًا عن الخليج فهناك الصفير وجلبة العاصفة. كانت السحب السوداء إلى الشمال والشرق والجنوب على بعد ميل من الجزيرة. أما فوق روك فكانت النجوم تظهر واحدةً تلو الأخرى فى سماء هادئة وصافية.



(٣) مدرسة للسحرة

لك الليلة على سطح المركب "الشبح"، وفى الصباح المبكر
وهم يتصايحون من خلفه مبتهجين متمنين له التوفيق،
لرصيف. عندما وصل مدينة ثويل لم يجدها كبيرة، كانت
ناربة فى عدد صغير من الشوارع المنحدرة، ولكنها بدت
، ولأنه لم يعرف أين يذهب فقد توقف ليسأل أول رجل من
د عميد مدرسة روك.

ـجل من طرف عينه لبعض الوقت، ثم قال قبل أن يذهب
ـتاج الحكيم للسؤال، أما الأحمق فهو يسأل بلا فائدة!"
ـبل حتى أتى ميدانًا محاطًا من جوانبه الثلاثة بالبيوت،

بأسطحها الأردوازية الحادة، بينما الناحية الرابعة من الميدان يحدها جدار عظيم لمبنى تعلو نوافذه القليلة فتحات المداخن لبقية البيوت، مبنى يبدو مثل قلعة أو حصن من كتل صخرية رمادية عظيمة. بأسفل المبنى فى الميدان كانت دكاكين السوق تعج بالناس تغدو وتروح. سأل جيد سيدة عجوزًا تحمل سلة من بلح البحر عن عميد مدرسة روك، فردت عليه بالألغاز: "لا تجد العميد دائمًا حيث يوجد، ولكن أحيانًا تجده حيث لا يوجد." ثم مضت تنادى على بضاعتها من بلح البحر.

ثم ذهب جيد إلى باب صغير عادى خشبى فى زاوية المبنى الكبير، ودَّق عليه بقوة. وقال للرجل العجوز الذى فتح الباب: "معى خطاب من الساحر أوجيون إلى عميد مدرسة روك على هذه الجزيرة، أريد أن أجد العميد، ولن أسمع المزيد من الألغاز أو الاستهزاء."

– "هذه هى المدرسة". قال الرجل بهدوء، "أنا حارس الباب. ادخل إن استطعت."

خطا جيد إلى الأمام، وبدا له أنه قد عبر من خلال الباب، ولكنه وجد نفسه واقفًا على الرصيف تمامًا مثلما كان واقفًا من قبل.

مرة أخرى خطا للأمام، ومرة أخرى وجد نفسه واقفًا خارج الباب. أما الحارس فكان يرقبه من الداخل بعيون هادئة.

لم يكن جِيد متحيرًا بقدر ما كان غاضبًا، كان ما يحدث استهزاء زائدًا له. فألقى "تَعويذة الفتح" التى علمته إياها خالته منذ وقت طويل، وكانت له مثل الجائزة من بين كل خزينها من التعويذات. ألقى التعويذة جيدًا بالصوت واليد، ولكن التعويذة كانت مجرد سحر عادى أمام القوة التى

أمسكت هذا الباب، فهو لم يهتز على الإطلاق.

وعندما فشل هذا وقف جيد فترة طويلة على الرصيف، وأخيرًا نظر إلى الرجل العجوز الذى انتظر بالداخل وقال مكرهًا: "لن أستطيع الدخول إلا لو ساعدتنى."

– وأجاب حارس الباب: "ما اسمك؟"

وقف جيد ساكتًا لبرهة، فالمرء لا يقول اسمه عاليًا إلا إن كانت مسألة حياة أو موت.

– "أنا جِيد". قالها عاليًا، وهو يخطو للأمام من خلال الباب المفتوح. بدا له وكأن ظلًا ما فى أعقابه رغم أن الضوء كان خلفه.

ورأى أيضًا وهو يلف أن البوابة التى دخل منها لم تكن من الخشب البسيط كما ظن، وإنما من العاج المنحوت من ناب العظيم، كما عرف فيما بعد، وبدون مفصلات أو لحام. أما الباب الذى أغلقه الحارس وراءه كان من مادة مصقولة، يضوى من خلالها ضوء النهار باهتًا، وعلى بطانة الباب من الداخل كانت شجرة الألف ورقة منحوتة. "مرحبًا فى القصر الكبير يا غلام"، وبدون أن يزيد قاد حارس بوابة القصر جيد عبر الممرات والقاعات إلى فناء مفتوح بعيدًا داخل جدران المبنى. كان الفناء مغطًى جزئيًا بالحجارة، ومفتوحًا بدون سقف. وعلى النجيل كانت هناك نافورة تتدفق تحت الأشجار الصغيرة فى ضوء الشمس. هناك انتظر جيد وحده بعض الوقت، وقف ساكنًا، فقد كان يستشعر وجود كائنات وقوى تعمل فى الخفاء هنا، وكان يعرف أن المبنى ليس مبنى من الحجارة فقط، بل من سحر أقوى من الحجارة. وقف فى الصحن المفتوح للسماء، فى المكان الأعمق فى

بيت الحكماء، ثم استشعر فجأة وجود رجل يرتدى الأبيض ينظر عليه من خلال المياه المتساقطة من النافورة.

عندما التقت عيناهما غرد طائر على أغصان الشجرة. العجيب فى تلك اللحظة أن جيد وجد نفسه يفهم تغريد الطائر ولغة الماء فى حوض النافورة، وشكل السحب، وبداية ونهاية الرياح التى تحرك أوراق الشجر. بدا له أنه هو نفسه كلمة ينطقها ضوء الشمس!

ثم اختفت تلك اللحظة السحرية، وعاد هو والعالم كما كانا من قبل، أو تقريبًا مثلما كانا من قبل. تقدم وانحنى أمام الساحر الأكبر، وهو يمد يده بالخطاب الذى كتبه أوجيون.

كان نيمريل الساحر الأكبر عميد مدرسة روك رجلًا عجوزًا، أكبر من أى رجل على قيد الحياة كما يقولون. صوته يتهدج حين يتكلم مثل صوت العصفور، وهو يرحب بجيد بعطف. كان شعره ولحيته ورداؤه كلها باللون الأبيض، وبدا كما لو أن كل سواد شعره قد تمت تصفيته بفعل مرور السنين البطيء، التى تركته كقطعة خشب طافية منذ زمن بعيد، مغسولة وبالية.

– "عيناى عجوزتان، لا أستطيع قراءة ما كتبه معلمك. اقرا لى ما كتبه." قال بصوته المتهدج.

لذا قام جيد بقراءة الخطاب المكتوب باللغة الهاردية عاليًا: "لورد إيميريل. أرسل لك غلامًا سيكون أعظم سحرة جونت لو أتت الريح بما تشتهى السفن." كان الخطاب موقعًا باسم أوجيون بالرونية، والذى يعنى: "الفم المغلق"، وليس باسمه الحقيقى الذى لم يعرفه جيد حتى هذه اللحظة.

- "جئت من طرف الساحر الذى سيطر على الزلزال، ومن أجله نضاعف الترحيب بك. أوجيون الشاب كان عزيزًا إلى قلبى عندما جاء هنا يومًا من جونت. الآن، احك لى عن البحار وأعاجيب رحلتك يا صبى."

- "رحلة طيبة يا سيدى، باستثناء عاصفة الأمس."

- "ما السفينة التى أحضرتك هنا؟"

- "الشبح... تتاجر من آندراديس"

- "إرادة من أرسلتك هنا؟"

- "إرادتى أنا يا سيدى."

نظر الساحر الأعظم إلى جيد، ثم نظر بعيدًا، ثم بدأ يتكلم بلغة لم يفهمها جيد، وهو يتمتم كما يفعل العجزة الذين تتجول حواسهم عبر السنين والجزر. لكن من بين كلامه كان هناك كلمات مثل التى غردها الطائر وقالتها المياه. ورغم أنه لم يكن يلق أية تعويذة، إلا أن قوة ما فى صوته أخذت تحرك عقل جيد، لدرجة أنه شعر بالرعب، وكان كمن يرى نفسه واقفًا فى صحراء واسعة غريبة بين الأشباح، رغم أنه طوال الوقت كان واقفًا فى الفناء المفتوح المشمس، ويسمع خرير المياه من النافورة.

جاء طائر أسود كبير ماشٍ عبر الصخر والنجيل، غراب من أوسيكيل، وقف على طرف رداء الساحرُ الأعظم بسواده ومنقاره الخنجرى وعينيه التى مثل الجمر، وهو يحملق جانبًا فى جِيد. نقر ثلاث مرات على العصا البيضاء التى اتكأ عليها الساحر الأكبر، فتَوقف عن التمتمة وابتسم. "اجر والعب." قالها نيميريل أخيرًا لجيد كما لو كان يقولها لطفل صغير.

انحنى جيد مرة أخرى على ركبة واحدة، وعندما قام كان الساحر الأكبر قد ذهب. فقط بقى الغراب هناك يحملق فيه، ومنقاره ممدود كما لو كان سينقر العصا المختفية.

نعق الغراب فيما اعتقد جيد أنها اللغة الأوسكيلية. "تيرنينون أوسبوك" "تيرنينون أوسبوك أوريك"، ثم انطلق من حيث أتى.

استدار جيد ليمشى من الفناء وهو لا يعرف إلى أين سيذهب. وتحت المدخل رأى أمامه شاب طويل حياه بلطف شديد وهو يحنى رأسه "اسمى جاسبر، ابن إينويت من منطقة إياولج على جزيرة هافنور أنا فى خدمتك اليوم لأريك القصر، وأجيب على كافة أسئلتك. بماذا أدعوك سيدى؟"

بدا الأمر لجِيد الفلاح الجبلى، الذى لم يختلط يومًا ما بالنبلاء ولا الأغنياء، أن هذا الرفيق يسخر منه بكلمات منمقة، مثل "فى خدمتك"، "وسيدى"، وكل الانحناء والتوقير. لذا أجابه باقتضاب: "يدعوننى سباروهوك."

انتظر الشاب الآخر بعض الوقت، كما لو كان يتوقع المزيد، وعندما لم يحصل على المزيد اعتدل وابتعد قليلًا. كان يكبر جيد بسنتين أو ثلاث، طويلًا جدًا، يتحرك ويتحكم فى جسمه برشاقة بالغة، ويتخذ أوضاعًا وهو يمشى (هكذا ظن جيد وقتها) كراقص. كان يرتدى عباءة رمادية وغطاء رأسها ملقى على الظهر. أول مكان أخذ جيد إليه غرفة الدولاب، ليجد لنفسه فيها عباءة مناسبة، وأى ملابس أخرى قد يحتاجها. ارتدى العباءة الرمادية الداكنة التى اختارها، فقال جاسبر: "الآن أصبحت واحدًا منا."

كان لجاسبر طريقة باهتة فى الابتسام تجعل جيد يظن دائمًا أنه يتهكم عليه، ويظل يبحث عن التهكم المختفى تحت كلامه المهذب، "لا تصنع الملابس ساحرًا." أجابه جيد عابسًا.

– "بالطبع لا، لكن السلوك الحسن يصنع المرء." أجاب الولد الأكبر، "إلى أين الآن؟"

– "حيث تريد؛ أنا لا أعرف القصر."

أخذه جاسبر عبر طرقات القصر الكبير، وهو يريه الساحات المفتوحة والساحات المغطاة، وغرفة الأرفف التى تحتوى على كتب السحر، ومجلدات اللغة الرونية، والساحة الاحتفالية، حيث تتجمع المدرسة كلها فى أيام الاحتفال، وأخذه بالأعلى حيث الأبراج، وتحت الأسقف حيث الغرف الصغيرة التى ينام فيها الطلاب والأساتذة. غرفة جيد كانت فى البرج الجنوبى، ولها نافذة تطل على أسطح مدينة ثويل وعلى البحر. ومثل كل حجرات النوم الأخرى لم يكن بها أى أثاث سوى مرتبة من القش فى الركن. "نعيش ببساطة شديدة هنا." قال جاسبر: "ولو أنى أعتقد أن الأمر بالنسبة لك سواء."

– "أنا معتاد على هذا"، قالها جيد على الفور، وهو يحاول أن يظهر نفسه ندًا لهذا الشاب المؤدب الساخر، ولكنه أيضًا أضاف: "أعتقد أنك لم تكن معتادًا على هذا حين جئت هنا أول مرة."

نظر إليه جاسبر، وقالت نظرته دون كلام: "ماذا تعرف أنت عن حياتى كابن للورد منطقة الإيلوج لجزيرة هافنور، وما اعتدت عليه، وما لم أعتد عليه." ولكن ما قاله جاسبر بالفعل هو: "تفضل من هنا."

دق الجرس وهما بالأعلى، ونزلا لتناول وجبة الظهر على المائدة الكبيرة فى قاعة الطعام مع ما يزيد عن مائة طالب وشاب آخرين. كل كان يخدم نفسه، وهم يتضاحكون مع الطهاة من خلال النوافذ الزجاجية للمطبخ، والتى كانت تفتح على المطعم، كان كل منهم يغرف طبقه من الأوانى الكبيرة المحملة بالطعام، والتى كان دخانها يتصاعد على النوافذ، ويجلسون حيث يريدون على المائدة الطويلة.

"يقولون إنه مهما كان عدد الطلاب الذين يجلسون على المائدة الطويلة، هناك دائمًا مكان للمزيد." قال جاسبر. بالفعل كان هناك مكان للكثير من مجموعات الأولاد الصاخبة يتكلمون ويأكلون بنَهَم، وكذلك الأولاد الأكبر، كل بعباءته المزينة برباط فضى حول عنقه، يجلس بهدوء مع زملائه فرادى وأزواجًا، كل منهم بدا الهم على وجهه، كما لو كان هناك الكثير الذى يدعوهم للقلق بشأنه.

أخذ جاسبر جيد ليجلس مع شخص ممتلئ يدعى فيتش، والذى لم يقل الكثير بل أخذ يعب الطعام والشراب بتركيز. كانت لكنته لكنة المنطقة الشرقية وبشرته داكنة للغاية، ليس اللون البنى المحمر مثل جيد وجاسبر ومعظم الناس فى الأرخبيل، ولكن بُنِّى أسمر، ولد بسيط خشن تذمر بشأن الطعام عندما انتهى منه، ثم استدار إلى جيد، وقال: "على الأقل الطعام ليس وهمًا مثل الكثير من الأشياء هنا." لم يفهم جيد ماذا يعنى بهذا، ولكنه شعر بارتياح تجاهه، وكان سعيدًا أنه بقى معهم بعد الطعام.

نزل الثلاثة إلى القرية ليتعرف جيد عليها، من السهل أن يضل المرء طريقه فى ثويل، فبقدر ما كانت شوارعها قليلة وقصيرة، إلا أنها كانت ملفوفة وملتوية حول البيوت ذات الأسقف العالية مما يسهل التوهان. كانت

بلدة غريبة، وكذلك كان أهلها، رغم أنهم صيادون وعمال وصنَّاع عاديون، لكنهم كانوا معتادين على السحر الدائم العمل فى جزيرة الحكماء، لدرجة أنهم كانوا مثل أنصاف سحرة أنفسهم.

كانوا يتكلمون (كما عرف جيد لاحقًا) بالألغاز، ولم يكن أحدهم ليعجب لو رأى ولدًا يتحول إلى سمكة، أو بيت يطير فى الهواء، فهم يعرفون أنها مُزحة طالب فى مدرسة السحرة، فيمضون فى أعمالهم فى ترقيع الأحذية، أو تقطيع اللحم دون اكتراث.

خرج الأولاد الثلاثة من الباب الخلفى للقصر، ثم من خلال حدائق القصر الكبير عبروا نهر الثويلبيرن الصافى على كوبرى خشبى، واتجهوا ناحية الشمال بين الغابات والمراعى، حيث ارتفع الطريق والتف. عبروا بساتين البلوط، حيث كانت الظلال ثقيلة برغم كل الشمس الساطعة. كانت هناك غابة قريبة لم يستطع جيد أن يتبينها أبدًا. لم يكن الطريق ليصل لها أبدًا، رغم أنه كان يبدو دائمًا وشيكًا، لم يكن من الواضح أى نوع من الأشجار هناك. عندما رآه فيتش يحملق فى الغابة همس قائلًا: "هذه هى غابة السحر العتيقة، لا نستطيع الدخول هناك... بعد."

فى البساتين المشمسة ازدهرت زهور صفراء، "هذا هو السباركويد(٤)" (عشب الشرر) ينبت تمامًا فى البقعة التى تُسقط فيها الريح رماد الإيلين المحترق، عندما دافع الإيريث أكبى عن الجزر المخفية أمام سيد النار. نفخ فى رأس زهرة، وخرجت البذور المهتزة مع الرياح، مثل شعلات من النار فى الشمس.

---

(٤) سباركويد هو عشب خيالى معناه عشب الشرر

قادهم الطريق لأعلى وحول التل الكبير الأخضر، ذلك الذى رآه جيد من السفينة، وهم يدخلون مياه جزيرة روك المسحورة. على منحدر التل توقف جاسبر قائلًا: "فى وطنى هافنور سمعت كثيرًا من الثناء عن السحر الجونتى، حتى إننى رغبت فترةً طويلة فى أن أراه، الآن لدينا شاب جونتى، ونحن نقف على منحدرات هضبة روك التى تمتد جذورها إلى بطن الأرض. كل التعاويذ قوية فى هذا المكان، أرنا إحدى حيلك، سباروهوك، أرنا أسلوبك."

لم يقل جيد شيئًا، باغته جاسبر وأربكه.

– "فيما بعد، جاسبر." قال فيتش بطريقته البسيطة، "دعه فترةً."

"لديه إما القوة أو المهارة، وإلا لم يكن حارس بوابة المدرسة قد سمح له بالدخول، لماذا لا يرينا إياها الآن؟ الآن مثل أى وقت آخر، أليس كذلك، سباروهوك؟"

– "عندى كلٌّ من القوة والمهارة." قال جيد، "ماذا تريد إذن؟"

– "الإيهام – بالطبع – الحيل، ألعاب الرؤى، أشياء مثل هذا."

ثم أشار جاسبر بإصبعه، وتمتم ببضعة كلمات غريبة، وحيث أشار على منحدر التل سال خيط من الماء بين الحشائش الخضراء، وزاد حتى أصبح نافورة تتفجر، وجرى الماء أسفل التل. مد جيد يده فى الجدول، شعر بالبلل على يده، وشرب منه، وكان باردًا، ولكنه لم يكن ماءً يروى؛ لأنه مجرد خداعٍ بصرى. بكلمة أخرى قالها أوقف جاسبر الماء، واهتزت الحشائش ثانيةً جافة فى ضوء الشمس. "دورك يا فيتش." قال بابتسامة هادئة.

حكَّ فيتش رأسه، وتجهَّم وجهه، ولكنه أخذ حفنة من التراب فى يده، وبدأ يرتل بدون نغمات فوقها، وهو يشكلها بيده الداكنة، ويضغط عليها ويساويها، وفجاة أصبحت كائنًا صغيرًا مثل نحلة طنانة، أو ذبابة ذات فراء، وطارت وهى تزن فوق هضبة نول واختفت.

وقف جيد محملقًا مكتئبًا. ما الذى يعرفه غير سحر القرية، تعويذات لاستدعاء الماعز، وشفاء البثور، ولنقل الأحمال، أو تصليح القدور؟

– "لا أمارس هذه الحيل." كان هذا كافيًا بالنسبة لفيتش الذى رغب فى الرحيل، لكن جاسبر قال: "ولمَ لا؟"

– "لأن السحر ليس لعبة، لا يلعبه الجونتيون من أجل المتعة أو المديح." أجاب جيد بغرور.

– "لماذا تلعبها إذن؟" قال جاسبر، "المال؟"

– "لا"، ولكن الحق أن جيد لم يستطع أن يفكر فى أى جواب آخر ينقذ كبرياءه أمام جاسبر. وضحك جاسبر، ومضى وهو يقودهم عبر هضبة روك، وتبعه جيد عابسًا وقلبه مضطرب، وهو يعرف أنه بدا أحمقًا، وفى قلبه كان يلوم جاسبر على كل هذا.

رقد جيد تلك الليلة على المرتبة تغطيه عباءته فى غرفته الحجرية الصغيرة المظلمة بصمت القصر الكبير فى روك، كانت غرابة المكان، وفكرة كل التعويذات والأسحار التى تم عملها هنا ثقيلة على نفسه، أحاط به الظلام وملأه الخوف، تمنى لو كان فى أى مكان آخر غير روك. لكن فيتش جاء إلى بابه، وفوق رأسه ويرلايت(٥) تهتز لتنير له الطريق، وقف على الباب،

(٥) الويرلايت هى كره صغيرة سحرية من الضوء الأزرق يستخدمها طلاب مدرسة روك بدلاً من المصابيح

وسأل إن كان يستطيع الدخول والتحدث مع جيد بعض الوقت، وحين دخل سأله عن جونت، ثم تكلم بطلاقة وحبٍّ عن الطرف الشرقى، وكيف أن دخان المدافئ يهب فى المساء فوق البحر الهادئ بين الجزر الصغيرة مكونًا أسماء غريبة فى السماء: كورب، كوب، هولب، فينواى، فيميش، إيفيش، كوبيش، سنيج. عندما رسم أشكال الجزر على الحجارة على الأرض بإصبعه ليُرِى جيد كيف تبدو على الخريطة، لمعت الحروف التى رسمها قليلًا وكأنها مَن الفضة قبل أن تختفى.

كان فيتش فى المدرسة منذ ثلاث سنوات، وسيصبح ساحرًا عما قليل؛ لذا لم يعد يفكر فى التعاويذ، بل أصبحت أمرًا منتهيًا بالنسبة له، ولكن كانت لفيتش مهارة أعظم لا يمكن تعلمها، وهى الطيبة. منذ تلك الليلة منح فيتش جيد صداقة أكيدة وواسعة، لم يستطع جيد سوى أن يبادلها.

كان فيتش ودودًا مع جاسبر أيضًا، ذلك الولد الذى تهكم على جيد فى يومه الأول على هضبة نول، يوم لم ينمح من عقل جيد ولا نسى جاسبر نفسه الذى دائمًا ما يكلمه بصوت مهذب وابَتسامة ساخرة. لم يهدأ كبرياء جيد الجريح أبدًا، بل أقسم أن يثبت لجاسبر وللجميع ممن نصب جاسبر نفسه زعيمًا عليهم مدى قدرته، رغم كل حيلهم السحرية المبهرة، لم ينقذ أيًا منهم قرية بأكملها بقوة السحر. ولم يكتب أوجيون عن أى منهم أنه سيكون أعظم سحرة جونت.

لذا، ولكى ينقذ كبرياءه، وضع كل طاقته فى العمل الذى كُلِّف به، انصب على الدروس والفنون والتواريخ والمهارات التى علمها له أساتذة روك المعروفين بعباءاتهم الرمادية، والذين يُدعون "التسعة الكبار".

كان يقضى جزءًا من النهار مع الأستاذ منشد يتعلم "ملاحم الأبطال"، و"مقامات الحكمة"، والبداية دائمًا مع أقدم الملاحم "خلق إيا". ثم بعد ذلك

ينضم إلى دستة من الطلاب الآخرين مع المعلم مفتاح الريح؛ ليتعلم فنون الجو والرياح. قضوا أيامًا كاملة مشمسة من الربيع وبدايات الصيف على خليج روك، فى قوارب ذات شراع واحد، وهم يتدربون على الإبحار بالكلمة، وتهدئة الأمواج، والكلام مع رياح العالم، وإثارة رياح السحر. كانت هذه مهارات دقيقة، وكثيرًا ما ارتطم رأس جيد فى ذراع الشراع المتدلى، حين يتأرجح القارب فجأة تحت الرياح التى تهب معاكسة، أو حين يصطدم قاربه مع قارب طالب آخر، بالرغم من اتساع الخليج من حولهم، أو حين يجد رفقاءه الثلاثة فجأة فى قلب الماء عندما تداهمهم موجة كبيرة. كانت هناك رحلات أهدأ على البر فى أيام أخرى مع الأستاذ عشبى، الذى علمهم طرق وطبائع كل ما ينمو من أشياء، والأستاذ كف الذى علمهم خفة اليد والخداع، وكذلك المهارات البسيطة لتغيير الشكل.

فى كل هذه الدراسات كان جيد منتبهًا متيقظًا، وفى خلال شهر كان قد تفوق على الطلاب الموجودين من قبله فى المدرسة بعام، خاصة فى تعلم حيل الإيهام الذى أصبح بارعًا فيها، وكأنه قد وُلد وهو يحفظها، ولا يحتاج سوى لمن يذكره بها. كان الأستاذ كف رجلًا عجوزًا لطيفًا خالى البال، يستمتع لأقصى درجة بجمال وعبقرية ما يعلمه من فنون السحر. تعود جيد عليه بسرعة، وأخذ يسأله عن هذه التعويذة أو تلك، ودائمًا كان رد المعلم هو الابتسام، وإجابة ما يريد. ولكن فى يوم ما، وبعد أن قرر جيد أن يقضى على جاسبر بشكل نهائى، سأل جيد الأستاذ كف فى قاعة الرؤى: "سيدى، كل هذه الأسحار مثل بعضها، فلو عرفت واحدًا، كأنك تعرفهم جميعًا. فأول ما تنتهى حياكة التعويذة يختفى الإيهام. الآن لو حولت هذه الصخرة إلى ماسة (وبضربة خفيفة من يده تحولت الطوبة إلى ماسة)، ماذا أفعل لأجعل هذه الماسة تظل ماسة؟ كيف يمكن غلق تعويذة التغيير، وجعلها تستمر؟"

نظر المعلم هاند على الجوهرة التى لمعت فى يد جيد براقة مثل كنز التنين (٦)، تمتم الأستاذ العجوز بكلمة واحدة: "تولك". وبدلاً من الجوهرة كانت هناك طوبة فى يد جيد، صخرة صغيرة خشنة رمادية. أخذها المعلم فى يده، "هذه صخرة، تولك هو الكلام الحقيقى، اللغة القديمة." قال المعلم وهو ينظر إلى جيد بوداعة الآن." هذه صخرة من جزيرة روك، هى نفسها جزء بسيط من الأرض اليابسة التى يعيش عليها الناس، بمعنى أنها جزء من العالم. بقوة الإيهام تستطيع أن تغيرها لتجعلها تبدو مثل الماسة، أو الزهرة، أو الذبابة، أو شعلة النار" اهتزت الصخرة فى يد الأستاذ، وهى تتغير من شكل إلى شكل عندما ينطق بالاسم، ثم عادت إلى صورتها الأولى كصخرة. "لكن كل هذا مجرد إيهام، الوهم يخدع حواس الناظر، يجعله يرى ويسمع ويشعر أن الشىء قد تغير، لكنه لا يغير من الشىء. لكى تغير هذه الصخرة لا بد أن تغير من اسمها الحقيقى. ولو فعلت هذا لأى ذرة من العالم، يا ولدى، لأى ذرة ستكون كأنك غيرت العالم بأكمله. يمكنك أن تفعل هذا، بالفعل يمكنك أن تفعل هذا، إنه جزء من فن "الأستاذ المُحول"، وستتعلمه حين تكون مستعدًا له. ولكن حذارِ أن تغير الآن شيئًا واحدًا، ولا حتى طوبة أو ذرة رمل، دون أن تعرف الخير والشر الذى سينتج عن ذلك. فالكَوْن يا ولدى فى حالة توازن، وقد تؤثر قدرة الساحر على التغيير والاستدعاء فى هذا التوازن. هذه القوة محفوفة بالمخاطر إلى أقصى درجة، لا بد لها أن تخضع للمعرفة وتخدم الحاجة. كل ما تفعله له نتيجة، فلو أشعلت شمعة فأنت تلق بظلّ..."

---

(٦) فى حكايات الفانتازيا للتنين كنز من الجواهر الثمينة يحتفظ به فى مكان من المستحيل الوصول له

نظر الأستاذ إلى الصخرة مرة أخرى، وقال: "الصخور أيضًا نافعة كما تعرف." قال وقد خفف من الجدية، "فلو كانت كل جزر إيرثسى من الجواهر لأصبحت حياتنا صعبة. استمتع بالأوهام يا فتى، ولتدع الصخور صخورًا." ابتسم المعلم لكن جيد ظل مستاءً.

اضغط على ساحر ما ليتكلم عن أسراره، وسيتحدث تمامًا مثل أوجيون عن التوازن والخطر والظلام. ربما ظن جيد وقتها أن الساحر الذى تمكن من كل حيل الإيهام الأساسية للفنون الحقيقية للاستدعاء والتحويل لا بد وأن يكون قويًا بما يكفى لأن يفعل كل ما يريد، وليوازن العالم كما يتراءى له، ويحارب الظلام، ويدفعه بعيدًا بنوره.

قابله جاسبر فى الرواق عند خروجه من عند الأستاذ كف، وقد أصبح أكثر ودًا معه منذ ذاع صيت مهارته فى المدرسة كلها. لكن كلام جاسبر الودود بدا لجيد أكثر سخرية. "تبدو مكتئبًا سباروهوك، هل أخطأتَ فى تعويذات الإيهام؟"

ولأنه دائمًا ما يحب أن يضع نفسه فى مقام موازٍ مع جاسبر، أجابه جيد وهو يتجاهل نغمة السخرية فى صوته: "لقد سئمتُ الخداع، وكل حيل الإيهام تصلح فقط لتسلية السادة الكسالى فى قصورهم فى دومين. السحر الوحيد الذى تعلمته فى روك هو عمل الويرلايت، وبعض تحريك الطقس، أما الباقى فهو مجرد تفاهات."

- قال جاسبر: "حتى التفاهات قد تصبح خطرًا فى يد الحمقى."

عند هذا الحد استدار جيد كما لو كان قد تلقَّى صفعة على وجهه، وأخذ خطوة باتجاه جاسبر، ولكن الولد الأكبر ابتسم كما لو لم يقصد أى إهانة، أومأ برأسه بطريقته الرشيقة الجافة ومضى.

وقف جيد هناك يراقب جاسبر، والغضب يملأ قلبه، وأقسم أن يقهر خصمه فى اختبار قوة حقيقى، وليس فى مباراة لسحر الإيهام. سيثبت نفسه ويذل جاسبر، لن يترك هذا الفتى يتعالى عليه دومًا برشاقته وغطرسته وكراهيته.

لم يتوقف جيد أمام جاسبر ليفهم لماذا قد يكرهه، كان يعرف فقط لماذا يكره هو جاسبر، تعلم الصبية الآخرون فى المدرسة مبكرًا أنهم لا يستطيعون مجاراة جيد فى الهزل أو فى الجد. "مولود من بطن أمه ساحرًا، ولن نغلبه أبدا." إلا جاسبر، لم يكن يمدحه أو يتجنبه، وإنما يحتقره بابتسامة باهتة، وقف جاسبر وحده منافسًا حقيقيًا لجيد، وكان لا بد من قهره.

لم يرَ جيد، وربما لم يود أن يرَ أن فى تنافسه مع جاسبر، ذلك الذى ظل يغذيه كجزء من كبريائه، أى ملمح من الخطر، أو من الظلام الذى حذره منه الأستاذ كف يومًا.

لكن عندما يهدأ جيد، ولا يحكمه غضبه، يعرف أنه ليس كفئًا لجاسبر أو لأى من الصبية الكبار بعد، لهذا كان يعكف على عمله كالمعتاد. وفى نهاية الصيف خف العمل بعض الشىء، فأصبح هناك وقت أطول للعب: سباقات لقوارب بالتعويذات فى الميناء، مسابقات للإيهام فى قاعات القصر الكبير، وفى الليالى الطويلة فى البساتين، كانت تقام ألعاب الأستغماية الرهيبة؛ حيث لا يُرى العسكر ولا اللصوص. الأصوات فقط هى التى كانت تتحرك، وتنادى من بين الأشجار، وتتبع وتراوغ الويرلايت الباهتة. ثم عاد الطلاب إلى أعمالهم فى الخريف، وقد تجدد نشاطهم ليمارسوا أنواعًا جديدة من السحر. وهكذا مرت شهور جيد الأولى فى روك سريعة مليئة بالانفعالات والأعاجيب.

في الشتاء كان الأمر مختلفًا، فقد تم إرساله هو وسبعة آخرون من الأولاد عبر جزيرة روك إلى لسان الجزيرة البعيد؛ حيث يقف برج العزلة الوحيد شاهقًا. هناك عاش الأستاذ صاحب الأسماء وحيدًا، اسمه كيرمكارميرك، ذلك الذى ليس له سَمِىّ فى أى لغة. لم تكن هناك لا مزرعة ولا بناء حول البرج لأميال بعيدة، بل يقف البرج كئيبًا فوق المنحدرات الشمالية. رمادية كانت السحب فوق بحار الشتاء، ولا نهائية كانت القوائم والرُّتب والأشواط التى يجب أن يحفظها طلاب الأستاذ الثمانية. بينهم يجلس المعلم كيرمكارميرك على مقعد عالٍ يكتب قوائم الأسماء قبل أن يجف الحبر عند منتصف الليل، وتعود المخطوطة بيضاء مرة أخرى.

كان البرج باردًا، معتما ودائمَ الكآبة، وخاليًا من أى صوت سوى من خربشة قلم الأستاذ صاحب الأسماء، أو من تنهيدة طالب عليه أن يحفظ اسم كل لسان ونقطة، وخليج وغار وصوت، وقناة وميناء ومياه ضحلة، وسلاسل صخور، وكل شواطئ جزيرة لوسو، تلك الجزيرة الصغيرة فى البحر البلنيشى. إذا ما اشتكى الطالب فقد يعاقبه الأستاذ بتطويل القائمة، أو قد يقول الأستاذ: "على من يود أن يكون رئيسًا للسفينة أن يعرف الاسم الحقيقى لكل نقطة مياه فى قلب البحر."

كان جيد يتنهد مثلهم أحيانًا، ولكنه أبدًا لم يشتكِ؛ لأنه يرى أن فى هذا العمل الأثرى الشاق القوة التى يريدها، تراءت له تلك القوة مثل جوهرة فى قاع بئر جاف. هذا هو السحر، الاسم الحقيقى لكل شيء؛ لذا، وكما قال لهم كيرمكارميرك مرة فى ليلتهم الأولى، ولم يكررها أبدًا: "إن كثيرًا من السحرة قد يقضون عمرهم كله فى محاولة لمعرفة اسم شىء واحد، اسم واحد مخفى أو ضائع. ولا تنتهى قوائم الأسماء أبدًا، ولن تنتهى حتى نهاية العالم. اسمع وستعرف لماذا، سترى لماذا. ففى العالم الذى تحت

الشمس، وفى العالم الآخر الذى لا توجد به شمس، يوجد الكثير مما لا علاقة له بالناس ولا كلامهم، وهناك قوى خارج قواهم. لكن السحر، السحر الحقيقى، لا يمكن أن يمارسه سوى من يعرف اللغة الهاردية الخاصة بإيرثسى، الكلام الحقيقى أو اللغة القديمة التى منها نشأت هذه اللغة." لم ينس جيد هذه المقولة أبدًا.

"هذه هى اللغة التى تتكلمها التنانين، واللغة التى تكلمها سيجوى ذلك الذى رفع جزر العالم، هى لغة بطولاتنا وأغانينا، تعويذاتنا وأسحارنا وابتهالاتنا، كلماتها ترقد عميقة ومخفية ومتغيرة داخل الكلمات الهاردية. نحن نطلق على الزَّبَد فوق الموج كلمة "سوكين" ، وهذه الكلمة مكونة من كلمتين فى اللغة القديمة: سوك بمعنى ريشة، وإينين بمعنى بحر، أى ريشة البحر أو الزَّبَد. لكن لا يمكنك أن تسحر الزبد باستخدام كلمة سوكين، لابد أن تستخدم الكلمة القديمة فى اللغة القديمة وهى "إيسا" . قد تعرف أى ساحرة بعضًا من كلمات اللغة القديمة، لكن على الساحر الكبير أن يعرف الكثير منها. ضاع الكثير من مفردات هذه اللغة على مر السنين، وبعضها معروف فقط للتنانين وللقوى العتيقة على الأرض، وبعضهم لا يعرفه أى كائن حى، ولا يستطيع أى إنسان أن يتعلمهم جميعًا؛ لأنه لا يوجد حد أو نهاية لهذه المفردات.

هذا هو السبب، اسم البحر هو إينين، حسنًا، ولكن ما نطلقه على البحر المخفى فى اللغة القديمة هو اسم آخر، لكن لأنه لا يصح أن يكون للشىء الواحد اسمان فى اللغة القديمة، فـ"إينين" لا يمكن أن تعنى إلا "كل البحر ما عدا البحر الداخلى" ، لكن بالطبع الأمر لا يتوقف عند هذا؛ لأن هناك بحارًا ومضايق لا حصر لها، ولها أسماء خاصة بها. لهذا فلو جُنَّ أى ساحر كبير قبطان، وحاول أن يلقى بتعويذة لإثارة عاصفة، أو تهدئة

عاصفة هبت على المحيط كله، يجب أن تحتوى تعويذته ليس فقط على كلمة إينين، بل أيضًا على الاسم الحقيقى لكل جزء من اليابسة والبحر خلال كل الأرخبيل، وكل المناطق الخارجية، وما بعدها حتى تنتهى كل الأسماء.

وهكذا ما يعطينا القوة لممارسة السحر يضع لنا الحدود لاستخدامها، فالساحر الكبير يستطيع أن يتحكم فقط فيما هو قريب منه، وفيما يعرف اسمه الحقيقى بالضبط دون نقصان. لو لم يكن الأمر كذلك لكان شر الأقوياء وحماقة الحكماء قد غيرا ما لا يجب تغييره، وينتهى بهذا التوازن الكونى. لو حدث هذا سيُغرق البحر غير المتوازن كل الجزر التى نعيش عليها، وستضيع كل الأصوات وكل الأسماء فى الصمت القديم."

فكر جيد طويلًا فى هذا الكلام، ولمس أعماقه، لكن عظمة الغاية لم تسهل الوقت الطويل، ولا العمل الثقيل فى البرج. وفى نهاية العام كان كل ما قاله له كيرمكارميرك "لقد بدأت بداية جيدة." ولم يزد عن هذا.

لا يقول السحرة إلا الحقيقة، وبالفعل فكل ما تعلمه جيد فى هذا العام كان مجرد بداية لما يجب أن يستمر فى تعلمه طوال حياته. خرج من البرج قبل زملائه الذين حضروا معه؛ لأنه تعلم أسرع منهم، وكانت هذه هى الميزة الوحيدة التى حصل عليها.

فى طريق عودته مشى جيد وحده عبر الجزيرة فى بداية الشتاء فى الطرق المقفرة، وعندما جاء الليل كانت تمطر، لم يلق أى تعويذة لوقف المطر؛ لأن الجو فى روك كان يتحكم به الأستاذ مفتاح الريح، ولا يمكن العبث به. فقط احتمى تحت شجرة بلوط كبيرة، وأخذ يفكر فى أستاذه القديم أوجيون، وهو ممدد هناك تحت المطر ملتف بعباءته. قد يكون أوجيون لا يزال فى تجواله الخريفى الآن فوق مرتفعات جونت؛ ينام فى العراء، ويتخذ

من الأشجار الخالية الأوراق سقفًا، ومن الأمطار المنهمرة جدرانًا. ابتسم جيد، كان التفكير فى أوجيون دائمًا ما يريح قلبه، ونام وقلبه سعيد هناك فى البرد المظلم المليء بهمس المطر. عند الفجر استيقظ ليجد المطر قد توقف، ورأى أن هناك فى ثنايا عباءته حيوانًا صغير مكومًا نائمًا، زحف على ما يبدو هناك طلبًا للدفء، كان حيوانًا نادرًا، أوتاك(٧).

كان هذا الحيوان موجودًا فقط على الجزر الأربعة الجنوبية من الأرخبيل، روك وإنسمر وبودى وواتهورت. حيوانات صغيرة وناعمة، فراؤها بُنِّى داكن أو رمادى، وعيونها واسعة ولامعة. ولأن أسنانها ومزاجها حادين فمن النادر أن يستأنسهم أحد، ليس لهم أى نداء أو صيحة أو صوت، هز جيد الأوتاك، فاستيقظ وتثاءب مُظهرًا لسانه البنى وأسنانه البيضاء، ولكنه لم يكن خائفًا. "أوتاك" قال جيد، ثم تذكر الاسم الحقيقى له من ضمن الألف اسم الذى حفظهم للحيوانات فى البرج، ونادى عليه باسمه فى اللغة القديمة "هويج، هل تريد أن تأتى معى؟"

وقف الأوتاك فى يد جيد المفتوحة، وأخذ يلعق فراءه.

وضعه على كتفه فى ثنايا غطاء رأسه، وأركبه هناك. أحيانا يقفز ويجرى فى الغابات أثناء النهار، ولكنه دائمًا ما يعود أحيانًا بفأر الغابات كصيد له، فيضحك جيد ويخبره أن يأكل صيده وحده؛ لأنه صائم بسبب كرنفال عودة الشمس. وهكذا عاد جيد إلى روك فى وقت السَّحَر الممطر إلى بستان روك، ورأى الويرلايت لامعة تلعب فى المطر فوق سقف القصر الكبير، ودخل هناك فوجد ترحيبًا من معلميه ورفاقه فى القاعة الدافئة.

---

(٧) الأوتاك حيوان مختلق فى عالم إيرثسى من القوارض يأنس لجيد دون سبب

شعر جيد كأنها عودة إلى المنزل، ولم يكن لهذا الفتى من قبل أى منزل يعود إليه، كان جيد سعيدًا بعودته وبرؤيته الوجوه التى عرفها، وخاصة فيتش الذى تقدم نحوه بابتسامه واسعة على وجهه الأسمر. افتقد صديقه هذا العام أكثر مما كان يدرك، فى ذلك العام المنصرم أصبح فيتش ساحرًا، وليس مشعوذًا متدربًا بعد هذا، ولكن هذا لم يضع أى حواجز بينهما، فقد انخرطا فى الحديث على الفور، وبدا لجيد أنه تحدث مع فيتش فى تلك الساعة الأولى أكثر مما قال فى ذلك العام الماضى كله فى برج العزلة.

كان الأوتاك لا يزال يركب على كتفه، ويتخذ من ثنايا غطاء رأسه عشًا أثناء العشاء المخصص للكرنفال على المائدة الطويلة فى قاعة المدفأة. أُعجب فيتش بالحيوان، وحاول أن يرفع يده ليداعبه، لكن الأوتاك عض يده بأسنانه الحادة. ضحك فيتش وهو يقول لجيد: "يقولون يا سباروهوك إن الإنسان الذى تحبه الحيوانات، وتفضله على الآخرين هو إنسان ستحدثه القوى العتيقة للحجر والماء بلغة الإنس فى يوم من الأيام."

أما جاسبر الذى كان يجلس بالناحية الأخرى فقال: "يقولون إن لكل ساحر جونتى حيوانًا أليفًا، فمعلمنا نيميريل لديه الغراب، وتقول الملاحم إن الساحر الأحمر لآرك كان لديه خنزير برى مربوط بسلسلة ذهبية، ولكنها المرة الأولى التى نسمع عن ساحر لديه فأر فى غطاء رأسه."

وعند هذا ضحكوا جميعًا وضحك جيد معهم، كانت ليلة مرحة، وكان جيد مبتهجًا بأن يكون وسط الدفء والبهجة محتفلًا مع زملائه، لكن مثل كل ما يقوله جاسبر له كانت دعابته تحرق الدم.

في تلك الليلة حل لورد أو ضيفًا على المدرسة، كان نفسه ساحرًا ذائع الصيت وتلميذًا للساحر الأكبر، وكان يحب العودة للمدرسة أحيانًا لحضور كرنفال الشتاء، أو الرقصة الطويلة فى الصيف. كانت معه امرأته، شابة رشيقة، مصقولة مثل النحاس الجديد، شعرها الأسود مزين بالمجوهرات. من النادر أن تطأ أى امرأة القصر الكبير، ولهذا أخذ بعض من الأساتذة الكبار ينظرون لها شذرًا، بينما نظر إليها الشباب بملء أعينهم متلهفين.

– "من أجل امرأة مثل هذه، أستطيع أن أعمل تعويذات رهيبة." تنهد فيتش وضحك.

– "لكنها مجرد امرأة." رد جيد.

– "كانت الأميرة إلفاران مجرد امرأة." قال فيتش، "لكن من أجلها خُربت كل إنلاد، ومات الساحر البطل، ساحر هافنور وغرقت جزيرة سوليكا تحت البحر."

– "أساطير؟" قال جيد، ثم بدأ هو أيضًا فى التطلع إلى ليدى أو، وهو يتساءل هل هذا بالفعل جمال زائل كما تقول الحكايات القديمة.

أنشد الأستاذ الراوى مآثر الملك الشاب، وغنوا مجتمعين وينتر كارول، وعندما كانت هناك استراحة قصيرة قبل أن يرفعوا المائدة، قام جاسبر واقترب من الساحر الأكبر وضيوفه وتكلم مع ليدى أو. لم يعد جاسبر صبيًا بعد الآن، فقد أصبح شابًا طويلًا وسيمًا، وعباءته مزمومة حول عنقه بمشبك من الفضة؛ لأنه هو أيضًا أصبح ساحرًا هذا العام، وكان المشبك الفضى علامة قرب التخرج. ابتسمت السيدة على ما قاله جاسبر، وأخذت الجواهر تلمع فى شعرها الأسود، براقة. ثم بعد ذلك، وبعد أن

تلقَّى جاسبر إيماءة الموافقة من الأساتذة، ألقى جاسبر تعويذة إيهام على شرفها. أنبت شجرة بيضاء من الأرض الصخرية، وصَلَت فروعها لأعمدة السقف، وعلى كل غصن نبتت تفاحة ذهبية تلمع مثل الشمس، فقد كانت هذه السنة سَنة الشجرة. طار طائر من بين الأغصان فجأة، أبيض تمامًا، وله ذيل مثل شلال من الثلج، والتفاحات تحولت إلى بذور، ثم تحولت كل بذرة إلى قطرة من الكريستال تتساقط من الشجرة، ولها صوت مثل المطر. ثم هبت رائحة جميلة، بينما الشجرة تتمايل وتتفتح فيها أوراق نارية اللون، وزهور بيضاء مثل النجوم، ثم انتهت التعويذة والإيهام. صاحت السيدة من شدة العجب والمتعة، وأحنت رأسها المتلألئ للساحر الشاب مديحًا له ولقدرته. "تعال معنا، تعال عش معنا فى أو-توكن، هل يستطيع أن يأتى يا سيدى؟" طلبت من زوجها الكئيب على طريقة الأطفال، ولكن جاسبر رد قائلًا: "حين أتعلم مهارات تليق بأساتذتى هنا فى روك، وبمديحك سيدتى، سآتى على الرحب والسعة، وأخدمك للأبد بكل ترحاب."

وهكذا، أسعد جاسبر كل الناس هناك ما عدا جيد، الذى شارك الجميع الثناء على جاسبر بصوته من وراء قلبه. "كنت أستطيع أن أتفوق عليه." قال لنفسه فى حقد مرير، وأظلمت الدنيا كلها فى عينيه.



(٤) تحرير الشبح

د فيتش أو جاسبر كثيرًا ذلك الربيع؛ لأنهما، وقد أصبحا
يدرسان مع الأستاذ صاحب الأنساق فى سرية غابة السحر
لا يخطو أى متدرب مبتدئ أو مشعوذ. مكث جيد فى القصر
ع بقية الأساتذة على كل المهارات التى يمارسها المشعوذون:
ـ دون عصا، جلب الرياح، تحريك الطقس، الإيجاد والربط،
وحياكة التعويذات، وكذلك تعلم شغل العرَّافين والمنشدين
الأمراض، والمعالجين بالأعشاب. وحين يصبح وحده فى
كُرة الويرلايت فوق رأسه بدلًا من المصباح أو الشمعة،
رونية العتيقة ورونية إيا، اللتين تُستخدمان فى التعويذات

الكبرى، كان يكتسب كل المهارات بسهولة ويسر، حتى إن الشائعات سرت فى المدرسة أن هذا الأستاذ أو ذاك قد قال إن جيد الفتى الجونتى هو أسرع طالب جاء لمدرسة روك، وحِيكت الحكايات حول الأوتاك، وكيف هو روح متخفية تهمس بالحكمة فى أذن جيد، حتى قيل إن غراب الساحر الأكبر قد حيَّى جيد عند وصوله باعتباره الساحر الأكبر مستقبلًا. وسواء صدقوا هذه القصص أم لا، وسواء أحبوا جيد أم لا، كان معظم رفاقه يعجبون به، ويحبون الالتفاف حوله حين تغمره روح الجموح ويقرر الانضمام لهم فى ألعابهم فى ليالى الربيع. لكن فى أغلب الأوقات عاش جيد متباعدًا عنهم، يملؤه العمل والغرور والانفعال. وبوجود فيتش بعيدًا لم يكن لديه أصدقاء، ولم يدرك أنه بحاجة لأى أصدقاء.

كان جيد فى الخامسة عشرة، كان أصغر من أن يتعلم الفنون العليا للسحرة ذوى العصا، ولكنه كان سريعًا بحيث يتعلم فنون الإيهام من أستاذه الشاب المحول، والتى علمها له وحده دون الطلاب الآخرين. كما علمه التعويذات الحقيقية للتشكيل، وأوضح له أنه لو أردنا أن نغير طبيعة الشىء عن حق فيجب أن نعيد تسميته طوال فترة استمرار التعويذة، وأوضح أيضًا كيف أن هذا يؤثر على أسماء وطبائع الأشياء المحيطة بالشىء المتحول. كلَّمه عن مخاطر التحويل وأهمها حين يتحول الساحر ويغير شكله، ويصبح بهذا عُرضة لأن ينحبس فى تعويذته. شيئًا فشيئًا، مأخوذًا بثقة الولد وسرعة فهمه، بدأ الأستاذ فى فعل ما هو أكثر من تعليمه هذه الأسرار. علمه التعويذة الأولى من تعويذات التحويل الكبرى، ثم أخرى وأخرى، ثم أعطاه بحسن نية كتاب التحويل ليدرسه، وكان كل هذا يتم دون علم الساحر الأكبر.

عمل جيد أيضًا مع الأستاذ المستحضر، وكان رجلًا مُسنًا متجهمًا، أثقله السحر العميق الكئيب الذى يعلمه. كان سحره خاليًا من الإيهام، سحرًا حقيقيًا يستدعى قوى الطبيعة مثل الضوء والحرارة وقوة المغناطيس، وتلك القوى الموجودة فى الوزن والشكل واللون والصوت، قوى حقيقية مستمدة من قوى الكون الواسعة التى لا يمكن سبر أغوارها، ولا تستنفذها ولا تغيرها تعاويذ إنسان. كان الإبحار وتحريك الطقس من المهارات المعروفة بالفعل لطلابه، لكنه كان يريهم لماذا على الساحر الحقيقى أن يستخدم هذه التعاويذ عند الضرورة القصوى فقط؛ لأن العبث بمثل هذه القوى يغير من الأرض التى نحن جزء منها. وكما يقول الأستاذ " المطر على روك قد يعنى الجفاف فى أوسيكيل، والهدوء فى الطرف الشرقى قد يقابله عاصفة ودمار فى الغرب؛ فلا تعبث بالكون إلا إذا كنت تَعِى تمامًا ما أنت مقدم عليه. "

أما عن استدعاء الأشياء الحقيقية والأحياء وأرواح الأموات واستدعاء اللامرئى، تلك التعاويذ التى هى أعظم ما فى فن الاستحضار وقوة الصورة، فهذه أشياء يندر أن يتكلم الأستاذ عنها. حاول جيد مرة أو مرتين أن يدفعه للحديث عن هذه الأسرار، لكن الأستاذ ظل صامتًا، وهو ينظر إليه طويلًا بصرامة؛ حتى يتكدر جيد فى نهاية الأمر، ولا ينطق بكلمة بعدها.

وبالفعل، أحيانًا كانت حتى التعاويذ البسيطة التى تعلمها من الأستاذ المستحضر تصيبه بالقلق، كانت هناك بعض كلمات باللغة الرونية فى صفحات معينة من كتاب السحر الرئيس تبدو مألوفة له، رغم أنه لا يتذكر فى أى كتاب رآها من قبل. كانت هناك جمل فى الاستحضار يكره قولها؛ لأنها تجعله يفكر لأول وهلة فى ظلال وأشباح فى غرف مظلمة، فى باب مغلق وأشباح تمسك به من زاوية الباب. كان يطرد هذه المخاوف والذكريات سريعًا، ويقول لنفسه إن لحظات الخوف هذه ليست سوى أشباح جهله.

وكلما زاد علمه قلَّ خوفه، حتى يأت اليوم الموعود الذى لا يخاف فيه من أى شىء فى الدنيا على الإطلاق.

وفى الشهر الثانى من هذا الصيف اجتمعت كل المدرسة مرة أخرى فى القصر الكبير للاحتفال بعيد ليلة القمر وعيد الرقصة الطويلة، اجتمع العيدان معًا هذا العام فى احتفال مكون من ليلتين، وهو الأمر الذى يحدث مرة كل اثنى وخمسين عامًا.

وطوال الليلة الأولى، وهى أقصر الليالى القمرية فى السنة، تمتلئ الحقول بعزف الناى، وتكتظ شوارع ثويل بالطبول والمشاعل، وأصوات الغناء تمتد فوق مياه خليج روك التى تضيئها أشعة القمر. وعند شروق الشمس فى اليوم الثانى بدأ منشدو روك فى إنشاد سيرة إيريث آكبى الطويلة، والتى تحكى كيف بُنيت أبراج هافنور البيضاء، وعن رحلات إيريث آكبى فى الجزيرة العتيقة إيا عبر الأرخبيل، حتى قابل أورم فى أقصى الطرف الغربى عند البحر المفتوح. ذلك البطل آكبى الذى ترقد عظامه المبعثرة جنبًا إلى جنب مع عظام على شاطئ جزيرة سيليدور الوحيدة، بينما يتربع سيفه فوق أعلى برج فى هافنور، ولا يزال السيف يشتعل باللون الأحمر عند المغيب فوق البحر المخفى. عندما انتهى الإنشاد بدأ الرقص. رقص الجميع، رجالًا ونساءً، أساتذة وطلابًا، على دقات الدفوف وأنغام المزامير، فوق التراب الدافئ لشوارع روك فى وقت الغسق، وحتى الشواطئ. رقصوا حتى البحر تحت ضوء القمر الذى كان قد اكتمل فى الليلة الفائتة، واختفت الموسيقى فى صوت تكسر الموج على الصخور. وعند بزوغ الضوء من الشرق فى الفجر تركوا البحر، وعادوا للشواطئ والطرقات؛ حيث سكتت الطبول وظلت المزامير تعزف بنعومة. كان هذا فى كل جزيرة من جزر الأرخبيل فى تلك الليلة، موسيقى واحدة توحد الجميع على تلك الأرض التى يفصلها البحر بعضها عن بعض.

وحينما انتهت الرقصة الطويلة نام معظم الناس بقية اليوم، ثم تجمعوا ثانية فى المساء حول الطعام والشراب. أحضر مجموعة من الشباب الصغار - متدربين وسحرة - عشاءهم من مطعم المدرسة؛ ليكون لهم احتفالهم الخاص فى إحدى أفنية القصر الكبير، وهم: فيتش وجاسبر وجيد، مع ستة أو سبعة آخرين، وبعض من الشباب الذين تم تسريحهم حديثًا من برج العزلة، فقد شجَّع الحفل الجميع على الفرحة، حتى الأستاذ كورمكاركيك نفسه. كانوا جميعًا يأكلون ويضحكون ويلعبون ألعابًا مرحة، كما لو كانوا فى بلاط ملك من الملوك. أضاء واحد منهم الفناء بمائة من نجوم كرات الويرلايت الملونة مثل الجواهر، والتى أخذت تتأرجح بينهم وبين النجوم الحقيقية كأنها تسير فى موكب بطىء. وولدان آخران كانا يلعبان البولينج بكرات من اللهب الأخضر، ودبابيس البولينج تنط وتقفز كلما اقتربت منها الكرة. كل هذا وفيتش يجلس متربعًا فى الهواء يأكل الدجاج المشوى. حاول أحد الفتية الصغار أن يجذبه لأسفل، ولكن فيتش صعد لأعلى فى الهواء، لأبعد من أن يصله أحد مبتسمًا فى هدوء. بين الحين والحين كان يلقى بعظمة دجاجة تتحول إلى بومة تنعق وتطير بعيدًا بين النجوم. كان جيد يلقى بأسهم من الخبز على ذلك البوم فيوقعه، وعندما كان البوم والسهام يلمسان الأرض، كانا يعودان إلى حالتهما الطبيعية، عظم وخبز! حاول جيد أيضًا أن يلحق بصاحبه فى الهواء، لكن لأنه كان جاهلًا بالتعويذة كان عليه أن يرفرف بجناحيه ليظل طائرًا، وظلوا كلهم يضحكون على طيرانه ورفرفته وخبطاته. ظل جيد يرفرف هكذا بعض الوقت ليضحك أصحابه، فبعد ليلتين طويلتين من ضوء القمر والرقص والسحر والموسيقى كان جيد منطلقًا ولايهمه شىء.

وأخيرًا نزل على قدميه بجانب جاسبر، الذى لم يشاركهم الضحك والصخب، ولكنه قال: "صقر لا يستطيع الطيران..."

قال جيد وقد استدار له وهو يبتسم: "هل جاسبر درة مكنونة إذن؟ يا جوهرة بين السحرة، يا جوهرة هافنور، أسحرينا بضيائك!"

وعلى الفور قام الولد الذى أرقص الويرلايت بإحضار واحدة لترقص وتتلألأ فوق رأس جاسبر، أما جاسبر فقد أزاح الضوء بعيدًا، وأطفأه بحركة واحدة قائلًا: "مللت من الصبية والضجة والسفاهة."

"يبدو أنك تكبر يا فتى!" هكذا علَّق فيتش من مكانه أعلى.

"لو كان الصمت والكآبة هما ما تبحث عنه، فربما تود أن تجرب البرج"، علق الصبى الأصغر فيهم، ثم قال جيد: "ماذا تريد يا جاسبر؟"

– "أريد صحبة أقرانى... هيا يا فيتش، اترك المشعوذين المتدربين لألعابهم."

تقدم جيد لمواجهة جاسبر، وقال متسائلًا: "ما الذى يميز السحرة عن المشعوذين؟" كان صوته هادئًا، ولكن بقية الصبية أطبق عليهم الصمت التام، فقد كان الحقد العميق واضحًا فى كلام جيد وجاسبر الآن مثل وضوح السيف خارج غمده.

– فرد جاسبر: "القوة."

– "سأتحدى قوتك... واحدة بواحدة"

– "أتتحدانى؟"

– "أتحداك."

نزل فيتش إلى الأرض، ووقف بينهما متجهم الوجه قائلًا: "المبارزات ممنوعة علينا فى السحر، وتعلمان هذا جيدًا، دعا الأمر يتوقف عند هذا."

وقف جيد وجاسبر صامتين؛ لأنهما يعرفان حق المعرفة أن المبارزة ممنوعة فى روك، وأن ما يحرك فيتش للنصيحة هو الحب، بينما ما يحركهما فى واقع الأمر هو الكراهية. تراجع غضبهما دون أن يهدأ، وعلى الفور أخذ جاسبر فيتش جانبًا، وقال بابتسامته الساخرة: "ربما عليك أن تُذكر صديقك راعى الأغنام مرة أخرى بالقانون الذى يحميه، فهو يبدو متجهمًا، أتعجَّبُ كيف تصوَّر أننى سأقبل التحدى منه؟ من شخص برائحة الأغنام؟ مشعوذ لا يعرف تعويذة التحول الأولى"؟

– فناداه جيد: "جاسبر، ما الذى تعرفه ولا أعرفه؟"

للحظة، وبدون أن ينطق، اختفى جيد من أنظارهم، ووقف مكانه صقر كبير يرفرف، فاتحًا منقاره يصرخ، وفى لحظة أخرى وقف جيد ثانية فى مكانه فى ضوء المصباح المهتز ينظر إلى جاسبر نظرة مسمومة.

تراجع جاسبر إلى الوراء فى دهشة، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة، وقال كلمة واحدة: "إيهام."

تمتم الآخرون، وقال فيتش: "لم يكن هذا إيهامًا، بل تحول حقيقى. ويكفى هذا يا جاسبر، اسمع..."

قال جاسبر: " هذا كاف ليثبت أنه اختلس نظرة على كتاب التحول دون علم أستاذه. ماذا لديك أيضًا يا راعى الأغنام؟ استمر، تعجبنى المصيدة التى تبنيها لنفسك، كلما حاولت أن تثبت أنك ندٌّ لى أظهرت معدنك."

عند هذا استدار فيتش إلى جيد وقال بدماثة: "سباروهوك، هل تكون رجلًا حقيقيًا وتكف عن هذا الآن؟ تعال معى."

نظر جيد لصديقه وابتسم، وقال "احتفظ بهويج من أجلى من فضلك، ممكن؟" وضع الأوتاك، والذى كان كالعادة راكبًا على كتفه، فى يدى فيتش. لم يدع هذا الكائن أى مخلوق سوى جيد يلمسه من قبل، ولكنه استجاب لفيتش وتسلق ذراعه، ثم تكوم على كتفه وعيناه الواسعتان واللامعتان ثابتتان على سيده.

- "الآن، ماذا ستفعل لتثبت أنك أحسن منى يا جاسبر؟" قال جيد محتفظًا بهدوئه السابق.

- "ليس على أن أفعل أى شيء يا راعى الجديان. لكن انتظر، سأعطيك الفرصة، يأكل الحسد قلبك مثل الدودة، يومًا ما على هضبة روك تفاخرت أن السحرة الجونتيون لا يلعبون. تعال إلى هضبة روك الآن، وأرنا ماذا يفعل السحرة الجونتيون بدلًا من الألعاب."

- "بكل سرور." أجاب جيد. وقف الأولاد الصغار ينظرون إلى جيد فى هدوئه بدهشة، فقد اعتادوا أن يروا حدته عند أى موقف يهينه. أما فيتش فحملق فيه بشعور من الخوف المتزايد، حاول أن يتدخل مرة أخرى ولكن جاسبر قال: "ابق بعيدًا يا فيتش، ماذا ستفعل بالفرصة التى أعطيها لك يا راعى الغنم؟ هل سترينا خداعًا بصريًا؟ كرة نار؟ أم تعويذة لعلاج الجديان من الجرب؟"

- "ماذا تريدنى أن أقدم يا جاسبر؟"

هز الولد الأكبر كتفيه بدون مبالاة، وقال: "استدع روحًا من الموتى..."

- "سأفعل."

- "لن تفعل" قالها جاسبر، وهو ينظر إليه مباشرة، وغضبه يفوق احتقاره فى نارها، "لن تفعل... لن تفعل، أنت تتباهى وتتفاخر."

- "بحق اسمى، سأفعلها."

وقفوا جميعًا بلا حراك.

أفلت جيد من فيتش حتى لا يمنعه بالقوة، وهرول خارج الفناء دون أن ينظر خلفه، كانت الويرلايت الراقصة فوق الرءوس قد خبت الآن. تردد جاسبر للحظة، لكنه تبع جيد وتبعهما الآخرون واجمين يملؤهم الفضول والخوف.

ارتفعت منحدرات هضبة روك فى ظلام تلك الليلة الصيفية قبل طلوع القمر، كان وجود هذا التل ذاته الذى حدثت عليه معجزات كثيرة فى الماضى ثقيلًا مثل ثقل الهواء حولهم. حين وصلوا إلى منحدر التل فكروا فى عمق جذوره، كانت أعمق من البحر، تصل إلى النيران السرية الأزلية والعمياء لبطن الأرض. وقفوا عند المنحدر الشرقى، بينما النجوم تبدو معلقة فوق العشب الأسود عند هلال التل فوقهم، والهواء ساكن.

مشى جيد عدة خطوات بعيدًا عن الآخرين، ثم استدار قائلًا فى صوت واضح: "جاسبر، روح من تريدنى أن أستدعى؟"

- "استدعِ من تريد، فلن يسمعك أحد." اهتز صوت جاسبر قليلًا من الغضب وهو يقول هذا. فأجابه جيد ساخرًا "هل أنت خائف؟"

لم يقف ليسمع رده إن كان قد رد أصلًا، لم يعد يهتم بجاسبر الآن، ذهب الغضب والكره من قلبه، وحلت محلهما الثقة المطلقة فى نفسه، وهو يقف

على هضبة روك. لم يعد بحاجة لأن يحسد أحدًا الآن، كان يعرف أن قوته فى تلك الليلة على تلك الأرض القاتمة المسحورة أقوى من أى وقت مضى، كانت قوته تملؤه حتى كاد يرتعش من إحساس المقدرة الكامنة المكبوحة بصعوبة بداخله. عرف الآن أن جاسبر أقل منه بكثير، ربما دوره فى حياة جيد خادم وليس ندًّا. شعر جيد بجذور التل تحت قدميه تمتد لأسفل فى الظلمة، وفوقه رأى نيران النجوم، ما بين الأرض والسماء شعر بكل شىء تحت إمرته، ورهن إشارته، فكأنه وقف فوق مركز الأرض.

– "لا تخف." قال لجاسبر مبتسمًا: "سأستدعى روح امرأة، أتخاف النساء؟ سأستدعى إلفارين، حسناء ملاحم إنلاند."

– "ماتت منذ آلاف السنين، ترقد عظامها بعيدًا فى بحر إيا، وربما لم يكن هناك أى امرأة بهذا الاسم."

– "وهل تؤثر السنون والمسافات مع الموتى؟ هل تكذب الملاحم؟" قال جيد بالسخرية نفسها، ثم أردف قائلًا: "راقب الهواء بين أصابعى." استدار بعيدًا ووقف ساكنًا.

مد جيد ذراعيه ببطء فى حركة مهيبة، كانت هذه هى الإشارة الترحيبية التى تفتح الاستحضار، وبدأ يتكلم.

كان قد قرأ الكلمات الرونية لتعويذة الاستحضار هذه فى كتاب تعاويذ الاستحضار الخاص بأوجيون منذ عامين ونصف، ولم يرها بعد هذا. وقتها قرأ هذه التعويذة فى الظلام، أما هذه الليلة كان كمن يراها، وكأن الصفحة مفتوحة أمامه، غير أنه أمسى الآن يفهم ما يقرؤه، يرتله عاليًا كلمة بكلمة، بل يرى علامات حياكة التعويذة بالصوت وحركة الجسم واليد.

وقف الصبية يراقبون دون صوت أو حركة إلا من حركة رعشة أجسامهم، فالتعويذة الكبيرة بدأت فى العمل. كان صوت جيد لا يزال ناعمًا، لكنه تغير بفعل الإنشاد العميق، رغم أنه لم يعرف الكلمات التى ينطقها. ثم سكت فجأة. ثم هبت ريحُ تزأر فى الحشائش، خر جِيد على ركبتيه وصاح عاليًا، ثم انكفأ على وجهه كما لو كان يحتضن الأرض بذراعيه، وحينما قام كان يحمل على ذراعيه المشدودتين شيئًا داكنًا. كان هذا الشىء ثقيلًا لدرجة أنه ترنح تحت ثقله ليقوم واقفًا. كانت الرياح تعوى الآن فى حشائش التل السوداء المتشنجة، ولم تعد النجوم مرئية حتى وإن لمعت فى السماء.

كانت كلمات التعويذة تتحرك وتُتمتم الآن على شفتى جيد، ثم صرخ مرة أخرى بوضوح عاليًا: "إلفارين!"

وثانيةً: "إلفارين."

انقسمت الكتلة السوداء الصماء التى رفعها من قبل، وخرج من بين يديه عمود دوار من الشعاع مثل بيضة من الضوء تمتد من الأرض حتى نهاية ذراعه الممدودة، وبداخل البيضة شكل يتحرك، جسم بشرى، امرأة طويلة تنظر وراء كتفها، كان وجهها جميلًا وحزينًا ومرعوبًا.

لمعت تلك الروح لبرهة قصيرة هناك، ثم ازداد لمعان البيضة بين يدى جيد، اتسعت وامتدت مثل شق فى ظلام الليل والأرض، مثل فتق فى قماش الأرض، يبرق منه شعاع مخيف، ومن خلال ذلك الشق اللامع كانت هناك كتلة تحاول الخروج بجهد جهيد، مثل شبح أسود سريع وكريه قفز مباشرة على وجه جيد.

ترنَّح جيد تحت ثقل هذا الشيء وأطلق صرخة قصيرة مبحوحة، قفز الأوتاك الصغير من فوق كتف فيتش، وكأنه سيهاجم، وهو يصرخ عاليًا، رغم أنه بلا صوت.

سقط جيد على الأرض وهو يكافح ويتلوى، بينما الشق البراق فى ظلمة العالم فوقه يتسع ويمتد. هرب الصبية الذين كانوا يشاهدون هذا، وانحنى جاسبر على الأرض وهو يخفى عينيه من الضوء المخيف، وحده فيتش هو الذى جرى لصديقه، فرأى كتلة الشبح الملتصقة بجيد مثل وحش أسود فى حجم طفل صغير، رغم أنه بدا وكأنه ينتفخ وينكمش، كان كتلة بدون رأس أو وجه، بل فقط أطراف أربعة أخذت تنهش وتمزق وجه جيد. علا نشيج فيتش من الرعب، ولكنه مد يديه محاولاً أن يشد هذا الشيء بعيدًا عن صديقه، وقبل أن يلمسه كان قد رُبط وعجز عن الحركة.

خبا الضوء الفظيع، وانقفل شرخ الأرض ببطء، بينما بالقرب تكلم صوت ببطء مثل شجرة تهمس أو نافورة تلعب.

لمعت النجوم مرة أخرى، وابيضت الحشائش على التل بضوء القمر الطالع. التأم جرح الليلة، وعاد توازن الضوء والظلام، واختفى الوحش الشبحى، رقد جيد ممددًا على ظهره، ويداه ممددتان بجانبه، وكأنها قد احتفظت بإشارة افتتاحية التعويذة، وجهه مسودًا بالدماء، وقميصه مبقع بها، والأوتاك يرقد فوق كتفه يرتعد. فوقه وقف رجل عجوز تلتمع عباءته شاحبة فى طلوع القمر: الساحر الأكبر نيميريل.

تأرجحت عصا إيميريل الفضية فوق صدر جيد، تارة يلمس بها قلبه برفق، تارة فوق شفتيه وهو يهمس. بدأ جيد يتحرك وشفتاه تنفتحان شهقًا، ثم رفع الساحر الأكبر العجوز عصاه، ووضعها على الأرض، واستند عليها وهو مطأطئ الرأس، كما لو كانت قواه قد خارت ولا يقدر على الوقوف.

أخيرًا وجد فيتش فى نفسه القدرة على الحركة، عندما نظر حوله كان الجميع هناك، ومعهم أساتذة الاستحضار والتحول، كان من الطبيعى أن يعملوا معًا لإحداث هذاالسحر العظيم. لديهم قدرة عجيبة على الحضور بسرعة إذا ما استدعت الحاجة، وإن فاقهم جميعًا فى السرعة الساحر الأكبر نيميريل. أرسلوا جميعًا لطلب المساعدة الآن، بعضهم ذهب ليساعد الساحر الأكبر، بينما ذهب البعض - ومن بينهم فيتش - ليحملوا جيد لحجرة أستاذ عشبى، أستاذ الاستشفاء.

مكث الأستاذ المستحضر طوال الليل.على هضبة روك يراقب، لم يتحرك أى شىء على جانب الهضبة فى البقعة التى انفتحت فيها بطن الأرض، لم يزحف أى شبح فى ضوء القمر باحثًا عن الشق الذى خرج منه ليعود لملكته. هرب الشبح من إيميريل ومن جدران التعاويذ الشاهقة التى تحيط بالجزيرة وتحميها، لكنه أصبح حرًا طليقًا فى العالم الآن، يختبئ فى مكان ما. لو كان جيد قد مات هذه الليلة كان الشبح ليحاول أن يجد العتبة التى دخل منها للعالم ليتبعه إلى مملكة الأموات، أو ينزلق راجعًا من حيث أتى، وهذا ما انتظره المستحضر على تل روك، لكن جيد كان لا يزال على قيد الحياة.

وضعوه على الفراش فى غرفة الإشفاء، وباشر الأستاذ عشبى علاج جروح وجهه وحلقه وكتفه، كانت جروحًا غائرة، مهترئة ومقززة، لا يتوقف الدم الأسود عن النزف منها متدفقًا حتى تحت قوة التعاويذ، ورغم أنهم وضعوا عليها أوراق البريوت (٨) الشافية الملفوفة، رقد جيد محمومًا لا يرى ولا ينطق مثل عصا تشتعل داخل نار، دون أية تعويذة تطفئها.

---

(٨) أوراق البروبوت هي نبات مختلق شاف .

وليس ببعيد فى الفناء المكشوف للقصر؛ حيث كانت النافورة تتراقص، رقد الساحر الأكبر بلا حركة، باردًا، باردًا للغاية، فقط عيناه كانتا حيتين ترقبان تساقط المياه وحركة أوراق الشجر التى يضيئها القمر. من حوله لم تكن هناك أية تعاويذ أو إشفاء. كل من حوله يرقبه بهدوء، يتحدث بعضهم مع البعض من وقت لآخر، ثم يعاودون النظر إلى سيدهم ثانية وهو يرقد ساكنًا، أنفه مثل منقار الصقر، وجبهته العالية وشعره الأبيض مصبوغان بضوء القمر، وكلهم بلون العظام، فقد استنفذ الساحر كل قوته ليتحكم فى التعويذة المنفلتة، ويبعد الشبح عن جِيد، وذهبت كل مقدرته الجسدية بسبب هذا، وبدأ يحتضر. لكن احتضاره كان عجيبًا؛ لأنه موت ساحر عظيم تمرَّس على المشى مرارًا فى المنحدرات الجافة لمملكة الموت وهو حى، رجل يموت ويعرف طريقه للموت عن ثقة. وعندما نظر الساحر من خلال أوراق الشجرة لم يعرف الناس من حوله، إن كان يراقب نجوم الصيف تخبو فى ضوء الفجر، أم يراقب النجوم الأخرى التى لم تطلع يومًا ما على أى تل ولم ترَ أى فجر.

أما غراب أوسيكيل، حيوانه الأليف طوال ثلاثين عامًا، فقد اختفى! لا يعرف أحد أين ذهب. "لقد سبق سيده." قال الأستاذ صاحب الأنساق وهو فى فترة المناوبة.

ثم بدأ اليوم دافئًا وصافيًا، بينما القصر الكبير وكل شوارع ثويل غارقة فى الصمت، حتى قرعت الأجراس عند الظهر فى برج الأستاذ الراوى وأعلنت الخبر برنينها القاسى.

وفى اليوم التالى اجتمع الأساتذة التسعة لمدرسة روك فى مكان ما تحت الشجر الداكن لغابة السحر العتيقة، وهناك قرروا أن يختاروا من كل

سحرة روك فى إيرثسى من يحل محل الساحر الأكبر، أقاموا تسعة جدران من الصمت حولهم فلا يسمعهم شخص، ولا تتحدث لهم قوة.

جنشر أوف واى كان اختيارهم، ولهذا ذهبت سفينة على الفور عبر البحر المخفى لإحضار جنشر إلى روك ثانيةً، وقف المعلم مفتاح الريح فى مقدمة السفينة، وأثار ريح السحرة فى الشراع لتغادر السفينة بسرعة وتختفى.

لم يعرف جيد وقتها أى شىء عن كل هذا، فقد رقد أعمى وأصم وأبكم طوال أربعة أسابيع فى ذلك الصيف القائظ، رغم أنه كان يئن ويصرخ أحيانًا مثل الحيوانات. وأخيرًا، وعندما بدأت معجزات الأستاذ عشبى تؤتى ثمارها، بدأت الجروح فى الالتئام وأخذت الحمى فى الاختفاء. شيئًا فشيئًا بدأ يسمع ثانيةً، رغم أنه لم يتكلم أبدًا.

وفى أحد أيام الخريف الصافية فتح المعلم عشبى مصاريع نوافذ غرفة جيد الذى لم يرَ غير العتمة منذ ظلام تلك الليلة على هضبة روك، فخبأ جيد وجهه المُنَدَّب فى كفيه، وبكى عندما رأى نور النهار والشمس ساطعة.

حتى عندما جاء الشتاء لم يكن جيد ليتكلم سوى بلسان متلعثم، ولهذا تركه المعلم عشبى فى حجرات الاستشفاء محاولًا أن يعيد الصحة لذهنه وجسمه تدريجيًا. ولم يتركه المعلم إلا فى أوائل الربيع، مرسلًا إياه ليقدم فروض الولاء للساحر الأكبر الجديد، مثلما قدم ذلك الواجب بقية طلاب المدرسة.

لم يكن مسموحًا لأى من رفاقه أن يزوروه فى شهور مرضه، والآن، وبينما كان يمر بجانب بعضهم، كانوا يتساءلون: "من هذا؟" قبل أن يحدث

ما حدث كان قويًا رشيقًا وخفيفًا، أما الآن فقد هذه الألم، يمشي مترددًا، لا يرفع وجهه أبدًا، فجانب وجهه الأيسر أصبح شاحبًا من كثرة الندوب. تجنب من يعرفونه ومن لا يعرفونه، ومشى فى طريقه إلى باحة النافورة، وهناك حيث وقف منتظرًا إيميريل يومًا ما وجد جنشر ينتظره.

ارتدى الرجل العباءة البيضاء مثل الساحر الأكبر الراحل، لكنه مثل كل الرجال من المنطقة الشرقية كان داكن البشرة، عميق النظرة ثقيل الحواجب، انحنى جيد وقدم تحيته وطاعته، بقى جينشر صامتًا لفترة.

– "أعلم ما فعلت." قال بعد طول انتظار، "ولكننى لا أعلم ما أنت، ولا أستطيع تقبل ولائك."

وقف جيد وسند بيده على جذع شجيرة بجانب النافورة ليزن نفسه، كان لا يزال بطيئًا فى إيجاد الكلمات، فقال: "هل على أن أغادر روك يا سيدى؟"

– "هل تريد أن تغادر روك؟"

– "لا"

– "ماذا تريد؟"

"أن أبقى، أن أتعلم أن أمحو... الشر."

"لم يستطع إيميريل نفسه أن يفعل هذا – لا، لن أتركك تغادر روك، لا شىء يحميك سوى قوة الأساتذة هنا، والتحصينات الموضوعة على الجزيرة لطرد الكائنات الشريرة. لو رحلت الآن سيعثر هذا الشىء الذى أطلقته عليك على الفور، ويدخلك ويتحكم بك. لن تصبح إنسانًا من بعدها، بل وحشًا، جيبيث[٩]، دمية، تنفذ إرادة الشبح الشرير الذى أخرجته لضوء

(٩) الجيبيث هو شخص تمتصه إحدى القوى الشريرة وتفرغه من محتواه وتتحكم به ومن خلاله

النهار. لا بد من أن تنتظر هنا لتكتسب القوة والحكمة اللازمتين لتدافع عن نفسك تجاهه، إن كنت يومًا ستفعل هذا. حتى الآن ينتظرك، بالقطع ينتظرك. هل رأيته بعد هذه الليلة؟

ـ "فى الأحلام فقط." ثم قال بعد فترة وصوته يقطر ألمًا وخجلًا: "لورد جينشر، لا أعرف ما كان هذا، ذلك الشىء الذى خرج من التعويذة والتصق بى."

– "ولا أنا أعرف، لا اسم له، بداخلك قوة هائلة طبيعية، ولكنك استخدمت قوتك خطأً لتلقى تعويذة لم يكن لك عليها سلطان، ولا كنت تعرف ما ستحدثه من آثار على الضوء والظلام، الحياة والموت، الخير والشر. اندفعت لتفعل هذا بالكبرياء والكراهية. هل هناك أى عجب من أن النتيجة هى الدمار؟ لقد استدعيت روحًا من أرواح الموتى، لكن معها جاءت قوة من قوى الموت، جاءت غير مدعوة من مكان بلا أسماء، تريد أن تعمل الشر من خلالك. القوة التى استدعيتها بها هى القوة نفسها التى تمارسها عليك، كلاكما مربوط بعضكما ببعض. إنه ظل غرورك، ظل جهلك، ظل تلقيه أنت نفسك. هل للظل اسم؟"

– وقف جيد سقيمًا ومنهكًا، ثم قال أخيرًا: "ليتنى كنت مت!"

– "ومن أنت لتحكم بهذا؟ أنت الذى أعطى لك نيميريل حياته؟ أنت بأمان هنا. ستعيش هنا، وتستمر فى تدريباتك، يقولون عنك إنك كنت ماهرًا، استمر فى عملك، اعمله جيدًا، هذا كل ما بوسعك الآن."

وهكذا انتهى جينشر من كلامه، واختفى فجاة مثل كل السحرة. تراقصت النافورة فى ضوء الشمس، وراقبها جيد لفترة وهو يستمع

لصوتها، ويفكر فى إيميريل. ذات مرة وفى هذا الفناء نفسه شعر وكأنه كلمة ينطقها ضوء الشمس، الآن نطق الظلام أيضًا، نطق بكلمة لا يمكن إسكاتها.

غادر الفناء ذاهبًا لغرفته القديمة فى البرج الجنوبى التى تركوها فارغة من أجله، ظل هناك وحده. عندما يدق الجرس للعشاء كان ينزل، ولكنه لم يكن ليتحدث إلى أى من الصبية الآخرين على المائدة الطويلة، ولا حتى يرفع وجهه لهم، ولا حتى لمن كانوا يحيونه برقة بالغة. لذا بعد يوم أو اثنين تركوه وحيدًا. وكان هذا بالتحديد ما أراده، أن يبقى وحيدًا؛ لأنه يخشى ما قد يقوله دون قصد. لم يكن أىٌّ من جاسبر أو فيتش هناك، ولم يسأل عنهما. فقط كان الصبية الذين قادهم ورأسهم هناك، لكنهم كانوا قد سبقوه الآن بسبب الشهور التى ضاعت منه. ودرس فى الربيع والصيف مع صبية أصغر منه، ولم يبرع فوقهم لأن كلمات أى تعويذة، حتى أقل تعويذة إيهام، كانت تقف على لسانه وتتلعثم يديه فى حرفتهما.

فى الخريف كان عليه أن يذهب مرة أخرى إلى برج العزلة؛ ليدرس مع الأستاذ صاحب الأسماء. تسعده تلك المهمة التى كان يمل منها من قبل؛ لأن الصمت والتعلم الطويل الممل بدون تعاويذ كانا ما يرغبهما ويحتاجهما، وحيث لا داعى مطلقًا لاستدعاء تلك القوة التى يعلم أنها لا تزال بداخله. جاءه زائر فى الليلة قبيل مغادرته، زائر يرتدى عباءة سفر بنية، ويحمل عصا من البلوط تنتهى بقطعة من الحديد. وقف جيد لرؤية عصا الساحر.

– "سباروهوك."

رفع جيد عينيه عندما سمع الصوت... كان فيتش هو من يقف هناك، متينًا ومربعًا كالعادة، ربما وجهه الأسمر الغليظ قد كَبُر بعض الشيء، لكن

ابتسامته ظلت كما هى، على كتفه يقبع حيوان صغير، فراؤه بنى مخطط وعيونه لامعة.

– "لقد ظل معى بينما كنتَ مريضًا، والآن أنا حزين لفراقى له، وأكثر حزنًا أننى سأفترق عنك أنت يا سباروهوك. لكننى سأعود للوطن. هياهويج، عد إلى سيدك الأصلى!" ربت فيتش على الأوتاك، ووضعه على الأرض. جلس الأوتاك على فراش جيد، وأخذ يغسل فراءه بلسانه البنى الجاف مثل ورقة شجر صغيرة. ضحك فيتش، لكن جيد لم يستطع الابتسام، انحنى ليخفى وجهه وهو يداعب الأوتاك.

– قال جيد: "تصورت أنك لن تأت لتزورنى يا فيتش."

ورغم أنه لم يقصد أى عتاب، لكن فيتش أجاب: "لم أستطع الحضور من قبل؛ منعنى الأستاذ عشبى، ومنذ الشتاء وأنا نفسى محبوس مع الأستاذ فى غابة السحر العتيقة، ظللتُ حبيسًا حتى فزت بعصاى السحرية. اسمع، حين تصبح حرًا أنت الآخر عليك أن تأتى إلى الطرف الشرقي. سأنتظرك. المدن الصغيرة هناك مبهجة، والسحرة مكانتهم عالية."

– "حرًا..." تمتم جيد، وهز كتفيه بلا مبالاة، وهو يحاول أن يبتسم.

نظر له فيتش، ليس كما اعتاد أن يفعل من قبل بالحب نفسه، لكن بمزيد من غموض الساحر. "لن تظل مربوطًا على روك إلى الأبد." قال فيتش بوداعة.

– "حسنًا... لقد فكرت أنه ربما أحضر للعمل مع الأستاذ فى برج العزلة؛ لأكون من هؤلاء الذين يبحثون فى الكتب والنجوم عن الأسماء الضائعة وهكذا... وأيضًا حتى لا أسبب المزيد من الأذى، إن لم يكن الكثير من النفع..."

– قال فيتش: "ربما، لست عرَّافًا، لكننى لا أرى أمامك غرفًا وكتبًا، بل بحورًا بعيدة ونار التنانين وأبراج مدنٍ، وكل ما يراه الصقر فى طيرانه حين يطير عاليًا وبعيدًا."

"وخلفى... ماذا ترى خلفى؟" سأل جيد، وقام وهو يتكلم حتى عكس المصباح المشتعل فوقهما ظله على الحائط والأرض. ثم لف وجهه جانبًا وتمتم: "لكن قل لى فيتش أين ستذهب؟ وماذا ستفعل؟"

– "سأعود لأهلى، لأرى إخوتى، أختى التى سمعتنى أتحدث عنها، تركتها طفلة، ولكنها على أعتاب التسمية الآن، شىء عجيب! ثم سأجد لنفسى عملًا كساحر فى إحدى الجزر. كم أود أن أبقى للتحدث معك سباروهوك، لكن سفينتى ترحل الليلة والمد عالٍ بالفعل. سباروهوك، لو كان طريقك إلى الشرق يومًا تعال إلىَّ. ولو احتجتنى يومًا أرسل فى طلبى، أو نادنى باسمى الحقيقى: إيستاريول.

عند هذا رفع جيد وجهه المندب، وتلاقت عيونهما.

– "إيستاريول، اسمى الحقيقى هو جيد."

وبهدوء ودَّع بعضهما بعضًا، ثم استدار فيتش، ونزل إلى الساحة الحجرية، وغادر روك.

وقف جيد مندهشًا بعض الوقت، مثل مَن تلقَّى للتو أخبارًا عظيمة، وعليه أن يأخذ نفسًا عميقًا لاستيعابها. كانت هدية الاسم الحقيقى التى أعطاها له فيتش، هدية عظيمة بالفعل.

لا يعرف الاسم الحقيقى للشخص سواه ومَن سماه. قد يختار المرء بعد فترة أن يقوله لأخيه، أو زوجته، أو صديقه، لكن من يعرفون الاسم

لا ينطقونه أبدًا بمسمع من طرف ثالث، بل يستخدمون اسمه العرفى أو الكُنية، مثل سباروهوك، أو فيتش، أو أوجيون أمام الآخرين. وإذا كان الناس العاديون يخفون أسماءهم الحقيقية عن كل من حولهم، سوى القلة ممن يحبونهم ويثقون بهم تمامًا، فعلى السحرة أن يضاعفوا هذا الحذر؛ لأنهم أخطر وأكثر عرضة للخطر من بقية الناس. من يعرف الاسم الحقيقى للشخص تصبح حياة هذا الشخص تحت سيطرته. ولهذا بدا الأمر لجيد - الذى كان قد فقد كل الثقة بنفسه - أن فيتش يعطيه المنحة التى لا يعطيها سوى الصديق لصديقه برهانًا واضحًا منه على الثقة.

جلس جيد على فراشه، وترك كرة الويرلايت فوق رأسه تخفت مرسلةً ريحًا كريهة، ربت على الأوتاك الذى غطَّ فى النوم على ركبته، كما لو لم ينم فى أى مكان آخر.

كان القصر الكبير ساكنًا، خطر ببال جيد أن اليوم يماثل عشية بداية مشواره الخاص، حين أعطاه أوجيون اسمه الحقيقى. مرت أربع سنوات منذ هذا اليوم، تذكر برودة النهو الجبلى الذى مشى فيه عاريًا دون اسم، انغمس فى التفكير فى بقع أخرى مضيئة من نهر آر؛ حيث اعتاد أن يعوم، وفى قرية الشجرات العشر تحت الغابات الجبلية العظيمة المنحدرة فى ظلال الصباح، عبر شوارع القرية المتربة، وشرارة النار المتطايرة تحت منفاخ الحداد، وفى عصرية شتوية، وكوخ الساحرة المعتم المعطر؛ حيث الهواء ثقيل من الدخان والتعويذات. غاب كل هذا عن ذهنه لوقت طويل، والآن وضح كل شىء فى ذهنه، وهو على أعتاب السابعة عشرة، جاءته كل السنين والأماكن فى حياته المتقطعة القصيرة، وأصبحت وحدة متكاملة مرة

أخرى، واستطاع أن يعرف ثانيةً وأخيرًا بعد ذلك الوقت الطويل الضائع مَن هو، وأين هو.

ولكن أين سيذهب فى عمره القادم؟ هذا ما لم يستطع أن يتبينه، بل خاف أن يتبينه.

فى الصباح التالى شرع فى رحلته عبر الجزيرة، والأوتاك على كتفه مثل العادة. هذه المرة استغرقت الرحلة ثلاثة أيام، وليس اثنين ليصل إلى برج العزلة، وكان متعبًا حتى النخاع حين تراءى له البرج فوق مياه البحر ذات الرذاذ فى اللسان الشمالى. بالداخل كان الجو مظلمًا وباردًا، مثلما تذكر تمامًا، والأستاذ كيريمكارمريك يجلس فوق مقعده العالى يكتب قوائم طويلة من الأسماء. لمح جيد، فقال له دون ترحيب، وكأنه لم يبعد عن البرج يومًا: "اذهب إلى الفراش، لا فائدة من شخص مرهق، غدًا يمكنك أن تفتح كتاب إنجازات الصناع، وتتعلم الأسماء التى فيه."

عاد إلى القصر الكبير فى نهاية الشتاء، وأصبح ساحرًا من بعد أن كان من قبل مشعوذًا متدربًا. وتقبل الساحر الأعظم جينشر أوف واى فروض ولائه تلك المرة، ومن ثَم بدأ فى مذاكرة الفنون العليا والأسحار، تاركًا فنون الإيهام والخداع البصرى إلى أعمال السحر الحقيقى، متعلمًا ما يجب عليه أن يتعلمه؛ ليستحق عصاه السحرية. وكانت الصعوبة التى واجهها فى النطق بالتعاويذ قد زالت على مر الشهور، ولكنه لم يرجع أبدًا لسرعة التعلم نفسها كما كان، بعد أن لقَّنه الخوف من الظل الشبحى درسًا قاسيًا. لم يحدث ما يسوء من جراء تعلمه الأعمال الكبرى للخلق والتشكيل، وهى الأعمال الأخطر. وبدأ يتساءل أحيانا إن كان الشبح الذى أطلقه قد ضَعُف أو هرب خارج العالم بشكل ما؛ لأنه لم يعد يظهر ولا حتى فى أحلامه. لكن فى أعماق قلبه كان يعرف أن هذا أمل زائف.

تعلم جيد من الأساتذة، ومن أمهات كتب السحر كل ما يمكنه عن ذلك المخلوق الذى أطلقه، الحق أن ما عرفه كان قليلًا، فلم يكن هناك أى وصف أو كلام مباشر عن مثل ذلك المخلوق، فقط كانت هناك تلميحات هنا وهناك فى الكتب القديمة عن وحش شبحى مثل الذى أطلقه. لم يكن شبحًا فى هيئة إنسان، ولا مخلوق من قوى الأرض العتيقة، لكنه مرتبطًا بهذا وذاك.

فى كتاب "موضوع التنانين"، الذى قرأه جيد بعناية بالغة، كانت هناك حكاية عن تنين قديم خضع لسطوة إحدى القوى القديمة، حجر متكلم فى أقصى الأراضى الشمالية. وكما يقول الكتاب: "وبأمر الحجر تكلم ليستدعى روحًا من عالم الأموات، لكن السحر انحرف بسبب إرادة الحجر، وخرج مع الروح الميتة شىء ما لم يتم استدعاؤه، فابتلعه من الداخل، وأخذ يدمر الناس على هيئته." لكن الكتاب لم يذكر ماهية هذا الشىء، ولا كيف انتهت القصة. ولم يعرف الأساتذة من أين يأتى مثل هذا الشبح، لكنهم حاولوا.

قال الساحر الأكبر: "الشبح مصدره الموت." وقال الأستاذ المحول: "من الجانب الخطأ من العالم." وقال الأستاذ المستحضر: "لا أعلم." ثم جلس بجانب جيد فى مرضه، عبوسًا ومهمومًا كعادته، وقال: "لا أعلم، ولكننى أعرف أن القوة التى استدعت هذا الشىء قوة عظيمة، ربما هى قوة واحدة، صوت واحد، صوتك أنت. لكن ماذا يعنى هذا؟ لا أعلم. ستكتشف أنت هذا، عليك أن تكتشف هذا بنفسك أو تموت، بل أسوأ من أن تموت..." قال هذا بهدوء، وعيناه المعتمتان تنظران على جِيد، "لقد ظننت وأنت صبى أن الساحر بمقدوره أن يفعل أى شىء، هكذا ظننت أنا أيضًا، هكذا ظننا

جميعًا. لكن الحقيقة أنه كلما انصقل معدن الإنسان واتسعت معرفته ضاق الطريق أمامه، حتى يجد نفسه فى النهاية لا يختار أن يفعل إلا ما يجب عليه فعله."

بعد عيد ميلاده الثامن عشر أرسله الساحر الأكبر ليعمل مع الأستاذ صاحب الأنساق فى غابة السحر العتيقة، وما يدور هناك لا يتكلم أحد عنه فى أى مكان آخر. يُقال إنه لا توجد تعويذات هناك، لكن المكان كله عبارة عن عمل عظيم من السحر، فأحيانًا يمكن رؤية الأشجار وأحيانًا أخرى لا يمكن ذلك، ولا تجد دائمًا الأشجار فى المكان نفسها، أو الجزء من جزيرة روك! يقال إن أشجار البستان نفسها أشجار حكيمة. يقال إن الأستاذ صاحب الأنساق يتعلم سحره الأعظم هناك فى الغابة، وأنه لو ماتت الأشجار هناك ماتت معها حكمته، وعندما يحدث ذلك سترتفع المياه، وتغرق جزر إيرثسى هى وكل الأرض التى يعيش عليها الناس والوحوش، الأرض التى رفعها سيجوى من الأعماق قبل وقت الأساطير.

ولكن كل هذا فى حكم الإشاعات التى لا يتحدث السحرة عنها.

مرت الشهور، وأخيرًا عاد جيد فى يوم ربيعى للقصر الكبير دون أدنى فكرة ما الذى سيُطلب منه بعد ذلك. كان بانتظاره رجل عجوز على الباب المؤدى لهضبة روك عبر الحقول. لم يعرفه جيد فى البداية، لكنه عصر ذهنه، وتذكر أنه هو الرجل الذى سمح له بالدخول أول مرة منذ خمس سنوات.

ابتسم الرجل العجوز، وهو يحيه بالاسم، وسأله: "هل تعرفنى؟"

فكر جيد فى هذه اللحظة لأول مرة كيف يُحكى أن هناك تسعة أساتذة

فى روك، ورغم أنه رأى ثمانية فقط، وهم: مفتاح الريح، ويد، وعشبى، والراوى، والمحول، والمستحضر، وصاحب الأسماء، وصاحب الأنساق. كان الناس دائمًا ما يتحدثون عن أن الساحر الأكبر هو الأستاذ رقم تسعة، إلا أنه تذكر الآن لأول مرة أن تسعة أساتذة اجتمعوا معًا لاختيار الساحر الأكبر الجديد بعد موت نيميريل.

– قال جيد: "أظنك الأستاذ حارس بوابة المدرسة."

– "هذا صحيح، لقد استحققت دخول المدرسة عندما نطقت باسمك، وحتى تستحق حرية الخروج منها عليك أن تنطق باسمى أنا." قال الرجل العجوز وهو يبتسم، وينتظر الرد من جيد، وقف جيد مذهولاً.

يعلم جيد ألف طريقة وطريقة، ليعرف أسماء الناس والأشياء، فقد كان هذا جزءًا من تعليمه فى روك، وبدون الأسماء لا يجدى أى سحر حقيقى. لكن معرفة اسم ساحر، أستاذ ساحر، أمر آخر، فعلى اسم الساحر أن يظل مخفيًا مثل إبرة فى كوم قش، ومحميًا مثل عرين . أى فضول سحرى لمعرفة اسمه سيُقابله بسحر أقوى، وأى حيل ذكية ستفشل، وأى أسئلة ملتوية ستُخذل بالطريقة نفسها، وستنقلب تلك القوة على نفسها بشكل مدمر.

– "الباب الذى تحرسه ضيق يا سيدى، ولا بد أن أبقى هنا فى الحقول، وأبدأ الصيام حتى أفقد الوزن، وأصير نحيفًا لأستطيع المرور من خلاله."

– فقال الرجل مبتسمًا: "خذ وقتك."

وهكذا مشى جيد بعيدًا بعض الشىء، وجلس تحت شجرة على ضفاف نهر ثويلبيرن، وترك الأوتاك يلعب فى جدول النهر ويصطاد الكابوريا. غربت

الشمس بعد وقت طويل فقد كان الربيع طويلًا، وبدأت أنوار المصابيح تلمع في نوافذ البيت الكبير، بينما كانت شوارع ثويل حوله مظلمة. كان البوم ينعب فوق أسطح المنازل، والخفافيش تتطاير فوق الجدول وقت الغسق. كل هذا وجيد لا يزال يفكر كيف يعرف اسم الأستاذ حارس البوابة بالحيلة أو بالسحر. وكلما فكر أكثر تأكد أنه لا توجد طريقة من بين كل فنون السحر التي تعلمها في روك، في السنوات الخمس التي قضاها، لانتزاع الاسم من ساحر أستاذ.

نام في الحقول تحت النجوم، والأوتاك يتخذ من جيبه عشًا، بعد أن ارتفعت الشمس ذهب إلى الباب، وهو لا يزال صائمًا وقرعه، فتح له حارس الباب.

– "سيدي، لن أستطيع أن آخذ اسمك منك فلست قويًا بما فيه الكفاية لذلك، ولن أخدعك لتقول لي الاسم فلست حكيمًا بما فيه الكفاية. لذا فأنا راضٍ أن أبقى هنا، وأتعلم وأخدم كيفما تشاء، حتى تقرر أن تجيبني بالصدفة على سؤال عندي."

– "اسأل سؤالك."

– "ما هو اسمك؟"

ابتسم حارس الباب، ونطق باسمه لجيد، أما جيد فقد دخل القصر الكبير لآخر مرة بعد أن ردد الاسم وراءه.

لما غادر جيد القصر مرة أخرى، كان يرتدي عباءة ثقيلة زرقاء، هدية من منطقة لوتورنج، وهو المكان الذي كان عليه أن يخدم فيه بوصفه ساحرًا. حمل عصا في مثل طوله من شجر الطقسوس تنتهي بالبرونز، ودعه حارس الباب وهو يفتح له الباب الخلفي المصنوع من السندان والعاج، ونزل إلى شوارع ثويل؛ حيث تنتظره سفينة فوق مياه الصباح المتلألئة.



(٥) تنين بندور

جزيرة روك، فيما ما بين هوسك وإنسمار، توجد تسعون
يرد هى الأقرب إلى روك، وسيبيش هى الأبعد فى البحر
ـ أحد على وجه التحديد إن كان عددهم تسعين أم لا، فهى
مة، فلو عددتَ الجزر ذات الآبار العذبة لوجدتها سبعين،
صخرة كبيرة لتجاوزت المائة، دون أن تنتهى بعدُ، ويتغير
فالقنوات تجرى ضيقة بين الجزر، والمد الهادئ للبحر
ـ فيها، وقد تجد يومًا ثلاث جزر فى المد العالى، بينما تجد
ـزيرة واحدة فى المد المنخفض. وبالرغم من خطورة المد
ـن المشى يستطيع أن يبحر، بل لديه قاربه الصغير، بينما

ربات البيوت يجدفن فى القنوات للتزاور ولشرب شاى الراشووش[١٠] مع الجارات. ينادى المجدفون على آلاتهم بالأغانى ما بين التجديفة والأخرى، كل الطرق من المياه المالحة لا يحدها سوى الشبك الممتد من بيت إلى بيت لاصطياد السمك الصغير، المعروف باسم التوربيز[١١]، وزيت هذا السمك هو كنز الجزر التسعين. هناك القليل من الجسور فى المدن الكبيرة، وكل جزيرة صغيرة تزدحم ببيوت الصيادين والمزارع، وكل مجموعة جزر تتجمع فيما يعرف بالمنطقة، وهى تتكون من عشر جزر أو عشرين. من ضمن هؤلاء كانت لوتورنينج، فى أقصى الغرب، فى ذلك الجزء الوحيد من الأرخبيل؛ حيث توجد بيندور، وهى الجزيرة التى دمرها ، ومن خلفها مياه الطرف الأقصى الغربى، وهى الآن مهجورة.

هناك وجد جيد بيتًا مُعدًّا لساحر المنطقة الجديد، بيتًا على تل وسط حقول الشعير الخضراء محميًّا من الرياح الغربية بمنحدرات من أشجار البينديك، والتى كانت محملة بالأزهار الحمراء فى هذا الوقت.

من باب البيت كان المرء يطل على الأسقف القشية للبيوت، ومنحدرات وحدائق وجزر أخرى بأسقف قشية، وحقول وتلال، ومن بين كل هؤلاء كانت كل قنوات البحر المشرقة. بيت فقير، بدون نافذة، بأرضية ترابية، ولكنه كان أفضل من البيت الذى وُلد فيه. وقف أهل جزيرة لوتورنينج يشعرون بالخجل أمام البيت، وأمام ساحرهم المهيب، وأخذوا يعتذرون: "لا يوجد عندنا طوب لنبنيه به، لسنا أغنياء، رغم أنه لا أحد يموت هنا من الجوع". قال أحدهم، ثم آخر: "سيظل جافًّا على الأقل، فقد عملت على

(١٠) شاى (الراشووش) هو المشروب العشبى الساخن الرئيسى على جزيرة جونت والجزر التسعين فى إيرثسى.

(١١) التوربيز نوع آخر من الكائنات البحرية المختلفة فى عالم إيرثسى

السقف القشى بنفسى يا سيدى.“ وجد جيد البيت مثل القصر؛ لهذا شكر الثمانية عشر رجلًا من مجلس المنطقة، وعاد كل منهم إلى بيته فى قاربه الصغير، ليحكى للصيادين وربات البيوت كيف أن ساحرهم الجديد شاب غريب الأطوار عبوس، يتكلم قليلًا، ولكنه صادق ومتواضع.

فى الحقيقة لم يكن هناك أى مجال للغرور فى لوتورنينج، عادة ما يذهب السحرة الذين تعلموا فى روك إلى المدن والقلاع لخدمة السادة الذين يضعونهم فوق الرأس. أما الصيادون المساكين ممن يعملون فى لوتورنينج لم يكونوا ليحظوا سوى بساحرة بسيطة، أو مشعوذ عادى ليسحر شباك الصيد، ويتمتم فوق المراكب، ويشفى الناس والحيوانات من العلل. ولكن فى السنوات الأخيرة باض تنين بندور، وخرج من البيض تسعة تنانين صغيرة، تتخذ من قلاعٍ سادة البحر فى بندور عرينًا لها، تجرجر بطونها القشرية طلوعًا ونزولًا على السلالم الحجرية، وعبر الأبواب المكسورةٍ هناك. ولأن الجزيرة جرداء توقع الجميع أنهم فى يوم ما سيطيرون بحثًا عن الغذاء. وبالفعل شهد الناس رحلات من أربعة تنانين فوق الشواطئ الشرقية الجنوبية لهوسك، كانت الرحلات للتجسس فقط، وليس للتدمير، يحط فيها فوق قطعان الأغنام والحظائر والقرى. ورغم أن لا يجوع بسرعة، إلا أنه إن جاع فلن يمكن إسكاته، ولهذا استغاث الناس فى لوتورنينج بجزيرة روك لترسل لهم ساحرًا يحميهم مما ينتظرهم فى الطرف الغربى، ورأى الساحر الأكبر أن معهم كل الحق، ولهذا أرسل جيد.

_ ”لا توجد راحة ولا شهرة ولا ثروة فى هذا المكان، وربما ولا حتى المغامرات.“ قال الساحر الأكبر لجيد فى اليوم الذى نصبه ساحرًا.

– ”سأذهب.“ كان رد جيد، ليس من باب الطاعة فقط، فمنذ تلك الليلة المشئومة على هضبة روك انصرف قلبه بعيدًا عن حب الشهرة والظهور

بالقدر نفسه الذى رغب فيهما من قبل، والآن أصبحت القاعدة أنه يشك فى قوته، ويخاف من تجربتها. كذلك أثار الكلام عن التنانين فضوله، لم تقترب التنانين من جونت لمئات السنين، بينما لن يقترب تنين واحد قيد أنملة من أى سحر أو منظر أو رائحة لجزيرة روك، هناك التنانين ليست إلا موضوع للأغانى الملحمية والحكايات، يرويها الناس ولا يرونها. تعلم جيد كل ما يمكن أن يتعلمه عن التنانين فى روك، لكن أن تقرأ عن الشىء أمر، وأن تراه بنفسك هذا أمر آخر. كانت الفرصة أمامه سانحة، ولهذا أجاب بالموافقة على الفور. هز الساحر جريشنر رأسه بالموافقة، وإن ظلت نظرته كئيبة، فقال: "أخبرنى، هل تخاف من ترك روك، أم أنك مشتاق للرحيل؟" فهز رأسه قائلًا: "كلاهما سيدى.

– "لا أعرف إن كنت أفعل الصواب بأن أرسلك بعيدًا عن الأمان هنا أم لا، قال الساحر بصوت خفيض، "لا أرى طريقك، كله معتم بالنسبة لى، وهناك قوة فى الشمال، شىء ما قد يدمرك، لكن ما هذا الشىء؟ وأين؟ هل هو فى ماضيك، أم ينتظرك فى المستقبل؟ لا أعرف، كله معتم. عندما حضر رجال لو تورنينج هنا فكرت فيك على الفور، فهو يبدو مكانًا آمنًا، بعيدًا عن المشاكل، مكانًا قد يعطيك الوقت لتستجمع قوتك، ولكنى أقول إننى لا أعرف إن كان هناك أى مكان آمن بالفعل لك. لا أريد أن أرسلك إلى الظلام."

بدا المكان مشرقًا بما يكفى لجيد فى البداية، فعاش هناك يراقب السماء الغربية، وهو يصغى السمع جيدًا بأذنى الساحر لأصوات أجنحة الحرشفية. لكن لم يأت أى تنين، كان جيد يصطاد عند اللسان، ويهتم بحديقته الصغيرة، ويقضى أيامًا كاملةً يفكر فى صفحة واحدة، أو كلمة، فى أحد أمهات كتب السحر الذى أحضرها معه من روك، وهو يجلس فى الخارج فى الهواء الصيفى تحت أشجار البينديك، بينما الأوتاك ينام بجانبه، أو يصطاد

الفئران فى غابات النجيل والأقحوان، ويخدم أهل لو تورنينج معالجًا لكل الأمراض، ومحركًا للطقس كلما طلبوا منه. لم يخطر بباله أنه كساحر قد يخجل من هذه المهارات المتواضعة، فقد كان يومًا ساحرًا طفلًا فى قرية أفقر من هذه، ومع هذا فقلما طلب منه أهالى لو تورنينج شيئًا، فهو عندهم مُهاب؛ ليس فقط لأنه ساحر من روك، جزيرة الحكمة والحكماء، ولكن لصمته الدائم، ووجهه المليء بالندوب. كان به بالرغم من صغر سنه ما يبعد الناس عنه ويشعرهم بالقلق تجاهه. ومع هذا فقد وجد صديقًا، صانع قوارب، عند أقرب جزيرة باتجاه الشرق، اسمه بيتشفيرى، تقابلَا أول مرة عند لسان الصيد، حين توقف جيد ليشاهده وهو يثبت صارى المركب الصغير، نظر إلى الساحر الشاب بابتسامة على وجهه، وهو يقول: "ها هو عمل شهر كامل على وشك الانتهاء، أعتقد أنك كنت تستطيع إنهاءه فى لحظة بكلمة واحدة، صحيح؟"

- "ربما" أجاب جيد، لكنها ستغرق فى اللحظة الثانية على الأرجح، إلا لو حافظت على التعويذات... اسمح لى..." وتوقف.

- "حسنًا سيدى."

"مركب جميل صغير، لا تحتاج لشيء على الإطلاق، لكن لو أردت يمكننى أن ألقى عليها تعويذة ربط لتحافظ عليها مربوطة، أو تعويذة إيجاد لتساعدها أن تجد طريقها للوطن دائمًا من البحر."

تكلم جيد بتردد، فلم يكن يود إحراج الرجل، لكن وجه بيتشفيرى تهلل عند سماع هذا، وقال: "المركب الصغير لابنى. إنه كرم بالغ منك ومروءة أن تلقى عليها بأسحارك." قال هذا، وصعد على اللسان ليأخذ بيد جيد ويشكره.

ومن يومها وهما يعملان معًا فى صناعة وتصليح القوارب. جيد يحيك التعويذات السحرية فوق العمل اليدوى لبيتشفرى على المراكب التى يصنعها ويصلحها، فى المقابل كان بيتشفيرى يعلم جيد كيف يصنع المركب ويتعامل معه دون أسحار، فهذه المهارة من الإبحار البسيط كانت مُحرَّمة وغامضة بشكل ما فى روك. كثيرًا ما خرج جيد وبيتشفيرى وابنه الصغير إيوث للإبحار فى القنوات والبحيرات، بالشراع أو مجدفين، حتى أصبح جيد بحارًا ماهرًا، وتوثقت الصداقة بينهما.

فى نهاية الخريف مرض ابن صانع القوارب بيتشفيرى، أرسلت الأم لساحرة جزيرة تيسك، التى تعرف شيئًا ما عن العلاج، وبدا أن كل شىء يتحسن يومًا أو اثنين، لكن فى ليلة عاصفة جاء بيتشفيرى يدق الباب على جيد، ويرجوه أن يأتى لينقذ الطفل. أسرع معه جيد إلى القارب فى الظلام والمطر، وهناك رأى الطفل يرقد على فراشه، والأم منحنية بجانبه فى صمت، بينما الساحرة تحرق جذور الكورلى، وتتمتم بأنشودة ناجيان، وهذا أفضل ما تعرفه للعلاج. لكنها همست فى أذن جيد: "سيدى الساحر أرى أنها الحمى الحمراء، وأن الطفل سيموت الليلة."

عندما انحنى جيد، ووضع يده على الطفل رأى هذا أيضًا، وتراجع للخلف للحظة. فى الشهور الأخيرة من مرضه الطويل علمه الأستاذ عشبى الكثير من علم الطب، وكان أول وآخر هذه الدروس هو هذا: "عالج الجرح، وداوِ المرض، لكن دع الروح المُحتضرة ترحل."

رأت الأم هذه الحركة، وأدركت معناها، وصرخت عاليًا من الحزن واليأس. انحنى عليها بيتشفيرى قائلًا: "السيد سباروهوك سينقذه يا زوجتى، لا داعى للبكاء، اللورد سباروهوك هنا، ويستطيع أن ينقذه."

عند سماع بكاء الأم، والثقة التى أعطاها له بيتشفيرى، لم يعرف جيد كيف يحبطهما، فكذب رؤيته، وفكر أنه ربما يمكن إنقاذ الطفل فقط لو تم تخفيض الحرارة، وقال: "بيتشفيرى، سأحاول."

وبدأ فى غسل الطفل بماء المطر الذى جلبوه للتو من الخارج، وبدأ يتمتم بإحدى تعويذات الحمى، لكن التعويذة لم تكتمل، ولا تشكلت من الأصل، وفجاة شعر أن الطفل يموت بين ذراعيه.

استدعى جيد كل قوته فجأة، ودون أن يفكر فى نفسه أرسل روحه بحثًا عن روح الطفل لتعيده لأمه، وهو ينادى: "إيوث" ظنًا منه أنه سمع استجابة ضعيفة لندائه الداخلى. أعاد النداء مرة أخرى، ثم رأى الطفل الصغير يجرى بسرعة أمامه نحو منحدر مظلم، منحدر كبير على تل كبير، لم يكن هناك صوت، والنجوم فوق التل لم تكن نجومًا قد رآها من قبل، ورغم هذا فقد كان يعرفها بالاسم: الحزمة، الباب، الملتف، الشجرة. نجوم لا تغرب، ولا يغلبها أى نهار. تبع جيد روح الطفل الميت أكثر مما ينبغى.

الآن، وقد عرف هذا، قد وجد نفسه وحيدًا على جانب التل، كان من الصعب الرجوع...بل مستحيل. استدار ببطء، وببطء مد قدمه للأمام ليتسلق التل عائدًا، ثم قدمه الأخرى، أخذ يمشى خطوة بخطوة، كل خطوة مليئة بالتصميم، وكل خطوة أصعب من التى سبقتها.

لم تتحرك النجوم، ولا هبت ريح على الأرض الجافة، فى كل مملكة الظلام لم يتحرك شىء سواه صاعدًا ببطء، ووصل إلى نهاية التل، ورأى حائط الأحجار المنخفض هناك. لكن عندما عبر الجدار رأى شبحًا يواجهه.

لم يكن للشبح جسم إنسان أو وحش، كان بلا شكل، بالكاد يراه أمامه، لكنه كان يهمس له بدون صوت، ويتجه نحوه. وقف الشبح فى ناحية الأحياء، بينما وقف جيد ناحية الموتى.

فهو إما أن يهرب منه وينزل التل باتجاه الموت عبر الصحارى والمدن المظلمة للموتى، أو يخطو عبر الجدار نحو الحياة؛ حيث ينتظره الشبح، ذلك الشر الغامض.

كانت معه عصاه الروحية، رفعها عاليًا، وبهذه الحركة عادت له قوته، وهو يجاهد لعبور الجدار مباشرة، من خلال الشبح اشتعلت العصا بضوء أبيض مفاجئ، ضوء مُذهل يعمى الأبصار فى هذا المكان المعتم. قفز وشعر بنفسه يسقط، ثم لم يرَ شيئًا بعد هذا.

أما ما رآه بيتشفيرى والزوجة والساحرة فكان ما يلى: الساحر توقف بتعويذته فى منتصفها، وحمل الطفل لبرهة دون حراك، ثم وضع الطفل بحرص على فراشه، ثم قام ووقف حاملًا عصاه، ثم فجأة رفع عصاه عاليًا، واشتعلت بالنار البيضاء، وكأنه يمسك بصاعقة فى قبضة يده، وقتها بان كل ما فى المنزل غريبًا ومكشوفًا فى هذه النيران المفاجئة. وعندما أفاقت أعينهم من هذا الذهول رأوا الشاب منحنيًا إلى الأمام على الأرض الترابية بجانب الفراش الذى يرقد عليها الطفل.

ظن بيتشفيرى أن الساحر قد مات أيضًا، وبينما كانت زوجته تبكى وهو يقف مذهولًا رأت الساحرة - التى كانت على دراية ببعض مما يقال عن السحر الحقيقى، والطرق التى قد يمشيها الساحر الحقيقى - رأت أن جيد فى حالته هذه بارد وخالٍ من الحياة، كما رقد أمامهم، يجب أن يُعامل بوصفه مريضًا أو ممسوسًا. حملوه إلى البيت، وتركوا معه امرأة عجوز ترى إن كان سينام ويفيق، أم سينام إلى الأبد.

كان الأوتاك مختبئًا فى العوارض الخشبية للسقف كعادته عند وجود غرباء فى البيت، وظل هناك، بينما المطر يعصف بالجدران، والنار تخبو فى

المدفأة، والعجوز ينكفئ رأسها على صدرها من النعاس. ثم زحف وجاء إلى جيد، وهو يرقد فى فراشه بلا حياة متخشبًا، وبدا يلعق يديه ومعصميه، يلعق طويلا بصبر بلسان بُنى مثل ورقة الشجر، انحنى على رأسه، وأخذ يلعق صدغه ووجهه الملىء بالندوب وعينيه المغلقتين، وببطء شديد، وتحت هذه اللمسة الحانية، أفاق جيد، وهو لا يعرف أين هو، أو ماذا حدث، أو ما ذلك الضوء الرمادى فى الهواء من حوله، وهو ضوء الفجر البازغ فى الدنيا. وبعد أن أفاق تكوم الأوتاك عند كتفه كالعادة ونام.

حين فكر جيد مليًا فيما حدث لاحقًا، عرف أنه لو لم يلمسه أحد فى هذه الليلة التى رقد فيها بلا روح، لو لم يناده أحد ليعود للحياة بشكل أو بآخر، لكان ضاع إلى الأبد. كانت فطرة الحيوان الذى أخذ يلعق رفيقه المصاب هى التى أنقذته. رأى جيد فى هذه الفطرة الحكيمة ما يعادل قوته السحرية فى عمقها، ومن يومها آمن أن الحكيم هو من يظل بالقرب من الكائنات الحية، حتى لو لم يفهم لغتها. وفى السنوات الأخيرة جاهد ليتعلم كل ما يمكن تعلمه، بصمت، من عيون الحيوانات، من طيران الطيور، وحركة الأشجار العظيمة البطيئة.

لقد قام جيد برحلته الأولى لعالم الموتى، عبره لأول مرة مفتوح العينين عبورًا لا يقدر عليه سوى السحرة الكبار، ولا يأمن حتى أكبرهم أن يعود من هذه الرحلة سالمًا. لكنه عاد للحزن والخوف، الحزن على موت ابن صديقه، والخوف على نفسه، ولم يفهم لماذا كان الساحر الأكبر يخشى من إرساله خارج روك قبل هذا، وما الذى أظلم الرؤية أمام الساحر وقتها بشأن مستقبله، فالظلام نفسه هو ما كان ينتظره. ظلام بلا اسم، شىء لا ينتمى لهذا العالم، ظل شبحى صنعه، أو أطلقه بيده، يربض عند الفاصل ما بين الموت والحياة على شكل شبح. انتظره كل هذه السنين الطويلة، ووجده هناك أخيرًا، وسيأتى فى أثره طالبًا الالتصاق به الآن، مستمدًا منه القوة لنفسه، ليبتلع حياته ويرتدى جسمه.

بعدها أخذ يحلم بالشبح على شكل دب، لا رأس له ولا جسم، يتخبط فى أرجاء المنزل باحثًا عن الباب، لم يكن قد حلم بهذا الحلم منذ التئام جروحه التى سببها له الشبح. وعندما يستيقظ تكون جروحه مشدودة ومؤلمة.

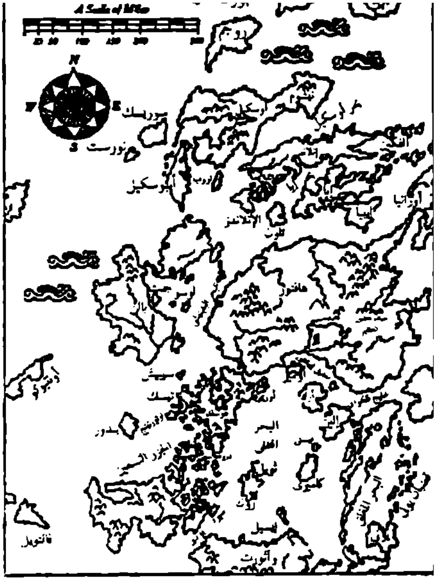
كان جيد فى أزمة، فعندما كان يحلم أو يفكر فى الشبح كان ينتابه الفزع البارد الرهيب نفسه، ويفقد الحس والقوة، ويصبح بليد الفهم مذهولًا. استشاط غضبًا من جُبنه، لكن هذا لم يقدّم أو يؤخرّ فى الأمر. حاول أن يؤمِّن بعض الحماية لنفسه، لكن أين الحماية من كائن ليس بدم ولا لحم؟ كائن غير حى، وغير روحى، بلا اسم ولا ماهية، سوى ما أعطاه هو له بنفسه، قوة رهيبة خارج قوانين العالم المضىء. كل ما يعرفه عنه هو أنه ملتصق به، ويحاول أن ينفذ إرادته من خلاله، وهو من صنعه فى المقام الأول. لكن بأى شكل سيأتى، وهو لم يتخذ لنفسه شكلًا بعد؟ وكيف سيأتى؟ لم يعرف إجابة لأى من هذه الأسئلة.

لهذا أقام ما استطاع من الحواجز السحرية بالتعاويذ حول منزله والجزيرة التى يعيش فيها، وهذه الجدران التعويذية لابد من تجديدها ما بين الحين والآخر، ولهذا فسريعًا ما ظهر له أنه لا نفع منه لسكان الجزيرة، وهو يستنفذ قوته على تحصين الجدران، ماذا سيفعل بين عدوين؛ لو جاء من بيندور؟

جاءه الحلم مرة أخرى. فى هذه المرة كان الشبح فى بيته، بجانب الباب، يتجه نحوه فى الظلام، ويهمس له بكلمات لا يفهمها. صحا مرعوبًا، وأرسل الويرلايت تضىء كافة أرجاء المنزل فى كل ركن، حتى لم يعد يرى أشباحًا. ثم وضع بعض الخشب على الفحم فى المدفأة، وجلس فى ضوء المدفأة ينصت لصوت رياح الخريف تتخلل السقف القشى، وتنوح فوق

الأشجار الجرداء، وفكر طويلًا طويلًا، استيقظ غضب قديم وعميق فى قلبه، لن يحتمل أن ينتظر طويلًا هذا الانتظار الذى لا حول له ولا قوة، وهو حبيس على تلك الجزيرة الصغيرة، يتمتم بتعويذات لا قيمة لها لتحميه. لكنه لا يستطيع أن يرحل ببساطة هكذا، لو فعل هذا سيكون قد خان ثقة أهل الجزيرة وتركهم لهذا التنين الرهيب دون حماية. لم يكن هناك أمامه سوى طريق واحد.

فى الصباح، ذهب إلى المرسى الرئيس لجزيرة لو تورنينج، ووجد كبير الجزيرة هناك، فقال له: "لابد أن أرحل من هنا، أنا فى خطر كبير، وأعرضكم جميعًا للخطر معى، لابد أن أذهب، وأتخلص من التنانين على بندور، عندها ستنتهى مهمتى هنا، وأستطيع أن أذهب بحرية، ولو فشلت سيكون من الأفضل أن تعرفوا من البداية أننى بلا فائدة. فشلى هناك هو ذاته فشلى هنا على الجزيرة."



أهل الجزيرة يحملق فيه فاغر الفم: "لورد سباروهوك،
ـعة تنانين على جزيرة بندور".

منهم لا يزالون صغارًا."

كبير..."

، لابد أن أرحل من هنا، أطلب الإذن لأن أخلصكم من خطر
."

– "كما ترغب سيدى." قال الرجل بأسًى. ظن كل من سمع هذا الحوار أنها حماقة بالغة من الساحر الشاب، وراقبوه يرحل بوجوه مكفهرة، متوقعين ألَّا يسمعوا منه ثانيةً أبدًا. ألمح البعض أنه سيعود من خلال هوسك إلى البحر المخفى، تاركًا إياهم للخطر، بينما ظن البعض – ومن بينهم بيتشفيرى – أن الساحر ذهب عقله، ويسعى للموت.

على مدار أربعة أجيال من البشر تحاشى الناس الاقتراب من جزيرة بندور، ولم يسعَ أى ساحر لأن يحارب التنين هناك؛ فالجزيرة كانت بعيدة عن أى طريق سفر، يمتلكها قراصنة، صيادو عبيد، مشعلو حروب، مكروهون مِن كل مَن عاش فى المنطقة الغربية من إيرثسى. ولهذا لم ينتقم أحد للورد بندور حين هجم التنين عليه وهو ورجاله يحتفلون، وأحرقهم بنيرانه، وأخرج أهل البلدة من قريتهم إلى البحر وهم يصرخون، تُركت بندور للتنين دون انتقام، جزيرة كاملة بعظامها وجواهرها وأبراجها وكنوزها المسروقة من الأمراء الراحلين لسواحل بالن وهوسك.

كل هذا يعرفه جيد جيدًا وأكثر. فمنذ جاء إلى لوتورنينج وهو يسترجع كل ما يعرفه عن التنانين فى ذهنه؛ لذا فقد أبحر إلى بندور فى قاربه الصغير، دون تجديف ولا مهارة الإبحار التى علمها له بيتشفيرى، أبحر بالسحر وريح الساحر فى شراعه، وتعويذة على مقدمة المركب وعلى قاعه؛ ليحتفظ بريح السحر فعالة. راقب ليرى الجزيرة الميتة تظهر من فوق الأمواج، كانت السرعة ما يريد ولهذا استخدام ريح السحر فقد كان يخشى أن ما وراءه أكثر مما أمامه، لكن بينما اليوم يمر تحولت قلة صبره من خوف إلى ضراوة محمودة، على الأقل هو يسعى لهذا الخطر من تلقاء ذاته، وكلما اقترب ازداد ثقةً فى أنه فى هذه الساعة وفى هذا الوقت كان حرًّا، لا يجرؤ الشبح على تتبعه وهو ذاهب إلى فك.

جرت الأمواج برءوسها البيضاء فوق البحر الرمادى، بينما السحب الرمادية تسبح فوق الرءوس فوق الرياح الشمالية. اتجه غربًا بريح السحر، وظهرت له صخور بندور، وشوراع المدينة الساكنة، وأبراجها المتهالكة المبعثرة.

عند دخوله الميناء، وهو خليج صغير على شكل هلال، أسقط تعويذة الريح، وسكن القارب، وظل يتهادى على المياه، ثم استدعى قائلًا: "يا مغتصب جزيرة بندور، تعال ودافع عن كنوزك."

ضاع صوته وسط صوت الأمواج المتكسرة على الشواطئ المحترقة، ولكن التنانين لها آذان حادة السمع، لذلك طار واحد منهم بسرعة من فوق أطلال أحد المبانى مثل وطواط كبير، جناحه نحيف، وظهره مغطى بالشوك، يلف فى دوائر ريح الشمال نحو جيد. تشجَّع جيد عند رؤية الكائن الذى هو أسطورة عند أهله، وضحك ونادى: "اذهب إلى العجوز، وأخبره أن يأتى يا دودة الريح."

كان هذا واحدًا من التنانين الصغار، وضعته أنثى تنين من الطرف الأقصى الغربى هناك منذ سنوات، وتركته مع إخوته فى غرفة مشمسة فى أحد الأبراج، وطارت ثانية، تاركة إياهم مع تنين بندور العجوز؛ ليراقب الصغار وهم يزحفون خارج قشور البيض مثل السحالى السامة.

لم يجب ، لم يكن كبيرًا، ربما بحجم سفينة ذات أربعين مجدافًا، فى رقة الدودة، أغشية أجنحته السوداء فى متناول اليد. لم ينضج بعد، ولم يكتسب صوته شيئًا من مكر التنانين. جاء مباشرة إلى جيد فى مركبه الصغير، فاتحًا فكه ذا الأنياب، ينقض مثل السهم من الهواء، كل ما فعله جيد هو تقييد أجنحته وأطرافه بتعويذة سريعة، وإرساله إلى البحر ليغرق مثل الطوبة، وينغلق عليه البحر الرمادى.

طار إثنان من التنانين مثل هذا من قلب البرج العالى فى بندور، وجاءا بالطريقة نفسها نحو جيد، وبالطريقة نفسها قيدهما وأغرقهما دون حتى أن يرفع عصا الساحر.

الآن، وبعد وقت قصير، جاء ثلاثة آخرون من قلب الجزيرة، واحد منهم كان أقوى من الجميع، وهو يقذف بدوائر من النار من فكه، وجاء اثنان يطيران، يرفرفان بأجنحتهما بينما هاجمه الكبير من الخلف ليحرقه ومركبه بنفخة من أنفاسه النارية. فكر جيد أنه لن يستطيع تقييد التنانين الثلاثة بتعويذة واحدة؛ لأن اثنين منهم جاءا من الشمال، وواحد من الجنوب. وفى اللحظة التى أدرك فيها هذا، ألقى جيد تعويذة تحوُّل، وما بين طرفة عين وانتباهتها كان قد طار من مركبه فى شكل تنين كبير.

وبعد أن فرد جناحيه ومد مخالبه، واجه التنينين الأصغر وحرقهما بالنار، ثم استدار ليواجه الثالث الذى كان أكبر منه ومزودًا بالنار أيضًا. فوق الرياح والأمواج الرمادية، تواجه الاثنان، التويا، عضَّ بعضهما بعضًا، انقض بعضهما على بعض، حتى ارتفع الدخان بينهمًا محمرًا من وهج الأفواه النارية. طار جيد فجأة إلى الأعلى، وتبعه الآخر، فى وسط الطيران رفع جيد جناحيه، توقف وانقض كما ينقض الصقر على الفريسة، والمخالب مفرودة، وهو يضرب ويأخذ الثانى من العنق والجنب. اهتاجت الأجنحة، وتساقط دم الأسود الثقيل فى البحر، خلَّص تنين بندور نفسه، وطار على ارتفاع منخفض كسيحًا حتى الجزيرة، ليزحف إلى أحد الكهوف، ويختبئ هناك.

على الفور رجع جيد إلى هيئته الأولى، وعاد إلى قاربه، فمن الخطر المحقق أن يبقى على هيئة هذه أكثر مما ينبغى. كانت يده متفحمة بدم الأسود

الحارق، ورأسه يدخن من النار، لكن لم يكن هذا مهمًا الآن. فقط انتظر جيد حتى التقط أنفاسه، وصاح عاليًا: "رأيت ستة منهم، ذبحت خمسة حتى الآن، أعرف أن هناك تسعة، اخرجوا يا دود الأرض!"

لم يتحرك مخلوق، ولم يطلع صوت لفترة طويلة على الجزيرة، فقط كانت الأمواج تضرب بعنف على الشاطئ، إلا أن جيد شعر بأن أعلى برج فى الجزيرة قد تغير شكله، وبدا منتفخًا من أحد الجوانب، وكأنه قد أنبت ذراعًا، ارتعب من سحر التنانين، التنانين العجوزة قوية وخبيثة السحر للغاية، سحرهم يشبه سحر الإنس، وإن كان لا يشبه سحر الإنس. لكن بعد دقيقة أيقن أن ما يراه هو خدعة عينيه، وليس حيلة من التنين ، فما اعتقد أنه جزء من البرج لم يكن سوى كتف تنين بندور العظيم، وهو يتحرك وينزل جسده، ويرفع نفسه ببطء.

وعندما وقف على قدميه أخيرًا كانت رأسه الحرشفية ذات القرن، واللسان الثلاثى، أعلى من البرج المهدم، وقدماه ذواتا المخالب تقف على أنقاض المدينة كلها، كانت قشوره رمادية مسودة، تختزن ضوء النهار مثل الصخور المتكسرة، تنين أعجف مثل كلب الصيد، ضخم مثل التل، وقف جيد مشدوهًا، فلا ملحمة ولا حكاية كان بإمكانها أن تعده لمثل هذا المنظر، كان على وشك أن ينظر فى عينيى ويتوه هناك، لكنه نظر بسرعة بعيدًا عن العيون الخضراء الزيتية التى راقبته، من الخطر النظر فى عينيى . نظر أمامه، وأمسك بعصاه فى يده، تلك العصا التى بدت الآن أمام التنين مثل فرع الشجرة الهزيل.

فقال بصوته الجاف العميق: "أيها الساحر الشاب، كان عندى ثمانية من الأبناء، قتلت خمسة منهم، والسادس يموت الآن. كفى، لن تأخذ كنزى بهذه الطريقة."

- "لا أريد كنزك."

هسهس الدخان الأصفر من خياشيم ، كانت هذه ضحكته، وقال:

"ألا تريد أن تنزل على الشاطئ، وتلقى نظرة على كنزى يا صغيرى، فهو يستحق النظر إليه."

- "لا يا تنين." كانت قوة التنانين فى الهواء والنار، ولا يحاربون بمحض إرادتهم فوق البحر، (كان وجود جيد فى البحر هو تفوقه الوحيد حتى هذه اللحظة ولم يكن يتخلى عنه)، وإن لم يعد واثقًا من أن ذلك الشريط الرفيع من الماء بينه وبين هو أى ميزة على الإطلاق.

كان من الصعب ألَّا ينظر فى العيون الخضراء المترقبة.

قال : "أنت ساحر صغير جدًّا، لم أعرف أن بنى الإنسان يمتلكون قوتهم فى هذا السن الصغير." تكلم ، كما فعل جيد باللغة القديمة، فهى لغة التنانين. المشكلة أن اللغة القديمة تجبر الإنسان على قول الحقيقة فقط ولا شىء غيرها، بينما الوضع مختلف للتنين؛ فهى لغة التنانين الأصلية، ويستطيعون بسهولة الكذب بها، يستطيعون لَىّ معانى الكلمات للوصول لغايات زائفة، ويستطيعون أن يوقعوا بالمستمع الصغير فى متاهات من مرايا الكلمات، التى تعكس كل منها الحقيقة، دون أن تؤدى بهم إلى أى مكان. هذا ما تم تحذير جيد منه دائمًا، ولهذا كان يستمع للتنين بأذن متشككة، وقليل من الثقة. لكن كلمات بدت له واضحة ومباشرة: "هل أتيت تطلب مساعدتى، أيها الساحر الصغير؟"

- "لا يا تنين."

– ”ومع هذا فأنا أستطيع أن أساعدك، ستحتاج للمساعدة قريبًا ضد ذلك الذى يطاردك فى الظلام.“

وقف جيد مشدوهًا وقال:

– ”ما هذا الذى يطاردك؟ اذكر لى اسمه.“

– هذا لو استطعت أنا أن أسميه...“ أوقف جيد نفسه.

ارتفعت حلقتان من الدخان من فوق رأس التنين الطويل، من الخياشيم التى كانت عبارة عن حفرتين من النار.

– ”لو عرفت اسمه لسيطرت عليه أيها الساحر الصغير، ربما أستطيع أن أخبرك باسمه لو رأيته عن قرب، وسيأتى عن قرب لو بقيت على هذه الجزيرة، لو أردته بعيدًا عنك عليك أن تهرب، وتظل تجرى وتهرب منه، ثم سيتبعك ثانية، هل تريد أن تعرف اسمه؟“

وقف جيد ساكنًا لفترة، كيف عرف التنين بالظل الشبحى الذى أطلقه؟ لم يستطع أن يخمن كيف سيعرف اسم الشبح حين يراه. قال الساحر الأكبر إن الشبح بلا اسم، لكن للتنانين حكمتها الخاصة، قلة قليلة من البشر يعرفون ما يعرفه التنين ، ولماذا يعرفه وهؤلاء القلة هم فرسان التنانين. الشىء الوحيد الذى يعرفه التنين جيد أنه رغم أن التنين يقول الحقيقة، ورغم أن بإمكانه أن يساعده ليعرف ما اسم الشىء الذى يطارده، وبهذا يعطيه القوة فوقه، إلا أنه يفعل هذا لمصلحته الخاصة.

– فقال جيد بعد صمت طويل : ”من النادر أن تقدم التنانين المساعدة لبنى البشر.“

– "لكن من الشائع جدًّا أن تلعب القطط مع الفئران قبل افتراسها."

– "لكننى لم أحضر هنا لألعب، حضرت هنا لأعقد صفقة معك."

ارتفع ذيل التنين حادًّا مثل السيف فوق ظهره المحنى، ذيل طوله خمسة أضعاف طول أى سيف، تلوى الذيل وانعقف مثل العقرب، وارتفع فوق البرج. تكلم التنين بعدها بجفاف: "لا أعقد صفقات، آخذ فقط، ما الذى عندك تقدمه وأنا لا أستطيع أن آخذه بإرادتى وقتما أحب؟"

– "الأمان، أمانك، أقسم أنك لن تطير شرق بندور، وسأقسم أن أتركك آمنًا."

خرج صوت فظ من حنجرة مثل انهيار جليدى، أو صخور تتساقط من الجبال. تراقصت النيران من فوق لسانه الثلاثى، رفع جسمه عاليًا، وهو يطل من فوق الأطلال: "تعرض علىَّ الأمان؟ تهددنى؟ بمَ؟

– "باسمك... ييفود."

اختلج صوت جيد وهو ينطق الاسم، ومع هذا نطقه عاليًا وواضحًا. وعند النطق بالاسم سكن التنين تمامًا. مرت دقيقة، ودقيقة أخرى. وعندها ابتسم جيد وهو يقف هناك فى تلك الرقاقة التى أسماها قاربًا، رهن حياته ومغامرته على تخمين وصل له من مذاكرة أمهات كتب السحر عن التنانين فى روك، تخمين أن تنين بندور هذا هو نفسه الذى دمر غرب أوسيكيل فى عهد إلفارين وموريد، وتم إبعاده عن أوسيكيل بواسطة ساحر إلت الحكيم فى التسمية، وكان التخمين صحيحًا.

– "الآن نحن متساويان ييفود، لديك قوتك، ولدى اسمك، هل تقايض الآن؟"

سنون طويلة مرت على التنين وهو ممدد بكَسل على الجزيرة، يرقب صغاره يمرحون ويجربون أجنحتهم بين الأنقاض، والمجوهرات والذهب المتناثر على الجزيرة بين التراب والطوب والعظام، سنون طويلة وهو نائم لا يزعجه صوت ولا حركة شراع. كان من الصعب الحركة الآن، ومواجهة هذا الساحر الصغير، ذلك العدو الضعيف الذى جفل ييفود عند رؤية عصاه السحرية.

– "يمكنك أن تختار تسعة جواهر من كنزى، اختر الأفضل، خذها واذهب." هسهس الصوت، وانتحب داخل فك التنين الطويل، وهو يقول هذا الكلام.

– "لا أريد جواهرك ييفود."

– "أين ذهب طمع البشر؟ كان البشر يعشقون الأحجار اللامعة فى الأيام الخالية فى الشمال. الآن أعرف ما تريد أيها الساحر الصغير، أنت أيضًا تريد أمانك. أعرف ما ينقذك، الرعب الذى يطاردك أستطيع أن أخبرك باسمه."

قفز قلب جيد داخل ضلوعه، وتمسك بعصاه، وهو يقف ساكنًا مثل التنين، ويحارب الأمل الذى داهمه فجأة.

لم تكن حياته هى التى كان يقايض بشأنها، بل حياة الناس فى إيرثسى. لم يكن بمقدوره أن يمارس إلا سلطة واحدة فقط فوق التنين، لهذا وضع الأمل جانبًا، وفعل ما يجب عليه فعله.

– "ليس هذا ما أريد ييفود."

عندما نطق جيد باسم التنين الحقيقى كان كما لو قيده بطوق سحرى محكم رفيع، وأحكمه حول عنقه. كان بمقدوره أن يشعر بكراهية التنانين العميقة، وتجربتهم المريرة مع البشر فى نظرته، استطاع أن يرى المخالب الحديدية للتنين، كل منها فى طول ذراع الإنسان، كان يشعر بالنار الحارقة الكامنة فى حنجرة التنين ، لكن الطوق حوله كان محكمًا محكمًا.

ثم تكلم ثانية: "ييفود، أقسم باسمك أنه لا أنت ولا أى من ذريتك ستقترب ثانية من إيرثسى."

اندفعت النيران براقة وعالية من فم التنين وقال: "أقسم باسمى."

ساد الصمت فوق الجزيرة، وخفض رأسه الكبير.

عندما رفعه ثانية كان الساحر قد ذهب، وشراع قاربه يبدو مثل نقطة بيضاء فوق الموج ناحية الشرق، متجهًا نحو الجزر الكبيرة المكسوة بالزينة فى البحار الداخلية. وفى فورة غضبه حطم التنين البرج تحت ثقل جسمه، وضرب بجناحيه فى الهواء، فغطى بهما كل المدينة المحطمة، لكن قَسَمَه قيده، ولم يطر وقتها، ولا فى أى وقت آخر لجزر الأرخبيل.



(٦) مطارد

شعَر جيد بالخوف من الشبح يملأ قلبه ثانية أول ما اختفت جزيرة بندور وراءه، وهو فى طريقه باتجاه الشرق. كان من المؤلم أن يحل محل خطر التنين الواضح، هذا الخطر المبهم اليائس من الشبح. أوقف رياح السحر، وأبحَر برياح العالم؛ لأنه لم يرغب فى السرعة الآن. لم تكن عنده خطة واضحة، ماذا يفعل؟ فعليه أن يهرب، لكن إلى أين؟ إلى روك؛ لأنه على الأقل هناك محمى، وربما يتلقَّى المشورة من الحكماء هناك فيما يفعل.

كان عليه أولًا أن يعود إلى لوتورنينج ليحكى لأهل الجزيرة حكايته مع التنين ، وعندما انتشر الخبر أن الساحر قد رجع بعد خمسة أيام من رحيله أتوا فى قواربهم من كل صوب وحدب؛ ليلتفوا حوله، ويستمعوا لقصته محملقين. حكى قصته، وبعدها قال أحدهم: "لكن مَن منا رأى بعينيه معجزة التنانين المذبوحة، و المرعوبة؟ ماذا لو...؟"

فقال كبير الجزيرة بغلظة "صه." لأنه كان يعرف، مثلما يعرفون جميعًا، أن الساحر ربما يقول الحقيقية بطرق ماكرة، لكنه إذا قال شيئًا فهو الحقيقة، فهذه هى مهارة الساحر وقوته. لهذا تعجب المستمعون، ثم زال الخوف عنهم، وابتهجوا، والتفوا حول ساحرهم الشاب، وطلبوا سماع الحكاية ثانية. وعند هبوط الليل لم يعد بحاجة لأن يحكى حكايته مع التنين، فقد أصبحوا يحكونها أفضل منه. وبسرعة شديدة كان منشد القرية قد وضع كلمات الحكاية على لحن قديم، وبدأ الناس يغنون أغنية سباروهوك. اشتعلت نيران الاحتفال، ليس فقط فى جزر اللوتورنينج، لكن في كل المدن فى الجنوب والشرق. وتناقل الصيادون الأخبار من مركب إلى مركب، من جزيرة إلى جزيرة قائلين: "انتهى الخطر، لن تعود التنانين إلى بندور مرة أخرى."

تلك الليلة، تلك الليلة فقط، كانت بهجة عظيمةً لجيد؛ فلن يقترب الشبح منه وهو وسط نيران الشكر التى توهجت فوق كل تل وشاطئ، ولن يقترب منه خلال هذه الدوائر الفرحة من الراقصين التى التفت حوله، كان الراقصون يتمايلون بشعلات نيرانهم فى تلك الليلة الخريفية العاصفة، فتبدو وكأنها تتلألأ براقة، كثيفةً، وخاطفةً فوق الريح.

فى اليوم التالى قابل جيد بيتشفيرى: "لم أكن أعرف أنك بهذه القوة، سيدى الساحر." كان فى صوته خوف، خوف من أنه يومًا قد صاحب مثل هذا الرجل القوى. وكان فى صوته أيضًا عتاب؛ لأنه لم يستطع إنقاذ ولده الصغير، رغم أنه ذبح التنانين. من بعدها امتلأ جيد من جديد بذلك الضيق الذى دفعه لبندور فى المقام الأول، ويدفعه الآن خارج لوتورنينج. ترك بيته فى اليوم التالى، رغم أنهم كانوا يحتفلون به بقية العمر، يمجدونه ويفخرون به، لكنه رحل حاملًا معه عصاه وكتبه والأوتاك فوق كتفه فقط.

غادر الجزيرة في قارب تجديف مع زوج من الصيادين أرادا شرف اصطحابه، كانت أغنيته مع التنين تتردد في كل مكان وهو مبحر، بين المراكب التي تملأ القنوات الشرقية للجزر التسعين، وتحت نوافذ البيوت التي تطل على المياه، تتردد بعد أرصفة نيش ومراعي درومجان وورش صناعة الزيوت كريهة الرائحة في جيث. قبل أن يصل لأي من هذه الأمكنة سبقته شهرته وأغنيته، وتنافس الناس في استضافته في هذه الليلة ليحكي لهم قصة . عندما وصل إلى سيرد انحنى رئيس السفينة الذي طلب منه توصيله إلى روك، وقال له: "شرف لي ولسفينتي أيها السيد الساحر."

وهكذا أعطى جيد ظهره للجزر التسعين، لكن قبل أن ترحل السفينة من الميناء الداخلي لسيرد وترفع شراعها هبت ضدها رياح قوية من الشرق، وهو أمر غريب؛ لأن السماء كانت صافية، والجو بدا معتدلًا هذا الصباح. كانت روك تبعد ثلاثين ميلًا فقط من سيرد، ولهذا أبحروا غير عابئين. وحتى عندما ارتفعت الرياح أبحروا وأبحروا.

كانت السفينة الصغيرة مثل معظم سفن البحر المخفي، تحمل شراعًا أماميًا وخلفيًا يمكن لفه للإمساك بالرياح المعاكسة، وقبطانها رجل ماهر فخور بمهارته وسفينته؛ لهذا أخذ يراوغ بالسفينة تارة شمالًا وتارة شرقًا، لكن السحب والأمطار تجمعت فوق السفينة، التي أخذت تغير اتجاهها بعنف، لدرجة أنها كادت أن تنحرف عن مسارها. قال رئيس السفينة لجيد الذي كرمه بالجلوس جانبه في مؤخرة السفينة: "سيد سباروهوك!" رغم أنه بالطبع كان من الصعب الحفاظ على أي شكل من التكريم وسط هذه الأمطار والرياح التي أغرقتهم في عباءاتهم الحريرية، "سيدي سباروهوك، ألا يمكنك أن تقول كلمة تهدئ من الريح؟"

– "كم نبعد عن روك؟"

– "قطعنا أكثر من نصف الطريق، لكننا لم نتحرك على الإطلاق فى تلك الساعة الأخيرة سيدى."

تكلم جيد للريح فهدأت بعض الشيء، وأبحرت السفينة بهدوء بعض الوقت، لكن انهمرت سيول عنيفة من جهة الجنوب، مما دفع بالمركب جهة الغرب مرة أخرى. تكسرت السحب، وفارت فى السماء، وصرخ رئيس السفينة بغضب: "هذه الرياح الحمقاء تهب من كل ناحية!"

اكفهر وجه جيد حين سمع هذا، لكن السفينة وطاقمها كانوا فى خطر بسببه، ولهذا جلب رياح السحر فى شراعها، وعلى الفور بدأت السفينة تشق طريقها مباشرة إلى الشرق، وبدا السرور على وجه رئيس السفينة ثانية، لكن شيئًا فشيئًا، ورغم أن جيد ظل محتفظًا بالتعويذة سارية، إلا أن رياح السحر ضعفت وارتخت، وبدا كما لو أن السفينة قد سكنت تمامًا على الأمواج لبرهة، وارتخى شراعها وسط كل جلبة الريح والمطر، ثم وبصوت مثل الرعد دارت الدفة، وانحرفت السفينة وتقافزت باتجاه الشمال مثل القط المذعور.

استند جيد على أحد القوائم، والسفينة ترقد على جانبها وصاح: "ارجع إلى سيرد يا رئيس."

أخذ الرئيس يشتم ويلعن، ويصيح أنه لن يعود: "عندى ساحر على ظهر السفينة، وأنا أفضل رؤساء المراكب فى المهنة، وهذه واحدة من أفضل المراكب، وتريدنى أن أرجع؟!"

لكن المركب استدارت مرة أخرى، كما لو كانت فى دوامة، واضطر الرئيس أن يتمسك بقائم حتى يبقى ثابتًا على السطح. قال له جيد: "اتركنى على سيرد، وأبحر حيث تشاء. هذه الريح ليست ضد سفينتكم، وإنما ضدى أنا."

– "ضدك أنت، ساحر من سحرة روك؟"

– "ألم تسمع برياح روك يا رئيس؟"

– "تلك التى تبعد القوى الشريرة عن جزيرة الحكماء، وما لك أنت بها، وأنت مروِّض التنانين وفارسها؟"

أجاب جيد باقتضاب مثلما يفعل السحرة عادةً: "هذا شىء بينى وبين ظلى". ولم يزد عن هذا، وهم يبحرون عائدين تحت السماء التى بدأت تصفو باتجاه سيرد.

امتلأ قلب جيد بالخوف، وهو يغادر أرصفة سيرد. بدأت الأيام تقصر، والغسق يقترب، وهو الوقت الذى يتضاعف فيه قلق جيد وخوفه، ويبدو له كل شارع تهديدًا جديدًا. كان عليه أن يمنع نفسه من النظر وراء كتفه دائمًا على الشبح. ذهب مباشرة إلى بيت الشاطئ؛ حيث يعيش الرحالة والمسافرون مؤقتًا، يأكلون معًا على حساب مجلس الجزيرة، ويستطيعون المبيت فى القاعة الكبيرة، كانت هذه هى ضيافة الجزر الغنية لزوار البحر المخفى.

اقتصد قطعة من اللحم من طعامه. وعندما جلس فى المساء بعد العشاء حول المدفأة أخذ يلاطف الأوتاك ليخرج من ثنية غطاء رأسه حيث قبع طيلة اليوم، حاول أن يجعله يأكل، بالتربيت عليه، وبالهمس له باسمه: "هويج... هويج... صديقى الصغير، صديقى الصامت..."

لكن الأوتاك لم يأكل، بل زحف إلى جيب جيد ليختبئ. كانت هذه إشارة كافيةً لجيد، الذى كان يشعر بالقلق والخوف بمجرد النظر إلى السواد الكبير فى أطراف الغرفة الكبيرة، لأن يعرف أن الشبح ليس ببعيد.

لم يعرفه أحد هناك، ولا تكلم عنه أحد، فقد كانوا جميعًا من المرتحلين، من جزر مختلفة لم تسمع به ولا بأغنية سباروهوك. اختار فراشه فى النهاية ونام، لكنه ظل مفتوح العينين طوال الليل فى تلك القاعة المسقوفة بين الأغراب النائمين. حاول أن يحدد طريقه، وأن يخطط أين يذهب، وما يجب عليه أن يفعله، لكن كل اختيار وكل خطة كانت مسدودة بنذير شؤم، وعبر كل طريق كان الشبح منتظرًا، فقط روك كانت خالية من الشبح، لكن بات واضحًا أن جيد ممنوع من الذهاب هناك؛ بسبب التعاويذ القوية العالية حول الجزيرة. كانت رياح روك التى قامت ضده خير دليل على أن ما يطارده قد أصبح أقرب ما يكون.

ما يطارده شىء بدون جسد، ولا يعرف ضوء الشمس، كائن من مملكة بلا ضوء، بلا مكان، بلا زمان، يتحسس هذا الشبح طريقه خلف جيد عبر الأيام وبحار العالم المشمس، ويأخذ شكلًا مرئيًا فقط فى الكوابيس والظلام. لم يتخذ بعد شكلًا أو كينونة تشرق عليها الشمس، هذا ما كان فى ملحمة بطولات هود "يخلق نور الصباح الأرض والبحار، ويخرج من الأشباح الأشكال دافعًا بالحلم إلى مملكة الظلام." لكن لو حدث أن أمسك الشبح بجيد فقد يمتص منه قوته، ويأخذ الوزن والدفء والحياة من جسده، وكذلك يأخذ منه الإرادة التى تحركه.

كان هذا هو المصير المحتوم الذى يرآه جيد فى بداية كل طريق، وكان يعرف أنه من الممكن أن يلقى هذا المصير، فالشبح يزداد قوة كلما اقترب منه، وربما يكون قد حصل على القوة الكافية الآن لتسخير قوى ورجال الشر تحت خدمته، وبالتالى يستطيع أن يظهر له إشارات خداعة، أو يتحدث معه بأصوات غير حقيقية. كل ما يعرفه أنه ربما يقبع الشبح الآن داخل أحد الرجال النائمين معه فى هذه الزاوية، أو هذا الركن من بيت البحر، وربما

يجد ملاذًا فى أحد النفوس السوداء، ينتظر جيد ويراقبه، يتغذى على ضعفه وقلقه، يعيش على خوفه.

كان كل هذا فوق احتماله، لم يكن يثق فى المصادفة أبدًا، وكان عليه أن يذهب إلى حيث تأخذه المصادفة.

مع أول لسعات البرد فى الفجر نهض، وتعجل فى مشيه تحت النجوم الخابية إلى أرصفة سيرد، عازمًا على أن يأخذ أول سفينة خارجة تقبل به راكبًا. كانت مركبًا محملة بالزيت، تنطلق إلى ميناء هافنور العظيم عند الفجر. طلب جيد من رئيسها الركوب معهم، كانت عصا الساحر هى جواز سفره وأجرة ركوبه. أخذوه معهم بكل ترحاب، وأبحرت السفينة فى تلك الساعة. ارتفعت حالة جيد النفسية عند رؤية المجاديف الأربعين الطويلة تتحرك، والطبلة التى تحافظ على الإيقاع تعزف له موسيقى شجاعة.

ورغم ذلك لم يعرف ما الذى سيفعله فى هافنور، وإلى أين سيذهب بعدها. بدا له اتجاه الشمال جيدًا مثل غيره من الاتجاهات، كان من أهل الشمال نفسه، وآمل أن يجد سفينة تأخذه من هافنور إلى جونت ليرى أوجيون ثانية. أو ربما يجد سفينة تأخذه إلى الأطراف لأبعد ما يستطيع، فيفقد الشبح أثره وييأس منه، لم تكن هناك أى خطة فى ذهنه، ولم يظهر أى طريق واضح، فقط عليه أن يهرب.

حملت المجاديف الأربعون السفينة خروجًا من سيرد عبر مائة وخمسين ميلًا من البحر الممطر قبل غروب اليوم التالى، جاءوا إلى ميناء فى أوريمى على الساحل الشرقى من أرض هوسك الكبيرة، فالسفن التجارية هذه تبحر نهارًا جنب السواحل، وتنام ليلًا فى الموانئ بقدر الإمكان. نزل جيد على الشاطئ، فالوقت لا يزال نهارًا، وتجول فى شوارع مدينة الميناء دون هدف والهم يركبه.

كانت أوريمى مدينة قديمة كثيفة البناء بالطوب والحجر، محاطة بالأسوار ضد أسياد هوسك المجرمين، المخازن على الأرصفة مثل القلاع وبيوت التجار مثل الأبراج المحصنة. لكن كل هذه القصور الكبيرة بدت لجيد المهموم مثل ستائر يقبع وراءها الظلام الفارغ، والمارة الذين عبروا بجانبه إلى أعمالهم مشغولين بدوا له مثل أشباح رجال صامتة. وعندما غابت الشمس عاد جيد إلى الرصيف مرة أخرى، وحتى هناك فى ضوء المغيب الأحمر الواسع فى نهاية اليوم بدت له الأرض والشمس معتمة وساكنة.

– "إلى أين، سيدى الساحر؟"

هكذا حيَّاه أحدهم فجأة من ورائه، حين استدار ليراه رأى رجلًا يرتدى ثوبًا رماديًّا، ويحمل عصا ليست بعصا ساحر. كان وجه الغريب مخفيًّا من الضوء الأحمر بغطاء رأسه، لكن جيد شعر بالعيون المختفية ترقبه. جفل جيد لرؤيته، ورفع عصا السحر بينه وبين الغريب، سأل الغريب بوداعة: "ممَّ تخاف؟"

– "ذلك الذى يتبعنى."

– "ماذا إذن؟ أنا لست ظلك."

وقف جيد ساكنًا، يعرف أن هذا الرجل أيًّا كان ليس ما يخشاه، فهو ليس بشبح ولا ظل ولا جيبيث، كان لهذا الرجل صوت وصلابة وسط العتمة المحيطة. أنزل غطاء رأسه الآن فظهر وجهه، غريبًا متجعدًا، دقيق الملامح، أصلع الرأس عجوزًا، رغم أن السنين لم تظهر فى صوته.

– قال الرجل ذو الرداء الرمادى: " لا أعرفك، ولكننى أعتقد أننا لا نلتقى صدفة. سمعت حكاية يومًا عن شاب ذي ندوب، شق طريقه للعظمة

والمُلك فى قلب الظلام، لا أعرف إن كانت هذه حكايتك أم لا، لكن أصغِ لما أقول، لو احتجت لسيف تحارب به الأشباح اذهب لقصر تيرنون، فلن تنفعك عصا الساحر هذه.“

تصارع الأمل والريبة فى عقل جيد، وهو يستمع للغريب، يعرف الساحر فى بداية طريقه أن معظم لقاءات حياته لا تحدث مصادفة، سواء كانت للخير أم للشر.

– ”فى أى أرض يقع قصر تيرنون؟“

– ”فى أوسيكيل.“

عند سماع كلمة ”أوسيكيل“ رأى جيد لبرهة، بخدعة من ذاكرته، غرابًا أسود على نجيل أخضر ينظر له جانبًا بعين مثل الصخر المصقول، ويتكلم، لكن الكلمات كانت منسية.

قال جيد وهو دائم النظر إلى الرجل: ”لهذا الاسم وقع ثقيل على النفس.“ وحاول أن يعرف أى نوع من الرجال هو، فطريقته تشى بأنه مشعوذ، أو ربما ساحر، لكن رغم الجرأة التى تكلم بها مع جيد، علت وجهه نظرة غريبة مقهورة، كما لو كان رجلًا مريضًا، أو سجينًا، أو عبدًا مملوكًا.

– ”أنت من روك، سحرة روك يعطون الأسماء السوداء لأى سحرة من مكان آخر غيرهم.“

– ”أى رجل أنت؟“

”مسافر رحالة، وكيل تاجر من أوسيكيل، أنا هنا فى مهمة عمل.“ هكذا رد الرجل، وعندما لم يسأله جيد أى شىء آخر، حيَّاه، وتمنى له ليلة طيبة، واختفى خلف الشارع الضيق فوق رصيف الميناء.

عاد جيد وهو حائر: هل يكترث لهذه الإشارة أم لا؟ ونظر لاتجاه الشمال، كان الضوء الأحمر يزول سريعًا من فوق التلال ومن فوق البحر الهائج، وكان الغسق الرمادى قد حل، وفى أعقابه جاء الليل الأسود.

ذهب جيد بقرارٍ مفاجئٍ ناحية الأرصفة إلى صياد كان يلملم شبكته فى زورقه الصغير، فحيَّاه قائلاً: "هل تعرف أى سفينة فى الميناء تتجه شمالاً إلى سيميل أو إنلاندز؟"

- "السفينة الطويلة هناك من أوسيكيل، قد تتوقف فى الإنلاندز."

وبالسرعة نفسها انطلق جيد إلى السفينة التى أشار لها الصياد، سفينة طويلة بستين مجدافًا، رفيعة مثل الثعبان، مقدمتها العالية الملتوية محفورة ومطعمة بالصدف، مقابض مجاديفها مدهونة بالأحمر، وحرف سيفل مكتوب بالأسود باللغة الرونية على كل واحد. بدت سفينةً جادة، كئيبة، سريعة. بحث فيها جيد عن الرئيس، وسأله الذهاب معه إلى أوسيكيل.

- "هل معك لتدفع؟"

- "عندى بعض المهارة مع الرياح."

- "أنا من محركى الطقس، لن تضيف جديدًا. أليس لديك ما تعطيه؟ ماذا عن النقود؟"

فى لو تورنينج دفع رجال الجزيرة لجيد ما استطاعوا من القطع العاجية التى يستخدمها التجار فى الأرخبيل، لم يكن ليأخذ أكثر من عشرة قطع، رغم أنهم عرضوا أكثر من هذا. عرض هذه على الرجل الأوسيكيلى الآن، لكنه هز رأسه وقال: "لا نقبل بهذه، لو لم يكن عندك ما تدفعه فلا مكان لك على السفينة."

– "هل تحتاج لرجال؟ عملت مجدِّفًا فى سفينة من قبل."

– "حسنا، ينقصنا رجلان، اذهب واتخذ لنفسك مقعدًا." قال رئيس السفينة هذا ومشى، ولم يلقِ بالًا لجيد من وقتها.

وهكذا، وضع جيد عصاه وحقيبة كتبه تحت مقاعد المجدفين، وأصبح طوال عشرة أيام مريرة من الشتاء أحد مجدفى هذه السفينة الشمالية. غادروا أوريمى عند الفجر، وفى اليوم نفسه ظن جيد أنه لن يستطيع أن يكمل عمله على السفينة أبدًا. لم يكن ذراعه الأيسر سليمًا بسبب جروحه القديمة فى كتفه، ولم يؤهله التجديف الكثير فى قنوات لوتورنينج للشد والشد والشد فى تلك السفينة الطويلة على صوت الطبلة. كل مناوبة تجديف كانت من ساعتين أو ثلاثة؛ حيث يأخذ فريق آخر من المجدفين مقاعدهم، ولم يكن وقت الراحة كافيًا سوى لأن تتخشب عضلات جيد أكثر وأكثر، ثم يعود ثانيةً للمجداف. زاد الأمر سوءًا فى اليوم التالى، لكنه تحسن بعد هذا، حين تعوَّد على الجهد وازداد احتماله.

لم تكن هناك مودة بينه وبين طاقم السفينة، مثل التى عرفها على السفينة الشبح، حين ذهب إلى روك لأول مرة؛ والسبب أن طاقم السفن الجونتية والأندرياتية شركاء فى التجارة، يعملون معًا لمصلحة واحدة، بينما تجار أوسيكيل يستخدمون العبيد، أو يستأجرون البحارة للتجديف، ويدفعون لهم عملات ذهبية صغيرة. ليس الذهب سببًا للزمالة الحقيقية أو الود. ولأن نصف البحارة كانوا عبيدًا، مجبرين على العمل، كان رؤساء السفن نخاسي عبيد قساةَ القلوب. بالطبع لم يكونوا يجلدوا بالسوط أيًّا من البحارة المأجورين أو الراكبين مثله، لكن أى صداقة وود هذين بين فريق عمل بعضه يُضرب بالسياط، وبعضه الآخر لا؟ كان الكلام قليلًا على هذه

السفينة، فالبحارة فى الأغلب رجالٌ من أوسيكيل لا يتحدثون لغة الأرخبيل، ولكن لكل لَكْنة خاصة بهم، رجال أصحاب بشرة مشرقة اللون ولكنها باهتة، بشوارب سوداء متدلية، وشعور مسدلة.

"كيلوب" ، أى الرجل الأحمر، كان هو اسم جيد بينهم، ورغم أنهم يعرفون أنه ساحر، إلا أنهم لم يعيروه أى اهتمام، بل تعاملوا معه بحذر واحتقار، ولم يكن هو فى أى مزاج لتكوين صداقات. حتى وهو على مقعد التجديف يعمل كواحد من ستين مُجدِّفًا فى سفينة تسابق نفسها فوق البحر الرمادى الخالى، كان يشعر بنفسه ضعيفًا وقليل الحيلة، وحين ترسى السفينة فى موانئٍ غريبة ليلًا، ويلتف بعباءته لينام، كان يحلم بأحلام ترهقه، ويحلم ثانيةً مستيقظًا بأحلام شريرة لا يتذكرها حين يصحو، رغم أنها تظل معلقة حول السفينة ورجالها، وتملؤه بالشك فى كل واحد منهم.

كل الرجال الأوسكيلين الأحرار يحتفظون بسكين طويلة عند الفخذ، وفى يوم ما كان جيد يتشارك مع زميله فى مقعد المجدف فى وجبة الظهيرة، وسأله أحد الرجال: "هل أنت عبد أم حانث باليمين يا كيلوب؟"

- "لا هذا ولا ذلك."

- "لماذا لا ترتدى السكين إذن؟ خائف من القتال؟ قال هذا الرجل سكيورِه متهكمًا.

- "لا."

- "هل يقاتل كلبك من أجلك؟"

قال آخر: "أوتاك ليس كلبًا، بل أوتاك." ثم قال شيئًا ما بالأوسكيلية لسكيوره جعله يعبس ويمشى بعيدًا. وهو يستدير لمح جيد تغيرًا فى وجهه، تلطخًا أَو تغيرًا فى ملامح الوجه، كما لو كان قد حوله شىء أو استخدمه

شيء لبرهة، وأخذ ينظر من خلال عيني سيكوره جانبًا على جيد. لكن في اللحظة التالية رأى جيد سيكوره أمامه، وكان يبدو له عاديًا، فقال جيد لنفسه إن ما رآه هو خوفه الشخصي، ورعبه الخاص منعكسًا في عيون الآخرين. لكن في تلك الليلة التي قضوها في إسين حلم جيد بسكيوره يمشي في منامه، ومن بعدها أخذ يتحاشى الرجل بقدر الإمكان، وكذلك فعل سكيوره، ولم يدر بينهما حديث على الإطلاق من بعدها.

غاصت الجبال المكللة بالثلوج من ورائهم باتجاه الجنوب، يعتمها ضباب الشتاء. واصلوا التجديف بعد ثغر بحر إيا؛ حيث غرقت إلفارين منذ زمن بعيد، وواصلوا بعد إنلاند. رست السفينة يومين في ميناء بيريلا، مدينة العاج، في كل الموانئ التي رسوا فيها لا تطأ أقدام الطاقم الأرض. وحين تشرق الشمس المحمرة يجدفون ثانية داخل البحر الأوسيكيلي، وبداخل الرياح الشرق غربية التي تهب لا يحدها حد على اتساع الطرف الأقصى الشمالي الخالي من الجزر. في هذا البحر المرير أحضروا حمولة السفينة بأمان، وخرجوا في اليوم التالي من بيريلا إلى ميناء نيشوم، مدينة التجارة في أوسيكيل الشرقية.

ونيشوم مدينة رمادية تقبع خلف حاجز أمواج طويل هو الميناء، وخلف المدينة تلال جرداء تحت سماء مثلجة معتمة. لقد ابتعدت السفينة كثيرًا عن ضوء الشمس في البحر المخفي.

صعد مفرغو المراكب من نيشوم لتفريغ حمولة المركب: ذهب، فضة، جواهر، حرير فاخر، ومشغولات جنوبية، تلك الأشياء الغالية التي يكتنزها سادة أوسيكيل، وخرج أحرار السفينة. وقف جيد ليسأل أحدهم عن الطريق، وحتى هذه اللحظة منعه شكه في كل من حوله أن يخبر أحدهم مقصده، لكن

الآن، وبعد أن أصبح وحيدًا على أرض غريبة، كان عليه أن يطلب المعونة. فرد الرجل عليه بتعجل، وقال إنه لا يعرف. لكن سكيورِه الذى سمع الحوار أجاب: "قصر تيرنون؟ على مراعى كيكسميت، أنا ذاهب بهذا الاتجاه."

لم يكن سكيورِه هو الصحبة التى يتمناها جيد، لكن لأنه لا يعرف لا اللغة ولا الطريق لم يكن عنده خيارات سوى أن يذهب معه، على أى حال لم يكن الأمر ذا قيمة، فلم يختَرِ المجئ هنا، بل دُفع لهذا، والآن يُدفع أكثر. شد غطاء رأسه، وحمل عصاه وحقيبته، وتبع الرجل الأوسيكيلى عبر الشوارع، عاليًا باتجاه التلال المثلجة. اختبأ الأوتاك الصغير فى جيب قميصه المصنوع من جلد الغنم تحت العباءة، رافضًا الركوب على كتفه كما كانت عادته فى البرد. امتدت التلال إلى أراضى المستنقعات متدفقة على مدى البصر، مشوا فى صمت زاده صمت الشتاء المطبق على كل الأرض.

وسأله جيد: "متى نصل؟" وذلك بعد ما مشيا عدة أميال دون أثر لقرية أو مزرعة فى أى اتجاه، وبعد أن تذكر أنه لا طعام معهم، فأدار سكيوره رأسه، ورفع غطاء رأسه، وقال: "ليس ببعيد."

كان وجهه قبيحًا، شاحبًا، خشنًا، قاسيًا، لكن جيد لم يخش أى آدمى، رغم أنه يخشى المكان الذى قد يقوده إليه الآدمى. أومأ برأسه، ومشيا فى طريق ضيق خلال الثلج الخفيف والشجيرات. من وقت لآخر كانت تقطع هذا الطريق الضيق طرق أخرى، أو تتفرع منه، الآن كانت مدخنة نيشوم قد اختفت خلف التلال فى النهار الآخذ فى الإظلام، دون أى إشارة إلى أين عليه أن يذهب، أو أين ذهب بالفعل. وعندما مشيا عدة ساعات ظن جيد أنه قد رأى خدشًا فى السماء مثل سن أبيض بعيدًا فوق التلال فى الشمال الغربى، لكن ضوء النهار القصير أخذ يخبو، وعند ارتفاع الطريق مرة أخرى كان لا

يزال عاجزًا أن يتبين إن كان هذا الشيء برجًا أو شجرة أو أي شيء آخر.

سأله جيد وهو يشير: "هل نذهب هناك؟"

لم يرد سكيورهِ، لكنه استمر في المشي مكممًا في عباءته الثقيلة بغطاء رأسها الأوسيكيلي، الذي يشبه المنقار ذا الفراء. كانا قد مشيا طويلًا، وبدأ جيد يغلبه النعاس من كثرة المشي، ومن العمل المضني أيامًا وليالي طويلة على السفينة. بدا له الأمر كما لو كان يمشي إلى الأبد، وسيمشي إلى الأبد بجانب هذا الكائن الصامت عبر هذه الأرض الصامتة المعتمة، تبلد كل شيء بداخله، الحذر والهمة، ومشى كما لو كان في حلم طويل طويل، لا يذهب فيه لأي مكان.

اختبأ الأوتاك في جيبه، واستيقظ خوف غامض في عقله. ثم أجبر نفسه أخيرًا على الكلام: "ما المسافة الباقية، سكيوره؟"

– بعد صمت أجاب سكيوره دون أن يستدير: "ليس ببعيد."

لكن الصوت لم يكن مثل صوت إنسان، بل مثل صوت وحش، خشن ودون شفاه، صوت يحاول أن يتكلم.

توقف جيد، حوله من كل مكان امتدت التلال الخالية في ضوء الغسق الغامق، لف الثلج المتساقط قليلًا قبل أن يهطل. فقال جيد: "سكيوره." فتوقف الآخر واستدار، لم يكن هناك وجه تحت غطاء الرأس المنقاري.

وقبل أن يتمكن جيد من إلقاء تعويذة أو استدعاء أي شيء نطق الجيبيث بصوته الخشن باسمه: "جيد". فانحبس جيد في اسمه، وعجز على أن يُحدث أي تحولات، وتقيد في ماهيته الحقيقية، وواجه الجيبيث دون

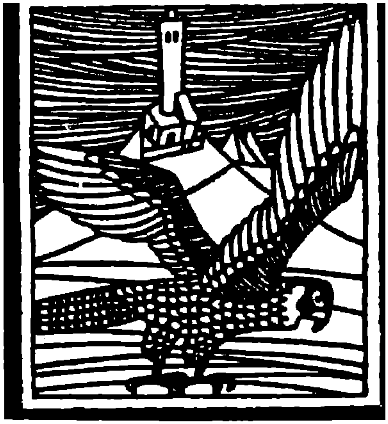
مقاومة. لم يكن هناك له من قوة خارجية تساعده فى تلك الأرض الغريبة، فلا أحد سيأتى له، أو يهب لمساعدته. وقف عاريًا بدون حاجز بينه وبين العدو سوى عصا خشبية فى يده اليمنى.

ذلك الشىء الذى ابتلع عقل سيكوره، وتملك من جسده جعله يخطو متحسسًا بذراعيه باتجاه جيد، ملأت جيد عاصفة من الرعب، فقفز للأمام وهوى بعصاه على غطاء الرأس الذى أخفى وجه الشبح. تساقطت العباءة وغطاؤها على الأرض تحت تأثير الضربة القوية، كما لو كانتا مملوءتين بالهواء فقط، ثم تلويتا وانتفختا، وقام الجيبيث ثانية. تصفى جسم الجيبيث من مادته الحقيقية، وأصبح مثل القشرة أو الدخان فى شكل إنسان، جسد غير حقيقى بداخله الشبح الحقيقى. مد الشبح يديه تجاه جيد بعنف وقوة كأنما تفجر من قلب الرياح، كان يحاول الإمساك به كما فعل على هضبة روك، ولو فعل لأزاح جانبًا قشرة سكيوره – الجيبيث – ودخل فى جيد ليمتصه من الداخل ويمتلكه، وهذا ما يريده تمامًا. ضربه جيد مرة أخرى بعصاه التى يخرج منها الدخان محاولاً إبعاده، ولكنه عاد ثانيةً، وضربه مرة أخرى، ثم أخيرًا أسقط جيد العصا التى اشتعلت وخبت بعد أن أحرقت يده، وتراجع واستدار فجاة وانطلق هاربًا.

جرى والجيبيث فى أعقابه، عاجزًا عن الإمساك به، لكنه استمر فى المطاردة دون تراجع. لم ينظر جيد إلى الخلف أبدًا. ظل يجرى... يجرى... يجرى... يجرى عبر الأراضى الواسعة القاتمة بدون ملجأ واحد يلجأ إليه، ناداه الجيبيث مرة أخرى باسمه: "جيد." بصوته الخشن المدوى، لكن رغم أن الجيبيث تمكن من قوة جيد السحرية، إلا أنه لم يمتلك قوته الجسدية، ولم يوقفه عن الجرى.

اشتد الليل على المطارِد والمطارَد، وهطل الثلج عبر الطريق الذى لم يعد يراه جيد أصلًا، أوشكت عيناه على الانفجار من التعب واشتعل حلقه، لم يعد يجرى، بل كان يتخبط ويتعثر، وعلى الرغم من هذا لم يستطع المطارِد أن يلحق به أبدًا، رغم أنه كان دائمًا فى أعقابه. بدأ يهمس له ويتمتم مناديًا عليه، وعرف جيد الآن أن هذا الهمس كان فى أذنيه طوال حياته، فقط تحت مستوى السمع، لكنه الآن يسمعه بوضوح، وكان عليه أن يخضع له، يستسلم ويقف. ضغط على نفسه أكثر مجاهدًا للصعود على منحدر عالٍ أمامه. ظن أنه قد رأى ضوءًا أمامه، وسمع صوتًا ينادى: "تعال، تعال."

حاول أن يجيب لكنه فَقَد صوته، وبرق الضوء حقيقيًّا لامعًا عبر بوابة، لم يستطع أن يرى الجدران، لكنه رأى البوابة، عند رؤيتها توقف، فاقترب الجيبيث من عباءته من الوراء، متلمسًا جوانبها حتى يمسك به من الخلف. اندفع جيد عبر الباب اللامع بآخر قوة لديه، حاول أن يستدير ليغلق الباب فى وجه الجيبيث، لكن رجليه لم تحملاه. ترنح ومد يديه طلبًا للمساعدة، غامت الأضواء فى عينيه، وشعر بنفسه يسقط ويسقط، ويتلقاه أحد وهو يسقط، لكن عقله المنهك انزلق للظلمات.



(٧) طيران الصقر

ولفترة طويلة رقد يفكر أنه من الرائع أن يصحو ثانية، صحو أبدًا، ولا أن يرى ضوء النهار العريض من حوله سبح على هذا الضوء، أو يبحر بقارب فوق مياه بالغة ن أنه فى الفراش، ولكن ليس كأى فراش نام فيه من قبل، بع أرجل محفورة، والحشيات كانت أكياسًا من الحرير ريش، ولهذا شعر أنه يطفو. ومن حول الفراش فى كل . حمراء لتبعد تيارات الهواء. كانت الستائر مربوطة جانب. نظر جيد على الغرفة ذات الجدران والأرضية ل النوافذ العالية شاهد المراعى بنية وجرداء، وبقع الثلج تحت شمس الشتاء الضعيفة، وشعر بالغرفة عالية فوق

وقع لحاف من الريش على الأرض حين قام جيد ليقف، وحينها رأى نفسه رداءً تونيك من الحرير المطعم بالفضة مثل الأمراء. وعلى كرسى بجانب الفراش كان هناك حذاء وعباءة مزينة بفراء البيلاوى(١١) جاهزين للاستخدام. جلس لبرهة هادئًا ومتبلد الحس، كما لو كان تحت تأثير تعويذة، ثم قام واقفًا يبحث عن عصاه، لكن لم يجد أى عصا. رغم أنه وجد يده اليمنى مدهونة ومربوطة، إلا انها كانت محترقة من عند الأصابع والكف، وشعر الآن بالألم يدب فيها، وبالوجع فى كل جسمه.

وقف ساكنًا لبرهة، ثم همس بصوت منخفض، وبدون أمل: "هويج، هويج." راح هذا الكائن القوى الوفى أيضًا، تلك الروح الصامتة التى ساعدته للخروج من مملكة الموت يومًا ما. هل كان لا يزال معه بالأمس حين كان يجرى؟ هل كان هذا بالأمس أم منذ أيام عديدة؟ لم يعرف. كان كل شىء معتمًا وغامضًا فى عقله: الجيبيث، والعصا المحترقة، والجرى، والهمس، والبوابة. حتى الآن لم يكن هناك شىء واضح، همس باسم حيوانه الأليف مرة أخرى بدون أمل، فتجمعت الدموع فى عينيه.

دق جرس ما فى مكان بعيد، ثم رن جرس آخر عذب خارج الغرفة مباشرة، انفتح الباب، ودخلت امرأة عبر الغرفة، وقالت وهى تبتسم: "مرحبًا سباروهوك."

دخلت شابة طويلة ترتدى الأبيض والفضى، تزين رأسها بشبكة من الفضة فوق شعرها، الذى انساب مثل شلال من المياه السوداء.

انحنى جيد جامدًا.

---

(١١) فراء البيلاوى هو فراء الحيوان مختلف فى الرواية اسمه البيلاوى.

- "لا تتذكرنى؟"

- "أتذكرك، سيدتى."

فى حياته كلها لم يرَ سيدة حسناء يضاهى ملبسها جمالها سوى ليدى أو التى حضرت مع زوجها إلى كرنفال مدرسة روك، وكانت مثل الشمعة المضيئة، لكن هذه السيدة كانت مثل القمر الأبيض الجديد.

- "قلت إنك لن تتذكرنى، رغم أنك كثير النسيان، لكن أهلًا وسهلًا بك هنا كصديق قديم."

- "ما هذا المكان؟" سأل جيد، وهو لا يزال جامدًا وثقيل اللسان، وجد أنه من الصعب أن يكلمها، ومن الأصعب ألَّا ينظر إليها. كانت ملابسه الأميرية غريبة، والأرض الحجرية التى يقف عليها غريبة، والهواء نفسه الذى يتنفسه غريبًا، كان هو نفسه غريبًا.

"هذا المكان هو قصرَ تيرنون، زوجى بينديرسك هو حاكم هذه البلاد من مراعى كيكسميت إلى جبال أوس، وهو حارس الحجر الثمين المعروف باسم حجر تيرنون. أما أنا فهنا فى أوسيكيل يسموننى سيريت، أو الفضة فى لغتهم. وأنت تُدعى سباروهوك أحيانًا، وقد جعلوك ساحرًا فى جزيرة الحكماء."

نظر جيد على يده المحترقة، وقال على الفور: "لا اعرف ما أنا. كانت لدىَّ القوة فى الماضى، ضيعتها على ما أظن."

- "لا، لم تضيعها، وإن فقدتها فهذا فقط لتستعيد عشرة أضعافها. أنت بأمان من الشىء الذى طاردك إلى هنا يا صديقى؛ فهذا البرج محاط بجدران قوية من الحجارة وأشياء أخرى، هنا تستطيع أن تستريح وتجد قوتك ثانية. هنا أيضًا تستطيع أن تجد قوى مختلفة وعصا جديدة لن تحترق

فى يدك. وقد يكون الطريق السيئ قد قادك لنهاية جيدة. على أية حال. تعال معى الآن، دعنى أريك أملاكنا".

كانت تتكلم بعذوبة شديدة، لدرجة أن جيد تبعها طائعًا لإغراء صوتها وحده.

كانت غرفته بالفعل عالية جدًا فى البرج الذى ارتفع مثل ناب حاد فوق قمة التل، مشى خلف سيريت نزولًا على السلالم الرخامية، عبر الغرف والقاعات الفاخرة، وخلف النوافذ التى تطل من كافة الاتجاهات على التلال البنية الخالية من أى بيت أو شجرة، والتى تمتد عارية تحت سماء الشتاء المشمسة. فقط فى أقصى الشمال وقفت قمم بيضاء حادة فى قلب زرقة السماء، وللجنوب يستطيع المرء أن يتخيل لمعان البحر.

كان الخدم يفتحون أبواب القاعات والغرف لجيد وللسيدة، وهما يدخلان ويخرجان، ثم يقفان جانبًا.كل الخدم كانوا من الأوسيكيلين الصارمين باهتى البشرة. أما السيدة، فرغم أنها كانت مشرقة البشرة، إلا أنها بعكس الخدم، كانت تتكلم الهاردية جيدًا، لدرجة أنه بدا لجيد أنها تتكلمها باللكنة الجونتية.وبعد ذلك أخذت جيد لرؤية زوجها بيندسيرك أمير تيرنون، الذى كان عمره ثلاثة أضعاف عمرها، كان أبيض ونحيفًا مثل العظم ومعتم العينين. حيًا الأميرُ جيد ببرود، وأخبره أن يحل عليهم ضيفًا كما يحب. ثم لم يتبادل معه بعد هذا سوى أقل القليل من الكلام، ولم يسأله عن رحلته، ولا على العدو الذى طارده حتى هنا، ولا سألته السيدة سيريت عن أى من هذا أيضًا.

لو بدا هذا كله غريبًا فلم يكن سوى جزء يسير من غرابة المكان ووجوده فيه. لم يصفُ عقل جيد أبدًا، ولا استطاع رؤية الأمور بشكل واضح. رغم

أن حضوره لهذا المكان مصادفة، لكن المصادفة كانت تبدو مرتبة بالكامل، أو حضوره مرتبًا، لكن كل الترتيبات قد أتت بعضها مع بعض مصادفة. الوضع كالآتى، كان جيد قد بدأ رحلته إلى الشمال، أخبره غريب فى أوريمى أن يطلب المساعدة هنا، وكانت سفينة أوسيكيلية بانتظاره، ثم قاده سكيوره هنا. كم من هذا هو ترتيب الشبح الذى يطارده؟ أم أنه هو ومن يطارده تم إحضارهما هنا بقوة أخرى؟ أيكون قد تبع ذلك الطُعم، وتبعه الشبح متخذًا من سكيوره سلاحًا حين حانت الفرصة؟ لا بد أن هذا ما حدث، فكما قالت سيريت الشبح لا يمكنه دخول قصر تيرنون؛ فهو لم يرَ له أثرًا، ولا شعر بوجوده منذ أن استيقظ فى البرج. لكن ما الذى أحضره هنا؟ فهذا ليس بالمكان الذى يحضر إليه المرء صدفة، حتى فى عتمة ذهنه استطاع أن يتبين هذا، لا يأتى غريب إلى تلك البوابات أبدًا، والبرج يقف وحيدًا وبعيدًا، وظهره دائمًا للطريق فى نيشوم، المدينة الأقرب. لا يأتى أحد إلى هذه القلعة، ولا يخرج منها أحد، تطل كل نوافذها على المراعى الخربة.

كان جيد يطل من تلك النوافذ على الخارج، وهو جالس فى غرفته العالية فى البرج، يومًا بعد يوم، أصبح كسولًا ومحبطًا وبردانًا. كان الجو دائمًا باردًا فى البرج، بالرغم من كل السجاجيد والمفروشات والستائر المعلقة، والملابس المطعمة بالفراء، والمدافئ الرخامية الكبيرة، برد مختلف داخل العظام، داخل النخاع، برد لا يدفئه شىء. وفى داخل قلب جيد كان العار البارد باقيًا، لا يزيله شىء، فهو لا يتوقف عن التفكير فى كيف قابل عدوه، وكيف هزمه، وكيف جرى من أمامه. فى عقله رأى كل أساتذته فى روك مجتمعين، ووسطهم الساحر الأكبر جيشنر عابسًا، وكذلك نيميريل بينهم، وأوجيون، وحتى خالته الساحرة التى علمته أول تعويذاته، كلهم كانوا يراقبونه، وهو يعرف فى أعماق قلبه أنه قد خذلهم جميعًا. فى عقله

كان يدافع عن نفسه قائلًا: "كان لا بد أن أجرى، لو لم أَجْرِ لتمكن الشبح منى، كان بالفعل قد تمكن من سيكوره، وأخذ جزءًا من قوتى، ولم أستطع أن أحاربه. كان يعرف اسمى؛ فوجب على أن أهرب. إذا أصبح الساحر جيبيث فتلك قوة رهيبة من الشر والدمار، كان لا بد أن أهرب." لكن لا يرد أحد ممن يتحدث معهم داخل عقله، ويظل يراقب الجليد وهو يهبط خفيفًا ومستمرًا على الأرض الخالية تحت النافذة، ويشعر بالبرد العنيد يزداد بداخله، حتى لا يتبقى بداخله من مشاعر سوى السأم.

وهكذا ظل جيد متباعدًا لعدة أيام بسبب الكآبة، وحين ينزل من غرفته كان دائم الصمت والجمود. أربكه جمال سيدة القلعة، وشعر فى هذه الأجواء الغنية المرتبة والغريبة بأنه قد وُلد ليكون ويعيش راعى غنم.

كانوا يتركونه يخلو بنفسه حين يفضل الوحدة، وحين لا يطيق أفكاره، ولا مشاهدة الجليد المتساقط أكثر من هذا، كانت سيريت تجلس معه فى إحدى القاعات المقوسة المفروشة، والمزودة بمدفأة أسفل غرفته فى البرج، وهناك كانا يتكلمان. لم تكن سيريت، سيدة هذه القلعة، مرحة أو سعيدة، وإن كانت لا تتوقف أبدًا عن الابتسام، ورغم علمه بهذا إلا أن ابتسامة واحدة منها كانت تريحه وتخفف قلقه. وبسرعة أصبحا يتقابلان يوميًا للكلام طويلًا، وبهدوء وبدون هدف، بعيدًا عن وصيفاتها اللاتى لا يفارقنها عند المدفأة أو النافذة، أو فى الغرف العالية من البرج.

أما الأمير العجوز فكان يقضى أغلب وقته فى غرفاته الخاصة، ولا يظهر إلا كل صباح، حين يتمشى ذهابًا وإيابًا فى الفناء الداخلى الجليدى للقلعة، وكأنه مشعوذ عجوز قضى طيلة الليل فى تشكيل التعويذات. أما حين كان يلحق بجيد وسيريت للعشاء، كان يجلس صامتًا، وهو ينظر إلى

زوجته الشابة بنظرة قاسية ونهمة. فبدأ جيد يرثى لحالها؛ لأنها كانت مثل غزال أبيض محبوس، أو مثل عصفور أبيض مقصوص الريش، أو خاتم فضى فى إصبع رجل عجوز. كانت سيريت إحدى مقتنيات كنز بينديسيرك، وحينما كان أمير القلعة يتركها، كان جيد يقبع بجانبها يبهجها، ويسلى وحدتها مثلما تفعل هى.

- "ما حكاية ذلك الحجر الذى يعطى لهذه القلعة اسمها؟" سألها جيد مرة، وهما جالسان حول الأطباق الذهبية الفارغة والكئوس الذهبية، فى غرفة الطعام الكهفية المضاءة بالشموع.

- "ألم تسمع به؟ إنه شهير جدًّا."

- "لا، أعرف فقط أن سادة أوسيكيل من ذوى الكنوز الشهيرة."

- "لا، هذا الحجر أحسن منهم جميعًا. تعال، هل تود أن تراه؟"

ابتسمت سيريت، وعلى وجهها نظرة من السخرية والجرأة، وكأنها تخاف مما تفعل. ثم خرجت بالشاب من القاعة إلى الممرات الضيقة لقاعدة البرج، نزولًا إلى باب مغلق تحت الأرض لم يره من قبل. فتحت هذا الباب بمفتاح فضى، وهى تنظر إلى جيد بنفس الابتسامة المتحدية، وكأنها تشجعه أن يدخل معها. خلف الباب ممر، ومن خلفه باب ثانٍ فتحته بمفتاح ذهبى، ومن ورائهم باب ثالث فتحته بإحدى تعويذات الفتح العظمى، وعلى الباب الأخير رأوا من خلال ضوء شمعتها غرفة صغيرة مثل زنزانات السجون.

- سألته سيريت: "هل رأيته؟"

نظر جيد حوله، والتقطت عين الساحر حجرًا واحدًا من الأحجار التى

كانت على الأرض. مثل بقية الأحجار على الأرض كان قطعة من الحجر العطن الثقيل بلا شكل محدد، لكنه شعر بقوتها كأنها تتحدث معه عاليًا. انحبس الصوت فى حنجرته، وشعر بإعياء يغمره للحظة. كان هذا هو الحجر الأساسى لهذا البرج، المكان المركزى. وكان هذا المكان باردًا، باردًا للغاية، لن يدفئه شيء. كان هذا الحجر عتيقًا، عتيقًا للغاية ومحبوسًا به روح قديمة ورهيبة. لم يرد جيد على سؤال سيريت إن كان يرى الحجر بالنفى أو الإثبات، لكنه وقف ساكنًا، ولهذا، وبنظرة سريعة عليه، أشارت سيريت إلى الحجر: "هذا هو حجر تيرنون. هل تتساءل لماذا نُخفى حجرًا ثمينًا مثل هذا فى أعمق حجرات كنوزنا؟"

لم يرد جيد، وإنما وقف ساكنًا ومنتبهًا، فربما تكون تختبره، ولكنه ظن أنه ليس لديها أى فكرة عن طبيعة الحجر لتتكلم عنه بهذا الاستخفاف، بل لم تعرف عنه ما يكفى لتخافه، فقال: "أخبرينى عن قوته."

– "هذا الحجر مصنوع من قبل أن يرفع سيجوى جزر العالم فوق البحر المفتوح. مصنوع بالضبط حين خلق العالم، وسيبقى حتى نهاية العالم، لا يعنى الزمن شيئًا لهذا الحجر. لو وضعت يدك عليه، وسألته سؤالًا سيجيبك بحسب قوتك. للحجر صوت لو تعرف كيف تسمع، سيحدثك عما كان ويكون وما سيكون. أخبرنا عن قدومك لهذه الأرض، هل تود أن تسأله سؤالًا الآن؟"

– "لا."

– "سيجيبك."

– "ليس لدى ما أسأله."

– همست سيريت بصوتها الناعم: "قد يخبرك كيف تهزم عدوك"

وقف جيد صامتًا.

– "هل تخاف من هذا الحجر؟" سألته غير مصدقة، فأجابها: "نعم."

رمقته سيريت بعيون لامعة فى قلب الغرفة الميتة، تلك الغرفة المحاطة بجدار بعد جدار من التعاويذ والحجارة، وفى ضوء الشمعة الوحيدة التى أمسكتها قالت: "سباروهوك، أنت لست بخائف."

– "ولكننى لن أتحدث لهذه الروح." أجاب جيد وهو ينظر لها مباشرة بجرأة رهيبة، "سيدتى، هناك روح محبوسة فى ذلك الحجر، والحجر محبوس بتعويذة ربط وقفل سحرى وحارس وجدران ثلاثية فى أرض خربة، ليس لأنها روح ثمينة، ولكن لأنها روح شريرة، لا أعرف ما الذى قالوه لك عنها هنا، ولكن أنت، أنت الشابة الرقيقة لا يجب أن تلمسى هذه الجوهرة أبدًا، ولا تنظرى لها، ستضرك سيدتى."

– "ولكننى لمستها، وتحدثت لها وسمعتها تتحدث، ولم تضرنى فى شيء."

واستدارت، وخرجا من خلال الأبواب والممرات حتى وصلا إلى السلالم الكبيرة، وهناك أطفأت شمعتها، وافترقا بقليل من الكلمات.

نام جيد نومًا قليلا متقطعا تلك الليلة٬ لم يكن التفكير فى الشبح هو ما يؤرِّقه، بل كانت صورة الحجر البنى العجيب، وفوقه البرج، قد طردت الشبح من تفكيره، أرَّقه أيضًا وجه سيريت اللامع الذى بدا مثل الشبح فى ضوء الشمعة وهى تنظر له. مرارًا وتكرارًا كان يشعر بنظراتها عليه،

ولا يستطيع أن يحدد أى نظرة كانت على وجهها عندما رفض أن يلمس الجوهرة، إن كانت تحتقره أو مجروحة من رفضه. وعندما رقد لينام أخيرًا كانت الفُرش فى برودة الثلج، فظل مستيقظًا يفكر فى الجوهرة، وفى عيون سيريت.

فى اليوم التالى وجدها فى الغرفة المقوسة ذات الرخام الرمادى التى تضيئها شمس المغيب؛ حيث عادة ما تقضى وقت العصر فى اللعب أو فى غزل النسيج مع خادماتها. قال لها: "تقبلى اعتذارى سيدة سيريت، يبدو أننى ضايقتك."

فقالت ضاحكة: "لا." ثم كررتها "لا." وصرفت خادماتها. وعندما أصبحا وحدهما استدارت إلى جيد، وقالت: "يا ضيفى العزيز، يا صديقى، أنت صافى البصيرة، لكنك لا ترى كل ما هناك لتراه. فى جونت، فى روك يعلمون الأسحار الرفيعة. لكنهم لا يعلمون كل الأسحار. هذه أوسيكيل، أرض الغربان، ليست بالأرض الهاردية ولا قوة للسحرة الكبار هنا، ولا يعرفون عنها سوى القليل. تحدث أشياء هنا لا يتعامل معها أساتذة المعرفة فى الجنوب، وتوجد أشياء هنا لا توجد فى قوائم أصحاب الأسماء. عادة يخاف المرء مما لا يعرفه، لكن لا يوجد ما تخشاه هنا فى قلعة تيرنون، شخص آخر أضعف منك له أن يخاف، ولكن ليس أنت سباروهوك، أنت مولود بالقوة التى تحكم بها ذلك الحجر فى الزنزانة. اسمع: أنت هنا لهذا السبب."

- "لا أفهم."

- "هذا لأن زوجى الأمير بينديسيرك لم يكن صريحًا معك بما يكفى، سأكون أنا صريحة. تعالَ اجلس بجانبى." فجلس بجانبها على إفريز

النافذة العميق المبطن. ملأت شمس المغيب النافذة بضياء دون دفء، وبالأسفل على البرارى التى كانت بالفعل قد بدأت تغوص فى الظلام، كان جليد الليلة الماضية لا يزال يرقد جامدًا مثل نعش أبيض ثقيل فوق الأرض.

تكلمت سيريت بنعومة الآن: "بيندسيرك هو أمير، ووريث تيرينون، لكنه لا يستطيع أن يستخدم الحجر، لا يستطيع أن يجعله يخدمه بالكامل، ولا أنا أيضًا، لا وحدى ولا معه. لا أنا ولا هو نملك القوة والمهارة، لكنك تمتلكهما معًا."

- "كيف تعرفين هذا؟"

"من الحجر نفسه. قلت لك إن ذلك الحجر قد أخبرنا بقدومك، فهو يعرف سيده. انتظرك أن تأتى، انتظرك حتى قبل أن تُولد، انتظر من يستطيع أن يحكمه، من يستطيع أن يجعل حجر التيرنون يجيب على أسئلته، ويفعل به ما يحب، يمكنه أن يتحكم فى قدره ومصيره. هو شخص لديه القوة ليسحق أعدائه فى هذا العالم، وفى العالم الآخر. الآن الأمر بيدك، وبقدر اختيارك، قَلَّ أو كُثر، ليس عليك سوى أن تطلب."

رفعت عينيها الغريبتين له مرة أخرى، واخترقته نظرتها، لدرجة أنه شعر بالبرودة تسرى فى جسمه، ومع كل قوتها كان هناك خوف على وجهها كما لو كانت تستنجد به، ولكنها تستكبر أن تطلب. شعر جيد بالرعب وهى تضع يدها على يده بينما تتكلم. كانت لمستها لطيفة، ويدها صغيرة وبيضاء على يده السمراء القوية. قال لها متضرعًا: "سيريت، لا أمتلك تلك القوة التى تظنينها، ما كنت أمتلكه يومًا رميته بعيدًا. لا أستطيع أن أساعدك، ولست نافعًا لك. لكننى أعرف جيدًا أن قوى الأرض العتيقة ليست ملكًا للناس، ليست قوة ليد الإنسان أبدًا، وفى يده لا تنتج سوى الشر،

وسوء الوسيلة، وسوء الخاتمة. لم أنجذب إلى هنا سيريت، بل اندفعت إلى هنا، والقوة التى دفعتنى تعمل على تدميرى. لا أستطيع مساعدتك."

- "ذلك الذى يلقى بقوته قد يمتلئ بقوة أخرى أعظم منها أحيانًا."
قالت سيريت وهى تبتسم، كما لو كانت تطرد مخاوفه وأوهامه الطفولية، ولكننى أعرف أكثر منك: كيف أتيت إلى هنا، ألم يتحدث معك رجل فى شوارع أوريمى؟ كان رسولًا، خادمًا من تيرينون. كان ساحرًا يومًا ما، لكنه ألقى بعصاه ليخدم قوة أعظم من أى ساحر كبير. وحضرت أنت إلى أوسيكيل، وعلى مراعيها حاولت أن تحارب الشبح بعصاك الخشبية، وبالكاد أنقذناك منه، فهو أكثر مكرًا مما تخيلناه، وقد سحب بالفعل الكثير من قوتك. فقط الشبح يحارب الشبح، وفقط الظلام يهزم الظلام. اسمع سباروهوك، ماذا تحتاج لتهزم الشبح الذى ينتظرك خارج هذه الأسرار؟"

- "أحتاج ما لا أستطيع معرفته، اسمه."

"حجر التيرنون، الذى يعرف كل ميلاد، وكل ميتة، وكل الموجودات قبل وبعد الموت، يعرف الذى لا يولد والذى لا يموت، العالم المشمس والعالم المعتم، حجر التيرنون هذا سيقول لك على اسمه."

- "والثمن؟"

- "لا يوجد ثمن، قلت لك إن الحجر سيطيعك ويخدمك مثل العبد."

لم يرد جيد، كان مهزوزًا ومعذبًا، وهى تمسك بيديه الآن بين يديها، وتُمعن النظر إلى وجهه. كانت الشمس قد غابت الآن وراء الأفق المعتم، وحتى الهواء قد أصبح معتمًا، لكن وجهها كان يلمع بالفخر والنصر بعد أن رأت عزيمته تهتز بداخله، وهمست بنعومة: "ستكون أقوى من كل الرجال، ستكون ملكًا عليهم، سوف تحكم وسأحكم معك."

فجأة وقف جيد، وبخطوة واحدة استطاع أن يرى مباشرة اللورد بينديسرك بجانب الباب واقفًا ينصت ويبتسم.

وأخيرًا صفا عقل جيد، واستطاع أن يرى. نظر إلى سيريت تحته وقال: "إنه النور الذى يهزم الظلام." قال وهو يتمتم: "النور..."

كانت كلماته تضىء له الطريق، كما لو كانت هى نفسها النور، ولهذا استطاع أن يرى بوضوح كيف انجذب إلى هذا المكان، كيف تمت غوايته إلى هنا، وكيف استغلوا خوفه ليقودوه إلى هنا، وكيف إذا تملكوا منه لن يتركوه. أنقذوه من الشبح لأنهم لا يريدونه عبدًا للشبح، قبل أن يكون عبدًا للحجر. وأول ما تقبض إرادة الحجر على إرادته سيدخلون الشبح داخل القلعة؛ لأن الشبح سيجعل منه جيبيث، والجيبيث عبد أفضل من الإنسان. لو كان قد لمس الحجر أو تحدث معه مرة واحدة لكان قد ضاع إلى الأبد. ومع هذا، مثلما لم يستطع الشبح اللحاق به، لم يستطع الحجر الإمساك به، ليس بالكامل. استسلم لهما، ولكن ليس تمامًا. لا يستطيع الشر أن يتحكم فى الأرواح الرافضة.

وقف جيد بين بينديسرك وسيريت، كلاهما استسلم للشر، كلاهما خضع له، وأخذ ينظر بينهما وببيديسيرك يتقدم نحوه، فقال الأمير بينديسيرك بصوت جاف أجش لسيريت: "قلت لك، قلت لك إنه سيفلت من بين يديك. كلهم مهرة، هؤلاء المشعوذون الجونتيون. وأنت امرأة حمقاء أيضًا من جونت، تتوهمين أنه بإمكانك أن تخدعينا معًا، وتحكمينا معًا بقوة الجوهرة، وتستخدمين حجر التيرنون لأغراضك الخاصة. لكننى أنا سيد هذا الحجر، وهذا جزاء الزوجة الخائنة : "إيكافور آى أويلوانتار."
كانت هذه تعويذة تغيير، وارتفعت يدا بينيدسيرك الطويلتان لتشكيل المرأة

المذعورة إلى شيء قبيح، خنزير أو كلب أو شمطاء مخبولة. تقدم جيد للأمام ودفع يدى بينديسرك بيديه بكلمة واحدة فقط. ورغم أنه كان بدون عصا الساحر، وبالرغم من وجوده على أرض غريبة، أرض شريرة مركز للقوى السوداء، إلا أن إرادته هى التى حكمت الموقف. وتوقف بينيسيرك متجمدًا، بينما عيناه المعتمتان المثبتتان على سيريت تقطران كراهية عمياء.

قالت بصوت مرتجف: "تعال، تعال بسرعة قبل أن يستدعى خدام الحجر يا سباروهوك."

وكأن هناك صدى صوت يهمس فى كل البرج، همهمة جافة متكسرة تسرى فى كل الأحجار وكل الجدران، كما لو كانت الأرض نفسها تتكلم.

جرت سيريت عبر الممرات والقاعات، وهى تمسك بيد جيد، ونزلا على السلالم الطويلة المنحنية، خرجا إلى الفناء؛ حيث لا يزال ضوء المغيب الفضى الأخير معلقًا على الثلج الممتزج بالطين. اعترض طريقهما ثلاثة من حراس القلعة، وهم يتساءلون عابسين كما لو كانوا قد اشتموا مؤامرة من هذين الاثنين تجاه سيدهم، فقال أحدهم: "لقد هبط الظلام سيدتى." وقال الآخر: "لا تستطيعين الخروج للركوب الآن."

– "اغربوا عن وجهى يا أوساخ". هكذا صاحت سيريت باللغة الأوسكيلية الحادة، فسقط الرجال من حولها على الأرض، وَهُمْ يتلوون، وأحدهم يصرخ عاليًا.

– "لا بد أن نخرج خارج البوابة، لا يوجد طريق آخر، هل ترى البوابة؟ هل تجدها سباروهوك؟"

كانت تشد يده بصعوبة، ومع هذا كان مترددًا: "أى تعويذة ألقيتِها عليهم؟"

– "دفعتُ بالرصاص الساخن إلى نخاع عظامهم، سيموتون منه. هيا بسرعة، أقول لك بسرعة، سيطلق خدم الحجر علينا، وأنا لا أستطيع أن أرى البوابة، البوابة مسحورة بسحر عظيم. بسرعة!"

لم يفهم جيد ماذا تعنى بهذا، فالبوابة المسحورة التى تتكلم عنها كانت واضحة له تمامًا. أخذ سيريت من خلالها على الثلج المهجور فى الفناء الأمامى، ثم ألقى بإحدى تعويذات الفتح، وعبر بها من خلال بوابة جدران التعويذات.

تغير شكل سيريت وهما يعبران بوابة قلعة التيرنون، خلت من ضيائها الفضى، ورغم أنها لم تكن أقل جمالا تحت ضوء القمر الموحش على البرارى، لكن بان له ملمح الساحرة القاسية على وجهها. عرفها جيد أخيرًا، كانت ابنة لورد رى ألبى، ابنة مشعوذة أوسيكيل، تلك التى سخرت منه منذ زمن بعيد على المراعى الخضراء بالقرب من بيت أوجيون. وهى نفسها التى أرسلته ليقرأ تلك التعويذة التى حررت الشبح. لكنه لم يتوقف طويلا أمام هذا، فقد كان ينظر حوله فى كل اتجاه منتبهًا، باحثًا عن الشبح الذى لابد وأنه ينتظره فى مكان ما خارج الجدران المسحورة. ربما لا يزال فى شكل الجيبيث، متخذا من جثة سكيوره ملبسًا له، أو ربما يختبئ فى مكان ما فى تلك الظلمة المتكاثرة، منتظرًا أن يمسك به ليخفى وحشيته تحت جسم جيد. شعر بقربه، لكنه لم يره، لكن بعد أن دقق النظر رأى شيئًا صغيرًا معتمًا نصفه مدفون فى الثلج على بعد خطوات من البوابة. انحنى والتقطه فى يديه الاثنتين. كان هذا الشىء هو الأوتاك، وفراؤه القصير الجميل ملطخ بالدماء وجسمه الصغير خفيف وجامد وبارد فى يديه.

"حوِّل شكلك... حول شكلك، إنهم قادمون." صرخت سيريت، وهى تمسك بيده، وتشير إلى البرج الذى وقف خلفهم مثل ناب طويل أبيض فى

وقت الغسق. من أفاريز نوافذ قاعدة البرج رأى جيد مخلوقات سوداء تزحف مقتربة، تفرد أجنحة طويلة، تضرب وتدور مقتربة ببطء نحو الأسوار حيث يقف جيد وسيريت على جنب التل بلا حماية. كان الهمس المتحشرج الذى سمعاه بالداخل يزداد مثل أنين ورعشة فى قلب الأرض تحت قدميهما.

تصاعد الغضب فى قلب جيد، امتلأ بحنق يغلى تجاه كل هذه الأشياء الميتة التى تخادعه، وتنصب له الأفخاخ وتصطاده. "حوِّل نفسك، حول نفسك." صرخت فيه سيريت، وبتعويذة أطلقتها من بين أنفاسها المتلاحقة تحولت إلى نورس رمادى وطارت. لكنٍ جيد لم يحول نفسه، بل انحنى واقتلع فرعًا من العشب البرى ارتفع جافًا وضعيفًا من قلب الجليد حيث رقد الأوتاك. رفع العود عاليًا، وكلمه باللغة الحقيقية فاستطال وغلظ، وعندما أنهى تعويذته كان يمسك فى يده بعصا ساحر. حين حلقت حوله مخلوقات الموت السوداء من تيرنون، وضرب أجنحتهم بعصاه لم تكن نيران الموت هى التى تخرج من العصا، وإنما نيران السحر التى لا تحرق، بل تبعد بعيدًا.

عادت المخلوقات للهجوم. كائنات فجة من عصور ما قبل الطير والإنسان، كائنات نسيها ضوء الشمس، واستدعتها القوة الخبيثة الكامنة فى روح الحجر العتيقة التى لا تنسى. حلقوا حول جيد وانقضوا عليه. شعر بشفرات مخالبهم تمسح الهواء حوله مثل المنجل، وشعر بالإعياء من رائحة الموت النتنة المنبعثة منهم. أخذ يتفادى ويضربهم بعصاه النارية التى صنعها بغضبه المتأجج من عود حشيش برى. وفجأة قاموا جميعا مثل غربان ترتعب من فريستها واستداروا فى الاتجاه الذى طارت فيه سيريت فى هيئة النورس. ورغم أن أجنحتهم الكبيرة بدت بطيئة إلا أنهم طاروا بعيدًا تدفعهم كل ضربة وكل حركة فى الهواء باتجاهها. لن يصمد أى نورس طويلًا أمام سرعتهم الفائقة.

وبسرعة تماثل سرعته حين كان فى روك غير جيد شكله إلى صقر عظيم، ليس صغير الصقر أو الميسان كما أطلقوا عليه صغيرًا، وإنما الباز الهائل الذى يطير بسرعة البرق والأفكار. طارد مطارديه وهو يحلق بجناحين مخططين قويين حانين. اسودً الهواء حوله بخدام الحجر، بينما لمعت النجوم من بينهم جميعًا. رأى أمامه السرب الأسود المهتاج كله يندفع نحو نقطة واحدة فى منتصف الهواء. وخلف تلك البقعة السوداء التى شكلها السرب كان البحر باهتًا بضوء النهار الأخير. وبسرعة ومباشرة اندفع جيد الصقر إلى قلب خدام الحجر، فتبعثروا مثلما تتبعثر المياه من حول حجر مرمى فى الماء. لكنهم كانوا قد اصطادوا سيريت فريستهم وتساقطت الدماء من منقار أحدهم، والتصق الريش الأبيض بمخالب آخر، واختفى المشهد من أى نورس فوق البحر الشاحب.

كانوا فى طريقهم نحو جيد بالفعل بسرعة وبفظاظة، ومناقيرهم الحديدية مفتوحة على آخرها. أما هو فالتف من فوقهم، مطلقًا صرخة الصقر المرعبة، ثم انطلق مثل السهم نحو شواطئ أوسيكيل، ومنها إلى البحر المتلاطم.

ظلت مخلوقات الحجر الرهيبة بعض الوقت تنعب، ثم عادوا واحدًا بعد الآخر إلى المراعى الداخلية مطأطئين الرأس. لا تعبر القوى العتيقة حدود البحر، فكل منها مربوط بمكان محدد: جزيرة، كهف، حجر أو نبع ما. ولهذا عادت نُذُر الشؤم السوداء إلى البرج؛ حيث استقبلهم لورد بينيدسيرك بالبكاء أو الفرح. لكن جيد لم يلتفت، بل انطلق بأجنحة الصقر وغضب الصقر فوق بحر أوسيكيل، نحو الشرق فى قلب الريح والليل.

عاد أوجيون إلى بيته متأخرًا من جولاته الخريفية، أكثر صمتًا وأكثر وحدة مع مرور السنين. فى الآونة الأخيرة حاول سيد جزيرة جونت

الجديد أن يسمع منه أى كلمة بشأن موضوع يخص مغامرة قرصنة، لكنه لم يسمع منه ولا كلمة، وغادر مغتاظًا. أوجيون الذى سمعه الناس وهو يكلم العناكب فى شبكاتها، ويحيى الأشجار بحفاوة من قبل، لم ينطق بكلمة لسيد الجزيرة، ولربما كان هناك ما يضيق به صدر أوجيون؛ لأنه قضى كل الصيف والخريف وحيدًا فى الجبال، وأخيرًا عاد إلى بيته.

فى الصباح التالى لعودته قام متأخرًا من النوم، وخرج لجلب الماء النقى من النبع الذى يجرى قريبًا من بيته لعمل كوب من شاى الراشوش. كانت أطراف البحيرة مثلجة، والطحالب الذابلة بين الصخور مغطاة بزهور من الجليد. ورغم أن ضوء النهار كان عريضًا وساطعًا إلا أن الجو لم يصف بعد، فكل غرب جونت من الشواطئ إلى قمة الجبل كانت غائمة. وبينما وقف الساحر الكبير بجانب النبع ينظر على الأراضى الهابطة والميناء والمساحات الرمادية الشاسعة من البحر، رفرفت أجنحة فوقه. نظر إلى أعلى، ورفع ذراعه قليلًا، فحط على معصمه صقر هائل. تعلق بمعصم أوجيون كما لو كان طائر صيد مدرب، لكن بدون طوق مكسور، أو جرس أو علامة على مخلبه، تشبثت المخالب بمعصم أوجيون بقوة، وارتعشت الأجنحة المخططة، بينما كانت العيون المستديرة الذهبية مهتاجة وثقيلة.

قال أوجيون بوداعة للصقر: "هل أنت رسول أم رسالة؟ تعال معى." وبينما يتحدث كان الصقر يتطلع إليه. صمت أوجيون للحظة، ثم قال: "أعطيتك اسمك يومًا ما على ما أظن." ثم تقدم إلى منزله، ودخل وهو لا يزال يحمل الصقر على معصمه، ثم وضع الصقر على المدفأة، وعرض عليه الماء. لكنه لم يكن ليشرب. ثم بدأ أوجيون فى إلقاء تعويذة بهدوء شديد، وهو يحيك شبكة من كلام السحر بأصابعه. وحين اكتملت التعويذة قال بنعومة: "جيد." دون أن ينظر إلى الصقر بجانب المدفأة. انتظر بعض الوقت، ثم قام إلى الشاب الذى وقف يرتجف بليد العينين أمام المدفأة.

كان جيد يرتدى الملابس الفاخرة الغريبة ذات الفراء، رغم أنها كانت مهلهلة ومتخشبة من آثار ملح البحر. وقف نحيلًا ومحنيًا، وشعره نحيل حول وجهه المندب.

خلع أوجيون العباءة المتربة الغالية من على كتف جيد، وقاده إلى الغرفة الحائطية المجوفة؛ حيث اعتاد أن ينام، وأرقده هناك على فراشه، ثم ألقى عليه تعويذة نوم، ولم ينطق بكلمة، فقد كان يعرف أن جيد فاقد للسان الإنس الآن.

حين كان صبيًا، ومثل كل الصبيان، كان يظن أن اتخاذ أشكال مختلفة سحرية لعبة مسلية، سواء كان الشكل شكل إنسان أو حيوان، شجرة أو سحابة، وهكذا يلعب على ألف شكل من أشكال الوجود. لكنه كساحر تعلم ثمن هذا التغيير، وهو خطورة أن تفقد هويتك تمامًا، وتفقد حقيقتك وأنت تلعب. فكلما قضى المرء وقتًا أطول فى شكل ما بعيدًا عن حقيقته ازداد الخطر. وكل مشعوذ متدرب يعرف قصة ساحر بورديجر من واى، الذى كان يحب أن يتغير لشكل الدب، وظل يفعل هذا أكثر وأكثر حتى كَبُر الدب بداخله، ومات الإنسان، وأصبح دبًّا قتل ولده الصغير فى الغابات، حتى اصطادوه وذبحوه. وكم من الدرافيل فى البحر المخفى كانت فى الأصل سحرة، نسوا حكمتهم وأساميهم فى بهجة البحر المتواصلة.

اتخذ جيد شكل الصقر وهو فى محنة وغضب شديدين، وحين طار من أوسيكيل إلى جونت كان فى عقله فكرة واحدة فقط؛ أن يهرب من خطر الحجر المسحور والشبح، أن يهرب من الأراضى الخائنة الباردة، أن يعود للبيت. كان غضب الصقر وشراسته قد أصبحا غضبه وشراسته، وإرادته قد أصبحت إرادة الصقر. لهذا فقد عبر فوق الإنلاند، وانحنى فقط لشربة

ماء من بركة ماء منعزلة فى غابة، ثم انطلق مرة أخرى مدفوعًا برعبه من الشبح خلفه، وعَبَر ممرًا بحريًا ضيقًا اسمه "فك الإنلاند"، واستمر فى الطيران، شرقًا من الجنوب، جبال أورانيا على يمينه وتلال أندراد على يساره، وأمامه البحر فقط، حتى ظهرت أخيرًا من فوق الأمواج تدريجيًا قمة الجبل البيضاء لجونت. وطوال هذا الرحلة الهائلة بليلها ونهارها نسى جيد كل شىء، سوى جناحى الصقر وعينى الصقر، ولم يعد يعرف سوى ما يعرفه الصقر فى طيرانه: الجوع والريح ومسار الطيران.

عاد جيد إلى المرفأ الصحيح، قليلون على روك وواحد فقط على جونت من كان يستطيع أن يعيده إلى صورته الأولى.

استيقظ جيد متوحشًا وصامتًا، لم يتحدث إليه أوجيون أبدًا، فقط أعطى له الماء واللحم، وتركه يجلس عاكفًا على المدفأة مثل صقر كبير عبوس كئيب وسقيم، حين يأتى الليل ينام. وهكذا فى صباح اليوم الثالث جاء إلى المدفأة؛ حيث كان الساحر الكبير جالسًا يحملق فى النيران، وقال: "سيدى..."

- قال أوجيون: "مرحبًا ولدى."

- قال جيد بصوت غليظ أجش: "رجعت لك كما تركتك، أحمق."
ابتسم أوجيون قليلًا، وحرك جيد ليجلس أمامه حول المدفأة، وبدأ يعد بعض الشاى.

كان بواكير الثلج قد بدأت تتساقط على المنحدرات السفلى لجونت، ورغم أن مصاريع نوافذ أوجيون كانت جميعها مغلقة، إلا أنهم سمعوا صوت هطول الثلج ناعمًا على السقف، ثم سكون الجليد حول المنزل كاملًا.

جلسَا هناك فترة طويلة جدًا، وجيد يحكى حكاية السنين الماضية لأستاذه منذ تركه وركب على السفينة الشبح. لم يسأل أوجيون أى أسئلة، وحين انتهى جيد بقى ساكنًا فترةً طويلة يفكر، ثم نهض وأعد بعض الخبز والجبن والشراب وأكلا معًا، وعندما انتهيا ورتبا المكان تكلم أوجيون.

– "جراح مريرة تلك التى تحملها يا ولدى."

– "لم يعد لدى أى قوة تجاه هذا الشىء."

هز أوجيون رأسه، ولم ينطق لبرهة، ثم قال: "الغريب أنه كانت بك قوة لهزيمة ساحر فى أرضه هناك فى أوسيكيل. كانت لديك قوة كافية لتبعد وتهاجم خدام القوى القديمة للأرض فى الحجر المسحور، وفى بيندور كانت لديك القوة لتواجه."

رد جيد: "فى أوسيكيل كنت أمتلك الحظ فقط وليس القوة." ثم ارتجف جيد ثانية وهو يفكر فى برد بلاط تيرنون الذى يشبه برد الكوابيس المميت، ثم قال: "، كنت أعرف اسمه· أما ذلك الشىء الشرير فلا اسم له."

– "لكل الأشياء أسماء." قالها أوجيون بقوة، جعلت من الصعب على جيد أن يردد أمامه ما قاله الساحر الأكبر جيشنر، بأن تلك القوة التى أطلقها جيد لا اسم لها. والحق أن تنين بندور عرض عليه أن يخبره عن اسمه، لكنه لم يثق فى كلام التنانين، بينما لم يصدق مطلقًا وعد سيريت بأن الحجر المسحور سيخبره عما يريد.

– "لو كان للشبح اسم فلا أعتقد أنه سيتوقف ليخبرنى به."

– "لا، ولا أنت توقفت لتخبره عن اسمك، ومع هذا فقد عرفه. فى

مراعى أوسيكيل ناداك باسمك، ذلك الاسم الذى أعطيتك إياه. أمر غريب، غريب!"

وعاد لتجهمه مرة أخرى. وأخيرًا قال جيد: "أتيت إلى هنا طالبًا للمشورة أستاذى، ولست لاجئًا، فلن أجلب هذا الشر إلى بيتك؛ لأنه سيأتى سريعًا إذا بقيت. فى يوم من الأيام أبعدته من هذه الغرفة نفسها."

"لا، لم يكن الشبح، بل كان نذيره. شبح الشبح، ولا أستطيع أن أبعده بعيدًا الآن. أنت فقط تستطيع أن تفعل هذا."

- "لكننى لا حول لى ولا قوة أمامه. هل هناك أى مكان..." ثم غاص صوته قبل أن ينطق السؤال.

- قال أوجيون بهدوء: "لا يوجد مكان آمن لك، لا تحول نفسك ثانية يا جيد. يسعى الشبح لتدميرك ويدفعك لهوية الصقر. لا، ولا أعرف إلى أين يجب أن تذهب، ومع هذا فعندى فكرة من الصعب أن أطرحها عليك."

حرَّك صمت جيد أوجيون لأن ينطق بالحقيقة، فقال أخيرًا: "عليك أن تستدير راجعًا."

- "أستدير راجعًا!"

"لو تقدمت للأمام، أعنى لو واصلت الجرى، أينما تهرب ستجد الخطر والشر؛ لأنه يسوقك ويدفعك ويختار الطريق الذى تمشى فيه. عليك أن تختار، عليك أن تبحث عمن يبحث عنك، عليك أن تصطاد الصياد."

لم ينطق جيد.

- قال الساحر الكبير: "على نبع آر أعطيتك اسمك، نبع يهبط من الجبل إلى البحر، يعرف المرء منتهاه وغايته، لكنه لا يعرفه جيدًا إلا إذا

استدار وعاد لبدايته، واحتضن تلك البداية وضمها لوجوده. فإن لم يكن المرء قشة يغطيها التيار، ويلفها فى دوامات، فعليه أن يكون التيار ذاته، من منبعه إلى مصبه في البحر. لقد رجعت إلى جونت، إلى الوطن، رجعت لى يا جيد. الآن أريدك أن تستدير بثبات، وتسعى إلى المنبع وما يحتويه، هناك يكمن الأمل."

– قال جيد والرعب فى عينيه: "هناك سيدى؟ أين؟"

لم يرد أوجيون.

– "لو استدرت، لو فعلت مثلما تقول، ورحت أصطاد الصياد فلن يدوم الصيد طويلًا. فأقصى أمانى الشبح أن يلقانى وجهًا لوجه. عندما حدث ذلك مرتين من قبل هزمنى فى المرتين."

– قال أوجيون: "المرة الثالثة ستكون معجزة."

أخذ جيد يمشى في الغرفة ذهابًا وإيابًا من المدفأة إلى الباب، ومن الباب إلى المدفأة، ثم قال: "ماذا لو هزمنى؟" ورددها جيد قائلًا لنفسه أو لأوجيون: "سيأخذ معرفتى وقوتى ويستخدمهما، الآن يهددنى وحدى، لكن لو لبسنى، وتملك منى، سيعمل الشر من خلالى."

– "هذا صحيح، لو هزمك."

– "نعم، لكن لو هربتُ ثانية فسوف يجدنى ثانية بالتأكيد... لقد نفذت قوتى فى الهرب."

ثم قطع جيد الغرفة مرة أخرى ذهابًا وإيابًا لبعض الوقت، ثم استدار فجأة، وركع عند قدمى أستاذه، وقال: "سيدى، لقد مشيتُ مع أعظم السحرة، وعشت على جزيرة الحكمة والحكماء، لكنك معلمى الحقيقى." قالها جيد بحب، وبكثير من السعادة المشوبة بالحزن.

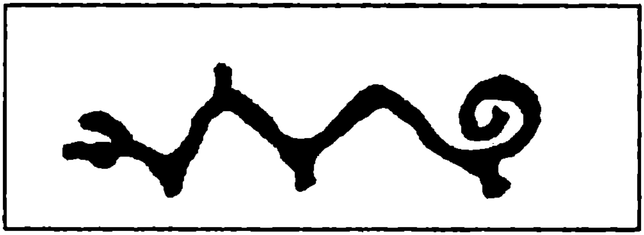
قال أوجيون: ”حسنًا، تعرف هذا الآن، صحيح أنك عرفته متأخرًا، لكن أفضل من ألَّا تعرفه أبدًا. لكنك يا جيد ستكون سيدى فى النهاية.“ قال هذا، وقام وأشعل نارًا حتى احمرت، وعلق فوقها غلاية الماء لتغلى، ثم ارتدى معطفه الجلدى، وقال: ”لا بد أن أرعى غنمى، راقب الغلاية يا بنى.“

حين عاد من الخارج مغطى بالبَرَد، وحذاؤه يطبع آثارًا من الجليد على الأرض. كان يحمل قصبة طويلة من شجر الطقسوس، وجلس يعمل عليها بقية العصر، وبعد العشاء بالسكين والمبرد والتعاويذ على ضوء المصباح. كان يمرر يده عليها من فوقها لأسفلها؛ ليتأكد من خلوها من أى عيب. وكان يغنى بصوت خفيض وهو يعمل. أما جيد، الذى كان لا يزال سقيمًا، أخذ ينصت، وبينما يغالب النوم تخيل نفسه طفلًا فى كهف الساحرة فى قرية الشجرات العشر فى ليلة جليدية مظلمة، لا يضيئها سوى النار، والهواء ثقيل برائحة الأعشاب والدخان. سرح عقله وهو يستمع إلى الأغنية الطويلة الناعمة بتعاويذها، وملاحم الأبطال الذين حاربوا قوى الظلام وانتصروا أو انهزموا فى جزر بعيدة من قديم الأزل.

قال أوجيون وهو يعطى العصا الجديدة لجيد: ”خذ، لقد أهداك الساحر الأكبر عصا من خشب الطقسوس، وهو اختيار جَيِّد، كنت أدخر هذه القصبةُ لأصنع قوسًا طويلًا، لكنها أفضل هكذا. عمت مساء يا ولدى.“

وبينما استدار جيد لينام فى تجويفه القديم، وهو لا يجد من الكلمات ما يشكر بها معلمه، راقبه أوجيون وهمس: ”يا صقرى الصغير، طر بأمان.“

فى برد الفجر استيقظ أوجيون ليجد جيد قد رحل. ترك له رسالة على طريقة السحرة بالحروف الرونية على المدفأة، كانت حروفًا فضية تختفى وهو يقرأ: ”سيدى، أنا ذاهب للصيد.“



(٨) الصيد

فى ظلمة الشتاء بدأ جيد رحلته من رى ألبى قبل شروق الشمس، وقبل الظهر كان قد وصل إلى ميناء جونت. أعطاه أوجيون ملابس نظيفة، بنطالاً وقميصًا وثوبًا من الجلد والكتان بدلًا من ملابسه الأوسكيلية الفاخرة، لكن جيد احتفظ بعباءته الشتوية ذات الفراء. وهكذا بدأ رحلته لابسًا عباءته، خالى اليدين سوى من العصا الداكنة التى ماثلت طوله. جاء إلى بوابة الأرض، وهناك على الفور عرف كل الحراس المستريحين تحت تماثيل التنانين المحفورة أنه ساحر، وضعوا حرابهم جانبًا، وأفسحوا له الطريق دون سؤال، وظلوا يراقبونه حتى اختفى من الطريق.

على رصيف الميناء سأل جيد عن السفن المتجهة إلى شمال أو غرب إنلاند أو الأنرداد أو أورانيا. كانت إجابة الجميع أنه لن تغادر أى سفينة ميناء جونت الآن، بينما عيد عودة الشمس على الأبواب، وفى بيت الشاطئ أخبروه أنه حتى سفن الصيد لن تذهب إلى البحر فى هذا الجو المتقلب.

قدموا له العشاء فى حجرة المؤن فى بيت البحر من تلقاء أنفسهم فنادرًا، ما يستجدى الساحر عشاءه. جلس بعض الوقت مع حمالين السفن وبنائيها ومحركى الطقس، مستمتعًا بحواراتهم المتناثرة، ولكنتهم الجونتية المتذمرة. كانت بداخله رغبة جارفة أن يبقى هنا فى جونت، ويعيش فى سلام فى مسقط رأسه مثل أى شخص عادى على أرض المعمورة العزيزة، مبتعدًا عن كل المغامرات والسحر، ناسيًا كل القوة والرعب. كانت تلك رغبته، أما إرادته فكانت شيئًا آخر. وبعد أن عرف أن الميناء لن تغادره أية سفن لم يبقَ طويلًا فى بيت الشاطئ، ولا فى المدينة، وإنما مشى باتجاه رصيف الميناء، حتى وصل إلى أول قرية صغيرة إلى شمال جونت، وهناك سأل بين الصيادين، حتى وجد واحدًا يرغب فى بيع قاربه.

كان صاحب القارب رجلًا عجوزًا صارمًا، وقاربه لا يزيد عن اثنى عشر قدمًا، مصنوع بطريقة الألواح المتراكبة، ومع هذا فقد طلب ثمنًا عاليًا فيه، فقد كانت على القارب وعلى صاحبه وابن صاحبه تعويذة أمان فى البحر لمدة عام. فالصيادون الجونتيون لا يخشون شيئًا بقدر ما يخشون البحر.

تلك التعاويذ التى يعلقون عليها الكثير من الأمل فى الطرف الشمالى من الأرخبيل لم تنقذ أحدًا من قبل من عاصفة، ولا أمواج هائجة، لكن كل ما فى الأمر أنه لو ألقاها شخص عليم بالطقس المحلى وطرق الملاحة ومهارات البحارة فهى تشكل بعض الحماية اليومية للصياد. عمل جيد على التعويذة

بإخلاص طوال الليل وطوال اليوم التالي دون أن يحذف منها شيئًا. عمل بثقة وصبر، رغم أنه كان شريد الذهن من الخوف، وأفكاره تأخذه إلى أسود الأماكن، وهو يتخيل كيف سيظهر له الشبح ثانية. متى؟ وأين؟ وحين تمت التعويذة وألقاها على القارب، كان التعب قد بلغ منه مبلغًا كبيرًا، فنام هذه الليلة في بيت الصياد، في فراش معلق مصنوع من معدة الحوت، وقام من النوم في الفجر، وهو يفوح برائحة الرنجة. ثم ذهب إلى الخليج الصغير أسفل منحدر كاتنورث؛ حيث كان مركبه الصغير.

دفع به في المياه الهادئة، فبدأت المياه تنبثق بهدوء منه على الفور، وثب جيد إلى القارب بخفة القطة، وعلى الفور بدأ في العمل على الألواح المتفككة والأوتاد المتعفنة. كان يعمل على القارب بالأدوات والتعاويذ كما كان يعمل مع بيتشفيري في لوتورنينج. تجمع أهالي القرية صامتين على مسافة ليست بقريبة منه؛ ليشاهدوا يديه السريعتين، ويستمعوا إلى صوته الناعم. أتقن هذه المهمة أيضًا، وعملها بصبر وتؤدة حتى تحسن القارب وتحصن تمامًا. ثم وضع عصاه التي أعطاها له أوجيون كعمود الصاري، وثبت عبرها لوحًا من الخشب المتين، وتحت راجعة السارية هذه غزل جيد شراعًا من التعاويذ على منوال الريح، شراعًا مربعًا بلون الثلج على مرتفعات جونت، عند رؤية هذا غارت النساء المراقبات وتنهدن. ثم وقف عند العمود، وأثار رياح السحر بخفة، فتحرك المركب فوق المياه، وجرى عبر الخليج العظيم باتجاه المرتفعات المدببة. وعندما وجد الصيادون المراقبون أن مركب التجديف المرتشح ينساب تحت الشراع بنفس سرعة ورشاقة طيور الماء هللوا وتقافزوا على الشاطئ في ذلك الجو البارد، نظر جيد إلى الخلف، ووجدهم لا يزالون يحيونه تحت المرتفعات التي ارتفعت ثلوجها إلى السحاب.

أبحر عبر الخليج بين المرتفعات إلى البحر الجونتى، هناك حدد مساره باتجاه الغرب ليعبر شمال أورانيا، ليعود مثلما جاء. فربما يكون الشبح قد تبع رحلته الصقرية عبر الأيام والرياح من أوسيكيل· قد يجوب بحثًا عنه أو قد يأتى مباشرة، لا يستطيع أن يجزم. لكن إن لم يكن قد تراجع تمامًا إلى عالم الأحلام فحتمًا سيرى جيد، ويعود ليقابله وهو يبحر مكشوفًا فوق البحر المفتوح.

فى البحر تمنى أن يقابله، لو كان لقاؤه حتميًا. لم يعرف لماذا، لكنه كان يرتعب لفكرة أن يقابل هذا الشىء على البر ثانية. قد تخرج العواصف والوحوش من قلب البحر، لكن لا تخرج قوى الشر منه. الشر يأتى من قلب البر. كذلك لم يكن هناك أى بحر ولا نهر ولا جدول فى تلك الأرض القاتمة فى عالم الموت الجاف الذى زاره جيد، المكان الجاف الخالى من الماء هو الموت. ورغم أن البحر نفسه كان مخاطرة كبيرة فى هذا الوقت من الشتاء إلا أن جيد اعتبر هذا الخطر، ومثل هذا التقلب وعدم الاستقرار فرصة نجاة وحماية له، فإذا ما قابل هذا الشبح فى نهاية حماقته الكبيرة فربما على الأقل يستطيعان أن يتصارعا ويمسك بعضهما ببعض، وحينها يسحبه بثقل جسمه وثقل الموت الذى ينبعث منه إلى ظلمات البحر العميق، وهناك لن يخرج ثانية، وبهذا يكون على الأقل سيضع فى موته حدًا لذلك الشر الذى أطلقه على الدنيا فى حياته.

أبحر فى بحر هائج حاد، تتدلى السحب من فوقه، وتسير معه مثل ستائر عريضة داكنة فى حالة حداد. لم يستخدم رياح السحر، بل اعتمد على رياح العالم التى هبت حادة من ناحية الشمال، كان الشراع يعدل نفسه ليمسك بالرياح طالما حافظ على قوامه المصنوع من التعاويذ، وكان يفعل هذا بكلمات كالهمس. لو لم يستخدم هذا السحر لاستحال عليه أن يحتفظ بهذا

القارب المتهالك فوق تلك المياه الهائجة. تقدَّم للأمام، وهو يمعن النظر حوله فى كافة الاتجاهات. أعطته زوجة الصياد رغيفين ودلوًا من الماء، ولهذا بدأ يأكل بعد عدة ساعات حين تراءت له صخرة كيمبر، الجزيرة الوحيدة بين جونت وأورانيا. أكل وشرب وامتلأ قلبه بالامتنان للسيدة الجونتية الصامتة التى أعطته الطعام. أبحر بعد أن لمح الأرض بسرعة، وهو يتجه أكثر ناحية الغرب الآن، تحت رذاذ خفيف مثلج فوق البحر. خلا المكان من أى صوت سوى من صرير المركب وصفعات الموج الخفيفة على مقدمة القارب. لا شىء على امتداد البصر، لا طائر ولا قارب. لا يتحرك شىء سوى المياه الأزلية والسحب السائرة. كان يسير إلى غرب السحب نفسها التى تذكرها حين كان يطير بينها وتطير إلى شرقه فى طيرانه كصقر فى هذا المسار نفسه. وقتها نظر إلى البحر الرمادى بالأسفل تمامًا مثلما ينظر على الهواء الرمادى بالأعلى.

لم يكن هناك أى شىء أمامه، وقف وهو يرتعش، سقيمًا من النظر والتمعن فى السواد الخالى بحثًا عن الشبح. قال محدثًا نفسه: "هيا، تعال، ماذا تنتظر أيها الشبح؟" لم يتلق إجابة، ولم يجد أى حركة أكثر سوادًا بين الضباب والأمواج. إلا أنه كان مُوقنًا الآن أن هذا الشىء قريب، ويسعى حثيثًا فى أثره. نادى بعزم قوته فجأةَ: "أنا هنا، أنا جيد الميسان، سباروهوك، أنا هنا وأستدعى ظلى."

أصدر القارب صريرًا، وتلعثمت الأمواج حوله، وصفرت الريح قليلًا على الشراع الأبيض. ولا يزال جيد ينتظر، يده على عمود الشراع محملقًا فى الرذاذ الجليدى، الذى أصبح يهطل كالثياب الممزقة على البحر من اتجاه الشمال. ثم رأى الشبح فى قلب المياه آتيًا.

لم يكن الشبح فى جسد سكيوره الآن، ولا كان فى شكل الجيبيث وهو يتبعه فى قلب البحر والريح، ولا اتخذ شكل الحيوان كما جاء له على تل روك، أو كما يظهر فى أحلامه، ومع هذا فقد كان له شكل محدد الآن حتى فى وضح النهار. فى سعيه الحثيث وراء جيد، فى صراعه مع جيد فوق المراعى، امتص من قوته، وربما كان استدعاء جيد له بهذه القوة والوضوح قد أجبره على اتخاذ شكل وصورة ما محددين. بالتأكيد بدا الآن أقرب إلى صورة الإنسان، وإن كان بلا ظل، هو نفسه ظل. لذا فقد جاء عبر البحر، عبر فكى إنلاند باتجاه جونت، مثل شىء مريض معتم، يخطو بصعوبة فوق الأمواج، ينظر إلى الريح وهى تهب ومعها المطر البارد.

ولأن ضوء النهار كان يعميه، ولأن جيد هو من استدعاه، رآه جيد قبل أن يراه، عرفه جيد من بين بقية المخلوقات، من بين كل الأشباح.

فى عزلة بحر الشتاء الرهيبة وقف جيد يشهد ما يرعبه، بدا كأن الرياح تزيح الشبح بعيدًا عن القارب، والأمواج تتسارع من تحته وترهق عينيه، فبدا كأنه يقترب أكثر وأكثر من جيد. كان من الصعب أن يحدد إن كان يتحرك أم لا. كان الشبح قد رآه الآن، ورغم أن عقل جيد خلا من كل شىء سوى الرعب والخوف من لمسة الشبح، من الألم البارد القاسى الذى التهم حياته كلها، إلا أنه انتظر ساكنًا. ثم نادى بأعلى صوته فجأة على رياح السحر لتهب قوية ومفاجئة فى شراعه الأبيض، وقفز قاربه مباشرة على ذلك الشىء الذى تعلق بين الرياح.

فى صمت مطبق استدار الشبح وفر هاربًا وهو يرتجف.

فوق الرياح فر الشبح تجاه الشمال، فوق الرياح أبحر قارب جيد، سرعة الشبح ضد رياح السحر والعاصفة المطرة ضدهما معًا. صرخ

الساحر الصغير فى قاربه وفى شراعه وفى الأمواج، كما يصرخ الصياد فى كلابه حين يكون الذئب على مرمى بصر. وجلب لهذا الشراع ريح كفيلة بأن تشطر أى شراع قماشى نصفين، ولكنها دفعت بالقارب عبر البحر مثل سحابة من الرغاوى الطائرة تسوقها الرياح إلى الأمام باتجاه هذا الظل.

استدار الشبح الآن مشكلًا نصف دائرة، وهو يبدو مفككًا وباهتًا مثل دخان تسوقه الريح، ولكنه ليس إنسانًا، ثم استدار للخلف فجأة، وجرى مع العاصفة كأنه ذاهب فى اتجاه جونت.

أدار جيد القارب باليد وبالتعويذة، فتقافز على الماء مثل درفيل وهو يلف سريعًا. أسرع كثيرًا مما بدأ، لكن الشبح كان قد ذاب من أمام عينيه. فالمطر، ممتزجًا بالجليد والثلج، كان مثل السياط على ظهره وخده الأيسر، وانعدمت الرؤية عنده أكثر من مائة ياردة للأمام. وبسرعة، ولأن العاصفة اشتدت، فَقَدَ جيد أثر الشبح. لكنه كان واثقًا من مساره، وكأنه يتتبع آثار وحش على الجليد، وليس خيالًا على الماء. ورغم أن ريح العالم كانت باتجاهه الآن، إلا أنه رفع ريح السحر فى الشراع، فأضحى مثل سهم منطلق من الرغاوى المفتتة فى مقدمة القارب السميكة، وانطلق القارب يلطم الماء وهو يجرى.

ظل الصياد وصيده فى مسارهما الغريب، واليوم يقترب نحو المغيب. أدرك جيد أنه بسرعته هذه فى الساعات الأخيرة لا بد أنه قد أصبح جنوبَ جونت الآن، وفى طريقه إلى سبيفى أو تورهيفين، أو ربما حتى قد تجاوز كل هذه الجزر إلى البحر المفتوح. لم يعرف أين هو، ولم يكترث، طارد الشبح وخوفه أمامه الآن.

وفجأة رأى الشبح قريبًا منه للحظة. هدأت رياح العالم، واستسلم الجليد النشط الذى صاحب العاصفة لضباب كثيف ممزق بارد. من خلال هذا الضباب لمح جيد الشبح يهرب إلى يمينه، تحدث إلى الريح والشراع، وأدار الدفة وتبعه، رغم أنه على أية حال كانت تلك مطاردة عمياء؛ لأن الضباب كان يزداد كثافة ويفور ويتمزق كلما اتحد مع رياح التعويذة، قافلًا على المركب من كل اتجاه، ومكوِّنًا شحوبًا كاملًا يخفى الرؤية والضوء. حتى عندما نطق جيد بالكلمات الأولى لتعويذة التجلية، ظهر الشبح مرة أخرى على اليمين، لكن من على مقربة شديدة وهو يمهل السير، كان الضباب يهب من خلال رأسه المعدوم الوجه، ورغم هذا كان يتخذ شكل رجل، شبح رجل، مشوَّهًا ومتغيرًا. غيَّر جيد اتجاهه مرة أخرى، وهو يظن أنه قد أوقع بعدوه، إلا أن الشبح تبخر تمامًا فى تلك اللحظة، وتحطم القارب على الأرض مصطدمًا بصخور فى مياه ضحلة أخفاها الضباب عن ناظره. وبالكاد استطاع جيد أن يتمسك بالعصا، ويتفادى أن ينطرح أرضًا قبل أن تضربه الموجة التالية. كانت موجة هائلة قذفت بالقارب خارج الماء، ودفعت به على صخرة، تمامًا مثلما قد يرفع شخص قوقعة حلزون ويكسرها.

كم كانت عصا أوجيون متينة، رائعة، وسحرية فى تلك اللحظة! لم تنكسر، بل اعتلت الماء مثل جذع الشجرة الطافى الجاف. تشبث بها جيد بكلتا يديه، وهو ينجذب للخلف، بينما الأمواج تنحسر عن الصخور، لهذا وجد جيد نفسه فى مياه عميقة، آمنًا من التحطم على الصخور حتى الموجة التالية. حاول بكل قوته أن يبقى رأسه على الماء، والماء المالح يعمى عينيه ويخنقه، بينما هو يقاوم جاذبية البحر. فى عمق محنته لمح شاطئًا رمليًا بجانب الصخور، وهو يحاول أن يحرر نفسه من ارتفاع الموجة التالية، حاول بعزم قوته وبمساعدة العصا السحرية أن يطلع على هذا الشاطئ،

لكنه لم يقترب. كان ارتفاع الماء وانحساره يأخذه ذهابًا وإيابًا مثل الخرقة البالية، وبرد البحر يسحب كل الدفء فى جسمه بسرعة، ضعف تدريجيًا حتى لم يعد يستطع تحريك ذراعيه، ولا رؤية الصخور ولا الشاطئ ولا الطريق أمامه. فقط كانت هناك جلبة المياه حوله، تحته، فوقه، من كل جانب، تعميه، تخنقه وتغرقه.

ثم جاءت موجة هائلة من تحت الضباب الممزق، لفَّته عدة مرات، وقذفت به مثل لوح خشب طافٍ إلى الشاطئ.

وهناك رقد، وهو لا يزال متشبثًا بعصاه بكلتا يديه، حاولت موجات أقل ارتفاعا أن تسحبه وتطويه بعيدًا تحت الرمال، بينما الضباب يصفو ويطبق عليه، ثم ينهمر المطر الجليدى من فوقه.

تحرك بعد وقت طويل، رفع نفسه على قدميه وركبتيه، وبدأ يزحف بصعوبة على الشاطئ بعيدًا عن حافة الماء. كان الليل معتمًا الآن، لكنه همس للعصا فأضاءت كرة ويرلايت فوقه. وجاهد والكرة فوقه تنير له الطريق، شيئًا فشيئًا إلى التلال الرملية. كان مهزومًا ومحطمًا وباردًا، لدرجة أن ذلك الزحف على الرمال المبتلة، فى قلب ذلك الظلام الذى يملؤه صوت رعد البحر، بدا له أصعبَ شىء قام به فى حياته كلها. وللحظات شعر أن صوت البحر والرياح من خلفه يبعد ويموت، والرمال المبتلة من تحت يديه تتحول لتراب، وشعر بالنجوم من خلف ظهره ترمقه بنظرة غريبة ثابتة. ربما كان يموت، لكنه لم يرفع رأسه ليرى، واستمر فى الزحف، وبعد قليل بدأ يسمع صوت لهاثه، وشعر بالرياح القارصة تضرب وجهه بالمطر.

أخيرًا، أعادت الحركة الدفء إلى جسده، وبعد أن زحف حتى التلال؛ حيث تهبط زخات المطر أضعف وأقل، نجح فى الوقوف على قدميه، وهمس

بكلمات لتقوية ضوء الويرلايت فوق رأسه، فقد كان الظلام حالكًا، ثم اتكأ على عصاه، ومشى نصف ميل أو أكثر بداخل الجزيرة، وهو يتعثر ويقوم ويتوقف ويحاول، وعندما ارتفع به تل رملى سمع صوت البحر ثانية عاليًا مرة أخرى، فالتلال كانت تنحدر مرة أخرى نحو البحر. واكتشف جيد الأمر: لم تكن تلك جزيرة، وإنما مجرد شِعب من الشعاب الصخرية فى قلب المحيط.

كان منهكًا لدرجة تفوق اليأس، لكنه تنهد، ووقف هناك مستندًا على ذراعه فترة طويلة، مرعوبًا. لكن جيد العنيد استدار لليسار لتكون الرياح على ظهره على الأقل، وجرجر قدميه نزولًا من التل الرملى العالى، وهو يتحسس أعشاب البحر المحنية التى يكسوها الجليد؛ بحثًا عن أى تجويف يلجأ له. بينما رفع عصاه ليرى أمامه لمح بآخر قدرته على النظر ضوءًا باهتًا بعيدًا يأتى من حائط خشبى مبتل.

كان الحائط مثل عشة أو كوخ صغير وضعيف، كما لو كان مَن بناه مجرد طفل. ضرب جيد على الباب المنخفض بعصاه، ظل الباب مغلقًا. دفعه جيد ودخل، وهو ينحنى بالكامل ليدخل. كان من المستحيل أن يقف معتدلًا داخل الكوخ. بالداخل لمعت نيران المدفأة، وعلى ضوئها استطاع جيد أن يرى رجلًا بشعر أبيض طويل يقبع فى رعب بجانب الحائط الأبعد من الكوخ، وبجانبه رجل أو امرأة ينظر له من وراء كومة من الثياب المهلهلة على الأرض.

- همس جيد: "لن أؤذيكما".

لم يقولا أى شىء. نظر جيد لأحدهما ثم للآخر، كانت عيونهما ممتلئة بالرعب، فوضع عصاه جانبًا.

أخذ الشخص الذى كان يقبع وراء كومة الملابس يبكى بشدة. خلع جيد عباءته التى أصبحت ثقيلة من الماء والثلج، خلع كل ما يرتدى، وعكف على النار طلبًا لبعض الدفء قائلًا: " أعطونى شيئًا أستر به نفسى." قالها جيد بصوت أجش، بصعوبة بالغة من بين أسنانه المصطكة وجسمه المرتعش. لم يجيباه، هذا إن كانا قد سمعاه من الأصل. مد يديه، وأخذ خرقة من على الفراش وجدها من جلد الماعز، يبدو أنه قد مرَّ عليها سنوات طويلة فتهلهلت واكتست بالدهن الأسود الآن، فجفف بها نفسه، حين فعل هذا تأوه الشخص المختبئ تحت الفراش من الرعب، لكن جيد لم يلقِ له بالًا، وهمس "لو لديك أى خشب فزد هذه النار قليلًا يا رجل، فقد جئت لك فى ساعة العسرة، ولا أنوى أن أؤذى أحدًا."

لم يتحرك الرجل العجوز، بل أخذ يرقبه فى رعب وذهول.

توقف جيد، ثم سأل بعد لحظة: "هل تفهمنى؟ هل تتكلم الهاردية؟ كارجاد؟"

عند هذه الكلمة أومأ الرجل فورًا إيماءة واحدة مثل عروسة ماريونيت معلقة بخيط. لكن تلك الكلمة الوحيدة كانت كل ما يعرفه جيد من اللغة الكارجية، ولهذا انتهى الحوار بينهما. وجد بعض ألواح من الخشب بجانب جدار، فألقمها النار بنفسه، ثم أشار لهما بأنه يريد الماء، فقد أعياه شرب ماء البحر المالح، والآن كاد العطش أن يقتله. أشار الرجل العجوز بخضوع إلى قوقعة كبيرة كان بها الماء، وأشار الرجل إلى قوقعة أخرى بها شرائح من السمك المجفف. جلس جيد متربعا بجانب النار، وشرب وأكل قليلًا، وحين عادت له بعض العافية والإدراك أخذ يتساءل أين هو. حتى برياح السحر لم يكن ليبحر إلى بلاد الكارجيين، لا بد وأن هذه الجزيرة فى البحر

المفتوح إلى الشرق من جونت، لكنها إلى الغرب أيضًا من كارجاد آت. كان من العجيب وجود أى إناس على مثل هذا الرصيف الرملى، ربما كانا من المنبوذين المنفيين، أو من الناجين من الغرق، لكن جيد كان متعبًا جدًّا فلم يشغل باله بهذا الأمر أكثر من هذا.

استمر فى تقليب عباءته للحرارة حتى تجف، جفت الأجزاء الفضية من الفراء البيلاوى بسرعة. وبمجرد أن أصبح الوجه الصوفى للعباءة دافئًا، دون حتى أن يجف، لف نفسه فيه، وتمدد بجانب المدفأة، وهمس لضيفيه الصامتين: "ناما أيها التعساء." ووضع رأسه على المخدة الرملية ونام.

بقى على الجزيرة التى لا اسم لها، حين صحا أول صباح كان محمومًا مريضًا، وكل عضلاته تؤلمه. رقد مثل لوح الخشب الطافى فى الكوخ طوال هذا اليوم والليلة بجانب المدفأة، فى اليوم الذى تلاه صحا متيبسًا متألمًا، لكنه قد تعافى من الحمى. لبس ملابسه المكسوة بالملح، فلم يكن هناك ماء كافٍ لغسلها، وخرج ليرى ذلك المكان الذى سحبه الشبح له.

كانت الجزيرة عبارة عن بقعة صخرية رملية فى وسط البحر، بحجم ميل واحد لا يزيد فى أقصى اتساع لها، ولا تزيد فى الطول عن هذا، محفوفة من كل جانب بالصخور فى مياه ضحلة، وأسراب الأسماك. جزيرة لا تنبت فيها شجرة ولا زرع سوى أعشاب البحر الملتوية. يقف الكوخ وسط تجويف بين الكثبان الرملية، يعيش فيه الرجل العجوز وامرأته فى هذا الفراغ التام للبحر الخالى. بُنى الكوخ، أو تكوم فوق بعضه، من ألواح الخشب الطافية والأغصان. تأتى المياه من بئر صغير مالح بجانب الكوخ، الطعام من السمك والقواقع، مجفف أو نيئ، بجانب أعشاب الصخور، الجلود المهلهلة التى

رآها جيد فى الكوخ، والكثير من الإبر العظمية، وصنانير صيد السمك، وخيوط الصنانير، لم تكن من الجديان كما ظن جيد فى البداية، وإنما من أسد البحر. فقد كان هذا حقًا المكان المثالى الذى قد يأتى له أسد البحر ليربى صغاره فى الصيف. لكن لا يأتى أحد لمثل هذا المكان. لم يرتعب العجوزين منه لأنه ساحر، أو لأنهما ظناه شبحًا؛ لكن ببساطة لأنه إنسان، فقد نسيا أن هناك فى العالم أناسًا غيرهما، لم يتراجع أبدًا خوف الرجل منه، فكلما كان جيد يقترب لمسافة تكفى لأن يلمسه كان يقفز بعيدًا مكشرًا عن أنيابه من بين كومه شعره الأبيض القذر. فى البداية كانت المرأة تئن وتختبئ تحت كومة الملابس المهلهلة التى تستخدمها فراشًا كلما اقترب منها، لكن بينما كان يرقد محمومًا فى الكوخ المظلم، رآها تجلس القرفصاء، تحملق فيه بعيون غريبة غبية يملؤهما الحنين، وبعد فترة أحضرت له الماء، لكن حين اعتدل ليأخذ منها الماء ليشرب فارتعبت وأوقعتها، وانسكب الماء كله على الأرض، ثم بدأت تبكى، ثم جففت عينيها بشعرها الأبيض الطويل.

الآن أخذت ترقبه، وهو يعمل على الشاطئ صانعا قاربًا جديدًا من الألواح الخشبية للمركب القديم، ومن الألواح الطافية على الشاطئ، مستخدمًا القدوم الحجرى الخاص بالرجل العجوز، وكذلك تعويذة ربط. لم يكن فيما يفعل إصلاحًا للقارب، ولا صناعة لقارب جديد؛ لأنه لم يتوافر لديه الخشب الكافى، وإنما وجب عليه أن يوفر كل الباقى بالسحر المحض. لكن المرأة العجوز لم تكن تراقب عمله الرائع، بل كانت ترقبه هو شخصيًا، وفى عينيها شوق غامض. وبعد قليل دخلت وعادت بسرعة، وفى يدها هدية، حفنة من بلح البحر جمعتها من على الصخور. أكلها جيد كما أعطتها له، نيئة، مبللة بماء البحر. ويبدو أن هذا أكسبها بعض الشجاعة، فقد عادت إلى الكوخ، ورجعت بشىء جديد فى يدها، صرة ملفوفة فى قماش مهلهل.

وبخجل، وهى ترقب تعبيرات وجهه، فتحت الصرة ببطء ورفعتها إليه ليراها.

كانت الصرة عبارة عن فستان من الحرير المطرز، مبقع بالملح، مصفر بعامل الزمن، على صدر الفستان وجد جيد تطريزًا باللؤلؤ بشكل يعرفه جيدًا، الأقواس المزدوجة لإخوة الإله، شعار إمبراطورية الكارجاد يعلوه التاج.

أشارت المرأة العجوز المجعدة المتسخة، مرتديةً ملبسها المهلهل من جلد الفقمة، إلى الفستان الحريرى الصغير، ثم أشارت إلى نفسها، وابتسمت ابتسامة صغيرة لا معنى لها مثل ابتسامة الأطفال. ثم أخرجت من جيب سرى داخل الفستان شيئًا صغيرًا أعطته لجيد، قطعة صغيرة من المعدن الداكن، ربما قطعة مجوهرات مكسورة مثل نصف دائرة أو خاتم مكسور. أشارت إلى جيد بأن يأخذه، ولم تسكت حتى فعل، وعندها ابتسمت ثانية بعد أن أعطته هدية، أما الفستان فقد لفته ثانية بعناية فى أغطيته القذرة، ورجعت بسرعة إلى الكوخ لتخفى الشىء الغالى بعيدًا.

وضع جيد الخاتم المكسور فى جيبه بعناية شديدة، وقلبه ينفطر من الشفقة على المرأة. خمن الآن أن هذين الاثنين كانا يومًا ما طفلين صغيرين من العائلة المالكة لإمبراطورية الكارجاد. أرسلهما غاصب أو طاغية، عزف عن سفك الدماء الملكية، إلى هذه الجزيرة البعيدة عن أراضى الكارجاد التى لا يعرف بها أحد، ليعيشا أو يموتا. ربما كان الولد يبلغ وقتها من العمر تسع أو عشر سنوات، والبنت وقتها كانت طفلة صغيرة سمينة فى ردائها الحريرى المطرز باللؤلؤ. وعاش الاثنان، أربعين سنة، خمسين سنة، على صخرة كبيرة فى قلب المحيط هى تلك الجزيرة، أمراء الخراب.

لكن حقيقة ذلك التخمين لم يتأكد منه إلا بعد هذا بسنوات، حين قاده البحث عن خاتم إيريث آكبى إلى الأراضى الكارجية، وإلى مقابر آتوان.

انتهت ليلته الثالثة على الجزيرة بشروق هادئ باهت، فقد كان هذا هو يوم عودة الشمس، أقصر أيام السنة. كان قاربه المصنوع من الخشب والسحر والخردة والتعاويذ جاهزًا. حاول أن يخبر العجوزين أنه على استعداد لأن يأخذهما معه إلى أى بلد: جونت أو سبيفى أو توريكلز، وربما حتى يتركهما على أى من شواطئ كارجاد لو أرادا هذا، رغم أن الأراضى الكارجية لم تكن آمنة لأى من سكان الأرخبيل ليغامر فيها. لكنهما رفضا أن يتركا جزيرتهما المقفرة. لم تفهم العجوز ما أراد أن يخبرهما بالإشارة والكلام، لكن الرجل العجوز فهم ورفض. رأى جيد من تعبيرات وجهه وهو يهز رأسه رافضًا، ويعود يهز وجهه رافضًا، أن كل ذكريات العجوز عن العالم الآخر والناس الآخرين كانت مجرد دماء وصراخ وعمالقة.

لهذا ملأ جيد قربة من جلد الفقمة بماء البئر هذا الصباح، واستعد للرحيل. ولأنه عجز عن شكر العجوزين على إطعامه وإيوائه، ولأنه كان خالى اليدين، ولم يستطع أن يهادى المرأة العجوز كما كان يود، فعل كل ما يستطيع، ووضع تعويذة على البئر المالح الفقير، فارتفع الماء عاليًا عذبًا وصافيًا مثل عيون جونت الجبلية، ولم يتوقف من يومها. وبسبب هذه العين أصبح للجزيرة مكان واسم على الخريطة، يسميها البحارة جزيرة نبع الماء. لكن الكوخ اختفى وطمست عواصف الشتاء المتتالية كل أثر للعجوزين، اللذين عاشا كل حياتهما هناك، وماتا فى الوحدة.

بقى العجوزان مختبئين فى الكوخ، كما لو كانا يرفضان أن يريا جيد ينزل قاربه فى الجزء الجنوبى من الجزيرة. ترك رياح العالم التى تهب بثبات من الشمال تملأ شراعه، وأبحر للأمام فى قلب البحر.

الآن، كان بحث جيد فى البحر غاية فى الغرابة، فقد كان صيادًا لشىء لا يعرفه، ولا يعرف أين يجده فى كل نواحى إيرثسى، شىء عليه أن ينقب عنه بالتخمين والحظ تمامًا، كما كان الشبح ينقب عنه. كلاهما لا يرى حقيقة الآخر. كان جيد مرتبكًا ومحتارًا من طبيعة الشبح غير المادية تمامًا، مثلما كان الشبح مذهولاً من ضوء الشمس والأشياء المادية. لكن جيد تأكد من أمر واحد فقط؛ أنه الآن قد أصبح الصياد والشبح هو الفريسة، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الشبح قد استغل قلة حيلته حين خدعه، وقذف به على الجزيرة، ولكان قد انقض عليه حين تخبط فى الظلام، ورقد على الشاطئ نصف ميت فى الكثبان العاصفة. لكنه لم يفعل، فقط سحبه هناك، ثم هرب غير قادر على مواجهته. رأى جيد فى هذا أن أوجيون كان بلا شك على حق، فالشبح غير قادر على سحب القوة منه طالما انقلب عليه، وعلى هذا فعليه إذن أن يبقى منقلبًا عليه مطاردًا إياه، رغم أن الطريق بارد وطويل عبر كل تلك البحار الواسعة، ورغم أنه لم يملك دليلاً سوى رياح الجنوب . كل ما سيطر على جيد وقتها كان حدسًا ضعيفًا ان الإتجاه الصحيح إما إلى الجنوب أو الشرق .

قبل حلول الليل رأى على البعد إلى يساره سواحل أراض واسعة، وهذه لابد أن تكون كارجاد آت. إذن فلا بد أنه فى الطرق البحرية لذلك الجنس الأبيض. لهذا توخى الحرص، وشدد المراقبة علّه يلمح أى سفينة أو قارب كارجى. وتذكر، وهو يبحر خلال حمرة المغيب، ذلك الصباح من طفولته فى قرية الشجرات العشر، وهؤلاء المحاربين ذوى الريش، وتذكر النار والضباب. وحين فكر ذلك اليوم أدرك وبوخز فى ضميره كيف خدعه الشبح بخدعته نفسها التى خدع بها العدو يومًا، حين أحدث حوله الضباب نفسه، وكأنه يجلب تلك الخدعة من ماضيه الشخصى؛ ليعميه تمامًا عن الخطر أمامه، ويوشك على إهلاكه.

حافظ على مساره باتجاه الجنوب، فغاصت الأرض من خلفه عند دخول الليل. امتلأ كل شيء بالظلام، حتى تجويف الموج نفسه، بينما لمعت قمم الموجات فوق الماء بضوء صافٍ لا يزال محمرًا من جهة الغرب. غنى "وينتر كارول"، ومثل تلك الأغاني التي من المعتاد أن يتغنى بها الناس في عيد عودة الشمس، كان صوته صافيًا يهبط على الفراغ في وسط صمت البحر، ثم هبط الليل وظهرت النجوم.

ظل مستيقظًا طوال هذه الليلة الطويلة، وهو يراقب طلوع النجوم من فوق يده اليسرى، يراها تختفي في قلب المياه العميقة السوداء على يمينه، وطوال الوقت تحمله رياح الشتاء باتجاه الجنوب فوق بحر غير مرئي. فقط كان يغفو دقيقة أو دقيقتين، ثم يصحو بشكل مفاجئ. فذلك القارب الذي يبحر فيه لم يكن بالفعل قاربًا حقيقيًا بل شيء نصفه سحر وشعوذة، والنصف الآخر من الألواح الطافية من طرح البحر، لدرجة أنه لو تكاسل عن إلقاء تعويذات التشكيل والربط لتهاوى القارب وتفكك، وانجرف تمامًا مثلما ينجرف حطام السفينة فوق الأمواج. كان الشراع أيضًا منسوجًا من الهواء والسحر، ولن يصمد طويلًا أمام الرياح لو نام، بل لربما يتحول إلى نفخة من الهواء. كانت تعاويذ جيد متماسكة وقوية، لكن أساسها ضعيف، ولابد من تجديدها طوال الوقت؛ ولهذا لم ينم طوال هذه الليلة. كان من الممكن أن يهون الأمر ويتيسر كثيرًا لو سافر في هيئة درفيل أو صقر، لكن أوجيون حذره من تغيير شكله، وهو يعرف الآن قيمة نصائح أوجيون. ولهذا فقد أبحر باتجاه الجنوب تحت النجوم التي تغيب باتجاه الغرب، حتى مرت الليلة الطويلة ببطء، وأشرقت شمس العام الجديد على كل البحر.

وبعد شروق الشمس رأى الأرض أمامه، لكنه كان يتحرك ببطء باتجاهها، فقد هبطت ريح العالم مع بدء اليوم، فرفع رياح السحر في

الشراع لتدفعه للأمام باتجاه الارض. وعند رؤيتها تحرك الخوف في قلبه ثانية، ذلك الرعب الغائر نفسه فى قلبه الذى دفعه للهرب. تبع جيد خوفه مثلما يتتبع الصياد الآثار الواسعة الغليظة المخلبية للدب، دب قد يستدير وينقض عليه من قلب الأدغال، لقد أصبح قريبًا الآن، يعرف هذا جيِّدًا.

كانت الأرض التى لاحت من فوق البحر تقترب شيئًا فشيئًا، تبدو غريبة المظهر، فما ظهر من بعيد على أنه جدار جبلى كان عبارة عن نتوءات جبلية وعرة، ربما جزر منفصلة، ومن بينها البحر يجرى فى قنوات ضيقة. ورغم أن جيد كان قد استغرق وقتًا كبيرًا فى دراسة خرائط كثيرة فى برج الأستاذ صاحب الأسماء على جزيرة روك، لكنها فى معظمها كانت خرائط للأرخبيل، أما الآن فقد كان فى الطرف الشرقى، ولا يعرف ما تلك الجزيرة. لم يفكر كثيرًا فى هذا، كان الخوف هو ما يقبع أمامه ويرقد خلفه، ويختبئ منه منتظرًا إياه بين المنحدرات والغابات فى الجزيرة التى يتجه اليها.

عبست المنحدرات التى تعلوها الغابة الداكنة فى وجه قاربه، وارتفعت فوقه عالية. وهب رذاذ الموج المتكسر على اللسان على شراعه حين حملت ريح السحر قاربه بين رأسين عظيمين، ودخلت به إلى قناة بحرية تجرى بعمق داخل البر، لا تتسع لأكثر من سفينتين. كانت المرتفعات تنحدر مباشرة نحو الماء الداكن من أثر انعكاس المرتفعات الباردة عليه، كان الجو ساكنًا وهادئًا للغاية.

خدعه الشبح على مراعى أوسيكيل، وخدعه فى قلب الضباب إلى الصخور، والآن يأتى به هنا. هل سيكون هناك خدعة ثالثة؟ هل كان هو من دفع بالشبح إلى هنا، أم هو الذى سحبه؟ لم يعرف، فقط كان يعرف يقينًا عذاب الرعب فى قلبه، وأن عليه إنهاء ما شرع فى عمله: اصطياد الشبح،

وملاحقة رعبه إلى مصدره. وبحرص شديد تقدم وهو يدقق النظر أمامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه، كان قد ترك ضوء الشمس خلفه على البحر المفتوح، لكن هنا فى تلك القناة كان الظلام، بدت الفتحة ما بين الرأسين مثل بوابة براقة وبعيدة من خلفه، حين نظر على البحر المفتوح. وكلما تقدم فى القناة متتبعًا جذر الجبل الذى تنبع منه المرتفعات، ارتفعت أكثر، وضاقت القناة أكثر فأكثر. دقق النظر فى الفلق أمامه، ويمينًا ويسارًا على المنحدرات التى تنتشر فيها الكهوف مثل بثور الوجه، ويتراص فيها الحجر الجلمود، وتنحنى فيها الأشجار، وجذورها تكاد تكون فى الهواء. لم يتحرك شىء، والان اقترب من نهاية الخليج الذى أصبح كتلة عالية فارغة من الصخر تحتضنها آخر أمواج البحر بخفة فى جدول ضيق. لم تترك صخور الجلمود المتساقطة، وجذوع الأشجار الملتفة المتعفنة سوى طريق ضيق للاستمرار. فخ! فخ داكن تحت جذور الجبل، فخ وقع فيه. لم يتحرك شىء أمامه ولا فوقه، كل شىء سكن سكون الموت، لم يستطع التقدم أكثر من هذا.

لف قاربه مستعينًا بالتعويذة والمجداف البديل بعناية بالغة؛ خوفًا من أن يرتطم القارب بالصخور، أو يعلق بين فروع الأشجار والجذور المتناثرة، حتى أصبح القارب على طريق الخروج بالفعل، وبدأ جيد فى رفع ريح لتأخذه من حيث أتى، وإذ بالكلمات تقف على لسانه، ويغوص قلبه فى صدره. نظر خلف كتفه ليرى الشبح واقفًا وراءه فى القارب.

لو كان قد ضيع لحظة واحدة لضاع بالكامل، لكنه كان مستعدًا، واندفع ليقتنص ويمسك هذا الشىء الذى ظل يتراقص ويرتعش أمامه فى متناول ذراعه. لن ينفعه السحر الآن، فقط جسده، حياته نفسها ضد هذا الذى لا يحيا. لم يتكلم كلمة واحدة، وإنما هاجم وهاجم وغطس القارب،

وانحدر تحت الحركة والاندفاع المفاجئين. سرى ألم رهيب فى ذراعيه وصدره، ألم كتم الهواء فى صدره، وملأه ببرد مثلج، حتى إنه أعمى عينيه، ومع هذا لم يكن فى يديه التى أمسكت الشبح سوى الفراغ؛ الظلام والهواء.

انكفأ على وجهه، فتمسك بعمود الشراع ليقى نفسه السقوط، واندفع النور إلى عينيه مثل القذيفة. رأى الشبح يرتعش منسحبًا، وينكمش فى بعضه، ثم يمتد باتساع فوقه، وفوق الشراع للحظة. ثم يتراجع ويهرب، بلا شكل، باتجاه البوابة اللامعة بين المرتفعات.

ركع جيد على قدميه، بينما القارب المربوط بالتعاويذ ينحدر ثانية ويهتز، ثم يستقر ويطفو على المياه المتلاطمة. قبع فى القارب عاجزًا عن الكلام والتفكير، مجاهدًا ليسحب نفسه حتى نبهته المياه الباردة تحت ركبتيه، أنه لابد من أن يعتنى بقاربه؛ لأن التعاويذ التى تربطه ببعضه تضعف. وقف متمسكًا بعصاه، وأعاد حياكة تعويذة الربط كأحسن ما يكون. كان يشعر بالبرد والتعب، يداه وذراعاه ينبضان بالألم، وقوته قد ذهبت منه تمامًا. تمنى أن يكون هناك بالأسفل، فى ذلك المكان المظلم؛ حيث يلتقى الجبل والماء وينام، ينام على الماء المهتز الهائج.

لم يستطع أن يفهم ما إن كان إنهاكه نوعًا من السحر ألقاه الشبح عليه، أو نتيجة للبرد الشنيع من جراء لمسته، أم فقط من البرد والجوع وقلة النوم وفقدان قوته، لكنه فى كافة الأحوال حاول ألَّا يستسلم له، رفع ريح سحر خفيفة، وتبع الشبح فى طريقه الضيق تجاه البحر.

لم يعد هناك أى رعب، لم يعد هناك أى متعة. لم تعد هناك أى مطاردة، لم يعد هناك صياد ولا فريسة. للمرة الثالثة سعى للشبح بنفسه، وسعى للإمساك به بيديه هاتين. لكنه لم يمسكه، وإنما ربط بينهما برباط ما، علاقة

لا تنفصم، لم يعد بحاجة لمطاردة هذا الشيء بعد الآن ولا تتبعه، ولا سينفعه الهرب منه. لن يستطع أيهما الهرب بعد الآن، حين تحين ساعتهما الأخيرة سيلتقيان.

لكن حتى تحين تلك الساعة لا توجد راحة ولا هدوء لجيد، ليلًا أو نهارًا، لا على الأرض ولا البحر. عرف الآن، وكانت معرفة شديدة القسوة، أن مهمته لم تكن إزالة ما صنع، بل إكمال ما بدأ.

أبحر من بين المرتفعات الداكنة للبحر الواسع؛ حيث ضوء الصباح اللامع، ورياح جيدة تهب من الشمال.

شرب ما بقي له من ماء فى القارورة، وتقدم حتى وصل إلى مضيق واسع بينه وبين جزيرة ثانية تمتد إلى الغرب. ثم عرف المكان مستدعيًا خرائط الطرف الشرقية، كانتا جزيرتى اليدين، جزيرتين وحيدتين باتجاه الأراضى الكارجية. أبحر بينهما، ووصل إلى الساحل عند المساء، والسحب العاصفة تتجمع من الشمال. وصل عند الساحل الجنوبى للجزيرة الغربية، وجد هناك قرية صغيرة فوق الشاطئ، ينحدر منها جدول يصب فى البحر. لم يهتم إن كانوا سيرحبون به أم لا، يريد فقط أن يحظى ببعض الماء والدفء والنوم.

كان أهل القرية أناسًا خجولين غلاظًا، أرعبتهم عصا الساحر ووجهه الغريب، لكنهم كانوا مضيافين لرجل أتى وحده عبر البحر قبيل عاصفة. منحوه اللحم والشراب بوفرة، والدفء، وأصوات البشر الذين يتكلمون بلغته نفسها الهاردية، ثم أعطوه الماء الساخن ليستحم، ويغسل برد وملح البحر عن جسده، وأخيرًا الفراش لينام.



(٩) إيفيش

قضى جيد ثلاثة أيام فى تلك القرية فى جزيرة اليد الغر
ويستريح ويعد قاربًا من الخشب المتين، وليس من التعاويذ و
قاربًا مثبتًا بقوة بالأوتاد، ومدعومًا بعمود الصارى الخاص
منفصل، وبهذا يستطيع أن يبحر وينام حين يريد. مثل كل قو
والأطراف البعيدة كان القارب مبنيًا من أعواد الخشب المت
ألواح الخشب متداخلة، ومثبتة واحدًا فوق الآخر لمزيد من ا

فى البحار العالية. كانت كل أجزاء القارب جيدة الصنع وقوية، دعم جيد قوة خشبه بالكثير من التعاويذ الداخلية؛ لأنه عرف أنه سيذهب به بعيدًا. صُنع القارب ليتحمل رجلين أو ثلاثة، مالكها الأصلى يقول إنه هو وإخوته أبحروا به من قبلُ فى البحار العالية والجو السيئ، ولم يخذلهم، بل حملهم جميعًا بشجاعة.

وعلى عكس الصياد الخبيث فى جونت أراد الرجل العجوز صاحب المركب أن يعطيه لجيد دون مقابل؛ خوفًا منه، أو إعجابًا بسحره. لكن جيد دفع له على طريقة السحرة معالجًا عينيه من المياه البيضاء التى كانت فى طريقها أن تعميه. بعدها قال له الرجل العجوز مبتهجًا: "أطلقت أنا وإخوتى على المركب اسم الطائر المهاجر: ساندرلينج، لكن أطلق أنت عليها اسم: العين المفتوحة، وارسم عيونًا على مقدمتها، وسيخرج امتنانى لك وشكرى من قلب ذلك الخشب؛ ليحرسك ويحميك من الصخور والمياه الضحلة، ممتن لك يا ولدى، فقد نسيت شكل الضوء وامتداده فى العالم، حتى أعدتَه لعيونى مرة أخرى."

وبينما كانت القوة تعود له تدريجيًا، كان على جيد الانتهاء من بعض الأعمال الأخرى فى جزيرة اليد. كان سكان الجزيرة مثل الناس الذين عاشرهم طفلًا فى جونت، ربما أفقر منهم، لكن يشبهونهم، ولهذا شعر بالألفة بينهم، ألفة لا يشعر بها فى بلاط الملوك. كان يعرف احتياجاتهم الملحة دون أن يسأل، ولهذا فقد ألقى تعويذات شفاء على الأطفال المرضى والعُرجان، وتعويذات نمو ووفرة على القطعان النحيفة من الغنم والماعز، ووضع حرف الرونية سيمن على المغازل والأنوال والأدوات البرونزية والمجاديف، والأحجار التى أحضروها له لتؤدى كل هذه الأدوات عملها بشكل أفضل، ووضع حرف الرونية بير على أسطح الأكواخ لتحمى المنازل وأصحابها من النار والريح والجنون.

عندما أصبح قاربه "العين المفتوحة" جاهزًا ومزودًا بخزين وافر من الماء والسمك المجفف، بقى فى الجزيرة يومًا واحدًا ليعلم راويها الصغير "بطولات موريد" و"الرسم الهافنورى". كان من النادر أن تأتى سفينة من الأرخبيل إلى جزر اليد، ولهذا فقد كانت الأغانى الملحمية التى ظهرت من مائة عام اختراعًا مذهلًا لهؤلاء الفلاحين، ومن بعدها تلهفوا ليسمعوا المزيد من حكايات الأبطال. لو كان جيد حرًّا فى وقته ومتفرغًا لبقى معهم أسبوعًا أو شهرًا ليعلمهم كل ما يعرف من الملاحم. لكنه فرد الشراع فى الصباح التالى مباشرة فوق البحار الواسعة للطرف. لقد اتجه الشبح جنوبيًا، لم يكن بحاجة لأى تعاويذ ليعرف هذا، كان يعرف عن يقين كما لو كان بينهما حبل سرى ملتف، مهما طالت بينهما المسافات، ومهما اتسعت البحار والأراضى. لهذا خرج فى طريقه المحتوم واثقًا غير متعجل ولا آمل، وحملته رياح الشتاء إلى الجنوب.

أبحر يومًا وليلة فى البحر الخالى، ثم وصل فى اليوم الثانى إلى جزيرة صغيرة اسمها فيميش كما قيل له. حملق فيه القرويون فى الميناء بشك وريبة، ثم هرع مشعوذهم إليه، وبعد أن نظر مدققًا إلى جيد انحنى، وقال بصوت متملق متفاخر: "سيدى الساحر، اعذر جرأتى، نتشرف بتقديم أى شىء قد تحتاجه لرحلتك: طعام، شراب، قماش لشراعك، حبال، فى هذه اللحظة تحديدًا تزود ابنتى قاربك بزوجين من الدجاج المشوى. لكن من الحكمة سيدى أن تكمل طريقك وقتما تحب. فالناس هنا فى حالة رعب، أول أمس شاهد أهل جزيرتنا المتواضعة شخص يعبر الجزيرة من شرقها إلى غربها على قدميه، لم ير أحد أى قارب ينزله، ولا رأى أحد أى قارب يأخذه، ولا كان له أى ظل، هؤلاء الذين رأوا هذا الشخص يقولون إنه يشبهك."

عند سماع هذا طأطأ جيد رأسه واستدار راجعًا إلى الرصيف، وأبحر دون أن ينظر وراءه. لم يكن هناك أى جدوى من إرعاب أهل الجزيرة ومشعوذها. فضَّل أن ينام فى قاربه فى البحر، ويفكر جليًا فيما قاله المشعوذ، فما قاله كان مزعجًا ومحيرًا إلى حد مؤلم.

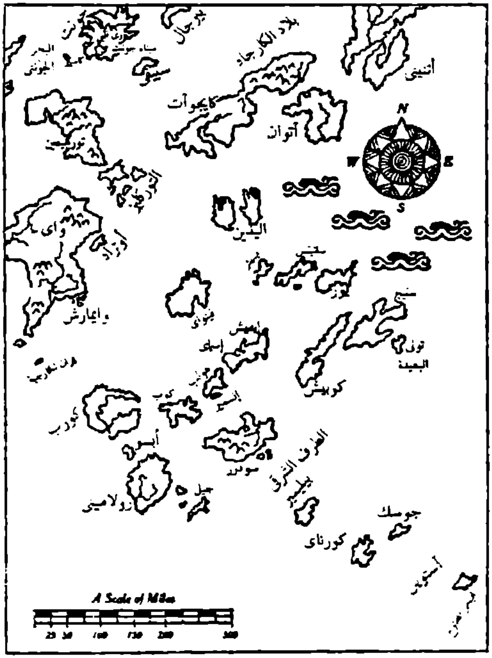
انتهى اليوم، ومرت الليلة كلها، والمطر البارد يهمس فوق البحر خلال الساعات الحالكة، والفجر الرمادى ورياح الشمال المعتدلة تحمل "العين المفتوحة" إلى الأمام. بعد الظهر هبت الرياح، ومعها الضباب والشمس تشرق من وقت لآخر، ثم فى وقت لاحق من هذه الليلة شاهد جيد الجبال المنخفضة الزرقاء لجزيرة كبيرة تضيئها شمس الشتاء، كان دخان المداخن يخلف لونًا أزرق فوق أسطح البيوت الأردوازية للمدن الموجودة بين التلال. ما أجمله من منظر فى وسط رتابة البحر الرهيبة!

تبع جيد بقاربه أحد أساطيل الصيد إلى الميناء، ثم مشى فى شوارع المدينة فى أمسية شتوية ساحرة إلى فندق صغير اسمه "هاريكى"؛ حيث تدفأت روحه وجسده بالشراب الساخن وضلوع الضأن المشوى. على موائد الفندق كان هناك بعض التجار الرحالة، وبعض الناس من القرويين العاديين حضروا من أجل الشراب والأخبار والصحبة. لم يكونوا قومًا خجولين مثل صيادى جزر اليدين، بل أهل مدن نشيطين أصحاء. بالتأكيد عرفوا على الفور أن جيد ساحر، لكن لم يقولوا شيئًا على الإطلاق، باستثناء أن صاحب الفندق الثرثار ذكر فى كلامه أن مدينتهم "إيسماى" تتشرف بأن تشترك مع بقية مدن الجزيرة فى الخدمات النفيسة التى يقدمها ساحر كبير ممن تعلموا السحر فى جزيرة روك، بل سلمه الساحر الأكبر العصا السحرية بنفسه. ورغم أنه خارج البلدة فى الوقت الحالى لبعض الأمور لكنه يعيش فى بيت العائلة فى إسماى، وبالتالى لا توجد حاجة هناك لأى ممارس آخر

من ممارسى الفنون العليا للسحر. فكما يقولون: "إن كان للمركب رئيسان غرقت، أليس كذلك يا سيدى؟" هكذا قال الرجل بابتسامة عريضة.

لا مكان إذن لجيد ليتكسب عيشه من السحر فى هذا المكان، وبهذا يكون قد تلقى طردًا غليظًا فى فيميش، وطردًا لطيفًا من إيسماى، وهنا تعجب مما يقال عن طيبة سكان الطرف الشرقي. هذه الجزيرة هى إيفيش، مسقط رأس صديقه الحميم فيتش، ولكنها لم تبدُ مكانًا ودودًا كما وصفها فيتش يومًا لجيد.

فى واقع الأمر كان سكان إيسماى طيبين، لكنهم شعروا بما يعرفه هو على وجه اليقين، أنه مختلف عنهم، مفصول عنهم، شعروا بأنه مشئوم يطارد شيئًا أسود، كان جيد مثل ريح باردة تعبر من خلال غرفة تدفئها نار المدفأة، أو مثل طائر أسود تحمله عاصفة من بلاد غريبة. وكلما رحل سريعًا حاملًا معه قدره المشئوم كان هذا أفضل.



"أنا فى مهمة بحث، ولن أبقى هنا سوى ليلة أو ليلتين." هكذا رد جيد ببرود، عندها نظر صاحب الفندق إلى عصا الساحر فى زاوية الغرفة ولم يزد، فقط صب لجيد المزيد من الشراب حتى فار من الكوب.

عرف جيد أن عليه أن يبقى ليلة واحدة فقط فى إيسماى، فلا ترحاب له هنا أو فى أى مكان. لكنه سئم برودة البحر الفارغ، سئم الصمت الخالى من أى بشر يؤنسه. قال لنفسه إنه سيبقى ليلة واحدة فى إيسماى، ثم

يرحل فى الصباح. لكنه نام متأخرًا، وفى الصباح كان الثلج يهطل خفيفًا، فتلكأ حول حارات وشوارع المدينة ليشاهد الناس مشغولين فى أعمالهم. شاهد أطفالاً متدثرين بمعاطف من الفراء يلعبون فى الثلج، يبنون القلاع ورجال الثلج، وسمع حوارات تجلجل عبر الشارع من الأبواب المفتوحة، وشاهد الحداد فى عمله ووجهه محمرًا مغطى بالعرق، وهو ينفخ فى الكير، وشاهد النساء على مغازلهن فى ضوء ذهبى خافت من الداخل، واليوم يقترب من نهايته، وهن يتوقفن للحظات للكلام مع الزوج، أو للابتسامة فى وجه طفلاً صغير هناك فى دفء البيوت. شاهد جيد كل هذا من الخارج وهو وحيد، منبوذ، وشعر بقلبه ثقيل بداخله، رغم أنه لم يكن ليعترف بأنه حزين. وعندما حل الليل كان لا يزال يتلكأ فى الشوارع، وهو يكره العودة إلى الفندق. سمع رجل وامرأة يتحدثان بمرح، وهما يعبران بجانبه نحو ميدان المدينة، فاستدار على الفور، فقد كان يعرف هذا الصوت جيدًا.

تبعهما، ولحق بهما فى ضوء الغسق الأخير الذى تضيئه المصابيح البعيدة. تراجعت الفتاة إلى الخلف، بينما حملق الرجل فيه ورفع عصاه التى حملها بينهما كأنها حاجز لإبعاد الخطر أو الشر. كان هذا فوق احتمال جيد.، تهدج صوته وهو يقول: ”ظننتك ستعرفنى يا فيتش.“

لكن فيتش ظل مترددًا للحظة.

قال فيتش: ”أنا أعرفك.“ ثم وضع عصاه على الأرض، ومد يده واحتضن جيد قائلًا: ”أعرفك! أعرفك! مرحبًا يا صديقى! يا لهذا اللقاء البائس الذى قابلتك به! كما لو كنت شبحًا يأتينى من الخلف، وأنا الذى انتظرتك حتى تحضر، وبحثت عنك.“

- "إذن فأنت الساحر الذى يتفاخرون به هنا فى إيسماى؟ كنت أشعر بهذا."

" نعم، أنا ساحرهم، لكن اسمع. دعنى أحكِ لك لماذا لم أعرفك فى البداية. ربما بحثت عنك أكثر من اللازم. هل كنت هنا فى إيفيش منذ ثلاثة أيام؟"

- "حضرت بالأمس فقط."

- "رأيتك فى شوارع كور، تلك القرية بأعلى الجبال، منذ ثلاثة أيام. أعنى أننى رأيت صورة منك، تقليدًا لك، أو ربما شخصًا يشبهك. كان أمامى يخرج من البلدة، وتلوى عند المنعطف حين رآنى. ناديت لكن لم يرد أحد، تبعته ولم أجد أحدًا، ولا حتى رأيت أى آثار، رغم أن الأرض كانت متجمدة، أمر غريب وعجيب. والآن حين رأيتك تخرج من بين الظلال تصورت أننى أمام خدعة جديدة، سامحنى يا جيد." همس باسم جيد الحقيقى بصوت منخفض، حتى لا تسمع الفتاة التى تقف خلفه.

- "لا تقلق، صديقى إستاريول. أنا جيد بنفسه، سعيد برؤيتك." قالها هامسًا هو الآخر وهو ينطق باسم صديقه الحقيقى.

لكن إستاريول شعر بما هو أكثر من هذا فى صوت جيد، ولهذا أكمل كلامه معه بلغة الكلام الحقيقى: "تأتينى من قلب الظلام متأزمًا يا جيد، ومع هذا فحضورك بهجة لى." ثم عاد للكلام معه بلكنة سكان الطرف الشرقى الهاردية: "تعال، تعال للبيت معنا. هذه أختى، أصغرنا، أجمل منى كما ترى، لكنها أقل مهارة بالطبع. اسمها يارو. يارو، هذا هو سباروهوك صديقى، أمهرُنا."

حيته الفتاة: ”سيدى الساحر.“ ورفعت يدها على رأسها، وأخفت عينيها بيديها باحتشام كما تفعل النساء عادةً فى المنطقة الشرقية، كانت عيناها صافية، وخجولة، وفضولية. ربما كانت فى الرابعة عشرة من العمر، سمراء مثل أخيها، وإن كانت نحيفة ورشيقة للغاية. على كُمها يوجد تنين صغير بحجم كف اليد، بأجنحته ومخالبه.

رحلوا فى الشارع المظلم معًا، وعلق جيد وهم يرحلون: ”يقولون فى جونت أن النساء الجونتيين يتحلين بالشجاعة، ومع هذا لم أر أى امرأة جونتية تتحلى بتنين كسوار لها.“

ضحكت يارو من كلامه، وأجابته على الفور: ”هذا ليس تنينًا، وإنما هاريكى[١٢]، أليس لديكم هاريكى فى جونت؟“ لكنها عادت للخجل، وأخفت عينيها مرة أخرى.

- ”لا، وليس لدينا تنانين. أليس هذا بتنين؟“

- ”تنين صغير، يعيش فى أشجار البلوط، يأكل دبابير وديدان وبيض الصقور. لا ينمو أكثر من هذا بأى حال. يا سيدى ما أكثر ما أخبرنى أخى عن الحيوان الأليف الذى كان معك، الكائن البرى، الأوتاك، ألا يزال معك؟“

- ”لا.“

استدار فيتش له بسؤال، لكنه أمسك لسانه، ولم يسأل شيئًا إلا بعد هذا بفترة طويلة، حين أصبحا معًا وحدهما أمام المدفأة فى بيت فيتش.

رغم أن فيتش كان الساحر الكبير الرئيس لجزيرة إيفيش كلها،

---

(١٢) الهاريكى هو حيوان مختلق فى إيرثسى عبارة عن تنين بحجم كف اليد .

إلا أنه اتخذ من إيسماى – مسقط رأسه – سكنًا له، يعيش فيه مع أخيه الصغير وأخته. أبوهم كان تاجرًا من تجار البحر المتيسرين، ولهذا كان البيت واسعًا ومتينًا، ممتلئًا بالخزف الغنى والمنسوجات الثمينة، وأوعية البرونز الموضوعة على الأرفف والدواليب المحفورة. فى أحد أركان الغرفة الرئيسة وجد هاربًا كبيرًا، وفى الركن الآخر وجد مغزل يارو مطعمًا بالعاج. فى هذا البيت كان فيتش سيدًا حقيقيًا وساحرًا عظيمًا بالرغم من بساطته الشخصية. كان هناك خادمان عجوزان فى رفاهية البيت نفسه، والأخ الأصغر مورى فتى مرح، وكذلك يارو كانت فتاة سريعة وصامتة مثل سمكة صغيرة، تخدم الصديقين، وتقدم لهما العشاء، تأكل معهما وتتحدث معهما، ثم تندس فى هدوء إلى غرفتها. كان كل شىء هناك مؤسسًا بعناية، هادئًا وواثقًا، نظر جيد حوله إلى الغرفة الدافئة، وقال: "هكذا يجب أن يعيش المرء."

"نعم، هذه إحدى الطرق الجيدة التى يعيش بها المرء، هناك طرق أخرى أيضًا. الآن يا صديقى أخبرنى كل ما حدث لك، وما مررت به منذ تحدثنا آخر مرة. وكذلك أخبرنى فى أى رحلة أتيت إلى هنا، فأنا أستطيع أن أجزم أنك لن تبقى طويلًا معنا هذه المرة."

أخبره جيد بكل شىء، وحين انتهى ظل فيتش صامتًا لفترة طويلة جدًا، ثم قال: "سأذهب معك يا جيد."

– "لا."

– "سأذهب."

”لا إيستاريول؛ هذه ليست مهمتك، ولا هذا عملك السيئ. بدأتُ طريق الشر هذا وحدى، وسأنهيه وحدى، لا أريد أن يعانى أحد من أجلى، خاصة أنت، أنت الذى حاولت أن تكف يدى عن هذا الشر من البداية يا إستاريول.“

قال فيتش ببساطة وكأنهما يناقشان أمرًا عاديًا: ”كان الكبرياء دائمًا ما يقودك يا جيد، اسمع، هذا هو طريقك أنت بلا شك. لكن لو فشل البحث عن الشبح ألا يجب أن يكون أحدهم حاضرًا حتى يحذر سكان الأرخبيل؟ فوقتها سيكون هذا الشبح قد اكتسب قوة هائلة. وإذا ما نجحت في بحثك ألا يجب أن يشهد هذا أحدهم ليخبر به الناس فى الأرخبيل، ليعرف الناس الملحمة ويتغنون بها؟ أعلم أنه لا فائدة لك منى فى عملك هذا، ولكننى أعتقد أنه لا بد أن أذهب.“

وافق جيد بعد هذا الإقناع، ولكنه قال: ”أعلم أنه لم يكن لى أن أبقى هنا يومًا آخر، ولكننى بقيت!“

”تعلم أن السحرة لا يلتقون مصادفة، وكما قلت أنت بنفسك، فقد كنت معك منذ بداية الرحلة، فيصح أن أتبعك للنهاية“. ثم وضع خشبًا جديدًا فى النار، وجلسا يحملقان فى ألسنة اللهب لفترة.

– ”هناك من لم أسمع به منذ تلك الليلة فى روك، ولا قلب لدى لأسأل عنه، أى من رفقاء المدرسة، جاسبر أعنى.“

– ”لم يكتسب عصاه أبدًا، رحل عن روك فى تلك الليلة نفسها، وذهب إلى جزيرة ليصبح مشعوذًا فى بلاط لورد أو-توكن. لا أعرف عنه غير هذا.“

ثم عادا للتأمل فى النيران مرة أخرى والاستمتاع بالدفء (فقد كانت الليلة باردة جدًا) على أرجلهما ووجهيهما، وهما يجلسان على إفريز المدفأة، وأرجلهما تكاد تكون بين النيران.

وأخيرًا قال جيد بصوت خفيض: "أنا خائف إستاريول، وسوف يزداد خوفى عندما تكون معى حين أذهب. هناك فى جزيرة اليد، فى ذلك الجزء المنتهى من المضيق أمسكت بالشبح، أعنى حاولت الإمساك بالشبح، لكن لم يكن هناك ما أمسك به، ولم أستطع أن أهزمه. هرب منى. تبعته، لكن هذا قد يحدث ثانية، وثانية. لم يعد عندى طاقة لمحاربة هذا الشىء. ربما لا يوجد نهاية حزينة أو سعيدة لهذا الأمر، ربما لا يوجد ما يغنيه الناس عنى، ربما لا توجد نهاية. ربما على أن أتنقل من بحر لآخر، من أرض لأخرى، فى مغامرة لا طائل منها، مطاردة شبحية."

"حذار." قالها فيتش بسرعة، وهو يرفع يده اليسرى بحركة معينة تبعد الفأل السيئ. وبرغم كآبته ابتسم جيد عند سماع هذا، فقد كان هذا سحر أطفال وليس سحر سحرة كبار. كانت هناك دائما براءة القرويين فى فيتش رغم أنه أيضًا حاد وشديد الفطنة، ويواجه الأشياء مباشرة، ثم قال: "هذا خاطر أسود، وأنا أثق فى أنه غير حقيقى. أعتقد أننى سأرى نهاية ما رأيته يبدأ. بطريقة أو أخرى ستعرف ماهية هذا الشىء الذى يطاردك وطبيعته، وبهذا ستعرف كيف تمسكه وتربطه وتتغلب عليه. ورغم أن السؤال عن ماهية هذا الشىء سؤال صعب، إلا أن ما يقلقنى ولا أفهمه هو كيف أن الشبح يجوب الدنيا فى شكلك الآن، أو فى شكل قريب من شكلك على الأقل، كما يقول الناس فى فيميش، وكما رأيت أنا فى إيفيش. كيف يكون هذا؟ ولماذا؟ ولماذا لم يفعل هذا فى الأرخبيل؟"

– "كما يقولون: القواعد تتغير فى الأطراف البعيدة."

– "هذا صحيح بالفعل؛ فقد تعلمت تعاويذ جيدة فى روك لا قوة لها هنا، أو ينحرف مفعولها تمامًا، كما أن هنا تعاويذ لم أتعلمها فى روك تعلمتها

فى أماكن أخرى. لكل أرض قواها الخاصة، وكلما بَعُد المرء عن الأراضى الداخلية قلت معرفته بهذه القوى وأحكامها. لكننى لا أعتقد أن هذا فقط ما يحدث ذلك التأثير فى الشبح."

- "ولا أنا. أعتقد أن توقفى عن الهرب منه ومهاجمتى له قد أحدثا فيه هذا التغيير، وأعطياه الشكل والهيئة، بل أوقفاه عن أخذ المزيد من القوة منى. كل ما أفعله له صداه بداخله، هو صنعيتى."

- "فى أوسيكيل نطق باسمك، وبهذا أوقفك عن ممارسة أى سحر ضده. لماذا لم يفعل هذا ثانية، هناك فى جزيرة اليد؟"

- "لا أعرف، ربما يسحب من ضعفى القوة اللازمة ليتحدث، فهو يتحدث بلسانى، وإلا كيف يعرف اسمى؟ كيف عرف اسمى؟ عصرت ذهنى طويلًا حول هذا عبر كل البحار، منذ تركت جونت، ولكن دون جدوى. ربما لا يمكنه الكلام على الإطلاق فى شكله، أو بالأحرى الشكل الذى يتخذه، ربما فقط يتحدث فى شكل يستعيره، أو فى شكل الجيبيث. لا أعلم."

- "إذن عليك أن تحترس من لقائه فى شكل الجيبيث مرة أخرى."

رد جيد قائلًا: "أعتقد.." قال ذلك وهو يمد يده نحو الفحم طلبًا للدفء، وكأنه استشعر برودة داخلية مفاجئة، ثم قال: "أعتقد أننى لن أفعل؛ فكلانا مرتبط بالآخر الآن. لا يستطيع أن يفر بعيدًا منى ليمسك برجل آخر، ويفرغه من إرادته ووجوده، كما فعل مع سكيوره. بإمكانه أن يمتلكنى لو ضعفت ثانية، وحاولت الهرب منه، لو قطع هذا الرابط فسوف يمتلكنى. ومع هذا، حينما أمسكت به بكل قوتى، تحول إلى بخار، هواء، وهرب منى. وسيفعل هذا ثانية، ومع هذا فهو لا يستطيع الهروب؛ لأننى أجده دائمًا. مربوط أنا

بهذا الكائن الخبيث، وسأظل مربوطًا إلى الأبد؛ حتى أعرف الكلمة التى تحكمه، اسمه الحقيقى."

سأل صديقه وهو يمعن التفكير: "هل هناك أسماء فى العوالم المظلمة؟"

- "جيشنر، الساحر الأكبر، يقول لا توجد أسماء هناك، لكن أستاذى الساحر أوجيون قال هناك أسماء."

- "لا تنتهى خلافات السحرة." اقتبس فيتش، وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

- "أقسمت الساحرة التى كانت تخدم القوى العتيقة فى أوسيكيل أن الجوهرة كانت ستخبرنى باسم الشبح، لكننى لم أعتمد على هذا. ومع هذا كان هناك تنين عرض علىَّ مقايضة اسم الشبح باسمه، ليتخلص منىَّ، وقد فكرت وقتها أن التنانين قد تنجح فيما يختلف حوله السحرة."

- "هذا صحيح، وإن كان مؤلمًا. لكن أى تنين هذا؟ لم تخبرنى بأنك كنت تتحدث مع التنانين منذ تحدثنا آخر مرة."

تحدثا معًا حتى وقت متأخر تلك الليلة، ورغم أنهما كانا دائمًا ما يعودان إلى موضوع البحث عن الشبح المؤلم ثانية، إلا أن سعادتهما فى وجودهما معًا غطت على كل هذا. فالحب بينهما كان قويًا وثابتًا، لا يهزه الزمن ولا الظروف. فى الصباح استيقظ جيد تحت سقف بيت صديقه، ورغم أنه كان لا يزال ناعسًا إلا أنه شعر بقوة غريبة، كما لو كان فى مكان محصن من الشر والأذى. أحاطت به هذه السكينة طوال اليوم، ولم يأخذ هذا على أنه نذير شؤم، بل نعمة.

أحس أن بخروجه من هذا المنزل قد يخرج من الجنة الوحيدة التى عرفها، ولهذا قرر أن يسعد بهذا الحلم القصير طالما استمر.

ولارتباط فيتش ببعض الأعمال التى يجب الانتهاء منها قبل رحيله عن إيفيش، خرج مع خادمه وصبيه إلى القرى المجاورة، وبقى جيد مع يارو وأخيها مورى. مورى كان أوسطهما سنًا، لكنه بدا وكأنه صبى صغير؛ فقد خلا تمامًا من أى موهبة سحرية، ولم يذهب إلى أى مكان، ولا غادر إيفيش ولا توك ولا هولب من قبل، شاب ذو حياة ناعمة وسهلة. راقبه جيد فى تعجب وبعض من الحسد، وبالضبط هكذا نظر إليه مورى وكل منهما متعجب، رغم أنهما فى السن نفسه، ومع هذا فحياتاهما مختلفتان إلى هذا الحد. تعجب جيد كيف لشخص عمره تسعة عشر عامًا أن يكون خالى البال إلى هذا الحد، وفى إعجابه بوجه مورى اللطيف والمبهج شعر جيد بأنه هزيل وفظ، بينما لا يدرى أن مورى يحسده على ما هو عليه، يحسد حتى تلك الندوب التى تملأ وجهه، والتى ظنها آثار مخلب تنين، ورأى فيها العلامة المميزة السحرية للبطولة.

ولهذا ظل الشابان على تحفظ بعضهما مع بعض، أما يارو فقد زالت هيبتها من جيد ولا عجب فقد كان فى بيتها، وهى سيدة البيت، وجيد كان فى منتهى اللطف معها، يجيب على أسئلتها الكثيرة، والتى كان فيتش يرفض الإجابة عليها. ظلت مشغولة طوال هؤلاء اليومين، تعد فطائر القمح للمسافرين، وتغلف السمك المجفف واللحم المقدد، وأى خزين لازم للمركب، حتى أمرها جيد أن تتوقف؛ لأنه لا ينوى أن يستمر فى الإبحار إلى سيليدور دون توقف.

– "وأين سيليدور؟"

– "بعيدًا بعيدًا فى الجانب الغربى؛ حيث التنانين موجودة فى كل مكان مثل الفئران."

"من الأفضل البقاء فى الشرق إذن حيث التنانين فى حجم الفئران. ها هو اللحم، أمتاكد أنت أنه لا حاجة لك بالمزيد؟ اسمع، لا أفهم شيئًا. أنت وأخى ساحران كبيران، تستطيعان أن تشيرا بأيديكما، وتتمتما بالكلمات وينقضى الشىء، لماذا تجوعان إذن؟ وإذا جاء العشاء وأنتما فى البحر، فلماذا لا تقولان: فطيرة باللحم، فتظهر الفطيرة وتأكلان؟

– "حسنًا يمكننا أن نفعل هذا بالتأكيد، لكننا لا نرغب فى أن نأكل تعويذاتنا، (فطيرة اللحم) مجرد كلمات، يمكننا إعطاؤها الرائحة الشهية والطعم الجميل والحشوة، لكنها ستظل كلمة تخدع المعدة، ولا تعطى أى قوة للجائعين."

قال مورى: "السحرة إذن ليسوا طباخين!" قالها وهو يجلس بعرض مدفأة المطبخ من جيد، يحفر غطاء صندوق من الخشب؛ فقد كان نجارًا بالحرفة، رغم أنه لم يكن نجارًا نشيطًا.

قالت يارو: "ولا الطباخون سحرة، للأسف." وهى تجثو على ركبتيها لترى إن كانت المجموعة الأخيرة من الفطائر قد نضجت أم لا، كانت تخبزها على طوب المدفأة، وواصلت قائلة: "لكننى لا أفهم بعد، سباروهوك، لقد رأيت أخى، وحتى صبيه، يُخرِجون نورًا فى الأماكن المظلمة، بكلمة واحدة، والضوء يلمع وينير، والضوء ليس كلمة، وإنما ضوء تستطيع أن ترى به طريقك."

– "نعم، الضوء قوة، قوة عظيمة نوجد بها، لكنها توجد فى نفسها

ولنفسها، بمعزل عن احتياجاتنا. ضوء الشمس وضوء النجوم هما الزمن، والزمن هو الضوء، فى ضوء الشمس، فى الأيام والسنين توجد الحياة. قد تستدعى الحياة الضوء، وتسميه فى المكان المظلم. لكن عادةً حين ترى الساحر يسمى شيئًا ليظهر، ليس هذا هو الشىء نفسه إيهام. فالساحر لا يستدعى قوة أكبر منه شخصيًا. لكن أن تستدعى شيئًا غير موجود على الإطلاق، وتفعل هذا بواسطة نطق اسمه الحقيقى، فهذه مهارة كبيرة، ولا يجب الاستخفاف بها، ليس من أجل الجوع. يارو، انظرى لقد سرق تنينك الصغير فطيرة!"

أنصتت يارو بعناية، وهى تحملق فى جيد وهو يتكلم، لدرجة أنها لم تر الهاريكى وهو يجرى من مكانه على المدفأة، ويستولى على فطيرة أكبر منه. أخذت المخلوق الصغير ذا القشور فى حجرها، وأطعمته قطعًا صغيرة من الفطيرة، بينما تتفكر فيما قاله جيد.

"وهكذا، فلن تستدعيا فطيرة اللحم الحقيقية خوفًا من أن تقلبا ما يتكلم عنه أخى دائمًا، وأنساه... عن... عن..."

- رد جيد بهدوء لأنها كانت فى منتهى الجدية: "التوازن".

- "نعم لكن حين تحطمت سفينتك، وأبحرت فى قارب مصنوع من التعاويذ ولم يغرق، هل كان هذا وهمًا؟"

- "حسنًا، كان هذا وهمًا إلى حد ما؛ لأننى لم أكن مرتاحًا لرؤية الثقوب فى قاربى؛ لهذا قمت بترقيعه حتى لا أراه. لكن قوة القارب لم تكن وهمًا، بل قوة مصنوعة بسحر آخر، تعويذة الربط. ربط الخشب كله كوحدة واحدة، كقارب. وما هو القارب إلا شىء يطفو لا يسرب الماء؟ وكذلك

كان يمكن أن يتسرب الماء إلى قاربى لولا تجديدى باستمرار." ثم انحنى من مقعده، وأخذ فطيرة من فوق طوب المدفأة، وقلبها بين يديه، وقال: "أنا أيضًا سرقت فطيرة."

- "وحرقت أصابعك. وحين تجوع هناك فوق المياه الخالية بين الجزر البعيدة ستفكر فى هذه الفطيرة، وتقول: لو لم أسرق تلك الفطيرة لكنت آكلها الآن، واحسرتاه. سآكل فطيرة أخى إذن ليجوع معك."

قال جيد: "وهكذا يعود التوازن." وهى تأخذ فطيرة ساخنة، تمضغها نصف محمصة وهى تضحك وتشرق بالطعام. لكنها عادت للجدية بسرعة ثانية، وسألت: "أود كثيرًا لو فهمت ما تقوله لى... لكننى غبية جدًّا."

- "أختى الصغيرة، أنا الذى أفتقر لموهبة الشرح، ربما لو كان عندنا بعض الوقت..."

قالت يارو: "سيكون عندنا المزيد من الوقت، حين يعود أخى ستعود معه لفترة على الأقل، أليس كذلك؟"

فأجابها جيد برفق: "لو استطعت."

توقفا لبرهة، ثم سألت يارو: "أخبرنى بشىء آخر لو لم يكن سرًّا، ما القوى العظيمة الأخرى غير الضوء؟"

- "ليس هذا سرًّا، كل القوى واحدة فى المصدر والنهاية على ما أظن، السنون والمسافات، النجوم والشموع، الماء والريح والسحر، المهارة فى يد الإنسان، والحكمة فى جذر الشجرة، كلها تنشأ معًا. اسمى واسمك والاسم الحقيقى للشمس، أو نبع مياه، أو طفل لم يولد بعد، كلها مقاطع وحروف

فى الكلمة العظيمة التى تنطقها النجوم اللامعة ببطء شديد، لا توجد قوى أخرى، ولا اسم آخر.

قال مورى وهو يضع سكينته على الخشب المحفور: "وماذا عن الموت؟"

أنصتت الفتاة، ورأسها الأسود اللامع منحنٍ.

رد جيد ببطء: "حتى تُنطق الكلمة لا بد من وجود الظلام... قبلها وبعدها..." ثم قام فجأة وهو يقول: "ليس من حقى أن أتحدث عن هذه الأشياء. كلمتى التى كانت لى قلتها خطأً. من الأفضل أن أبقى ساكتًا، لن أتكلم ثانيةً. اسمعى، ربما لا توجد قوى حقيقية سوى قوى الظلام." ثم ترك المدفأة والمطبخ الدافئ، وأخذ عباءته، وخرج فى المطر البارد المنهمر فى الشوارع الشتوية.

قال مورى فى خوف وهو ينظر بعيدًا خلف جيد: "إنه ملعون."

قالت الفتاة: "أظن أن رحلته هذه هى رحلة موته، ورغم أنه يعرف هذا إلا أنه يقوم بها." ثم رفعت رأسها ونظرت لألسنة اللهب، وكأنها تشاهد من خلال النيران مسار القارب الذى أتى من البحر وحيدًا فى الشتاء، وواصل مسيره فى البحار الوحيدة، ثم اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تقل شيئًا.

رجع فيتش إلى المنزل فى اليوم التالى، واستأذن وجهاء القوم فى إيسماى فى الذهاب مع صديقه، ورغم أنهم عارضوا تمامًا ذهابه إلى البحر فى منتصف الشتاء فى رحلة مميتة ليست حتى رحلته، ورغم أنهم وبخوه، إلا أنهم لم يستطيعوا منعه فى النهاية؛ لأنه بعد أن استمع لهم ضجر من توبيخ العجائز، وقال: "أنا ملككم، بالنسب والعُرف وبواجبى نحوكم، وأنا

ساحركم. لكن حان الوقت لأن تتذكروا أنه رغم أننى خادم إلا أننى لست خادمكم. حين أتمكن من العودة سأعود، الوداع."

عند الفجر، حين ارتفع الضوء الرمادى من جهة الشرق، أبحر الرجلان فى قارب (العين المفتوحة) من ميناء إيسماى، ورفعا شراعًا بُنيًّا قويًّا. على رصيف الميناء وقفت يارو تشاهدهما، مثلما تفعل زوجات البحارة وأخواتهم على كل سواحل إيرثسى، يرقبن رجالهن فى خروجهم للبحر دون أن يلوحن بأيديهن، أو ينادين عليهم، فقط يقفن هادئات فى عباءات بُنية أو رمادية، هناك على الشواطئ التى تظل تتضاءل وتتضاءل من القارب، بينما المياه بينهما تزيد وتكبر.



(١٠) البحر المفتوح

غاص المرفأ الآن بعيدًا عن النظر، بينما نظرت ا
على قارب (العين المفتوحة) أمامها على بحار تزداد اتس
الرفيقان المسافة ما بين إيفيش وسودرز، مائة ميل فـ
والرياح العكسية. بقيا فى الميناء وقتًا قصيرًا لملء قربة
قماش مكسوّ بالقار للشراع لحماية أدواتهم من ماء البحر
يهتما بهذا من قبلُ؛ لأن الساحر عادة ما يترك مثل تلك الا
لأسهل وأتفه للتعاويذ، سحر بسيط ذلك السحر الذى بـ
وبهذا يوفر عليهما حمل الماء. لكن جِيد كان عازفًا عن
أو أن يدع فيتش يستخدمه. كل ما قاله هو: "من الأفض

يسأل صديقه عن السبب، أو يجادله. وعندما ملأت الريح شراعهما شعرا بانقباضة باردة بداخلهما مثل ريح الشتاء. المرفأ، والميناء، والأمان، كل هذا أصبح بالخلف الآن، وهما قد رحلا بعيدًا. بدأ الصديقان طريقًا كل أحداثه خطرة، وكل ما يحدث فيه له دلالة ومعنى. كانا يتجهان الآن نحو مركز التوازن فى طريقهما الذى بدآه، وقد تغير أضعف التعاويذ حظهما، وتقلب توازن القوى والقدر. كانا فى مكان يلتقى فيه النور والظلام، وعلى من يسافر فى مثل هذه الحالة ألا يقول أى كلمة بلا اكتراث.

وبعد أن تحركا ثانية، وبدآ فى الالتفاف حول سواحل سودرز؛ حيث تذوب السهول الجليدية فى التلال الضبابية، توجه جيد بالقارب إلى الجنوب مرة أخرى، ودخلا فى مياه لا يجرؤ على دخولها حتى كبار التجار فى الأرخبيل، على حافة الطرف الأبعد.

لم يسأل فيتش صديقه أى سؤال عن الرحلة، فهو يعلم أن جيد لم يختاره رفيقًا، إنما ذهب هو معه حيث وجب عليه أن يذهب. وحين تضاءلت جزيرة سودرز وراءهما، وحين هسهست الأمواج، وضربت مقدمة القارب، واستدارت المياه الرمادية من حولهما حتى لامست أطراف السماء، سأل جيد صاحبه: " ما الأرض التى تقع أمامنا؟"

"لا توجد أى أرض جنوب سودرز، فى الجنوب الشرقى تبحر طويلا لتجد القليل من الجزر: بيلمير، كورناى، جوسك وآستويل. آستويل تُدعى أيضًا الأرض الأخيرة، وبعدها البحر المفتوح.

"وماذا فى الجنوب الغربى؟"

"رولومينيي وهى أحد جزر الطرف الشرقى، ومن حولها بعض الجُزر الصغيرة: روود وتوم وجزيرة الأذن التى لا يرتادها الناس. ثم لا يوجد شيء حتى ندخل الطرف الجنوبى".

– "قد نفعل."

قال فيتش: "لا أفضل هذا؛ فهى جزء كريه من العالم كما يقال، ملىء بالعظام والأعاجيب. يقول البحارة إن هناك نجومًا يمكن رؤيتها من الماء ما بين جزيرة الأذن وفارسورر، لا يمكن رؤيتها من أى مكان آخر، نجوم لم يسميها أحد من قبل."

"نعم، كان هناك هذا الساحر على السفينة التى أحضرتنى إلى روك لأول مرة، وحدثنى عن هذا. وحدثنى أيضًا عن أهل (الطوف) هؤلاء الذين يسكنون الطرف الجنوبى، والذين لا يأتون للأرض سوى مرة واحدة فى العام؛ للحصول على ألواح الخشب لعمل الأطواف، ثم يبحرون بقية أيام السنة وشهورها بين تيارات المحيط بعيدًا عن أى منظر للأرض. أود أن أرى أهل الطوف هؤلاء."

– "وأنا لا أود أن أراهم أبدًا. قربنى من البر والبريين، واترك البحر فى شأنه، وأنا فى شأنى."

قال جيد، وهو يمسك بحبل الشراع، وينظر على كل اللون الرمادى الممتد أمامه: "أتمنى لو أرى كل مدن الأرخبيل: هافنور فى قلب العالم، وإيا حيث تولد الأساطير، وشيليث ذات النوافير، وكل المدن والأراضى العظيمة. والأراضى الصغيرة والأراضى الغريبة والأطراف الخارجية، كل هؤلاء أيضًا. أريد أن أبحر إلى ممر هناك فى الغرب أو إلى الجنوب إلى أطواف

الجليد، ومن بعدها إلى أرض هويجين. البعض يقول إن الأرض هناك أعظم بكثير من الأرخبيل، والبعض يقول إنها مجرد جزر صخرية وشعاب مرجانية، ومن بينهم الجليد. لا أحد يعلم. أود أن أرى الحيتان فى البحار الشمالية. لكننى لا أستطيع. علىَّ أن أذهب حيث يجب أن اذهب، وأعطى ظهرى لكل تلك الشواطئ المشرقة. كنت فى عجلة شديدة من أمرى يومًا، والآن لم يعد لدى أى وقت. قايضت كل الشواطئ المشرقة والمدن والأراضى البعيدة من أجل سطوة القوة، من أجل ظل، شبح، ظلام." وهكذا كساحر من ظهر ساحر، صنع جيد من خوفه وندمه ملحمة غنائية، مرثية قصيرة، نصف موسيقية، أغنية يغنيها الجميع، ورد صديقه عليه بجزء من كلمات البطل فى "مآثر إيريث أكبى"، آه لو أرى بيت الأرض فى المشرق ثانية، وأبراج هافنور البيضاء..."

وهكذا أبحر الصديقان فى طريقهما الضيق عبر البحار المهجورة، كان أكثر ما رآياه فى هذا اليوم سربًا من الأسماك الفضية تسبح إلى الجنوب، لكنهما لم يريا درفيلا واحدًا يقفز، ولا فقمة تطير، ولا طيورًا مائية تخترق المياه الرمادية. وحين أظلم الشرق واحمر الغرب، أحضر فيتش الغذاء وقسمه بينهما، وقال: "هذا آخر الشراب، اشرب نخب من فكر، ووضع الشراب للعطشى فى الجو البارد: لأختى يارو."

عند هذا نفض جيد الأفكار القاتمة من ذهنه، وتوقف عن الحملقة فى البحر، وحيَّى يارو بإجلال كبير، ربما أكبر من فيتش ذاته، فالتفكير فيها جلب إلى عقله عذوبتها وضحكتها الطفولية. لم تكن يارو مثل أى شخص عرفه يومًا. (ومن هن البنات التى عرفهن يومًا؟ لكنه لم يفكر فى هذا) "هى مثل سمكة المينيو الصغيرة، تعوم فى بركة صافية دون دفاع، لكنك لا تستطيع أن تمسك بها."

نظر له فيتش مباشرة، وهو يبتسم، وقال له: "أنت ساحر بالفطرة يا جيد، اسمها الحقيقي هو كيست." وفي اللغة القديمة كيست تعني المينيو، وجيد يعرف هذا جيدًا، وأسعد هذا قلبه، لكنه قال بعد قليل بصوت منخفض: "لم يكن لك أن تخبرني باسمها الحقيقي على ما أظن."

لكن فيتش الذي لم يفعل هذا من فراغ قال: "اسمها بأمان معك مثلما هو معي، ومع هذا فقد عرفته وحدك دون أن أخبرك."

غاص الأحمر في الغرب، وتحول الرمادي إلى أسود، وتحولت السماء والبحر إلى الظلام. تمدد جيد في قاع القارب لينام، وهو ملتف في عباءته من الصوف والفراء، أما فيتش فبدا يروي من بطولات إنلاند، وهو ممسك بحبل الشراع، غني فيما غني حين ترك الساحر الكبير موريد الأبيض هافنور في سفينته الطويلة بلا مجاديف، وشاهد إلفاران في البساتين في الربيع عندما أتى إلى جزيرة سوليا. نام جيد قبل أن يصل فيتش بأغنيته إلى النهاية الحزينة لحبهما، وقبل موت موريد ودمار إنلاند، وقبل أن تبتلع الموجة الكبيرة المهولة بساتين سوليا. صحا عند منتصف الليل، وأخذ يراقب بينما نام فيتش. أبحر القارب بقوة في البحر المتلاطم، وهو يهرب من الريح العنيفة التي مالت بشراعها، مبحرًا في إظلام تام في الليل. لكن الظلام تبدد، وقبل الفجر كان القمر النحيف يلقي بضوء ضعيف يلمع بين السحب البنية.

"يخبو القمر ليظلم." تمتم فيتش بهذه الكلمات وهو يصحو عند الفجر، حين هبطت الرياح الباردة. نظر جيد على نصف الدائرة البيضاء على المياه الشرقية الباهتة ولم ينطق. يطلقون على أول سواد للقمر يعقب عيد عودة الشمس "الفالوز"، وهو القطب العكسي لأيام القمر والرقصة

الطويلة فى الصيف، أيام نحسات للمسافرين والمرضى، لا يُعطى الأطفال أسماءهم وقت الفالوز، ولا يتغنى أحدهم بملاحم، ولا تُسن السيوف أو الأدوات الحادة، ولا يُقسم فيها أحد. الفالوز هو المركز الأسود للسنة، وهو الوقت الذى تحدث فيه كل الأشياء معكوسة.

خرجا من سودرز فى ثلاثة أيام، وهم يتبعون طيور البحر وآثار الساحل حتى بيليمير، جزيرة صغيرة تتكوم فوق البحر الرمادى. يتحدث أهلها الهاردية، لكن على طريقتهم هم تصبح غريبة حتى على فيتش ذاته. نزل الشابان عليها للماء العذب واستراحة من البحر، فى البداية رحب أهل الجزيرة بهما فى تعجب وفرحة، وكان هناك مشعوذ مجنون لم يتوقف عن الكلام عن الثعبان الكبير الذى يلتهم قواعد الجزيرة ويفككها، وسيتركها تطفو مثل قارب منحل، وتنجرف إلى حافة العالم. فى البداية حيَّاهما بكياسة، لكنه حين نظر إلى جيد أطال النظر، وأخذ يصيح ويتبعهما فى الشوارع، وهو ينعتهما بأنهما خُدام ثعبان البحر وجواسيس. ومن بعدها أخذ الناس فى بيليمير ينظرون لهما بشك وريبة رغم علمهم بأن المشعوذ مجنون، ولهذا لم يبق فيتش وجيد كثيرًا على الجزيرة، بل عاودا رحلتهما مرة أخرى قبل الليل، متجهين دومًا جهة الجنوب والشرق.

فى تلك الليالى من الإبحار لم يتكلم جيد عن الشبح أبدًا، ولا عن طريقه فى البحث عنه، ولا فيتش، فقط كان يتساءل (كلما تبعوا المسار نفسه أبعد وأبعد عن الأراضى المعروفة لإيرثسى): "هل أنت متأكد." وردًا على هذا السؤال كان جيد دائمًا ما يقول: "هل يُسأل الحديد أين يقع المغناطيس؟" ويومئ فيتش برأسه ويمضيان، ولا يزيد أحدهما عن هذا. لكن من وقت لآخر كانا يناقشان طرق وحيل السحرة الكبار القدامى لمعرفة أسماء القوى والموجودات: كيف أن نيرجير من بالن تعلم اسم الساحر الأسود من

محادثة سمعها بالصدفة بين تنينين، وكيف أن موريد رأى اسم عدوه على تراب سهول معركة إنلاند مكتوبًا بحبات المطر. تكلما عن تعاويذ الإيجاد، و"الأسئلة المجابة" التى لا يستطيع غير الأستاذ صاحب الأنساق أن يسألها فى روك، لكن غالبًا ما كان جيد ينهى الحوار بأن يتمتم الكلمات التى قالها له أوجيون منذ زمن بعيد: "لتسمع عليك أن تصمت." ثم يصمت ويتأمل ساعة بعد ساعة، وهو ينظر على البحر فى مقدمة المركب. خُيِّل لفيتش وقتها أن صديقه ينظر من خلال الموج والمسافات، والأيام الرمادية القادمة على ذلك الشىء الذى يتبعانه، والنهاية القاتمة لرحلتهما.

عبرا بين كورناى وجوسك فى جو سيئ، فلم يريا الجزيرة فى الضباب والمطر، ولم يعرفا أنهما قد عبراها بالفعل، إلا فى اليوم التالى حين رأيا أمامهما جزيرة ذات أحجار مقببة، تدور فوقها نوارس البحر فى أسراب ضخمة يُسمع صوتها من بعيد. هذه ستكون آستويل، الأرض الأخيرة، جنوبها وشرقها كل الخرائط خالية."

أجاب جيد: "ومع هذا فمن يعيشون هنا قد يعرفون أراضى أخرى."

"لماذا تقول هذا؟" سأله فيتش؛ لأن جيد لم يكن مرتاحًا وهو يتكلم. لكن إجابة جيد على هذا كانت مفاجئة وغريبة فى طريقتها، فقد قال: "ليس هناك، ليس فوق البحر، بل على اليابسة، أى يابسة؟ بعد جداول البحر المفتوح، بعد الينابيع، خلف بوابات ضوء النهار."

ثم رجع إلى صمته، وعندما تكلم ثانية كان صوته عاديًا، كما لو كان قد تحرر من تعويذة أو رؤية ولا يتذكرها.

كان ميناء آستويل بين مرتفعين، على الشاطئ الشمالى من الجزيرة، وكل أكواخ المدينة تواجه الشمال والغرب. كما لو كانت الجزيرة توجه وجهها بالرغم من بُعدها الشديد تجاه إيرثسى، تجاه الإنسانية.

أحيط وصول الغرباء فى موسم لا تبحر فيه سفينة حول آستويل بالإثارة والخوف، قبعت كل النساء فى الأكواخ الخوص يحملقن فى العتبات، ويخبئن أولادهن خلف ملابسهن وهن ينزوين فى ظلام الأكواخ؛ خوفًا من غرباء البحر. بينما تجمع الرجال فى ملابس مهلهلة فى دائرة محكمة حول جيد وفيتش، وهم يحملون فئوسًا أو سكاكين من الصدف، رجال ضعاف البنية. لكن بمجرد أن زال خوفهم رحبوا بالضيفين ترحيبًا كبيرًا، ولم تنته أسئلتهم. نادرًا ما تأتيهم أى سفينة، ولا حتى من سودرز أو رولومنى، فلا شىء هناك ليتاجروا فيه مقابل البرونز والأدوات الفخمة. لا يوجد لديهم حتى الخشب. قورابهم زوارق صغيرة من الخيزران المجدول. البحار الشجاع فقط هو من يجرؤ على الإبحار بعيدًا حتى جوسك أو كورناى فى قارب مثل هذا، عاشوا فى عزلة هناك على أطراف كل الخرائط، لم يكن لديهم أى ساحر أو مشعوذ، ولم يتعرفا على الساحرين ولا عصيّهما، بل اقتصر إعجابهم فقط على الخشب الجيد. رئيسهم - أوَ رجل الجزيرة الأول كما يدعونه - رجل عجوز جدًا، وهو وحده من كل الناس الذى رأى أى إنسان من الأرخبيل. ولهذا كان شكل جيد ولونه أعجوبة بالنسبة لهم، فأحضروا صغارهم لرؤية الأرخبيلى حتى يتذكروه حين يكبرون. لم يسمعوا بجونت قط، بل هافنور وإيا، ولهذا اعتبروه سيدًا من هافنور، فحاول بقدر الإمكان أن يجيب عن أسئلتهم عن المدينة البيضاء التى لم يرَها ابدًا. لكن عند قدوم الليل زاد قلق جيد، فسأل الرجال أخيرًا وهم يجلسون حول المدفأة فى النُزل؛ حيث أحاطهم الدفء، ورائحة روث الجديان، وحزم النباتات التى لا يملكون غيرها للتدفئة: "ماذا بعد الشرق من جزيرتكم؟"

صمتوا، بعضهم مبتسم، والبعض عابس.

قال الرجل العجوز: "البحر، لا توجد أرض بعد ذلك."

"هنا آخر الأرض؟ لا توجد أرض بعد هذا. لا يوجد سوى الماء حتى حافة العالم."

- "إنهما من الحكماء يا أبى، رحالة، بحارة، ولربما يعرفان ما لا نعرفه عن أرض لا نعرفها."

- "لا توجد أى أرض شرق هذه الأرض." قال هذا، ونظر إلى جيد طويلًا، ولم يتحدث إليه ثانية.

نام الرفيقان فى دفء المكان الخانق، وقبل ضوء الفجر أيقظ جيد صديقه هامسًا: "إيستاريول استيقظ، لا نستطيع أن ننتظر، هيا لنذهب."

- قال فيتش وهو يغالب النعاس: "لماذا مبكرًا هكذا؟"

- "لسنا مبكرين بل متأخرين، لقد تبعت الشبح ببطء شديد، ويبدو أنه هرب منى، وسيكتب نهايتى، لا يجب أن يهرب منى، على أن أتبعه أينما ذهب، لو ضيعته سأضيع."

- "أين ستتبعه؟"

- "إلى الشرق، تعال، ملأتُ قِرَب الماء."

وهكذا تركا الكوخ قبل أن يستيقظ أى من أهل القرية، سوى رضيع بكى قليلًا فى الظلام، ثم سكت. وعلى ضوء النجم الخافت وجدا طريقهما للمركب، فكاها من الحجارة حيث قيداها من قبل، ودفعا بها إلى المياه

السوداء. أبحرا من آستويل إلى البحر المفتوح فى أول يوم من أيام الفالوز النحسات قبل طلوع الشمس.

كانت سماؤهما صافية، ورياح العالم باردة وممطرة من الشمال الشرقى، لكن جيد رفع ريح السحر، وكان هذا أول فعل سحرى يقوم به منذ أن ترك جزيرة اليدين فى هذه الرحلة. جرى القارب سريعًا باتجاه الشرق، ارتعش القارب تحت الأمواج الكبيرة المشمسة التى ضربته بقوة، وأخرجت منه الرذاذ مثل الدخان، لكنه أبحر بالقارب بشجاعة كما وعده صاحبه. أما القارب فكان يتجاوب مع ريح السحر، كأى سفينة مسحورة فى روك.

لم ينطق جيد طوال الصباح سوى ليجدد تعويذة الريح، أو ليبقى القوة المسحورة فى الشراع، وأتم فيتش نومه المضطرب فى قاع المركب، وعند الظهر أكلا. وزّع جيد الغذاء بحرص وتقتير، مضغ كل منهما السمك المجفف، وأكلا كيك الذرة، ولم ينطقا.

وعند العصر كان المركب لا يزال يشق عباب البحر تجاه الشرق، لا يستدير ولا يبطئ، وأخيرًا كسر جيد صمته، وسأل: "هل أنت مع الذين يؤمنون بأنه لا يوجد سوى بحار بلا شطآن بعد الأطراف الخارجية، أم مع الذين يتخيلون أرخبيلات أخرى، وأراضى واسعة غير مكتشفة على الوجه الآخر للعالم؟"

"فى هذه اللحظة أنا أؤمن بأن للعالم وجهًا واحدًا، وأن مَن يبحر أبعد من اللازم سيقع من حافته."

لم يضحك جيد، فقد ذهب منه كل المرح، ولكنه قال: "من يعرف ما الذى قد يصادفه المرء هناك؟ ليس لنا أن نعرف، ونحن الذين نمشى بمحاذاة شواطئنا وسواحلنا."

– "سعى البعض لأن يعرف، ولم يعد أبدًا، ولم تأتِ لنا أى سفينة من أراضٍ لا نعرفها."

لم يرد جيد.

طوال هذا اليوم والليلة انطلقا مدفوعين بقوة ريح السحر، فوق أمواج المحيط العالية تجاه الشرق. راقب جيد من الشفق حتى الفجر؛ لأن فى الليل تزداد القوة التى تجذبه أو تبعده. كان دائمًا ما ينظر للأمام، رغم أن عينيه فى قلب الظلام لم تريا أبعد من العينين المرسومتين على مقدمة المركب. عند الفجر كان وجهه شاحبًا من التعب، وجسمه متيبسًا من البرد؛ لدرجة أنه استحال عليه أن يفرده، فهمس لصديقه: "حافظ على ريح السحر من الغرب يا إستاريول." ثم نام.

لم يكن هناك شروق للشمس، فقد بدأ المطر يضرب من الشمال الشرقى بسرعة. لم تكن تلك عاصفة، فقط كان المطر الطويل البارد للشتاء، وبسرعة كان المركب يغرق فى الماء برغم القماش الواقى للشراعِ الذى اشترياه، غرق فيتش فى الماء حتى العظم، ووجد جيد يرتعش فى نومه. وشفقةً على صديقه حاول فيتش أن ينأى بالقارب بعيدًا عن تلك الرياح الجالبة للمطر ولو قليلًا، لكن قدرته على تحريك الطقس لم تكن فعالة، وهو بعيد كل هذا البعد عن الأرض، ولم تسمعه ريح البحر المفتوح، رغم أنه أبقى على ريح السحر قوية استجابة لإرادة جيد.

اعترى الخوف فيتش، وتساءل عن قوة السحر الباقية فيه هو وجيد، وهما على هذا البعد من الأرض المأهولة.

راقب جيد البحر طوال الليل والقارب يتجه شرقًا، عند بدء اليوم ارتخت ريح العالم نوعًا ما، وأشرقت الشمس بقوة، لكن الأمواج المنتفخة أضحت عالية لدرجة أن "العين المفتوحة" كان عليها أن تنحدر، وتتسلق الأمواج كما لو كانت جبالًا، وتتوقف عند قمة الموجة، ثم تغوص فجأةً، ثم تتسلق ثانية الموجة القادمة، وهكذا بلا نهاية.

عند مساء هذا اليوم تكلم فيتش أخيرا قاطعًا الصمت: "صديقى، حين تحدثنا كنت واثقًا بأننا سنصل إلى أرض فى النهاية، لن أشكك فى رؤيتك، لكن أيكون كل هذا خدعة من صنع الظل الشبحى الذى تتبعه ليغويك أبعد وأبعد فى قلب المحيط؛ حيث لا يصل إنسان؟ فقوتنا قد تتغير وتضعف فوق البحار الغريبة، بينما الشبح لا يتعب ولا يجوع ولا يغرق."

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب على مقعد التجديف، إلا أن جيد نظر إليه الآن كما لو كان من مسافة بعيدة، وعبر بئر عميق، وقال أخيرًا: "نحن نقترب، إستاريول."

وعند سماع كلماته هذه عرف فيتش أنها كلمات حق، ورغم خوفه إلا أنه وضع يده فوق كتف جيد وقال: "حسنًا، حسنًا."

راقب جيد فى هذه الليلة أيضًا؛ فقد عجز عن النوم فى الظلام، ولا حين أشرقت شمس اليوم الثالث، وهما ينطلقان بالسرعة الثابتة الرهيبة نفسها فوق الماء، وفيتش يتعجب لقدرة جيد على الحفاظ على مثل تلك الريح القوية للسحر فى البحر المفتوح، بينما هو يشعر بقوته تخذله وتضعف وتتشتت. وظلا ينطلقان وينطلقان، حتى بدا لفيتش أنهما سيبحران بعد ينابيع البحر، وشرقًا بعد بوابات النهار، كما قال جيد.

بقى جيد فى المركب، وهو ينظر للأمام كالعادة، لكنه لم يكن ينظر على المحيط الآن، ربما ليس على المحيط نفسه الذى ينظر عليه فيتش. المياه المتصاعدة كانت تجاور حد السماء، وحيث نظر جيد كان هناك حجاب يتداخل ويحجب البحر والسماء الرماديين، والظلام يزيد والحجاب يتكاثف. لم يكن أى من هذا واضحًا لفيتش، إلا عندما نظر لوجه صاحبه، وحينها رأى الظلام فى عينيه للحظة. انطلقا، وانطلقا. ورغم أنهما فى ريح واحدة، إلا أن الأمر بدا كما لو كان فيتش يذهب باتجاه الشرق فى بحر العالم، وجيد يذهب وحده فى عالم آخر؛ حيث لا شرق ولا غرب، لا شمس تطلع ولا تغرب، ولا نجوم تضىء.

وقف جيد فجأة فى مقدمة القارب، وصاح عاليًا، فارتخت ريح السحر، وانتهى تقدم السفينة، وظلت تعلو وتهبط على الأمواج مثل قطعة من الخشب. ورغم أن ريح العالم هبت قوية كالعادة من جهة الشمال، إلا أن الشراع البنى كان مرتخيًا وساكنًا، وهكذا عَلِقَ المركب فوق الأمواج، تحركه بقوتها الكبيرة، دون أن يتجه إلى أى مكان.

قال جيد: "أنزل الشراع." ونفذ فيتش على الفور، بينما جيد يفك المجاديف، ويضعها فى أقفالها، ويبدأ التجديف منحنيًا.

لم يفهم فيتش الذى لم ير سوى الأمواج اللاهثة لماذا يجدفان الآن، لكنه انتظر، وسريعًا ما شعر أن ريح العالم تخفت وتخفت، وأن الأمواج تتلاشى، وأن صعود وهبوط القارب يقل ويقل، حتى بدا فى النهاية أنه تحت تجديف جيد يسكن تمامًا، كما لو كان فى خليج تقفله الأرض من كل ناحية. لم ير فيتش ما رآه جيد، رغم أنه حاول بصعوبة تبين ما أمامهما من بين ضربات المجداف، ورغم أنه لم ير المنحدرات الكبيرة تحت النجوم الثابتة، إلا أنه بدأ

يرى بعين الساحر ظلامًا يرتفع فى تجاويف الموجات حول القارب فى كل اتجاه، ورأى الموج المتلاطم ينخفض ويسكن، كما لو كانا قد انحبسا وسط الرمال.

لو كان هذا سحر إيهام فقد كان قويًّا للغاية، قوة فوق العقل، حولت البحر المفتوح إلى يابسة. وفى محاولة استجماع شجاعته تمتم فيتش بتعويذة الكشف، وهو يرقب ما بين الكلمة والكلمة، بحثًا عن أى تغيير أو اهتزاز فيما أمامه فى جفاف المحيط وضحالته. لكن لم يتغير شىء. ربما لا تعمل التعويذة هنا، وربما لا يوجد إيهام، وقد وصلا لنهاية العالم.

ودون أن يلتفت أبطأ جيد فى التجديف، وهو ينظر خلف كتفه دائمًا، ويختار طريقه بين المياه الضحلة، والقنوات التى كان يراها وحده. اهتزت المركب بينما رافدتها تنسحب. وتحت الرافدة كان هناك عمق المحيط، رغم أنهما جنحا لليابسة بالفعل. رفع جيد المجاديف، وهى تتخبط فى أقفالها بصوت عالٍ؛ لأن المكان خلا من أى صوت آخر. اختفت كل أصوات المياه والريح والخشب والشراع فى صمت رهيب أبدىٍّ، وبقى المركب دون حركة، لا يوجد حتى صوت الهواء. تحول المحيط إلى رمال ظلالية لا يطؤها أحد، لا يتحرك شىء فى السماء القاتمة، ولا على الأرض الجافة الوهمية، التى امتدت وامتدت فى ظلام متكاثر حول القارب.

وقف جيد، وأخذ عصاه، ونزل بخفة من القارب، ظن فيتش أنه سيقع من القارب ويغوص فى البحر، البحر الذى حتمًا يوجد خلف ذلك الحجاب الرفيع المعتم، الذى يخبئ الماء تحته. لكن لم يكن هناك أى بحر، مشى جيد من القارب، وكانت آثار أقدامه تظهر على الرمال السوداء؛ حيث يذهب وتهمس قليلًا تحت خطوته.

بدأت عصاه تلمع، ليس بضوء الويرلايت، وإنما ببريق أبيض لامع، أخذ يزداد لمعانًا حتى احمرت أصابعه.

مشى حثيثًا بعيدًا عن القارب لكن دونما اتجاه، لم يكن هناك أية اتجاهات، لا شمال ولا جنوب، لا شرق ولا غرب، فقط كان هناك ما هو حوله وما هو بعده.

بالنسبة لفيتش، الذى كان يراقب، بدا الضوء له وكأنه نجم بطيء، يتحرك عبر الظلام الذى يزيد من حوله، ويتكاثف، وينضم على بعضه البعض. وهذا أيضًا ما رآه جيد، وهو ينظر دائمًا إلى الأمام من خلال الضوء. وبعد قليل رأى الشبح عند الطرف الخارجى للضوء، كان الشبح قادمًا تجاهه فوق الرمال.

ظهر هذا الظل الشبحى بلا شكل فى البداية، ثم بدأ يتخذ أشكالاً كلما اقترب: رجل، رجل عجوز على ما يبدو، أشيب وعبوس، ورغم أن جيد رأى فى الشبح أبيه الحداد، إلا أنه لم يكن رجلًا عجوزًا بل شابًا. كان جاسبر، وجه جاسبر الوسيم المتغطرس، بعباءته المطرزة بالفضة، ومشيته الرشيقة، وبنظره كراهية ثبتها على جيد فى قلب الهواء المظلم بينهما. لم يتوقف جيد، بل هدأ من خطوته، ورفع عصاه أعلى، وهو يتقدم للأمام، فلمعت، وعلى ضوئها سقطت صورة جاسبر من الشبح المقترب، وأصبح بيتشفيرى. لكن وجه بيتشفيرى كان منتفخًا وشاحبًا، وكأنه وجه رجل يغرق، وكان يمد يديه وكأنه يدعوه. لم يتوقف جيد، بل تقدم، رغم أن الباقى بينهما الآن كان بضع ياردات. فجأة تغير الشيء الذى يواجهه تمامًا، وتمدد من الناحيتين كما لو فتح جناحين عظيمين رقيقين، ذبلا وانتفخا، وانكمشا مرة أخرى. رأى جيد للحظة وجه سيكوره الأبيض، ثم عينين معتمتين محدقتين، وفجأة

وجهًا مخيفًا لم يعرف هل هو لرجل أم لوحش، بشفتين غائضتين، وعينين مثل حفر من الفراغ الأسود.

عند رؤية هذا رفع جيد عصاه عاليًا، واشتعل بريقها بقوة، وبياضها يحترق بضوء يسوى كل ذلك الظلام الأزلى ويمسحه. فى ذلك الضوء اختفى الشكل الإنسانى من الظل. تجمع مع بعضه البعض، وانكمش واسود، وزحف على أربعة أطراف مخلبية على الرمال، واستمر فى التقدم، وهو يرفع ما يشبه الخرطوم دون شفاهٍ أو آذان أو عيون. وحين تواجهَا ظهر الشىء حالك السواد فى ضوء العصا البراق، ورفع نفسه عاليًا. فى صمت تقابل الإنسان والظل وجهًا لوجه.

عاليا واضحًا، نطق جيد باسم الظل، وفى اللحظة نفسها نطق الظل باسمه دون شفاه أو لسان. كلاهما نطق الاسم نفسه: "جيد." كان الصوتان صوتًا واحدًا.

عد جيد يديه، وأمسك بالظل، بتلك النفس السوداء التى مدت نفسها إليه. تلاقى الضوء والظلام، واتحدا.

أما بالنسبة لفيتش الواقف يراقب كل هذا فى وقت الغسق المعتم من بعيد فوق الرمال، بدا له أن جيد قد هُزم؛ لأنه رأى الضوء البراق يخفت. ملأه الغضب واليأس، وقفز على الرمال لمساعدة صديقه، أو للموت معه، وجرى باتجاه ذلك الضوء المتلاشى للغسق الخالى. لكن حين جرى غاصت الرمال تحت قدميه، وجاهد معها وكأنه فى بحر من الرمال، أو فى تيار قوى من الماء، حتى استعاد العالم نفسه بصوت من الرعد، ومعجزة الصباح، ومذاق الملح، وتخبط فيتش فى البحر المفاجئ الحقيقى والحى.

وعلى مقربة كان القارب يهتز على الأمواج الرمادية، فارغًا. لم يرَ فيتش أى شىء آخر على المياه، ملأت الأمواج المتلاطمة عينيه وأعمته. ولأنه لم يكن سباحًا قويًّا جاهد حتى وصل إلى القارب ورفع نفسه، وأخذ يسعل ويمسح عينيه من الماء الذى تساقط من شعره، نظر حوله يائسًا دون أن يعرف أين ينظر، ثم لمح أخيرًا شيئًا ما قاتمًا بين الأمواج، بعيدًا فى نفس المنطقة التى كانت أرضًا منذ قليل، وأضحى الآن بحرًا هاجئًا. قفز إلى المجداف، وأسرع لنجدة صديقه، وأمسك به، وجذبه إلى القارب.

كان جيد مغشيًا عليه، عيناه تحدقان، ولا يرى شيئًا، لكنه لم يكن مجروحًا فى أى مكان. عصاه الخشبية انطفأ نورها، يقبض عليها بيده اليمنى ولم يكن ليتركها. لم ينطق بكلمة، كان مبتلًا، وخائر القوى يرتعش، ربض قبالة الصارى دون أن ينظر إلى فيتش الذى رفع الشراع، وعدل القارب ليمسك بالرياح الشرقية الشمالية. لم ير شيئًا من الدنيا حوله سوى قمر جديد يلمع فى السماء فى المكان نفسه، الذى غربت فيه الشمس بين السحب الطويلة مثل خاتم من العاج، رأى ضوء الشمس منعكسًا عبر محيط الظلام.

رفع جيد رأسه، وحملق فى الهلال اللامع البعيد فى الغرب.

حملق لفترة طويلة، ثم وقف منتصبًا، وهو يمسك العصا بيديه الاثنين، كمحارب يمسك بسيفه الطويل. نظر حوله فى السماء والبحر والشراع البنى المنتفخ ووجه صديقه.

"إيستاريول، انظر، انتهى كل شىء، انتهى." قال هذا ثم ضحك، "انقفل الجرح، أنا مكتمل، أنا حر." ثم انحنى، وأخفى وجهه فى ذراعيه، وبكى مثل الأطفال.

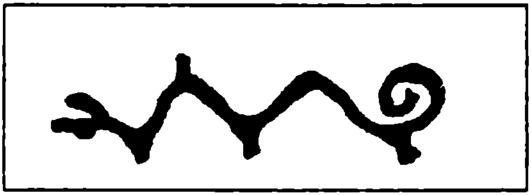
حتى هذه اللحظة كان فيتش يرقبه بخوف وحذر؛ لأنه لم يكن متأكدًا مما حدث هناك فى الأرض المظلمة، لم يكن يعرف إن كان الذى معه فى القارب جيد فعلًا أم لا. ظل مستعدًا لفترة طويلة لأن يرمى الهلب ويُغرِق القارب فى قلب المحيط؛ خوفًا من أن يرجع بها إلى موانئ إيرثسى، وبالشر الذى ظن أنه تقمص جيد قلبًا وقالبًا. لكن عندما رأى صديقه وسمعه تبدد خوفه، وبدأ يرى الحقيقة، فهم أن جيد لم يُهزم، كما أنه لم يفز، فهم أنه حين نادى على ظل موته باسمه قد اكتمل، أضحى رجلًا، رجلًا يعرف نفسه الحقيقية المكتملة، ولهذا لا يستغله أحد، ولا تمتلكه قوة خارج نفسه، وسيعيش حياته من أجل الحياة، وليس فى خدمة الدمار، أو الألم أو الظلام. فى "خلق إيا" وهى أقدم اغنية، يقال: "فقط فى الصمت تكون الكلمة، فقط فى الظلمة يكون النور، فقط فى الموت تكون الحياة، براق هو طيران الصقر فى السماء الخالية."

أبحرا ثمانية أيام، وثمانية أخرى قبل أن يصلا إلى أى أرض. كثيرًا ما اضطرا إلى ملء قرب الماء من ماء البحر المحلى بالتعاويذ، وكثيرًا ما اصطادا، لكن حين استخدما تعاويذ الصيادين كان صيدهما قليلًا؛ لأن سمك البحر المفتوح كان جاهلًا بأسمائه الحقيقية، ولا يكترث بالسحر. وعندما لم يتبق لديهما سوى فتات من اللحم المدخن، تذكر جيد ما قالته يارو حين سرق فطيرة القمح من على المدفأة، وقالت له إنه سيندم يومها على هذه السرقة حين يتضور جوعًا فى قلب البحر. ورغم أنه كان جائعًا إلا أن ذكرى يارو أسعدته، فقد وثقت دائمًا أنهما عائدان ثانية.

حملتهما ريح السحر ثلاثة أيام فقط باتجاه الشرق، لكنهما أبحرا غربًا ستة عشر يومًا. لم يعد أى إنسان من مثل تلك الرحلة البعيدة فى البحر المفتوح، مثلما فعل الساحران الشابان إيستاريول وجيد فى أيام الفالوز

البور النحسات من الشتاء فى قارب صيد مفتوح. لم تواجههما عواصف شديدة، وأبحرا بثبات بالبوصلة وبنجمهما: تولبجرين، وهم يتخذان مسارًا باتجاه شمال طريقهما المفروض، ولهذا لم يعودا إلى آستويل، بل مرا بفارتولى وسنيج دون أن يرياها، هى أول جزر رُفعت من الرأس الجنوبى من كوبيش. رأيا عبر الأمواج مرتفعات من الحجارة مثل القلاع الكبيرة، ومن فوقها تحلق طيور البحر على الأمواج المتكسرة، ودخان المداخن فى القرى الصغيرة ينساب بلونه الأزرق فى قلب الريح.

لم تكن الرحلة إلى إيفيش من هناك طويلة، وصلا إلى ميناء إيسماى فى ليلة هادئة مظلمة. ربطا العين المفتوحة، ذلك المركب الذى حملهما إلى سواحل مملكة الموت، مشيا عبر الشوارع الضيقة إلى بيت الساحر. أشرق قلباهما حين دخلا البيت للدفء والنور؛ ليجدا يارو تجرى لاستقبالهما وفى عينيها دموع الفرحة.



ختام

إذا ما كان إيستاريول من إيفيش قد حافظ على وعده، وألَّف ملحمة غنائية عن أول بطولات جيد، فقد ضاعت هذه الأغنية. لكن توجد حكاية فى الطرف الشرقى عن قارب جنح لليابسة أيامًا، بعيدًا عن أى شاطئ فى قلب عمق المحيط. فى إيفيش يقولون إنه إيستاريول الذى أبحر فى هذا القارب. فى توك يقولون إن رجلين فى قارب واجها عاصفة فوق البحر المفتوح، وفى هولب يتحدثون عن بحار هولبى، ويقولون إن قاربه لم يستطع الخروج من الرمال الخفية، وإنه لا يزال هائمًا هناك. من ملحمة الظل لم يبقَ سوى بقايا أسطورة يحملها البحر من جزيرة إلى جزيرة مثل طرح البحر. لكن فى بطولات جيد لا يُذكر أى شىء عن تلك الرحلة، ولا عن لقاء جيد مع ظله، قبل أن يبحر فى ممر ، ولا قبل أن يعيد خاتم إيريث آكبى من مقابر آتوان إلى هافنور، ولا قبل أن يعود إلى روك أخيرًا كساحر أكبر على كل جزر العالم.

المؤلفة فى سطور:

أورسولا ك لوجوين

من قبل ضجة «هارى بوتر» الخيالية وترجماتها التجارية بثلاث عقود على الأقل، كتبت سيدة أمريكية بسيطة من أوريجون في شبابها رواية «ساحر من إيرثسى» فى الوقت الذي يذهب فيه أولادها الثلاثة إلى المدرسة وبعد أ يناموا. هذه الرواية العذبة تتناول حياة ساحر شاب وكيف يتعلم، عن حياته وموهبته ومسئوليته تجاه موهبته وتجاه العالم من خلال مدرسة السحرة على جزيرة روك، إنها كاتبة الخيال العلمى والفنتازيا وأدب الأطفال الأمريكية المعاصرة أورسولا ك لوجوين (Guin Ursula k. Le) مع بقية أعمالها من خيال علمى وأدب أطفال، شكلت هذه الثلاثية (التى تحولت إلى ثلاثيتين أو سداسية فيما بعد والبقةي تأتى) شكلت وجدان الكثير من الأمريكان والأوروبيين فى الستينيات السبعينيات، وساهمت هى وغيرها من كاتبات الخيال العلمى وفانتازيا فى تعميق موضوعات هذه الأنماط الأدبية الحديثة واستخدامها للتعبير عن الكثير من الموضوعات النسوية التى كانت تبحث عن عوالم جديدة لأسئلتها المعقدة .

أوروسولا ك . لو جوين .. الآن فى أوائل عقدها التاسع . لا تزال تنتج الأدب بأنماطه بغزارة. تقول إن شخصيات أعمالها تأتى لها، تطلب منها أن تقص حكايتها أو تراها كصورة بعيدة فى فضاء رحب وتجد نفسها مدفوعة لأن تمشى ناحيتها وتسمع قصتها .

جدَّة الخيال العلمى والفانتازيا كما يطلقون عليها لم تتوقف عن تلقى فانتازيا التقدير والجوائز منذ بداية تاريخها الأدبى فى أوائل الستينيات وكل عام ونوبل دائما ما تراوغها وربما لن تراها قط لأن ولائها الأعظم لإنسانيتها الحقيقية التى ترتفع فوق السياسة والحدود والجنسيات منذ بداية حرفتها

وهى ضد الإمبريالية الاستعمارية الأمريكية والغربية بكل صورها . تسقطها كواقع سياسى فى أعمالها للخيال العلمى التى تدور فى مجرة (هينيش) بكل كواكبها وأشكال الإنسانية المختلفة جدا والمتشابهة جدا التى تطرحها . منذ حرب فيتنام التى كتبت عنها (كلمة سر العالم هى الغابة) نسبة إلى عمليات إزالة الغابات التى كان يقوم بها الأمريكان هناك حتى حرب العراق الأخيرة والتى أسست بعدها حركة «شعراء ضد الحرب» وخرجت في مظاهرات وكانت تضع على شباكها يوميا رقما يتغير بعدد القتلى يراه القادم من آخر الشارع الذي تسكن به حتى ثورة ٢٥ يناير فى مصر التى كانت تضع علمها فى نافذتها .

تلك السيدة واسعة النفس هى ابنة العالم الأنثروبولوجى الشهير آرثر كروبيرو الذى كان من أهم من درسوا طبيعة الهنود الحمر، تقول إن أحدهم كان صديقا لوالدها يزورهم في البيت ويحكى لها الحكايات والأساطير تعلمت بين جدران بيتها أن تحترم نظرة الآخر للحياة وأن تجد فيها صلاحية لا تختلف عن نظرة الذات وتعلمت أن القصة سحر وأن الغريب ليس أبدا هو القادم من كوكب آخر وإنما هو الذات نفسها، وعجزنا عن رؤيتها بشكل حقيقي .

حصلت لوجوين على العديد من الجوائز بشكل عام جائزتين عن « ساحر إيرثسى» هما :

1968 Boston Globe-Horn Book award for A Wizard of Earthseea

1979 Lewis Carroll shelf Award for A Wizard of Earthsea

وجوائز أخرى عن أجزاء من السداسية هى :

2002 Locus Readers Awards : Tales from Earthsea. "The Bones of the Eart"

2003 Endeavor Award : Tales from Earthsea

ولكن هذه الكاتبة الحقيقية تعلمت أنه رغم أن الجوائز هامة لكنها ليست أهم من ولاء الفنان لما يؤمن به .

المترجمة فى سطور

منى النمورى

مدرس الأدب الإنجليزى والأدب المقارن بكلية الآداب جامعة طنطا، هى أيضا مترجمة وكاتبة إبداعية. كانت أول من عمل فى رسالة الدكتوراه على أدب الكاتبة «أوروسولا ك. «لوجوين» للخيال العلمى فى الشرق الأوسط وأول من ترجمها إلى العربية فى قصة «الراحلون عن أوميلاز» التى نشرت فى أخبار الأدب فى أغسطس ٢٠١١. تترجم أيضا إلى الإنجليزية، ولها العديد من الأعمال المترجمة والأبحاث النقدية المنشورة. حين قررت ترجمة عمل مطول للكاتبة الأمريكية لوجوين اختارت رواية (ساحر من إيرثسى) لأنها تعتقد أنها قلب أعمالها وأجملها؛ ولأنها تؤمن بأن أدب الناشئة لو كان أدبا جيدا فهو رائع لكل الأعمار.

الكاتبة فى سطور:

أورسولا كروبر لي جوين (جدة الخيال العلمى)

- أديبة أمريكية لها العديد من الإبداعات الأدبية في مجال الرواية. مؤلفة روايات خيال علمي، فانتازيا، أدب أطفال، نقد أدبى.
- ولدت في 21 أكتوبر 1929. هي ابنة الكاتبة وعالمة الإنسانيات (ثيودورا كروبر) والأنثروبولوجي (آلفرد كروبر).
- بدأت الكتابة بعمر التاسعة وعرفت بكتابتها الروايات، وقصص الأطفال، والقصص القصيرة، إضافة إلى كتابتها للشعر والمقالات.
- أول أعمالها المنشورة كان في سنة 1960، وتدور مؤلفاتها غالبا في أزمان مستقبلية أو عوالم وهمية، وتناقش السياسة، والطبيعة، والجنس، والدين، والإثنوغرافيا، وقضايا المرأة.
- فازت بالعديد من الجوائز أبرزها هوغو، ولوكس، وبولتيزر، وبجائزتين عن رواية " ساحر من إيرثسى"، هما:

- Boston Globe-Horn Book award for A Wizard of Earthsea, 1968
- Lewis Carrol Shelf Award for A Wizard of Earthsea, 1979

وجوائز أخرى عن أجزاء أخرى من السداسية هى:

- Locus Readers Awards: Tales from Earthsea, "The Bones of the Earth", 2002.
- Locus Readers Awards: Tales from Earthsea, "The Finder".
- Endeavor Award: Tales from Earthsea.

من أهم أعمالها:

1. The Tombs of Atuan, 1971
2. The Farthest Shore, 1972
3. Tehanu: The Last Book of Earthsea, 1990
4. Tales from Earthsea, 2001
5. The Other Wind, 2001
6. Hainish science fiction series
7. Main article: Hainish Cycle
8. Rocannon's World, 1966
9. Planet of Exile, 1966
10. City of Illusions, 1967
11. The Left Hand of Darkness, 1969
12. The Dispossessed, 1974
13. The Word for World is Forest, 1976
14. Four Ways to Forgiveness, 1995
15. The Telling, 2000
16. The Lathe of Heaven, 1971
17. The Wind's Twelve Quarters, 1975
18. Orsinian Tales, 1976
19. The Beginning Place, 1980 1986
20. The Compass Rose, 1982
21. Always Coming Home, 1985
22. Annals of the Western Shore, 2004-20071
23. Lavinia, 2008 (مترجمة للعربية: لينا عبد الرحمن)

التصحيح اللغوى : شريف محمود

الإشــراف الفنى : حســن كــامــل

ساحر من إيـــرثسى

راويـة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2548
- ساحر من إيرثسى
- أورسولا ك. لوجوين
- منى النمورى
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
A Wizard of Earthsea
By: Ursula K. Le Guin

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ساحر من إيرثسى

روايـــــــــة

تـــألـــيـــف : أورسـولا ك . لوجـوين

ترجمة وتقديم : منـى النمـورى

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لوجوين ، أورسولاك
ساحر من إيرثسى ، تأليف : أورسولا ك . لوجوين ؛ ترجمة وتقديم : منى النمورى
المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥
٢٤٤ ص ، ٢٠ سم
١ – القصص الأمريكية
(أ) النمورى ، منى (مترجمة)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٥٥٨٤ / ١٥
الترقيم الدولى 1 - 0375 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

رقم الصفحة

تقديم المترجمة

" حكاية سباروهوك، ساحر من إيرثسى بلاد البر والبحر"

سباروهوك؟ ساحر؟ إيرثسى؟ ما هذا العالم الخيالى الجديد الذى تقدمه لنا هذه الترجمة؟ سباروهوك هو صبى أسمر نحيل صلب ويتيم، عنيد ومتسرع وغاضب، وُلد بقدرات سحرية هائلة، ويتبناه ساحر كبير وحكيم اسمه أوجيون ليعلمه السحر والحكمة، لكنه لا يصبر لتعليم أوجيون الرصين البطىء، فيرسله بناءً على طلبه لمدرسة السحرة فى جزيرة روك؛ حيث يلمع نجمه أسرع من بقية الصبية، ويفتنه تفوقه فى المدرسة، ويضايقه صبى آخر مغرور من أصل نبيل ويستفزه، فيجرب استدعاء روح من أرواح الموتى للتفاخر، لكنه بدلًا من هذا يستدعى ظلًا شبحيًا ثقيلًا من عالم آخر يطارده، ويكاد يقتله، ويهدد عالم إيرثسى كله بالاستحواذ على جسد الساحر الصغير وقوته، وتدور المغامرة المثيرة لمطاردة هذه القوة السوداء الشريرة. يتعلم سباروهوك من خلالها الصبر واحترام موهبته، ومواجهة مسئولية خطئه؛ حتى يعرف من أين يأتيه الظل، ويصحح مسار حياته، ذلك الصبى العنيد الذى نتوقع نهايته الأليمة فى كل فصل، والذى نشهد عذابه، وهو يجوب البحار والبلاد بحثًا عن الظل الشبحى الأسود، يكبر ليصبح ساحرًا شابًا مسئولًا، ثم الساحر الأكبر لكل عالم إيرثسى.

وإيرثسى، عالَم لوجوين المتخيَّل، عبارة عن أرخبيل يضم مئات من الجزر المحاطة بمحيط عظيم، لا يعلم أحدٌ مداه ولا نهايته. تقول الكاتبة فى خلق هذا العالم إن الجزر الأندونيسية ربما هى أصله فى خيالها. إيرثسى، بلاد البر والبحر، يتشابه جوها مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتتشابه عادات أهلها غير الصناعية مع القرن الخامس عشر.

من أورسولا ك. لوجوين؟ هى أشهر كاتبة للخيال العلمى والفانتازيا وأدب الأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية. فى ١٩٦٨، وقبل عقود من ظهور روايات هارى بوتر الشهير، تبدأ أورسولا ك. لوجوين كتابها "ساحر من إيرثسى" استجابة لناشر طلب منها الكتابة للناشئة، وبعد تفكير قررت أن تكتب هذا الكتاب عن النضج وبلوغ الرشد.

تبدأ الرواية بسؤال غير معلن عن كيفية بدء السحرة الكبار حياتهم؛ هل يولدون حكماء بعصىٍّ سحرية وذقون بيضاء؟ أم أنهم مثل كل الناس يبدءون حياتهم أطفالًا ومراهقين، محاطين بالصعوبات والتجارب المؤلمة الصعبة النسيان؟ هكذا يبدأ السؤال، ومثل كل الحكايات يقودنا السؤال للمزيد من الأسئلة حول الناس والحياة، الموهبة والفن، الخير والشر. ويصبح الكتاب ستة من الكتب عن إيرثسى. ساحر من إيرثسى هى رواية تعلم ونضج للناشئة، ولأنها حكاية حقيقية – وإن كانت متخيلة – فهى ممتعة للكبار الذين قد يعيشون ويموتون دون تعلم أو نضج، فهى رحلة واقعية، رغم كونها فانتازيا عن عالم آخر.

لكن لماذا الفانتازيا؟ تقول لوجوين إن الفانتازيا هى النمط الأدبى الأفضل لرحلة النضج هذه؛ لأن الفانتازيا برموزها البدائية (الساحر، الظل، الشبح، السيف، المتاهة، الخاتم، الرحلة) هى الأفضل فى نقل عمق

الرحلة النفسية داخل العقل الباطن التى يقطعها الإنسان لفهم نفسه ولتحقيق النضج. وهى رموز يزخر بها عالم إيرثسى.

تلك الرحلة النفسية الأخلاقية تحمل جدلًا قويًا، ما بين احتمالات الخير والشر داخل النفس البشرية، والهدف من هذا الجدل هو تقليل ميل القارئ الصغير نحو اليأس أو الإنكار، حين تأتى اللحظة الحاسمة لمواجهة الشر والحزن والمعاناة والظلم فى العالم، والذى هو جزء من النفس البشرية. ولهذا يطلق على فانتازيا إيرثسى: فانتازيا أخلاقية.

أجمل ما فى كتب لوجوين أنها تتجنب الانتصارات الأخلاقية البسيطة والساذجة، مثل انتصار الخير على الشر الذى نلقمه لأطفالنا، وكأننا نعلمهم الازدواجية من البداية. فعلى عكس قصص الفانتازيا الأمريكية والأوروبية تتجنب لوجوين هذه الازدواجية، وتقدم لنا الشر جزءًا من النفس، لا بد من رؤيته وقبوله، وبالتالى تحجيمه، ثم منعه بقدر الإمكان. فمثلًا على سباروهوك أن يقبل ظله الأسود (ذكرياته المؤلمة، غروره، تسرعه، عمله السيئ) على أنه جزء منه، ويقبل بصبر تصحيح الخطأ، وعليه أن يحتضن ما ظل يهرب منه طول حياته القصيرة؛ حتى ينغلق جرحه ويواصل العمر بشجاعة، فيصبح يومًا الساحر الأكبر بعد أن كان ملعونًا مطاردًا.

فى عالم إيرثسى، تلعب الأسماء دورًا مهمًا، فالاسم الحقيقى للشىء أو الشخص هو اسمه فى الكلام الحقيقى، أو اللغة القديمة، لغة الخلق ولغة التنانين المعمرة، وهو الذى يحمل جوهره، وتستطيع أن تسيطر عليه من خلاله. ففى الرواية لبطلنا الساحر الصغير اسم وُلد به (دانى)، واسم عُرف به فى القرية، اسم الحرفة (سباروهوك أو الميسان أى الصقر الصغير) واسمه الحقيقى الذى يعطيه له معلمه الأول الساحر الكبير أوجيون وهو (جِيد).

لا يمكن أن يكذب شخص فى اللغة القديمة، والساحر القدير فقط هو الذى يحدث التغيير فى الواقع عن طريق الكلام أو التعويذ بها. ولتصبح ساحرًا كبيرًا عليك أن تعرف الأسماء الحقيقية لكل الأشياء والأشخاص، وتتعلم لغة التنانين فى صبر وتروٍّ.

التنانين فى إيرثسى جنس قديم، قديم قِدَم إيرثسى نفسها، جنس قوى خطر لا يكترث للإنسان ولا يلحظه إلا إن كان يستحق أن يكون سيدًا للتنانين، مثل سباروهوك نفسه. لا تصف لوجوين التنانين بأنها خَيِّرة أو شريرة، تصفها فقط بأنها جنس مختلف عن الإنسان، وأنها تعرف الكلام الحقيقى: اللغة القديمة، لغة الخلق والتغيير.

من أخلاقيات إيرثسى أنه لو كنت ساحرًا وغيرت أى شىء بالسحر، أى شىء حتى لو كان حَجرًا ملقى على الطريق، فسيغير من العالم حولك؛ لذا يجب أن تتوخى الحرص، وتضع الكلمات والتعويذات فى مكانها. هذا ما يتعلمه قارئ إيرثسى؛ أن السحر (الفن، الموهبة) مسئولية لا بد من التفكر بها، وأن التوازن ضرورة حتمية للحفاظ على العالم.

فى عالم إيرثسى السحرى نترك عوالم "الهابرا كاديبرا" والتعويذات الرنانة، وندخل عالم من المسئولية الأخلاقية تجاه العالم. فالساحر الحقيقى لن يلجأ للسحر إلا فى الضرورة القصوى، وما بين الأسحار سينصت، سيصغى، سيتعلم بصبر أن كل الموجودات مهمة ومقدسة، وأنه بموهبته ليس أفضل من أى مخلوق ولا كائن، بل هو مسئول أكثر منهم.

وقع اختيارى على "ساحر من إيرثسى" لعدة أسباب: أولها أننى وددت أن أقدم الأصل الحقيقى لظاهرة هارى بوتر، والتى رغم اعترافى بأنها قد قدمت المتعة والإثارة لعالم الشباب، كما شهدت فى تجربة ابنى،

فإننى لم أرها قد أثرت فى حياتهم بثوابت الفضائل وعظيم الأفكار، بل اعتمدت اتجاهًا تجاريًا يعتمد على التشويق والإثارة والتكنولوجيا، ولهذا كان من السهل تحويل القصص إلى أفلام فلكية الإيرادات، واكتفى الكثير من الشباب بمشاهدتها دون قراءتها، ومرت السنون ولم أجد عميق الأثر فى شخصية ابنى ولا فى جيله سوى الولع بالعوالم السحرية.

وشهرة عالم بوتر شكلت أكثر الصعوبات تحديًا أمامى فى الترجمة؛ لأن كل ما كنت أحاول ترجمته من غريب المصطلحات كان موجودًا بالفعل للقارئ العربى بالعربية، لكن بمعان أخرى تخص عالمًا آخر، ولهذا يجب التنبيه على الطبيعة الفضفاضة لفن الفانتازيا، فالفانتازيا لا قواعد ولا حدود لها؛ لأن كل كاتب يضع الشروط كما يتراءى له، وقد يغيرها، أو يضيف لها لو لزم الأمر فى الأجزاء التالية، وهو / هى بهذا يفكك، ثم يعيد تركيب الفانتازيا كنمط أدبى، بمعنى أن النمط يتراكم ويتفكك ويتغير طوال الوقت. هنا على القارئ أن يسلم نفسه تمامًا فى بداية دخوله هذا العالم الجديد للكاتب، يأخذه أينما يشاء فى عالمه المختلق، ليرجع بعد القراءة (لو كان العمل جيدًا) وقد تعلم عن نفسه وعالمه الجديد. وعلى هذا تختلف ترجمة المصطلحات نفسها مع كل عمل.

السبب الآخر : هو أننى وددت تقديم هذه الكاتبة العبقرية للقارئ العربى، وشعرت أن قلب أعمالها ودرة فلسفتها هو ذلك العالم الصغير "إيرثسى"، الذى كتبت فيه ستة من أعمالها على مدار أربعين عامًا. وسباروهوك الساحر المتسرع الذى بدأت به، انتهت به فى الجزء الخامس ساحرًا أكبر للبلاد، بلغ من الحكمة والثقة أن يرضى بالبقاء فى البيت، ليترك زوجته تجوب العالم، وتعرف نفسها كما فعل.

وقد واجهتنى الكثير من الصعوبات فى ترجمة إيرثسي:

أولها وأعظمها: محاولة جعل النص الجميل الحكيم مشوقًا ليجذب القارئ الشاب دون أن ينفر القارئ الأكبر سنًّا. ساحر من إيرثسى هو كتاب يبدو كأنه يشيخ فى سباق خفى مع سلسلة هارى بوتر السريعة المثيرة والعنيفة أحيانًا، والبعيدة عن التنظير أو التوجيه. يحتوى النص على معان مختلفة للأشياء نفسها الموجودة فى بوتر، والمستقرة فى ذهن القارئ العربى عن طريق الترجمة. كان علىَّ إذن أن أقدم ترجمة شيقة لنص أخلاقى قديم نوعًا ما، يتعارض فى بعض الأحيان مع عمل آخر شبيه مترجم مشهور ومحبوب فى العالم العربى بالفعل منذ سنوات! ساعدنى ابنى يوسف فى هذه الصعوبة كثيرًا لكونه القارئ الأول للترجمة.

ثانى الصعوبات: كانت فى إيجاد مقابلة مقبولة وجذابة للكثير من الكلمات والمصطلحات المُختَلَقَة، البعض منها لا تفسره إلا الأجزاء التالية من المجموعة، والبعض الآخر لا يفسره أى شىء، ولا حتى الكاتبة نفسها، والتى تؤمن بأن الفانتازيا مثل الأحلام، تقدم الكثير من الرموز التى على القارئ أن يتخيل معانيها كما يتراءى له.

مرة أخرى كان علىَّ أن أجد المعانى المناسبة التى تسمح للقارئ بالتخيل دون فرض أى تخيل خاص، مهمة شبه مستحيلة. من أمثلة ذلك مصطلح (Old Powers) أو القوى العتيقة للكون، والتى من الممكن أن تكون قوة الضوء والحجر والهواء والمعادن وغيرها، مما قد تحب – قارئًا – أن تتخيله، أو مثل الإشارات الكثيرة للملاحم وبطولات لن تعرف عنها سوى بقراءة بقية الأجزاء (Erreth Akbe, Elfarren,Morred)

الصعوبة الثالثة: كانت فى ترجمة الكثير من الكلمات التى تعبر عن وظيفة الساحر، والمختلفة بالإنجليزية بعضها عن بعض، وإن كانت كلها تترجم إلى: ساحر أو مشعوذ أو عرَّاف، بالعربية، (Wizard, mage,archmage, sorcerer, witch, baby-witch) آخذين فى الاعتبار أن معظم معانى السحر لها معان سلبية بالعربية فى الثقافة العربية والقرآن والتراث الشعبى.

وبعد الكثير من التفكير والمشاورة استقرت الترجمة على التراتبية الآتية للسحرة على جزيرة روك.

١- سيجوى (ساحر قديم أو تنين، رفع جزر إيرثسى بمقدرته السحرية) Segoy

٢- الساحر الأكبر (ساحر كبير منتخب من كل السحرة الكبار لعمادة روك جزيرة السحر). Archmage

٣- ساحر قدير (ساحر اكتسب خبرة وحكمة ومقدرة سحرية) mage

٤- ساحر (ساحر اكتسب خبرة كافية للحصول على عصاه) Wizard

٥- مشعوذ (ساحر متدرب، ساحر محدود المقدرة أو الخبرة، وبدون عصا) Sorcerer

٦- صفات سحرية قد يكتسب بعضها العامة، لكن لا بد من توافرها عند أى ساحر (تحريك الطقس. Weather- worker غناء الملاحم البطولية Enchanter. العلاج بالتعاويذ. Heal-all)

٧- ساحرة أنثى، وهى فى الجزء الأول من عالم إيرثسى ضعيفة وقليلة القيمة، حتى غيرت الكاتبة صفاتها هذه فى الأجزاء التالية Witch

٨- ساحر طَفل، ويُطلَق على جيد فقط فى هذا الجزء، وهو طفل يستخدم قدراته السحرية الطبيعية، وقليلًا من المعرفة لإعمال السحر. Wizard Child

ومصطلحات أخرى لها معان مباشرة تختلف عن معانيها فى النص، وتختلف عن المعانى المستقرة للترجمة الأشهر، ألا وهى ترجمة هارى بوتر، مثل عصا الساحر A Wizard staff مثلًا، والتى لا يتم تفسير قدرتها فى إيرثسى، وتبدو دائمًا فى يد أوجيون أو الساحر الأكبر كعصا يتكئ عليها.

وكان هناك ضرورة أن تقدم الترجمة هذه المصطلحات ومقابلاتها، وتشرح دون أن تخل بسلاسة النص الأدبى، ودون أن تصيب القارئ بالملل من كثرة الهوامش أو الشرح.

الصعوبة الرابعة: كانت فى ترجمة الكثير من المصطلحات المختلقة من كلمتين موجودتين بالفعل فى اللغة الإنجليزية، لكن تجميعهما معًا يخلق معنى جديدًا، مثل: Earthsea . Lastland. Landgate.. والتى كان لا بد من إيجاد مقابلات مقبولة لها، خاصة Earthsea الذى تتكرر كثيرًا اسمَ مكان ومضافًا إليه، وكان الحل هو ذكر المعنى فى العنوان والفصل الأول، ومِن ثم الاعتماد على وصولها للقارئ، والرجوع لاستخدام اللفظة الأجنبية.

كلمة Shadow كانت من الكلمات الإشكالية أيضًا، فالمقصود بها هو "الظل"، وهو ما تُرجمت له فى الفصول الأولى. لكن لكون هذا الظل يتحول لقوة خارجية غير مرتبطة بجسد جيد فى لحظات، وتمتلك هذه القوة

قدرة أحيانا للدخول فى كائنات أخرى والتحكم بها، وجدت أن كلمة الظل لا تناسب هذه الكلمة عند مرحلة معينة، وكان الحل هو استخدام "الظل الشبحى" فى الفصول الوسطى، ثم استخدام "ظل" أو "شبح" حسب الموقف فى الفصول الأخيرة.

صعوبة أخرى واجهتها جاءتنى من مشاهد البحر ومصطلحاته، وهو الأمر الذى لم أكن أعرف عنه الكثير قبل ترجمتى لهذا الكتاب، ولم يساعدنى فيها سوى تقنيات شبكة الإنترنت الحديثة، التى كنت أرى بها صورَ ما أجهله، وكذلك مساعدة صديقتى المترجمة الأمريكية مارشا لينكس كويلى، وزميلى متخصص الترجمة د.عبد الوهاب خليفة، مثل مصطلح تجاويف الموج Hollows of the waves وهو مصطلح خاص بركوب الأمواج، ومثل الكثير من المواقف التى تصور صعوبة فى مواجهة عاصفة، أو أجزاء المركب المختلفة.

وأخيرا كانت صعوبة المحافظة على بصمة النثر الجميل الذى يميز لوجوين، وهذا النوع من الصعاب يواجه جميع المترجمين الأدبيين؛ حيث إن الأدب بوجه عام ما هو إلا نحت جديد لغوى يخص كل كاتب وكاتبة، ومحاولة الحفاظ عليه أثناء الترجمة هو من المهام الانتحارية.

إلا أننى لابد أن أعترف أن سباروهوك قد ساعدنى خلال العامين الماضيين تحت وطأة أظن أنها (الكثير) من المتغيرات السياسية والاجتماعية حولنا، كنت أنقلب إلى الترجمة لأجد بعضًا من الحكمة وقليل من الراحة يأتياننى من عالم بعيد، رغم كونه مختلفًا وأجنبيًّا، لكنه بات قريبًا لأنه حقيقى وأخلاقى.

ولابد أن أعترف أن ظل الإنسان الأسود- أى ماضيه وكراهيته وطبعه وغله بفهمهم -الذى يطارده ولا يشفى سوى بفهمه وقبوله قد نَوَرَ لى حياتى الخاصة ورأيت فيه شفاءً عظيمًا لأحزان نضجنا جميعًا .

عزيزى القارئ، أقدم لكم حكاية سباروهوك الساحر الشاب من عالم إيرثسى الخيالى، ساحر من بلاد البر والبحر، حكاية كل منا الواقعية فى عالم خيالى. حكاية الإنسان وظله.

فقـط فى الصمت تـكون الكلمـة

فقط فى الظـلمـة يكـون الـنـور

فقط فى المـوت تـكـون الحـيـاة

براق هـو طـيران الصـقـر

فـى السماء الخـالـيـة

خلـق إيـا





(١) محاربون فى الضباب

تشتهر جزيرة جونت، حيث وُلد بطلنا، بالسحر والسحرة، وجونت هى جزيرة على شكل جبل ترتفع قمته ميلاً فوق البحر الشمالى الشرقى الهائج. يجوب أهلها المدن فى الوديان العالية والموانئ فى الخلجان الكثيرة؛ ليخدموا سادة الأرخبيل(١) كسحرة أو سحرة كبار، أو حتى مغامرين، يجوبون كل جزر إيرثسى، بلاد البر والبحر، جزيرة جزيرة وهم يمارسون السحر.

من كل هؤلاء السحرة يقال إن بطلنا سباروهوك هو الأعظم، وبالطبع هو أعظم الرحالة، ساحر شاب أصبح فى أيام عزه سيدًا للتنانين والساحر

(١) الأرخبيل هو أحد شكال سطح الأرض التى ترمز الى مجموعة متجاورة ومتقاربة من الجزر.

الأكبر، حياته مروية فى كتاب "ملاحم جيد"، وفى أغان كثيرة أخرى، أما حكايته هنا فعن حياته قبل الشهرة وقبل الأغانى والملاحم.

وُلد سباروهوك فى قرية منعزلة اسمها الشجرات العشر، فوق الجبل فى بداية الوادى الشمالى، تنحدر تحت القرية المراعى وأراضى الزراعة، مستوى بعد مستوى باتجاه البحر، أما بقية القرى فتقع على منحنيات نهر آر، ومن فوق القرية نجد الغابات ترتفع تلًا فوق تل حتى القمم الجليدية.

ماتت أمه قبل أن يتم عامه الأول، ولم تعطه مع الحياة سوى اسمه الأول: دانى الذى حمله طفلًا. أما الأب فقد كان حدَّاد القرية، رجلًا عبوسًا قليل الكلام. ولدانى ستة من الإخوة يكبرونه بأعوام عديدة، رحلوا من البيت واحدًا تلو الآخر؛ ليزرعوا الأراضى، أو يبحروا فى البحار، أو يجوبوا البلدان الأخرى فى الوادى الشمالى. وهكذا نشأ الطفل الصغير محرومًا من الحنان.

وكان من الطبيعى أن ينشأ جامحًا مثل الأعشاب البرية، وُلد طويلًا، سريعًا مثل الصاروخ، مغرورًا، صعب الطبع، يرعى الجديان مع عدد من الأطفال الآخرين على المروج المنحدرة فوق النهر، لكن عندما أصبح قويًا بشكل كاف ليدفع ويجذب منفاخ الحداد، اتخذ منه والده صبيًا، وأشبعه الكثير من الضرب والسياط.

لم يكن سباروهوك نافعًا من وجهة نظر الجميع، كان يجول بعيدًا فى قلب الغابة، أو يسبح فى نهر آر البارد السريع، أو يتسلق جرفًا أو منحدرًا ليصل للمرتفعات فوق الغابة، فيرى البحر والمحيط الشمالى الواسع؛ حيث لا توجد أية جزر بعد جزيرة بيريجال.

فى القرية نفسها عاشت خالته التى اعتنت به وهو رضيع، لكنها تركته أول ما استطاع أن يعتمد على نفسه لتتفرغ لعملها الخاص. وفى يوم وحين كان الولد فى السابعة من عمره، جاهلاً بكل المهارات وقوى الكون، سمع خالته هذه تقول كلمات لأحد الجديان كان قد قفز على سقف أحد الأكواخ رافضًا النزول، فحضر على الفور قفزًا. ولهذا، وفى اليوم التالى حين كان دانى يرعى الجديان فوق مراعى الشلال العظيم، أخذ يردد الكلمات نفسها التى سمعها بالأمس من خالته عاليًا، دون أن يعرف شيئًا عن معناها أو نوعها:

نورث هيرث مالكمان

هويلك هان ميرثهان

أطاعته الجديان على الفور، وحضرت دون صوت وهم يرقبونه بعيونهم الصغيرة الصفراء. ضحك الولد، وأعاد الكلام نفسه مرة أخرى، فإذا بالجديان تقترب أكثر وأكثر وتتزاحم حوله. ملأ الخوف دانى من الجديان بقرونها السميكة المدببة وعيونها الغريبة وسكوتها المخيف. وعندما حاول أن يتحرر منهم ويهرب جرت معه الجديان، وهى تحكم حوله الخناق. وأخيرًا هبطوا جميعًا على القرية، دانى فى المنتصف والجديان من حوله كأنهم مربوطون كلهم بحبل، والولد يبكى ويصيح، والقرويُّون يخرجون من أبواب بيوتهم ضاحكين على المنظر، إلا خالة الولد التى لم تضحك، بل قالت بضع كلمات للجديان جعلتها تغثو وترعى وتتجول متحررة من التعويذة.

– فقالت الخالة للولد: "تعال معى".

أخذته فى كوخها حيث كانت تعيش وحدها، ويخشى الأطفال الاقتراب منها.

كان الكوخ منخفضًا ومعتمًا، بدون نوافذ، يفوح برائحة الأعشاب التى تدلت لتجف من قضبان من السقف، نعناع ومولى وزعتر وألفية ومشقوقة القدم وحشيشة الدود وإكليل الغار وغيرها. هناك جلست الخالة متربعة بجانب حفرة نار، ونظرت للولد نظرة جانبية من خلال خصلات شعرها الأسود، وسألته عما قاله للجديان، وإن كان يعرف تلك الكلمات أم لا. وعندما تأكدت أنه لا يعرف شيئًا، ولكنه سَحَرَ الحيوانات، وجعلها تأتى إليه وتتبعه، عرفت أن بالولد قدرات سحرية خاصة.

لم يكن الولد مهمًا لخالته من قبل، لكن الأمر اختلف الآن، فقد أصبحت تراه بشكل جديد، فبدأت تمدحه وتعده أنها ستخبره بتعويذات جديدة، مثل التعويذة التى تجعل الحلزون يخرج رأسه من قوقعته، أو التعويذة التى تجلب الصقر من السماء.

– "نعم، نعم، علمينى كل هذا". هكذا رد عليها الولد بعد أن تخلص من خوفه من الجديان، وامتلأ بالرضا من مديحها له.

– "ولكنك لن تخبر أصحابك بأى من هذا؟"

– "أعدك بهذا."

ابتسمت الساحرة أمام جهله الواضح: "عظيم عظيم، ولكننى سوف أتأكد من وعدك لى؛ سأربط لسانك فلا تستطيع نطق التعويذات، حتى أختار أن أفك عقدته، وحتى ذلك الوقت، وحتى عندما تتكلم، لن تستطيع أن تنطق ما سأعلمك، بينما هناك حولك من يسمعك، لا بد من التكتم على أسرار صنعتنا."

– فرد قائلًا: "حسنًا". الحق أنه لم يكن لديه أية رغبة فى مشاركة أصحابه فى أسراره، فهو يحب أن يعمل ويعرف ما لا يستطيعون.

جلس دانى ساكنًا بينما عقدت له خالته شعره المنكوش، وربطت له حزام ردائه، ثم جلست متربعةً مرة أخرى، وهى تلقي بأوراق الأشجار في حفرة النار، حتى ارتفع الدخان، وملأ الظلام الغرفة. ثم بدأت تنشد، كانت نبراتها تتغير أحيانًا لمنخفضة أو مرتفعة، كما لو كان هناك صوت آخر يغنى من خلالها، واستمر الغناء واستمر، حتى لم يعد الصبى يدرى أمستيقظ هو أم نائم. وطوال هذا الوقت يجلس كلب الساحرة الأسود العجوز، الذى لا ينبح أبدًا بجانبه، وينظر إليه بعينيه الحمراوين من تأثير الدخان. وأخيرًا تحدثت الساحرة لدانى بلسان غريب، وجعلته ينشد معها حتى أثَّرت فيه التعويذة وقيدته ساكنًا.

– فأمرته الساحرة قائلة: "تكلم".

لم يستطع الولد الكلام، ولكنه ضحك.

خافت الخالة من قوته، فقد كانت هذه أقوى تعويذة تعرفها. وحاولت بها أن تسيطر على كلامه وصمته، وأن تقيده لخدمتها فى حرفة السحر فى الوقت نفسه. ولكن رغم أن التعويذة أسكتت لسانه إلا أنه ضحك! لم تقل الساحرة شيئًا بعدها، وإنما ألقت بالماء النظيف على النار حتى انقشع كل الدخان، وأعطت بعضًا منه للصبى. وعندما صفا الهواء مرة أخرى، واستطاع سباروهوك أن يتكلم ثانيةً، علمته الاسم الحقيقى للصقر، ذلك الاسم الذى لا بد أن يطيعه الصقر(٢).

---

(٢) الاسم الحقيقى للأشياء أو الأشخاص في الرواية هو الجوهر، الذي يمكن من خلاله إحداث السحر أو التأثير فى أى شىء أو السيطرة الكاملة عليه وحبسه فى ماهيته .

كانت هذه الخطوة الأولى فى مشوارٍ سباروهوك المحتوم، ذلك المشوار الذى سيجد نفسه فيه يومًا يطارد ظلاً فوق الأرض وفوق الماء، حتى السواحل المظلمة من مملكة الموت، لكن فى تلك الخطوات الأولى من الطريق بدا مشرقًا وواسعًا.

عندما وجد الصبى أن الصقور تسرع له من قلب الرياح عندما يستدعيهم بالاسم، مندفعين كالبرق على معصمه يرفرفون بالأجنحة، مثل عاصفة رعدية من طيور الصيد الخاصة بأحد الأمراء، اشتاق إلى معرفة المزيد من هذه الأسماء، وحضر إلى خالته متوسلاً أن يتعلم الأسماء الحقيقية لطيور الميسان والعقاب والنسر. وحتى يحظى بكلمات القوة هذه، انصاع لكل أوامر خالته فى عمل ما تطلبه منه، وتعلم منها كل ما عندها لتعلمه رغم أن بعضا من هذا لا يسر أبدًا، لا فى معرفته ولا فى عمله.

هناك مقولة شهيرة فى جونت: "ضعيف ضعف سحر المرأة، أو حقير مثل سحر المرأة". ورغم أن ساحرة قرية الشجرات العشر لم تكن مشعوذة سحر أسود، ولا حاولت أبدًا العبث مع الفنون الرفيعة المتصلة بقوى الكون العتيقة، لكن لأنها امرأة جاهلة وسط قوم جهلة، كانت تستخدم مهاراتها لأغراض حمقاء ومريبة. لم تكن تعرف أى شىء عن التوازن والنسق اللذين يعرفهما، ويعمل لهما الساحر الحقيقى، واللذين يمنعانه من استخدام تعويذاته إلا عند الضرورة القصوى. ولهذا فقد كان لساحرتنا تعويذة لكل مناسبة، رغم أن معظم ما تعرفه مجرد هراء ودجل، ولا تستطيع أن تفرق بين التعاويذ الجيدة والزائفة. ولكن الأكيد أنها تعرف العديد من اللعنات، وتبرَع فى التسبب فى الأمراض أكثر من علاجها. ومثل أى ساحرة قرية كان بإمكانها صنع خليط الحب، وأيضًا خلطات لخدمة أغراض الغيرة والكراهية، ولكنها أخفت كل هذه الممارسات المريبة عن دانى، وحاولت أن تعلمه الحرفة النزيهة للسحر بقدر الإمكان.

فى البداية كانت كل متع الصبى فى السحر طفولية، مثل القوة التى مارسها فوق الطيور والحيوانات، ومعرفته بهذا أو ذاك. والحق أن هذه المتعة استمرت معه بقية حياته، ولهذا، ولأنه كان دائم الوجود فى المراعى العالية مع الطيور الجارحة من حوله، أطلق عليه الأطفال اسم: الميسان أو سباروهوك، وهو الاسم العُرفى الذى احتفظ به حينما كان اسمه الحقيقى لا يزال سريًّا.

وبينما ظلت خالته الساحرة تكلمه عن المجد والثروات التى يحظى بها الساحر، إلا أنه حدد لنفسه هدفًا: أن يتعلم ما هو نافع، وبسرعة بدأت الساحرة تمدحه، بينما يخافه بقية الأطفال، وهو بينهما فى تمام الثقة أنه فى القريب العاجل سيصبح رجلًا ذا شأن عظيم. لذا انطلق من كلمة لكلمة، ومن تعويذة لأخرى على يد الساحرة، حتى بلغ الثانية عشرة، وقد تعلم الكثير من القليل الذى تعرفه، والذى كان بالقطع كافيًا لساحر فى قرية صغيرة مثل قرية الشجرات العشر، وأكثر من كافٍ لطفل فى الثانية عشرة.

علمته الساحرة كل ما تعرفه عن الأعشاب والعلاج، وكل حِيَلها فى الإيجاد والربط والإصلاح وفك الربط والكشف. أنشدت له ما تعرفه من حكايات المنشدين والمآثر العظمى وكل مفردات الكلام الحقيقى التى تعلمتها يومًا من المشعوذ الذى علمها. ومن محركى الطقس والمحتالين المتجولين الذين يتنقلون من بلدة لأخرى فى الوادى الشمالى والغابة الشرقية، تعلم دانى مختلف الحيل والدعابات وتعويذات الإيهام. كانت إحدى تعويذات الإيهام هذه هى أول ما أظهر قوته السحرية للناس.

فى هذه الأيام كانت إمبراطورية كارجاد، وهى التى تشغل الأراضى الواقعة ما بين الطرف الشمالى والشرقى: كاريجو-آت وهور-آت-هور

وأتينينى، إمبراطورية قوية، يتكلم سكانها من الهمج الوحشيين لغة غريبة عن أية جزيرة أخرى، كانوا بِيض البشرة، شقرًا، يعشقون الدم والدمار. فى العام السابق هاجموا جزر الترويكلز وجزيرة تورهيفين القوية فى أساطيل قوية من سفن ذات صوارِ حمراء، ووصلت هذه الأخبار إلى جزيرة جونت التى انشغل أهلها فى القرصنة، ونسوا مصائب الآخرين. ثم أسقط الكارجيون جزيرة سبيفى ونهبوها ودمروها واستعبدوا أهلها؛ لتظل حتى الآن جزيرة خربة.

وتلهفًا للمزيد من السلب والنهب أبحر الكارجيون فى حشود ضخمة من سفن طويلة باتجاه الميناء الشرقى لجونت. غزوا هذه المدينة وأخذوها وأحرقوها، تاركين سفنهم عند مصب نهر آر، ثم صعدوا إلى الوادى محطمين وناهبين وذابحين الماشية والناس. ثم تفرقوا إلى مجموعات، وانطلقت كل مجموعة على هواها. ورغم أن الفارين حذروا القرى والبلدان فى المرتفعات، لكن أهل القرية رأوا دخان الحرائق يتصاعد، يُظلم السماء من الشرق، ويصبغ الوادى الغائم باللون الأحمر من كثرة الحرائق التى اشتعلت فى الحقول والبساتين. هناك احترقت الفاكهة على الفروع، وغطى الدمار الإسطبلات والمزارع.

بعد ذلك هرب البعض من الوديان، واختبئوا فى الغابة، ووقف البعض مدافعًا عن حياته، وتفرغ البعض للعويل ممن هربوا، كانت الساحرة التى اختبأت فى كهف بعيد، وأغلقت فتحة الكهف بالتعاويذ. أما والد دانى الحداد فقد بقى لأنه لم يكن ليهرع بعيدًا عن مكانه الذى قد عمل به خمسين عامًا. ظل يعمل هو وآخرون طوال الليل على صك الحديد الموجود عنده؛ لتحويله

إلى حراب مدببة، وتطويع سنان الحراب فى مجارف، فلم يكن هناك متسع من الوقت لصنع رماح حقيقية. كانت القرية خالية من الأسلحة، فيما عدا أقواس الصيد والسكاكين الصغيرة؛ لأن الجونتيين لا يشتهرون بكونهم محاربين، بل هم لصوص جديان وقراصنة بحار وسحرة.

مع شروق الشمس حطَّ ضباب كثيف على المرتفعات، كما يحدث فى الكثير من الصباحات الخريفية. ووقف القرويون بين أكواخهم وبيوتهم فى الشوارع المزدحمة، ينتظرون قدوم الكارجيين بأقواسهم ورماحهم الجديدة، دون أن يعرفوا إن كان الكارجيون بعيدين أم قريبين. كانوا جميعا صامتين، وهم يمعنون النظر فى الضباب الذى يخفى الأشكال والمسافات والخطر عن أعينهم.



كيميش
كوموتومي
A Scale of Miles
سورت
أنواس الشمالية
أنواس الجنوبية
الاليونولس
N
W
E
S
الأندرادز
أراضي الكارجاد
أورانيا
أوراتدراد
بيريكال
جونت
كمبير
البحر
الجوتني
سبيفي
كاريجوآت
أتوان
أتيهي
تورهيفين
التوركليز
واي
أوتراد
الييلي
سانينس
فيميش
فينواي
يور
إيفيش
إسيلي
توك
تولي البعيدة

عمل دانى طوال الليل معهم، يدفع ويجذب فى ذراعى منفاخ الحداد، اللذين يغذيان النار بنفحات الهواء. تخدلت يداه من التعب، حتى إنه لم يستطع حمل الرمح الذى اختاره. حاول أن يفهم كيف يمكنه أن يكون ذا نفع لنفسه وأهله وهو بهذا الضعف. شعر بغليان فى صدره، وهو يتصور أنه سيموت طفلًا مرشوقًا بحربة أحد الكارجيين، ويذهب إلى الأرض المظلمة دون أن يعرف اسمه الحقيقى. نظر إلى ذراعيه النحيفتين المبللتين بالندى البارد، واستشاط غضبًا من ضعفه البدنى الذى يعرفه جيدًا. كان يعلم أن ثمة قوة بداخله دون أن يفهم كيف يستخدمها. فتش فى كل التعويذات التى يعرفها بحثًا عن وسيلة تعطيه هو وقومه أية ميزة أو فرصة أمام الأعداء، ولكن لا تتحرر القوى الدفينة داخلنا بالحاجة لها وحدها، وإنما تظل المعرفة هى المفتاح.

كان الضباب يذوب تحت تأثير حرارة الشمس التى تلمع فوق قمة المرتفعات فى سماء صحوة. وبينما كانت كتل الضباب تتحرك وتتجرف مثل خيوط من الدخان، رأى القرويون فرقة من المحاربين يصعدون الجبل. كانوا مدرعين بالخوذات البرونزية وواقيات الصدر من الجلد السميك، ودروع من الخشب والبرونز، مدججين بالسيوف والحربة الكارجية الطويلة الشهيرة ذات الريش. وقف الكارجيون على الضفة المنحدرة لنهر آر بحرابهم فى صف يتحرك، ويتفرق على مسافة قريبة، لدرجة أنه كان بالإمكان رؤية وجوههم البيضاء، وسماع لغتهم الغريبة، وهم يصيحون لأحدهم الآخر. كان فى هذه المجموعة ما يقرب من مائة رجل مقابل ثمانية عشر رجلًا وصبيًا فى القرية كلها.

الآن استدعت هذه الأزمة القوة الدفينة بداخل دانى، فعندما رأى الضباب يتبخر ويذوب من أمام الكارجيين بدأت تتراءى له تعويذة قد

تساعده. فقد علمه أحد محركى الطقس فى الوادى بعض التعويذات الخاصة بالجو أملًا فى أن يكسبه صبيًا له. إحدى هذه التعويذات اسمها حياكة الضباب، وهى أن تجمع الضباب كله فى مكان واحد لبعض الوقت. ومن الممكن لشخص خبير أن يشكل هذا الضباب فى صور أشباح مخيفة تستمر بعض الوقت، ثم تذوب. ورغم أن الولد لم يمتلك مثل هذه المهارة لكنه كان ينوى شيئًا آخر، واستطاع تعديل التعويذة لأهدافه الخاصة. لهذا أخذ ينطق بأسماء أماكن وحدود القرية بسرعة وبصوت عالٍ، ثم ألقى بتعويذة الضباب رابطًا بها تعويذة إخفاء، وأخيرًا نطق بالكلمة التى تُشغل كل السحر.

وبينما دانى يقوم بهذا أتى والده من الخلف، وضربه على رأسه، فطرحه أرضًا قائلًا: "اهدأ يا أحمق!، وأغلق فمك الثرثار، واختبئ إذا لم تكن تستطيع أن تحارب".

قام دانى على قدميه، كان باستطاعته أن يسمع الكارجيين الآن فى نهاية القرية مقتربين. كان صوتهم واضحًا، وكذلك صلصلة وصرير عدتهم وعتادهم، ولكنهم كانوا مختفين فى الضباب. كان الضباب قد تكاثف وانغلق على القرية معتمًا الضوء، وطامسًا على المكان حتى يصعب على المرء رؤية أصابع يده أمامه.

قال دانى متجهمًا ورأسه تؤلمه من ضربة أبيه: "لقد أخفتنا جميعًا"، وكانت التعويذة المزدوجة قد استنفدت قوته: "سأحافظ على هذا الضباب أطول فترة ممكنة، فلتستدع الآخرين ليدفعوا بالغزاة إلى الشلال العظيم."

حملق الحداد فى ابنه الذى وقف مثل الشبح فى قلب ذلك الضباب البارد الغريب. احتاج الرجل بعض الوقت ليفهم معنى كلام دانى، ولكن

أول ما أفاق انطلق على الفور ليخبر الآخرين دون أدنى صوت، فهو يعرف كل سُور وزاوية فى البلدة. الآن ومن خلال الضباب الرمادى لمعت شرارة حمراء فى الجو، حينما أشعل الكارجيون النار فى السقف القشِّى لأحد البيوت. ولكنهم لم يقتربوا من البلدة، بل انتظروا على الأطراف فى انتظار انقشاع الضباب عن غنيمتهم المنتظرة.

أرسل الدباغ الذى احترق بيته صبيين من البلدة ليقفزا تحت أنوف الكارجيين يصرخان، ثم يختفيان فى الضباب مثل دخان وسط دخان. فى الوقت نفسه اجتمع الرجال الأكبر سنًّا، وأخذوا يزحفون تحت الأسوار، وينتقلون من بيت إلى بيت وصولاً إلى الجانب الآخر، ممطرين الكارجيين الذين احتشدوا فى مكان واحد بوابل من السهام والرماح. سقط أحدهم يتلوَّى من حربة اخترقت جسده، والباقون أصابتهم السهام، وانتابهم جميعًا الهياج. انطلقوا ليشقوا لهم طريقًا وسط المحاربين الضعفاء، ولكنهم لم يجدوا سوى الضباب يلفهم من كل جانب، ضباب تملؤه الأصوات. تبعوا الأصوات وهم يدفعون بحرابهم العظيمة ذات الريش مختلطة بالدماء فى الضباب. كان الكارجيون الآن يصرخون بعرض الشارع دون أن يعرفوا أنهم قد دخلوا القرية بالفعل، فالبيوت والأكواخ الفارغة كانت تظهر وتختفى فى ثنيات الضباب الرمادى. سبق القرويون الكارجيين بحكم أنهم يعرفون الأرض جيدًا، ولكن بعض من الصبية والعجائز تأخروا وأبطأوا. ثم تعثر بهم الكارجيون، وظلوا يدفعون بحرابهم وبسيوفهم، وهم يطلقون صيحات الحرب وأسماء الإله الأبيض – إخوة آتوان:

"ولوها! آتواه".

توقف بعض الغزاة عندما شعروا أن الأرض صلبة من تحتهم، بينما استمر البعض الآخر وهم يتبعون ما يرونه من القرية الوهمية، والأشكال

الضبابية المتراقصة تهرب من أمامهم، وكأن الضباب قد أصبح حيًّا مع هذه الأشكال المراوغة المضطربة والمتلاشية من كل جانب. طارد مجموعة من الكارجيين أشباح الضباب الهاربة هذه، حتى وصلوا إلى الشلال العظيم عند حافة الجرف الصخرى على نهر "آر"، وهناك تلاشت الأشباح، وذابت فى الهواء، بينما تهاوى من طاردوها من على ارتفاع مائة قدم على البحيرات الضحلة بين الصخور، وهم يصرخون، وهؤلاء الذين لم يسقطوا تسمَّروا واقفين على حافة الجرف، وهم ينصتون السمع فى هذه العتمة. ملأ الرعب قلوب الكارجيين، وبدءوا يبحثون عن بعضهم البعض فى ذلك الضباب الغريب. تجمعوا عند الجبل، بينما كانت الأشباح الضبابية لا تزال ترقص بينهم وحولهم، وأخرى تطعنهم من الخلف بحربة أو سكين، ثم تختفى مرة أخرى.

بدأ الكارجيون فى الجرى عبر المنحدر، وهم يتخبطون صامتين حتى خرجوا من الضباب الرمادى التام، ورأوا النهر والوديان تحت القرية كلها واضحة ولامعة فى ضوء النهار. ثم توقفوا ونظروا للخلف، ليجدوا جدارًا كاملًا من الضباب الرمادى المرتعش عبر الطريق يُخبِّئ كل ما خلفه. ومنه خرج بعض من فلولهم، يندفعون ويتخبطون، وحرابهم الطويلة تتراقص على أكتافهم. لم يجرؤ أى منهم على النظر إلى الوراء من بعدها، بل اندفعوا جميعًا للأسفل خارجين من ذلك المكان المسحور.

على كل الوادى الشمالى أشبع سكان القرى الباقى من هؤلاء الغزاة قتالًا. فقد حشدت المدن على طول الغابة الشرقية رجالها من أوفارك إلى الساحل، وأرسلوهم ضد غزاة جونت، حتى أجبروهم على التقهقر إلى الخلف حتى السواحل؛ حيث وجدوا سفنهم تحترق، واضطروا للحرب وظهورهم للبحر، حتى تم القضاء على آخر رجل منهم، وظلت رمال أرموث بُنِّية من كثرة الدماء حتى حلول المد.

لكن فى ذلك الصباح فى قرية الشجرات العشر، وبأعلى الشلال العظيم ظل الضباب الرمادى الرطب عالقًا لبعض الوقت، ثم اختفى فجأة حين حركته الرياح، وذاب بعيدًا. فى الصباح المشمس العاصف وجد الناس أحد الكارجيين يرقد بشعره الأشقر المنساب، تغطيه الدماء، وهناك يرقد دباغ القرية مقتولاً فى معركته مثل الملك.

كان البيت المحترق لا يزال مشتعلًا. فأسرعوا جميعًا لإطفائه بعد ما انتصروا فى المعركة. لكن فى الشارع، بالقرب من شجر الصنوبر، وقف دانى ابن الحداد وحده سليمًا من أى جرح، وإن كان عاجزًا عن الكلام تائهًا ومذهولاً. كانوا على دراية تامة بما فعله، فقادوه لمنزل أبيه، وأسرعوا لاستدعاء الساحرة لتحضر من كهفها، وتعالج الفتى الذى أنقذ حياتهم وممتلكاتهم. لم يُقتل غير أربعة من القرية، ولم يحترق سوى بيت الدباغ.

لم يكن الصبى مصابًا بأى جرح، ولكنه لا يتكلم ولا ينام ولا يبدو أنه يشعر بهؤلاء الذين يحضرون لرؤيته. لم يكن فى كل تلك النواحى شخص على دراية كافية بالسحر لعلاجه مما أصابه. علقت خالته على الأمر قائلة: "لقد استنفد كل قوته". ولكن لم يكن عندها ما تساعده به.

وبينما رقد الصبى الأسمر مذهولاً كانت حكايته مع الضباب والأشباح تُروى فى كل مكان، كان الناس يتعجبون كيف لهذا الفتى أن ينسج ضبابًا، ويجعل فيه أشباحًا ترعب المحاربين الكارجيين، وتلقى بهم بعيدًا عبر الوادى الشمالى والغابة الشرقية، وحتى ميناء جونت العظيم. لهذا ففى اليوم الخامس بعد مذبحة آرموث، حضر أحد الغرباء إلى القرية رجلٌ ليس بالعجوز ولا بالشاب، يرتدى عباءة طويلة دون غطاء رأس، ويمسك بعصا من البلوط فى مثل طوله تمامًا. لم يأت الرجل من الطريق المعتاد عبر نهر

آر، وإنما خرج من الغابات على الجبل الأعلى. عرف النساء في القرية على الفور أنه ساحر، وعندما أخبرهن بأنه يشفى جميع الأمراض أحضرنه إلى بيت الحداد على الفور.

عندما حضر الرجل إلى دانى صرف كل من حوله إلا والده وخالته، ثم انحنى فوق فرشته حيث يرقد محدقًا فى الظلام، ووضع يده على جبهة الولد، ولمس شفتيه مرة واحدة.

جلس دانى ببطء وهو ينظر حوله، وفي خلال فترة بسيطة تكلم، ثم بدأت القوة والجوع يعودان إليه تدريجيًا. أعطوه قليلا من الطعام والماء ليأكل ويشرب، ثم رقد ثانية، وهو دائم النظر فى وجه الرجل الغريب بعيون سوداء متسائلة.

– قال الحداد للرجل: "لست برجل عادى!"

– "ولا هذا الصبى سيكون رجلًا عاديًا" أجاب الرجل. "حكايته مع الضباب وصلتنى فى مسقط رأسى، رى ألبى. جئت كى أعطيه اسمه إذا لم يكن قد وصل إلى مرحلة الرجولة كما يُقال عنه."

– همست الساحرة فى أذن الحداد: "يا أخى، لا بد أن هذا هو الساحر الكبير فى رى ألبى: أوجيون الصامت، الرجل الذى هدأ البركان."

– "سيدى" قالها الحداد، ولم يكن بالرجل الذى يخاف اسمًا عظيمًا، "ولدى سيبلغ الثالثة عشرة هذا الشهر، ولكننا فكرنا أن نؤجل طقوس رجولته حتى عيد عودة الشمس هذا الشتاء."

– "دعه يتخذ اسمه الحقيقى فى أسرع وقت ممكن" قال الساحر، "لأنه يحتاجه. لدى عمل آخر الآن، ولكننى سأعود فى اليوم الذى تختاره من أجل الصبى. أود أن آخذه معى حين أحضر. سأتخذ منه صبيًا، أو أرتب له أن يتعلم في مدرسة حسَب مواهبه. إن حبس عقل ساحر موهوب بالفطرة خطر عظيم."

كان أوجيون يتكلم بلطف شديد وبثقة بالغة لدرجة أنه حتى الحداد ذى الرأى الصلد وافق فى النهاية.

وفى اليوم الذى أتم فيه الولد عامه الثالث عشر، وكان يومًا من أيام الخريف الأولى الجميلة ولا تزال الأوراق النضرة على الأشجار، عاد أوجيون إلى القرية من مرتحله فى جبل جونت، وبدأت طقوس رجولة دانى. أخذت الساحرة اسم دانى منه ذلك الاسم الذى أعطته له أمه عندما وُلد. ومشى فى ينابيع نهر آر الذى يرتفع بين الصخور تحت المنحدرات العالية. وبينما هو يدخل الماء عبرت بعض السحب على وجه الشمس، وانخفضت الظلال وتداخلت مع ماء البركة من حوله. عبر للناحية الأخرى وهو يرتجف من البرد، ولكنه ظل يمشى ببطء واستقامة كما ينبغى أن يفعل داخل هذا الماء المثلج الحي. وبينما يقترب من الضفة الأخرى مد أوجيون الذي وقف منتظرًا يده، وأمسك بيد الصبى، وهمس فى أذنه باسمه الحقيقى: "جِيد".

لقد تلقى الصبى جِيد اسمه الحقيقى من رجل حكيم فى استخدام القوة.

كان الاحتفال لا يزال مستمرًا، وكل القرويين مبتهجون، وحولهم الكثير من الطعام والشراب، والمنشد فى الوادى يغنى لهم سيرةِ فرسان التنانين، وقتها تحدث الساحر بصوت هادئ إلى جيد قائلا: "تعالَ يا بنى، ودَعْ أهلك واتركهم فى احتفالهم".

أحضر جيد ما عليه إحضاره، سكينًا جيدًا من البرونز صنعها له والده، ومعطفًا من الجلد صنعته له زوجة الدباغ، وعصا خشبية نحتتها له خالته، وقميصًا وبنطالًا كان كل ما يمتلكه. ودَّعَ دانى كل الناس الذى عرفهم يومًا فى هذا العالم، ونظر مرة أخيرة إلى القرية التى بدت متفرقة ومجتمعة هناك تحت المنحدرات وفوق ينابيع الماء. وانطلق مع ولى أمره الجديد عبر الغابات المنحدرة لجزيرة الجبل، ومن خلال أوراق الأشجار وظلال الخريف المشمس.



(٢) الـظل

ل جيد مع أوجيون الساحر الكبير تخيل أنه سيدخله على السحر الغامض القوى. ظن أنه سيفهم فى لحظتها لغة م أوراق الشجر فى الغابة، ويحرك الرياح بكلمته، ويتعلم ـه أى شكل يرغب به. بل ربما يجرى هو ومعلمه كظبيين، أو شى يطيران إلى رى ألبى فوق الجبل على أجنحة الصقور.

كان عكس هذا تمامًا، فى البداية نزلا مشيًا إلى الوادى، مين تدريجيًا إلى الجنوب حول الجبل تستضيفهما القرى لطريق، أو يقضيان الليالى فى العراء مثل مشعونين، أو و عمالًا، أو شحاذين. خلا الأمر من أى سحر حتى عصا

أوجيون البلوطية، تلك التى كان جيد يخشاها، لم تكن سوى عصا متينة يتكئ عليها. ثلاثة أيام مرت، أربعة أيام مرت وأوجيون لم يتفوه بأى كلمة سحرية فى أذن جيد، ولم يعلمه اسمًا واحدًا ولا حرفًا من "اللغةِ الرونية"، ولا حتى تعويذة واحدة.

وعلى الرغم من أن أوجيون كان رجلًا صموتًا، لكنه كان لطيفًا وهادئًا، لدرجة أن جِيد لم يعد يرهبه، وفى فترة وجيزة تجرأ وسأله: "متى يبدأ تدريبى فى السحر، سيدى؟"

– "لقد بدأ بالفعل". أجاب أوجيون.

ساد صمتٌ كبير بينهما، وكأن جيد يُخفى شيئًا ما داخله لا يقوله، ثم قاله أخيرًا: "ولكننى لم أتعلم أى شىء!"

– "لأنك لم تكتشف ما أعلمه بعد". أجاب الساحر، وهو يمشى مشيته الثابتة الواسعة فى طريقهما العالى ما بين أوفارك ووِس.

كان أوجيون رجلًا أسمر اللون مثل معظم الجونتيين فى سمرة النحاس البنى، فضى الشعر أعجف وصلب العود مثل كلاب الصيد، لا يكلّ ولا يمَلّ، ونادرًا ما يتكلم، قليل الأكل والنوم. ثاقب العين والأذن، وفوق كل هذا كانت هناك تلك النظرة الصاغية على وجهه دائمًا.

لم يردّ جيد، ليس من السهل أبدًا أن ترد على ساحر.

– "هل تريد أن تلقى تعويذات إذن؟ أردف أوجيون وهو يحث السير، "لقد شربت من بئر التعويذات أكثر مما ينبغى، صبرًا يا بنى، الرجولة صبر، والمهارة تحتاج إلى تسعة أضعاف هذا الصبر. ما هذا العشب فى الممر؟"

– "زهرة القش."

– "وهذا؟"

– "لا أعلم."

– يسمونه فورفويل (زهرة الأوراق الأربع). أشار أوجيون بقاعدة عصاه النحاسية إلى العشبة الصغيرة، لذا نظر جيد بإمعان اليها، واقتلع جراب الحبوب الخاص بها، وبما أن أوجيون لم ينطق بشىء آخر سأله جيد: "ما استخدام هذا النبات يا مُعلم؟"

– "لا أعرف."

احتفظ جيد بجراب الحبوب بعض الشىء فى يده، وهما يمشيان، ثم ألقى به بعيدًا.

"حين تتعرف على نبات الفورفويل فى كل مواسمه، وتميزه بالجذر والورقة والزهرة، بالنظر وبالرائحة يمكنك وقتها أن تعرف اسمه الحقيقى، فقد عرفت جوهره، وهذا أفضل من معرفة فائدته. فماذا إذن عن فائدتك أنت؟ أو فائدتى أنا؟ هل جبل جونت مفيد؟ ما فائدة البحر المفتوح؟ ظل أوجيون يمشى حوالى نصف ميل هكذا، ثم أخيرًا قال: "على المرء أن يصمت ليسمع."

عبَس الولد ،فهو يكره أن يبدو غبيًا، لكنه كتم استياءه ولهفته بداخله، وحاول أن يكون مطيعًا حتى يوافق أوجيون فى النهاية أن يعلمه شيئًا من السحر؛ لأنه يشتهى التعلم واكتساب القوة. ولكن مع مرور الوقت ملأه الملل، وشعر أن بإمكانه أن يتعلم أكثر لو مشى مع أى جامع للأعشاب، أو مشعوذ فى قرية. وبينما يمشيان حول الجبل باتجاه الجنوب داخل الغابات

البعيدة بعد وِس أخذ يتساءل عن سر عظمة ذلك الساحر الكبير أوجيون. كيف يكون أوجيون ساحرًا كبيرًا وهو إذا ما أمطرت الدنيا لا يلقى بتعويذة لترسل بالعاصفة بعيدًا، تلك التعويذة التى يعرفها أى محرك للطقس؟ ففى أرض تمتلئ بالمشعوذين مثل جونت أو إنلاندز فمن الطبيعى أن ترى سحابة ممطرة تنتقل ببطء من جانب إلى آخر، ومكان إلى مكان تبعدها التعويذات من هنا وهناك، حتى تلقى بحمولتها بعيدًا فوق البحر لتمطر فى سلام. لكن أوجيون الساحر كان يترك المطر ليتساقط فى أى مكان. ولهذا حين أمطرت بحث أوجيون عن شجرة ونام تحتها، أما جيد فقد تكوَّم تحت الشجرة نفسها، والماء يتقاطر منها وهو مبلل ومتضايق، حيرته تلك القوة التى تجعلك حكيمًا فلا تستخدمها، وتمنى وقتها لو عمل صبيًّا لمحرك الطقس فى فال، فعلى الأقل كان سينام جافًا. ولكنه لم يتفوَّه بأى من أفكاره هذه، لم ينطق بكلمة واحدة، بينما ابتسم أستاذه، ونام فى قلب المطر.

وفى طريقهما إلى سانريتورن بدأت الثلوج الثقيلة الأولى فى التساقط على المرتفعات فى جونت، وصل أوجيون وجيد إلى رى ألبى مسقط رأس أوجيون. بلدة على حافة الصخور العالية لأوفرفيل، واسمها معناه (عش النسر)، ومنها يستطيع المرء أن يرى ميناء جونت العميق، وأبراجه والسفن الداخلة والخارجة من البوابة. وإلى الغرب عبر البحر يستطيع المرء أن يتبين الأبراج الزرقاء لأورانيا، فى أقصى الشرق من إنوارد أيلاندز.

وعلى الرغم من أن بيت أوجيون الساحر كان واسعًا، ومبنيًا بعناية من الخشب، وبه مدفأة ومدخنة، وليس مجرد حفرة نار، وإنه كان بسيطًا مثل أكواخ قرية الشجرات العشر، غرفة واحدة، وبها حظيرة للجديان فى أحد الجوانب. كان هناك تجويف فى الحائط لينام فيه جيد، وفوقه نافذة تطل على البحر، ولكن مصاريعها لا بد أن تظل مغلقة طوال الشتاء؛ بسبب الرياح

القوية التى تهب من الغرب والشمال. قضى جيد هذا الشتاء فى الدفء المظلم لهذا البيت، وهو يستمع إلى هطول المطر أو اندفاع الرياح، أو إلى صوت هطول الثلج، ويتعلم أن يقرأ ويكتب بالستمائة حرف رونى من اللغة الهاردية. كان سعيدًا أنه بهذا يتعلم سر المهنة، فبدون هذه اللغة الهاردية لن يفيد تعلم أية تعاويذ أو أسحار، ولن يكون له أية قوة أو سلطان. ورغم أن اللغة الهاردية للأرخبيل لم يكن لها أى قوة سحرية خاصة فوق بقية لغات البشر، فإن جذورها كانت تمتد إلى اللغة القديمة، لغة الأسماء الحقيقية، ولتفهم هذه اللغة لا بد أن تبدأ بالحروف الرونية التى كُتبت حين ارتفعت جزر العالم لأول مرة فوق البحر، عند خلق إيرثسى.

ومع هذا لم يحدث أى شىء، لا أعاجيب ولا أسحار. لم يكن هناك طوال الشتاء سوى صوت تقليب الصفحات الثقيلة لكتاب الرونية، والمطر وهطول الثلج، وأوجويون يأتى بعد تجواله فى الغابات الثلجية، أو بعد رعاية جديانه، يضرب بقدميه الأرض لينفض الثلج، ويجلس فى هدوء قبالة النار. وتمتلئ الغرفة وعقل جيد معًا بصمت الساحر الطويل المنصت، حتى إن جيد قد نسى صوت الكلمات، وإذا ما تحدث أوجيون أخيرًا فكأنه قد اخترع الحديث توًا. فما يقوله حينها لا يكون بالأمر المهم، فقط يتحدث عن أشياء بسيطة مثل : الخبز والماء والطقس والنوم.

وعندما أتى الربيع سريعًا ومشرقًا، كان أوجيون يرسل جيد إلى المروج فوق رى ألبى، ويخبره أن يمكث كما يحب لجمع الأعشاب، وأن يأخذ حريته التامة فى قضاء اليوم متجولا عند جداول المياه، وفى الغابات، وفوق الحقول الخضراء الندية المشمسة.

كان جيد يسعد بالذهاب كل مرة، ويقضى الوقت هناك حتى الليل، ولكنه لا ينسى الأعشاب أبدًا. كانت عينه عليها دائمًا، وهو يصعد ويتجول ويخوض ويكتشف، ودائمًا ما يحضر بعضها معه وهو عائد.

فى يوم جاء إلى مرج بين غديرين؛ حيث تنمو زهرة الهالو البيضاء بكثافة، ولأن هذه الزهور نادرة وذات قيمة كبيرة عند المعالجين، فقد جاء خصيصًا لها فى اليوم التالى. لكن كان هناك من سبقه إلى المكان، ابنة لورد رى ألبى العجوز، عرفها على الفور، رغم أنه لم يكن ليتحدث إليها من تلقاء نفسه، ولكنها اقتربت وألقت عليه التحية بلطف: "أعرف من أنت، أنت سباروهوك، الطالب النجيب لأوجيون الساحر، حدثنى عن السحر من فضلك."

أخذ جيد يتطلع إلى الزهور البيضاء التى أخذت تداعب أطراف تنورتها البيضاء. فى البداية شعر بالحرج من أن يحادثها، وبالكاد كان يفتح فمه ليجيب عن أسئلتها. ولكن مع استمرارها فى الحديث بالطريقة نفسها المنطلقة غير المبالية والواثقة، تحرر من الخجل شيئًا فشيئًا. كانت فتاة طويلة تقريبًا من سنه نفسه، شاحبة اللون، بيضاء البشرة. يقولون فى القرية إن أمها من أرضٍ غريبة. شعرها الطويل متهدل مثل شلال من المياه السوداء، ورغم أن جيد وجدها قبيحة جدًّا لكنه رأى بنفسه رغبة قوية فى إرضائها، وكسب إعجابها. رغبة كانت تنمو كلما مشى معها. جعلته الفتاة يخبرها عن كل حكايته مع حيل الضباب التى هزمت المحاربين الكارجيين، مظهرةً له الدهشة والإعجاب دون مديح. وبسرعة غيرت دفة الحديث إلى سؤال آخر:

"هل تستطيع أن تستدعى الطيور والوحوش؟"

- فرد قائلًا: "أستطيع."

كان يعلم بوجود عش للصقور فى المنحدرات فوق المرج، استدعى الصقر باسمه فجاء، لكنه بالطبع لم يحط على رسغه بسبب وجود الفتاة. صرخ وضرب الهواء بجناحيه الواسعين المخططين، ثم اعتلى الهواء مرة أخرى.

– "ماذا تسمى هذا النوع من السحر، ذلك الذى جعل الصقر يأتى؟"

– "تعويذة إحضار."

– "هل تستدعى أرواح الموتى أيضًا؟"

ظن أنها تسخر منه بهذا السؤال؛ لأن الصقر لم يطع أوامره تمامًا أمامها. ولكنه لم يكن ليدعها تسخر منه، فقال لها بصوت هادئ: "أستطيع إذا أردت هذا."

– "أليس من بالغ الصعوبة والخطورة أن تستدعى روحًا؟"

– "صعب، نعم. لكن خطير!" قال وهو يهز كتفيه. من عينيها أدرك أنها بدأت تُعجب به الآن.

– "هل تستطيع أن تلقى تعويذة حب؟"

– "وهل هذه مهارة؟"

– "صحيح! أى ساحرة يمكنها أن تفعل هذا. حسنًا، هل تستطيع إذن أن تلقى تعويذات تحوُّل؟ هل تغير شكلك كما يقال إن السحرة يفعلون؟"

شك جِيد فى أنها تسأله تهكمًا، وللمرة الثانية أجاب "أستطيع إذا أردت".

فبدأت تلح عليه أن يحوِّل نفسه إلى أى شكل يريده: نسر، ثور، شجرة. أبعدها عنه ببعض كلمات سرية من التى يستخدمها أستاذه، ولكنه لم يستطع التملص منها نهائيًّا عندما ألحت عليه. الحق أنه لم يعرف إن كان قادرًا على فعل ما يزعم. تركها زاعمًا أن أستاذه ينتظره فى البيت، ولم يأت إلى المرج فى اليوم التالى. ولكن فى اليوم الذى تلاه جاء إلى المرج ثانية،

وهو يقنع نفسه أن عليه إحضار المزيد من الزهور بينما هى يانعة. فى المرج وجدها هناك، ومعًا خاضا فى النجيل وهما يقطفان زهور الهالو البيضاء الثقيلة. كانت شمس الربيع ساطعة، والبنت تكلمه بمرح مثل أى فتاة ترعى الجديان فى قريته. سألته مرة أخرى عن السحر، وأنصتت له مفتوحة العينين مندهشة بكل ما قاله لها، فوجد نفسه مدفوعًا للتفاخر أمامها مرة أخرى. ثم سألته إن كان يستطيع أن يلقى تعويذة تحول، وعندما صدها نظرت إليه وهى ترجع شعرها الأسود إلى الوراء: "هل أنت خائف؟"

- "لا، لستُ خائفًا."

ابتسمت بتهكم وقالت: "ربما أنت أصغر من هذا."

لم يكن ليتحمل هذا، لم يتكلم كثيرًا، ولكنه قرر أن يثبت نفسه أمامها، طلب منها أن تأتى إلى المرج مرة أخرى فى اليوم التالى إذا أرادت، وتركها عائدًا للبيت، بينما كان أوجيون بالخارج. ذهب إلى رف الكتب مباشرةً، وأخرج الكتابين التقليديين للسحر اللذين لم يفتحهما أوجيون أبدًا فى وجوده.

بحث فى الكتاب عن تعويذة للتحول، لكن لأنه كان بطيئًا فى قراءة الرونية، ولم يفهم سوى أقل القليل، لم يجد ما يبحث عنه. كانت الكتب قديمة جدًا، ورثها أوجيون عن معلمه هيليث فريزر، وورثهما هيليث من معلمه ساحر بريجال، وهكذا وصولًا إلى زمن الأساطير. كانت الحروف صغيرة وغريبة، ويوجد الكثير مما هو مكتوب فوق السطور، وما بين السطور بأياد كثيرة أصبحت ترابًا الآن. لكنه فهم شيئًا من هنا، وشيئًا من هناك، وبينما كانت أسئلة الفتاة واستهزاؤها به تطنُّ فى أذنه، توقف أمام صفحة تعويذة تحضير لأرواح الموتى.

وبينما هو يقرأ ويفك بصعوبة بالغة طلاسم اللغة الرونية ورموزها واحدًا تلو الآخر، تسمرت عيناه ولم يرفعهما إلا بعد أن قرأ كل التعويذة. رفع عينيه من على التعويذة أخيرًا ليجد المنزل مظلمًا. العجيب أنه كان يقرأ دون أى ضوء فى الظلام. لكن عندما نظر ثانية للكتاب لم يستطع أن يتبين الحروف مرة أخرى. ملأه الرعب، وبدا كما لو كان قد قُيد فى كرسيه. شعر ببرد شديد، ونظر خلفه ليرى شيئًا ما يزحف بجانب الباب المغلق، رأى كتلة غير محددة أكثر ظلامًا من الظلام ذاته. كانت تزحف تجاهه، وتهمس له، لكنه لم يفهم الكلمات.

وهنا انفتح الباب بعنف، ودخل رجل محاط بهالة بيضاء، كانت له قامة كبيرة مضيئة، وحين علا صوته فجأة، تبدد الظلام وسكت الهمس فور ظهوره.

ذهب الرعب أخيرًا عن جيد، ولكن اعتراه خوف آخر؛ لأن من يقف هناك عند عتبة الباب كان الساحر أوجيون بنفسه، وكل ما حوله يلمع حتى العصا فى يده تشتعل بضوء أبيض براق.

ودون أن ينطق بكلمة تجاوز الساحر جيد، وأشعل المصباح من خلفه، وطوى الكتب بعيدًا على الرف. ثم استدار للولد وقال: "لن تتمكن من إلقاء هذه التعويذة سوى فى عنفوان شبابك وقوتك، هل فتحت الكتب من أجل هذه التعويذة؟"

- "لا يا أستاذ." تمتم الولد، ثم حكى لأوجيون ما حدث، وما الذى كان يسعى له، ولماذا.

- "ألا تتذكر ما قلتُه لك عن أم هذه البنت، زوجة اللورد، وأنها ساحرة؟"

بالفعل قال أوجيون هذا، لكن جيد لم يُعره أى انتباه، إلا أنه عرف الآن أن أوجيون لا يقول شيئًا إلا وهو يعنيه تمامًا.

"البنت نفسها هى نصف ساحرة بالفعل، ربما تكون الأم هى من أرسلتها لك، وقد تكون هى من فتحت لك هذه الصفحة بالتحديد لتقرأها. إن القوى التى تخدمها هذه الساحرة ليست هى القوى نفسها التى أخدمها. لا أعرف ما نِيتها، ولكنى أعلم أنها لا تنوى خيرًا. اسمعنى الآن يا جِيد، هل فكرت يومًا فى المخاطر التى تحيط بأى قوة مثلما يحيط الظل بالنور؟ ليس السحر لعبة نلعبها للمتعة أو المديح. فكر فى هذا: كل كلمة وكل تصرف فى السحر هو إما للخير أو للشر. قبل أن تتكلم أو تفعل شيئًا عليك أن تعرف ما الثمن الذى ستدفعه!"

رد جيد، والخجل والخزى يكويان قلبه: "كيف سأعرف هذه الأشياء، وأنت لا تعلمنى أى شىء؟ منذ عشت معك، وأنا لم أرَ أو أفعل شيئًا."

– "الآن قد رأيت شيئًا... عند الباب، فى الظلام، عندما دخلت".

سكت جيد.

انحنى أوجيون، وأوقد نارًا على المدفأة، فقد كان البيت باردًا. ثم قال وهو لا يزال محنيًا بصوته الهادئ: "جيد، يا صقرى الصغير، لست ملزمًا بخدمتى أو البقاء معى. لم تأت أنت لى، بل أتيتُ أنا لك. لا تزال أصغر من أن تختار، ولن أختار لك. لو أردت سأرسلك إلى جزيرة روك لتتعلم كل الفنون العليا للسحر. هناك ستعرف كل ما ترغب فى تعلمه؛ لأن قوتك عظيمة، أعظم حتى من غرورك كما أرجو. أستطيع أن أبقيك معى، فما لدى هو بالضبط ما ينقصك، ولكننى لن أبقيك رغمًا عنك. الآن اختر ما بينى وما بين مدرسة السحر، ما بين رى ألبى وروك.

وَجم جيد وشعر بالخوف، وجد فى قلبه أنه بدأ يحب هذا الرجل أوجيون الذى شفاه يومًا بلمسة واحدة، ذلك الرجل الذى يخلو من الغضب. يبدو أنه قد أحبه دون أن يدرك هذا قبل الآن. نظر على العصا البلوطية المسنودة على زاوية المدخنة، وهو يتذكر بريقها الذى طرد الشر من الظلامِ حوله. فى هذه اللحظة تمنى أن يبقى مع أوجيون، وأن يتجول معه طويلًا وبعيدًا، وأن يتعلم كيف يصمت. ومع هذا فبداخله كانت رغبات أخرى لا تنطفئ، رغبة فى المجد ورغبة فى الفعل. أدرك جيد أن اتباع طريق أوجويون نحو التمكن والبراعة فى السحر هو مثل السير فى طريق بطىء وطويل، بينما من الأسهل أن يبحر مع رياح البحار مباشرة إلى البحر المخفى، إلى جزيرةٍ الحكمة التى يلمع هواؤها بالأسحار، ويمشى الساحر الأكبر فيها محاطًا بالمعجزات.

"أستاذى، سأذهب إلى روك."

بعد عدة أيام، وفى يوم مشمس من أيام الربيع، مشى أوجيون بجانب جيد على الطريق المنحدر فى أوفرفيل على مسافة خمسة عشر ميلًا من ميناء جونت العظيم. هناك عند البوابة بين تماثيل التنانين المنحوتة انحنى حراس مدينة جونت كلهم، وسيوفهم خارج أغمادها احترامًا عند رؤية الساحر الكبير بأمر من الأمير، ومن تلقاء أنفسهم؛ لأن أوجيون قد أنقذ جونت منذ عشر سنوات من الزلزال الذى كاد أن يسوى أبراج الأغنياء بالأرض، ويغلق قناة المياه بالانهيارات الجليدية. ما فعله أوجيون وقتها هو أنه تحدث إلى جبل جونت وهدأه، وروَّض جَرف الأوفرفيل المرتعش مثلما يروض الوحش. كان جيد قد سمع هذا الكلام من قبل، ولكنه تذكره الآن ثانيةً، وهو يرى الحرَّاس ينحنون لمعلمه الهادئ. نظر برهبة على ذلك الرجل الذى أوقف الزلزال، ولكن وجه أوجيون ظل هادئًا كالعادة.

انطلقا إلى رصيف الميناء، وهناك جاء ضابط الميناء مسرعًا ليرحب بأوجيون، ويسأله كيف يخدمه. وعندما أبلغه الساحر بما يريد أخبره الضابط باسم السفينة المبحرة إلى البحر المخفى، والتى يستطيع جيد أن يركبها إما بوصفه راكبًا عاديًا، أو كما قال الضابط: "بوصفه مُحركًا للرياح لو يمتلك تلك المهارة، فليس لدى المركب مُحرِّك للطقس".

ردَّ أوجيون وهو يربت على جيد بخفة: "هو ماهر بعض الشىء مع الضباب، ولكنه لا يفهم شيئًا فى رياح البحر." ثم وجه كلامه لجيد: "لا تحاول أيًا من الألاعيب مع رياح البحر يا سباروهوك، ما زلت كائنًا بريًا. يا ضابط الميناء، ما اسم السفينة؟"

– "الشبح، ستذهب إلى ميناء هورت محملة بالفراء والعاج، سفينة ممتازة يا سيد أوجيون."

تغير وجه الساحر عند سماع اسم السفينة، ولكنه قال: "حسنًا سباروهوك. أعطِ هذا الخطاب إلى عميد مدرسة روك، وانطلق يصاحبك الجو الجميل، معَ السلامة."

كان هذا هو كل وداعهما، ثم استدار الساحر مبتعدًا، وهرول بعيدًا عن الرصيف. وقف جيد قليلًا وهو ينظر على أستاذه، وأفاق على صوت ضابط الميناء: "تعال يا فتى!" وأخذه إلى الرصيف؛ حيث كانت السفينة جاهزة للرحيل.

من العجيب أنه على جزيرة مساحتها خمسون ميلًا، فى قرية تحت المنحدرات الصخرية العالية، قرية تحدق فى البحر منذ قديم الأزل وحتى نهاية الكون، قد ينشأ طفل ويكبر دون أن يضع إصبعه فى الماء المالح، أو

يخطو بقدمه فى قارب، ولكن هذا ما يحدث فى جونت. سواء أكان الشخص مزارعًا، أم راعيًا للغنم، أم مربيًا للماشية، أم صيادًا، أم حرفيًا، جميعهم كانوا ينظرون على البحر على أنه عالم مالح، وغير مستقر لا علاقة لهم به، بل إنَّ قرية على بعد يومين من المشى كانت بالنسبة لهم عالمًا آخر، بينما إذا بعدت جزيرة ما عنهم مسافة إبحار يوم واحد تصبح هذه الجزيرة مجرد إشاعات، أوهام مثل جبال فى الضباب يراها المرء فى الماء، وليست أرضًا صلبة مثل التى يقف المرء عليها.

لهذا، كان ميناء جونت مكانًا مخيفًا وساحرًا للفتى جيد الذى لم ينزل يومًا من المرتفعات والجبال، مكان ملىء بالبيوت والأبراج الكبيرة المبنية من الصخر المقطع، وصفحة المياه تجاورها أرصفة مدعومة، وأحواض للسفن والمراسى؛ حيث يوجد ما يقرب من خمسين قاربًا شراعيًا ترسو على جانب الرصيف، أو ترقد مقلوبة للصيانة، أو تقف فى المرفأ الطبيعى، وأشرعتها ملفوفة ومجاديفها مغلقة. فى الميناء البحارة يصيحون بلكنات مختلفة، والحمَّالون يجرون وهم يحملون البراميل والصناديق، ولفات الحبال وحزم المجاديف، والتجار الملتحون فى أرديتهم ذات الفراء، وهم يتحدثون بهدوء، بينما يحاولون المشى على الصخور اللزجة فوق الماء، والصيادون يفرغون صيدهم، وصنَّاع البراميل يصنعون براميلهم وصنَّاع السفن يدقون فى سفنهم، وبائعو سمك البطلينوس ينادون على بضاعتهم، ورؤساء المراكب يصيحون، ومن وراء كل هؤلاء تجد الخليج الصامت اللامع. وقف جيد مبهورًا قلبًا وأذنًا وعينًا، وهو يتبع ضابط الميناء إلى الرصيف الواسع؛ حيث كانت سفينة "الشبح" لا تزال مربوطة. هناك سلَّمه ضابط الميناء لرئيس السفينة.

وافق رئيس المركب على اصطحاب جيد باعتباره راكبا إلى جزيرة روك، بعدما أقنعه ضابط الميناء إكرامًا للساحر الكبير، ثم تركه لرئيس المركب. كان رئيس المركب رجلاً ضخمًا سمينًا، بعباءته الحمراء والمزينة بالفراء البيلاوى(٣). ودون أن ينظر إلى جيد سأله بصوت عميق: "هل تحرك الطقس يا بنى؟"

- "نعم."

- "هل تجلب الريح؟"

اضطر جيد أن يقول إنه لا يستطيع، فأمره الرئيس أن يجد له مكانًا بعيدًا عن الطريق ويمكث فيه.

بدأ المجدفون فى الصعود للسطح الآن، حتى تدخل السفينة المرفأ قبل الليل، وتبحر مع المد فى الفجر. لم يكن هناك مكان لجيد بعيدًا عن الطريق، فصعد إلى أعلى ما يستطيع فوق الحمولة المخفية المرصوصة والمربوطة فى مؤخرة السفينة، وأخذ يرقب كل ما يحدث وهو هناك. جاء المجدفون يتقافزون على السطح، رجال أقوياء بأذرع قوية، بينما دحرج الحمَّالون براميل المياه، وصوتها مثل الرعد يملأ المرسى، وخزنوها تحت مقاعد المجدفين.

فى البداية عامت المركب المتين ببطء تحت ثقل حمولتها، واهتزت قليلًا فوق الأمواج المحيطة بالشاطئ، وهى تستعد للرحيل. ثم أخذ مسئول الدفة مكانه على يمين قائم مؤخرة السفينة، وعينه على رئيس السفينة الذى وقف

---

(٣) الفراء البيلاوى هو فراء من حيوان مختلق اسمه البيلاوى فى شمال إيرتسى.

على لوح خشبى ما بين مؤخرة السفينة والعارضة، محفور على شكل ثعبان الأندراد القديم، وأخذ يأمر البحارة هنا وهناك. انفكت السفينة الشبح، وسُحبت خارج الحوض بواسطة قاربى تجديف. ثم ترددت كلمات الرئيس عالية: "افتحوا الموانئ!" انطلقت المجاديف مسرعة وهى تحشرج، كل خمسة عشر مجدافًا على أحد الجوانب. انحنى المجدفون بظهورهم القوية، بينما وقف صبى بجانب الرئيس يدق على طبلة، تنطلق السفينة الآن مثل طائر يطير على مجاديفه، بينما صخب المدينة وجلبة الميناء يختفيان من ورائهم. دخلت السفينة فى صمت مياه الخليج، وفى الخلف ارتفعت قمة الجبل كما لو كانت معلقة فوق البحر الجنوبى، رفعوا الهلب وركبوا الليل.

من بين طاقم السفينة المكوَّن من سبعين بحارًا، كان هناك شباب صغير جدًا مثل جيد يخطون خطواتهم الأولى فى طريق الرجولة. دعوه ليأكل ويشرب معهم، تملؤهم النكات والمزاح وإن ظلوا متحفظين معه. نعتوه براعى الماعز بالطبع؛ لأنه كان من الجونتيين، لكنهم توقفوا عند هذا الحد. كان فى طول وقوة من هم فى الخمسة عشر عامًا، وكان سريع البديهة فى رد الكلمة أو السخرية؛ لهذا وجد طريقه بينهم، وعاش منذ الليلة الأولى مثلهم، بل تعلم عملهم، مما أرضى ضباط السفينة، فلم يكن هناك مكان لراكب كسول على الشبح.

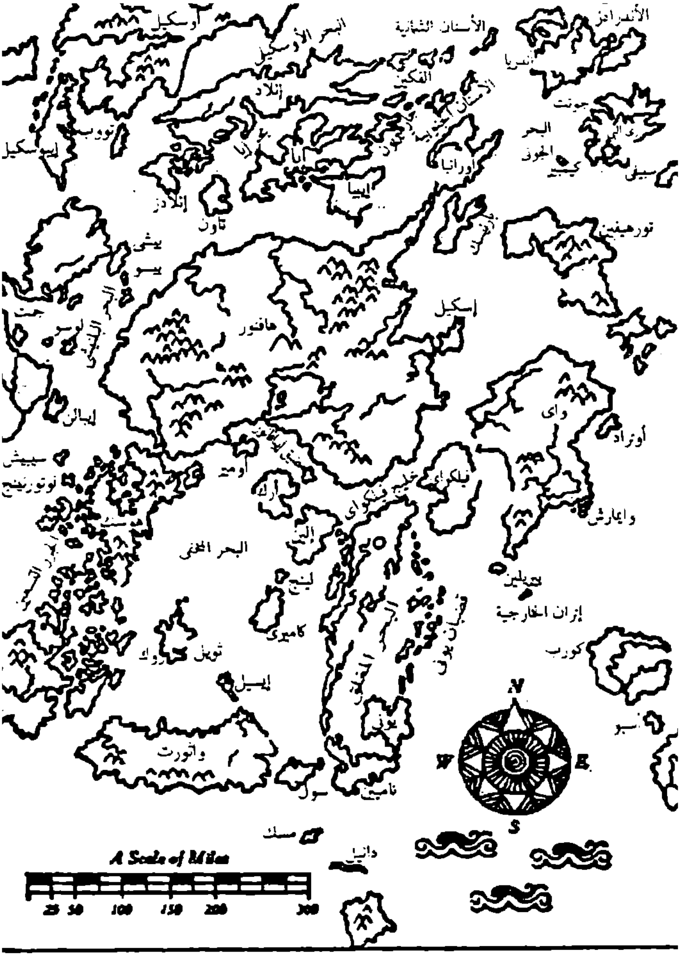
كانت المساحة بالكاد تكفى الطاقم ذاته، ولا توجد وسائل للراحة على الإطلاق فى مطبخ السفينة المزدحم بالرجال والحمولة والمعدات، ولكن ما الراحة بالنسبة لجيد؟ لذا رقد تلك الليلة بين لفات الجلد الخام المستوردة من الجزر الشمالية، وأخذ يشاهد النجوم الربيعية وأضواء المدينة الصفراء فوق مياه الميناء من عند قائم السفينة الخلفى، ونام وقام ثانية وهو مفعم بالنشاط. قبل الفجر تحول المد، فجدفوا بنعومة بين المنحدرات العالية. وبينما الشمس تخضب جبل جونت بالحمرة، رفعوا الشراع العالى وأبحروا باتجاه الجنوب فوق البحر الجونتى.

بين بارنسك وتورهيفين أبحرت السفينة برياح هادئة، ومع اليوم الثانى ظهرت جزيرة هافنور العظيمة، قلب الأرخبيل. ظلت جبال هافنور على امتداد البصر ثلاثة أيام، وهم يجاهدون لاجتياز ساحلها الشرقى دون أن ينزلوا على الشاطئ. منذ سنوات عديدة لم تطأ قدم جيد تلك الجزيرة، ولا رأى الأبراج البيضاء لميناء هافنور العظيم فى قلب العالم.

فى إحدى الليالى تعطلت السفينة عند كيمبيرماوث، الميناء الجنوبى لجزيرة واى، وفى اليوم التالى له تعطلوا عند مدينة صغيرة عند مدخل خليج فيلكواى، وفى اليوم التالى مروا بجانب رأس أو، ودخلوا مضيق إيفانور، أرخوا الأشرعة وجدفوا، والبر دائمًا على أحد الجانبين، أو فى إثر إحدى السفن، سفن كبيرة وصغيرة، تجار وسفن تجارية، بعضها قادم فى رحلة امتدت سنوات من البحار الخارجية، ومحمل بحمولة غريبة، وبعضها يتقافز فوق الماء مثل العصفور من جزيرة لأخرى فى البحر المخفى. وبعد أن خرجوا من المضايق جنوبًا تركوا هافنور وراءهم، وأبحروا بين الجزيرتين الجميلتين آرك وألين، والمدن من أمامهم أو من خلفهم، ومن هناك أحاطتهم الأمطار والرياح المتصاعدة فى طريقهم لجزيرة روك عبر البحر المخفى.

وعندما تحولت الرياح إلى عاصفة أرخوا الأشرعة والصوارى، وجدفوا طول الليل واليوم الذى تلاه. ورغم أن السفينة الطويلة استقرت على المياه ببراعة، إلا أن مُوجِّه الدفة كان ينظر إلى المطر الذى يضرب البحر ولا يرى غيره.كان يعلم أن السفينة تتجه جنوبًا حسب البوصلة، ولكنه لم يعرف جنوبًا فى أى مياه. سمع جيد الرجال يتحدثون عن المياه الضحلة فى جنوب روك، وعن صخور البوريلوس شرقًا. آخرون جادلوا مقتنعين أنهم على الأرجح قد بعدوا تمامًا الآن، وأنهم فى المياه الخالية هناك جنوب كاميرى. أخذت الرياح تزداد عصفًا وتقطع أطراف الموج إلى قطع متطايرة

من الرغاوى، وهم لا يزالون يجدفون إلى الجنوب، والرياح خلفهم طول الوقت. عندها أصبحت فترات التجديف أقصر؛ لأن العمل أصبح أصعب، وكان جيد يأخذ دوره فى العمل مع الآخرين، مثلما كان يفعل منذ تركوا جونت. ما بين دورات التجديف كانوا ينزحون ماء البحر الذى انصب على السفينة من كل جانب. كانوا يعملون بلا كلل وسط الأمواج التى كانت تجرى مثل البراكين تحت الرياح، والمطر يضرب بعنف، والبرد فوق ظهورهم، والطبلة تضرب تحت صوت العاصفة مثل ضربات القلب.



آوسكيل
الأسنان الشمالية
الأندرادز
إنلاد
إنلادز
تاون
هافنور
إسكيل
واي
البحر الخفي
كاميري
N
W
E
S
A Scale of Miles
25 50 100 150 200 300

أتى رجل ليأخذ مكان جِيد، ويرسله إلى الرئيس فى مقدمة السفينة. كانت المياه تتساقط من عباءته، ولكنه وقف متماسكًا فى مكانه فوق سطح المركب ضخمًا مثل البرميل، ونظر إلى أسفل حيث يوجد جيد، وسأله: "هل تستطيع التغلب على هذه الرياح يا بنى؟"

- "لا يا سيدى."

- "هل أنت ماهر فى التعامل مع الحديد؟" وكان ما يقصده رئيس المركب إن كان باستطاعة جيد أن يجعل البوصلة تتبع اتجاههم وليس اتجاه الشمال كما هى العادة، واضطر جيد أن يرد بالنفى على هذا أيضًا.

- "حسنًا، عليك أن تجد سفينة ما تأخذك إلى روك من هورت تاون؛ لأن روك على الأرجح فى الغرب الآن. السحر فقط يمكنه أن يأخذنا هناك الآن، لا بد أن نستمر فى التوجه جنوبًا". صاح الرئيس بهذه الكلمات فى قلب المطر والرياح.

لم يرتح جيد لهذا الكلام، فقد سمع البحارة يتكلمون عن هوت تاون، وكيف أنها مكان خارج عن القانون، ملىء بالتجارة الشريرة: حيث يتم أسر الناس، ويُباعون عبيدًا فى الأطراف الجنوبية، ثم عاد إلى عمله عند المجداف، وأخذ يشد مع رفيقه الشاب الأندريانى القوى، وهو يسمع الطبلة تدق، ويرى المصباح معلقًا فوق قائم السفينة يتحرك، والرياح تضربه فى كل اتجاه مثل شعلة حائرة من الضوء فى الغسق الممطر. ظل ينظر باتجاه الغرب بقدر استطاعته بين حركات المجداف الثقيلة المنتظمة. وحين ارتفعت السفينة فوق دوامة عالية رأى ضوءًا بين السحب، كما لو كان الضوء الأخير قبل الغروب، ولكن الغريب أنه كان ضوءًا أبيض وليس أحمر.

ورغم أن زميل جيد على المجداف لم يرَ هذا الضوء، لكنه صاح وأشار إليه. حاول مدير الدفة أن يتبينه مع كل ارتفاع فى الأمواج، ورآه مثلما رآه جيد، ولكنه صاح بأنه ضوء المغيب. ثم نادى جيد على أحد الشباب كان ينزح الماء من على المركب ليأخذ مكانه على المجداف، وأفسح لنفسه الطريق بصعوبة مرة أخرى عبر الممر المزدحم بين المقاعد، وهو يتمسك بمقدمة السفينة حتى لا يجد نفسه مرميًا من فوق سطح المركب، وصاح لرئيس المركب: "سيدى، الضوء القادم من الغرب هو جزيرة روك".

– "لم أرَ أى ضوء." صاح الرئيس، ولكن حتى وهو يتكلم كان جيد يشير بذراعه باتجاه الضوء، فرأوه جميعًا واضحًا فى الغرب رغم صوت البحر وسحابه المضطرب.

– أمر الرئيس فورًا أن تتجه السفينة إلى الغرب باتجاه الضوء، ليس من أجل جيد، بل حتى ينقذ سفينته من خطر العاصفة. ولكنه قال للصبى: "يا صبى، تتكلم بثقة وكأنك ريس المركب، ولكن لو كنت تأخذنا فى الطريق الخاطئ في هذا الجو فسألقيك فى البحر لتصل إلى روك عائمًا."

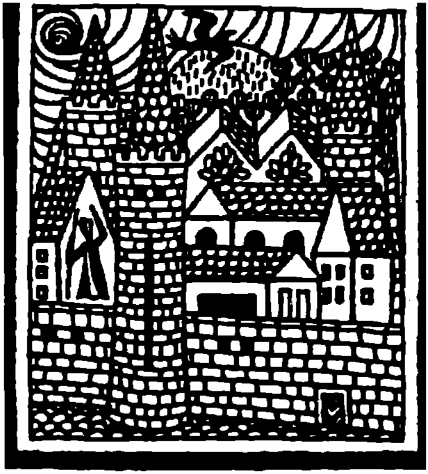
كان عليهم الآن الإبحار عبر العاصفة بدلًا من أمامها، وهو أمر شاق، فالأمواج المتلاطمة بجانب السفينة تدفعها دومًا باتجاه جنوب الطريق الجديد وتلفها، وتملؤها بالماء؛ مما يجعل النزح متواصلًا، والمجدفون عليهم مراقبة المجاديف، وإلا فلتت منهم، ووجدوا أنفسهم مدفوعين تحت المقاعد. أظلمت الدنيا، وإن استطاعوا رؤية الضوء من حين لآخر ليحددوا طريقهم على هداه، ولهذا جاهدوا للاستمرار. أخيرًا هدأت الرياح قليلًا، وامتد الضوء أمامهم. ووجدوا أنفسهم فجأة خارجين من قلب العاصفة كأنهم يخرجون من ستارة ما بين ضربة مجداف وأخرى، ووجدوا الهواء

الصافى وضوء الغسق يلمع فى السماء، وعلى سطح البحر. وفوق الأمواج المزبدة بالرغاوى رأوا تلًا أخضر مستديرًا، وتحته مدينة مبنية على خليج صغير، حيث ترسو القوارب فى سلام.

أدار موجه الدفة رأسه، وقال وهو يستند على عصاته الطويلة: "سيدى، هل ما نراه حقيقى أم سحرى؟"

– "استمر فى طريقك كما هو يا غبى، جدفوا يا فشلة، هذا خليج ثويل وجزيرة روك، أى أحمق أبله يستطيع أن يرى هذا!"

وعلى صوت الطبلة جدفوا منهكين داخلين إلى الخليج الذى كان هادئًا، لدرجة أنهم استطاعوا أن يسمعوا أصوات الناس والأجراس فى قلب المدينة، أما بعيدًا عن الخليج فهناك الصفير وجلبة العاصفة. كانت السحب السوداء إلى الشمال والشرق والجنوب على بعد ميل من الجزيرة. أما فوق روك فكانت النجوم تظهر واحدةً تلو الأخرى فى سماء هادئة وصافية.



(٣) مدرسة للسحرة

لك الليلة على سطح المركب "الشبح"، وفى الصباح المبكر
وهم يتصايحون من خلفه مبتهجين متمنين له التوفيق،
لرصيف. عندما وصل مدينة ثويل لم يجدها كبيرة، كانت
ناربة فى عدد صغير من الشوارع المنحدرة، ولكنها بدت
، ولأنه لم يعرف أين يذهب فقد توقف ليسأل أول رجل من
د عميد مدرسة روك.

ـجل من طرف عينه لبعض الوقت، ثم قال قبل أن يذهب
ـتاج الحكيم للسؤال، أما الأحمق فهو يسأل بلا فائدة!"
ـبل حتى أتى ميدانًا محاطًا من جوانبه الثلاثة بالبيوت،

بأسطحها الأردوازية الحادة، بينما الناحية الرابعة من الميدان يحدها جدار عظيم لمبنى تعلو نوافذه القليلة فتحات المداخن لبقية البيوت، مبنى يبدو مثل قلعة أو حصن من كتل صخرية رمادية عظيمة. بأسفل المبنى فى الميدان كانت دكاكين السوق تعج بالناس تغدو وتروح. سأل جيد سيدة عجوزًا تحمل سلة من بلح البحر عن عميد مدرسة روك، فردت عليه بالألغاز: "لا تجد العميد دائمًا حيث يوجد، ولكن أحيانًا تجده حيث لا يوجد." ثم مضت تنادى على بضاعتها من بلح البحر.

ثم ذهب جيد إلى باب صغير عادى خشبى فى زاوية المبنى الكبير، ودَّق عليه بقوة. وقال للرجل العجوز الذى فتح الباب: "معى خطاب من الساحر أوجيون إلى عميد مدرسة روك على هذه الجزيرة، أريد أن أجد العميد، ولن أسمع المزيد من الألغاز أو الاستهزاء."

– "هذه هى المدرسة". قال الرجل بهدوء، "أنا حارس الباب. ادخل إن استطعت."

خطا جيد إلى الأمام، وبدا له أنه قد عبر من خلال الباب، ولكنه وجد نفسه واقفًا على الرصيف تمامًا مثلما كان واقفًا من قبل.

مرة أخرى خطا للأمام، ومرة أخرى وجد نفسه واقفًا خارج الباب. أما الحارس فكان يرقبه من الداخل بعيون هادئة.

لم يكن جِيد متحيرًا بقدر ما كان غاضبًا، كان ما يحدث استهزاء زائدًا له. فألقى "تعَويذة الفتح" التى علمته إياها خالته منذ وقت طويل، وكانت له مثل الجائزة من بين كل خزينها من التعويذات. ألقى التعويذة جيدًا بالصوت واليد، ولكن التعويذة كانت مجرد سحر عادى أمام القوة التى

أمسكت هذا الباب، فهو لم يهتز على الإطلاق.

وعندما فشل هذا وقف جيد فترة طويلة على الرصيف، وأخيرًا نظر إلى الرجل العجوز الذى انتظر بالداخل وقال مكرهًا: "لن أستطيع الدخول إلا لو ساعدتنى."

– وأجاب حارس الباب: "ما اسمك؟"

وقف جيد ساكتًا لبرهة، فالمرء لا يقول اسمه عاليًا إلا إن كانت مسألة حياة أو موت.

– "أنا جِيد". قالها عاليًا، وهو يخطو للأمام من خلال الباب المفتوح. بدا له وكأن ظلًا ما فى أعقابه رغم أن الضوء كان خلفه.

ورأى أيضًا وهو يلف أن البوابة التى دخل منها لم تكن من الخشب البسيط كما ظن، وإنما من العاج المنحوت من ناب العظيم، كما عرف فيما بعد، وبدون مفصلات أو لحام. أما الباب الذى أغلقه الحارس وراءه كان من مادة مصقولة، يضوى من خلالها ضوء النهار باهتًا، وعلى بطانة الباب من الداخل كانت شجرة الألف ورقة منحوتة. "مرحبًا فى القصر الكبير يا غلام"، وبدون أن يزيد قاد حارس بوابة القصر جيد عبر الممرات والقاعات إلى فناء مفتوح بعيدًا داخل جدران المبنى. كان الفناء مغطًى جزئيًا بالحجارة، ومفتوحًا بدون سقف. وعلى النجيل كانت هناك نافورة تتدفق تحت الأشجار الصغيرة فى ضوء الشمس. هناك انتظر جيد وحده بعض الوقت، وقف ساكنًا، فقد كان يستشعر وجود كائنات وقوى تعمل فى الخفاء هنا، وكان يعرف أن المبنى ليس مبنى من الحجارة فقط، بل من سحر أقوى من الحجارة. وقف فى الصحن المفتوح للسماء، فى المكان الأعمق فى

بيت الحكماء، ثم استشعر فجأة وجود رجل يرتدى الأبيض ينظر عليه من خلال المياه المتساقطة من النافورة.

عندما التقت عيناهما غرد طائر على أغصان الشجرة. العجيب فى تلك اللحظة أن جيد وجد نفسه يفهم تغريد الطائر ولغة الماء فى حوض النافورة، وشكل السحب، وبداية ونهاية الرياح التى تحرك أوراق الشجر. بدا له أنه هو نفسه كلمة ينطقها ضوء الشمس!

ثم اختفت تلك اللحظة السحرية، وعاد هو والعالم كما كانا من قبل، أو تقريبًا مثلما كانا من قبل. تقدم وانحنى أمام الساحر الأكبر، وهو يمد يده بالخطاب الذى كتبه أوجيون.

كان نيمريل الساحر الأكبر عميد مدرسة روك رجلًا عجوزًا، أكبر من أى رجل على قيد الحياة كما يقولون. صوته يتهدج حين يتكلم مثل صوت العصفور، وهو يرحب بجيد بعطف. كان شعره ولحيته ورداؤه كلها باللون الأبيض، وبدا كما لو أن كل سواد شعره قد تمت تصفيته بفعل مرور السنين البطيء، التى تركته كقطعة خشب طافية منذ زمن بعيد، مغسولة وبالية.

– "عيناى عجوزتان، لا أستطيع قراءة ما كتبه معلمك، اقرا لى ما كتبه." قال بصوته المتهدج.

لذا قام جيد بقراءة الخطاب المكتوب باللغة الهاردية عاليًا: "لورد إيميريل. أرسل لك غلامًا سيكون أعظم سحرة جونت لو أتت الريح بما تشتهى السفن." كان الخطاب موقعًا باسم أوجيون بالرونية، والذى يعنى: "الفم المغلق"، وليس باسمه الحقيقى الذى لم يعرفه جيد حتى هذه اللحظة.

- "جئت من طرف الساحر الذى سيطر على الزلزال، ومن أجله نضاعف الترحيب بك. أوجيون الشاب كان عزيزًا إلى قلبى عندما جاء هنا يومًا من جونت. الآن، احك لى عن البحار وأعاجيب رحلتك يا صبى."

- "رحلة طيبة يا سيدى، باستثناء عاصفة الأمس."

- "ما السفينة التى أحضرتك هنا؟"

- "الشبح... تتاجر من آندراديس"

- "إرادة من أرسلتك هنا؟"

- "إرادتى أنا يا سيدى."

نظر الساحر الأعظم إلى جيد، ثم نظر بعيدًا، ثم بدأ يتكلم بلغة لم يفهمها جيد، وهو يتمتم كما يفعل العجزة الذين تتجول حواسهم عبر السنين والجزر. لكن من بين كلامه كان هناك كلمات مثل التى غردها الطائر وقالتها المياه. ورغم أنه لم يكن يلق أية تعويذة، إلا أن قوة ما فى صوته أخذت تحرك عقل جيد، لدرجة أنه شعر بالرعب، وكان كمن يرى نفسه واقفًا فى صحراء واسعة غريبة بين الأشباح، رغم أنه طوال الوقت كان واقفًا فى الفناء المفتوح المشمس، ويسمع خرير المياه من النافورة.

جاء طائر أسود كبير ماشٍ عبر الصخر والنجيل، غراب من أوسيكيل، وقف على طرف رداء الساحرِ الأعظم بسواده ومنقاره الخنجرى وعينيه التى مثل الجمر، وهو يحملق جانبًا فى جِيد. نقر ثلاث مرات على العصا البيضاء التى اتكأ عليها الساحر الأكبر، فتوقف عن التمتمة وابتسم. "اجر والعب." قالها نيميريل أخيرًا لجيد كما لو كان يقولها لطفل صغير.

انحنى جيد مرة أخرى على ركبة واحدة، وعندما قام كان الساحر الأكبر قد ذهب. فقط بقى الغراب هناك يحملق فيه، ومنقاره ممدود كما لو كان سينقر العصا المختفية.

نعق الغراب فيما اعتقد جيد أنها اللغة الأوسكيلية. "تيرنينون أوسبوك" "تيرنينون أوسبوك أوريك"، ثم انطلق من حيث أتى.

استدار جيد ليمشى من الفناء وهو لا يعرف إلى أين سيذهب. وتحت المدخل رأى أمامه شاب طويل حياه بلطف شديد وهو يحنى رأسه "اسمى جاسبر، ابن إينويت من منطقة إياولج على جزيرة هافنور أنا فى خدمتك اليوم لأريك القصر، وأجيب على كافة أسئلتك. بماذا أدعوك سيدى؟"

بدا الأمر لجِيد الفلاح الجبلى، الذى لم يختلط يومًا ما بالنبلاء ولا الأغنياء، أن هذا الرفيق يسخر منه بكلمات منمقة، مثل "فى خدمتك"، "وسيدى"، وكل الانحناء والتوقير. لذا أجابه باقتضاب: "يدعوننى سباروهوك."

انتظر الشاب الآخر بعض الوقت، كما لو كان يتوقع المزيد، وعندما لم يحصل على المزيد اعتدل وابتعد قليلًا. كان يكبر جيد بسنتين أو ثلاث، طويلًا جدًا، يتحرك ويتحكم فى جسمه برشاقة بالغة، ويتخذ أوضاعًا وهو يمشى (هكذا ظن جيد وقتها) كراقص. كان يرتدى عباءة رمادية وغطاء رأسها ملقى على الظهر. أول مكان أخذ جيد إليه غرفة الدولاب، ليجد لنفسه فيها عباءة مناسبة، وأى ملابس أخرى قد يحتاجها. ارتدى العباءة الرمادية الداكنة التى اختارها، فقال جاسبر: "الآن أصبحت واحدًا منا."

كان لجاسبر طريقة باهتة فى الابتسام تجعل جيد يظن دائمًا أنه يتهكم عليه، ويظل يبحث عن التهكم المختفى تحت كلامه المهذب، "لا تصنع الملابس ساحرًا." أجابه جيد عابسًا.

– "بالطبع لا، لكن السلوك الحسن يصنع المرء." أجاب الولد الأكبر، "إلى أين الآن؟"

– "حيث تريد؛ أنا لا أعرف القصر."

أخذه جاسبر عبر طرقات القصر الكبير، وهو يريه الساحات المفتوحة والساحات المغطاة، وغرفة الأرفف التى تحتوى على كتب السحر، ومجلدات اللغة الرونية، والساحة الاحتفالية، حيث تتجمع المدرسة كلها فى أيام الاحتفال، وأخذه بالأعلى حيث الأبراج، وتحت الأسقف حيث الغرف الصغيرة التى ينام فيها الطلاب والأساتذة. غرفة جيد كانت فى البرج الجنوبى، ولها نافذة تطل على أسطح مدينة ثويل وعلى البحر. ومثل كل حجرات النوم الأخرى لم يكن بها أى أثاث سوى مرتبة من القش فى الركن. "نعيش ببساطة شديدة هنا." قال جاسبر: "ولو أنى أعتقد أن الأمر بالنسبة لك سواء."

– "أنا معتاد على هذا"، قالها جيد على الفور، وهو يحاول أن يظهر نفسه ندًّا لهذا الشاب المؤدب الساخر، ولكنه أيضًا أضاف: "أعتقد أنك لم تكن معتادًا على هذا حين جئت هنا أول مرة."

نظر إليه جاسبر، وقالت نظرته دون كلام: "ماذا تعرف أنت عن حياتى كابن للورد منطقة الإيلوج لجزيرة هافنور، وما اعتدت عليه، وما لم أعْتَدْ عليه." ولكن ما قاله جاسبر بالفعل هو: "تفضل من هنا."

دق الجرس وهما بالأعلى، ونزلا لتناول وجبة الظهر على المائدة الكبيرة فى قاعة الطعام مع ما يزيد عن مائة طالب وشاب آخرين. كل كان يخدم نفسه، وهم يتضاحكون مع الطهاة من خلال النوافذ الزجاجية للمطبخ، والتى كانت تفتح على المطعم، كان كل منهم يغرف طبقه من الأوانى الكبيرة المحملة بالطعام، والتى كان دخانها يتصاعد على النوافذ، ويجلسون حيث يريدون على المائدة الطويلة.

"يقولون إنه مهما كان عدد الطلاب الذين يجلسون على المائدة الطويلة، هناك دائمًا مكان للمزيد." قال جاسبر. بالفعل كان هناك مكان للكثير من مجموعات الأولاد الصاخبة يتكلمون ويأكلون بنَهَم، وكذلك الأولاد الأكبر، كل بعباءته المزينة برباط فضى حول عنقه، يجلس بهدوء مع زملائه فرادى وأزواجًا، كل منهم بدا الهم على وجهه، كما لو كان هناك الكثير الذى يدعوهم للقلق بشأنه.

أخذ جاسبر جيد ليجلس مع شخص ممتلئ يدعى فيتش، والذى لم يقل الكثير بل أخذ يعب الطعام والشراب بتركيز. كانت لكنته لكنة المنطقة الشرقية وبشرته داكنة للغاية، ليس اللون البنى المحمر مثل جيد وجاسبر ومعظم الناس فى الأرخبيل، ولكن بُنِّى أسمر، ولد بسيط خشن تذمر بشأن الطعام عندما انتهى منه، ثم استدار إلى جيد، وقال: "على الأقل الطعام ليس وهمًا مثل الكثير من الأشياء هنا." لم يفهم جيد ماذا يعنى بهذا، ولكنه شعر بارتياح تجاهه، وكان سعيدًا أنه بقى معهم بعد الطعام.

نزل الثلاثة إلى القرية ليتعرف جيد عليها، من السهل أن يضل المرء طريقه فى ثويل، فبقدر ما كانت شوارعها قليلة وقصيرة، إلا أنها كانت ملفوفة وملتوية حول البيوت ذات الأسقف العالية مما يسهل التوهان. كانت

بلدة غريبة، وكذلك كان أهلها، رغم أنهم صيادون وعمال وصنَّاع عاديون، لكنهم كانوا معتادين على السحر الدائم العمل فى جزيرة الحكماء، لدرجة أنهم كانوا مثل أنصاف سحرة أنفسهم.

كانوا يتكلمون (كما عرف جيد لاحقًا) بالألغاز، ولم يكن أحدهم ليعجب لو رأى ولدًا يتحول إلى سمكة، أو بيت يطير فى الهواء، فهم يعرفون أنها مُزحة طالب فى مدرسة السحرة، فيمضون فى أعمالهم فى ترقيع الأحذية، أو تقطيع اللحم دون اكتراث.

خرج الأولاد الثلاثة من الباب الخلفى للقصر، ثم من خلال حدائق القصر الكبير عبروا نهر الثويلبيرن الصافى على كوبرى خشبى، واتجهوا ناحية الشمال بين الغابات والمراعى، حيث ارتفع الطريق والتف. عبروا بساتين البلوط، حيث كانت الظلال ثقيلة برغم كل الشمس الساطعة. كانت هناك غابة قريبة لم يستطع جيد أن يتبينها أبدًا. لم يكن الطريق ليصل لها أبدًا، رغم أنه كان يبدو دائمًا وشيكًا، لم يكن من الواضح أى نوع من الأشجار هناك. عندما رآه فيتش يحملق فى الغابة همس قائلًا: "هذه هى غابة السحر العتيقة، لا نستطيع الدخول هناك... بعد."

فى البساتين المشمسة ازدهرت زهور صفراء، "هذا هو السباركويد[٤]" (عشب الشرر) ينبت تمامًا فى البقعة التى تُسقط فيها الريح رماد الإيلين المحترق، عندما دافع الإيريث أكبى عن الجزر المخفية أمام سيد النار. نفخ فى رأس زهرة، وخرجت البذور المهتزة مع الرياح، مثل شعلات من النار فى الشمس.

---

(٤) سباركويد هو عشب خيالى معناه عشب الشرر

قادهم الطريق لأعلى وحول التل الكبير الأخضر، ذلك الذى رآه جيد من السفينة، وهم يدخلون مياه جزيرة روك المسحورة. على منحدر التل توقف جاسبر قائلًا: "فى وطنى هافنور سمعت كثيرًا من الثناء عن السحر الجونتى، حتى إننى رغبت فترةً طويلة فى أن أراه، الآن لدينا شاب جونتى، ونحن نقف على منحدرات هضبة روك التى تمتد جذورها إلى بطن الأرض. كل التعاويذ قوية فى هذا المكان، أرنا إحدى حيلك، سباروهوك، أرنا أسلوبك."

لم يقل جيد شيئًا، باغته جاسبر وأربكه.

– "فيما بعد، جاسبر." قال فيتش بطريقته البسيطة، "دعه فترةً."

"لديه إما القوة أو المهارة، وإلا لم يكن حارس بوابة المدرسة قد سمح له بالدخول، لماذا لا يرينا إياها الآن؟ الآن مثل أى وقت آخر، أليس كذلك، سباروهوك؟"

– "عندى كلٌّ من القوة والمهارة." قال جيد، "ماذا تريد إذن؟"

– "الإيهام – بالطبع – الحيل، ألعاب الرؤى، أشياء مثل هذا."

ثم أشار جاسبر بإصبعه، وتمتم ببضعة كلمات غريبة، وحيث أشار على منحدر التل سال خيط من الماء بين الحشائش الخضراء، وزاد حتى أصبح نافورة تتفجر، وجرى الماء أسفل التل. مد جيد يده فى الجدول، شعر بالبلل على يده، وشرب منه، وكان باردًا، ولكنه لم يكن ماءً يروى؛ لأنه مجرد خداعٍ بصرى. بكلمة أخرى قالها أوقف جاسبر الماء، واهتزت الحشائش ثانيةً جافة في ضوء الشمس. "دورك يا فيتش." قال بابتسامة هادئة.

حكَّ فيتش رأسه، وتجهَّم وجهه، ولكنه أخذ حفنة من التراب فى يده، وبدأ يرتل بدون نغمات فوقها، وهو يشكلها بيده الداكنة، ويضغط عليها ويساويها، وفجاة أصبحت كائنًا صغيرًا مثل نحلة طنانة، أو ذبابة ذات فراء، وطارت وهى تزن فوق هضبة نول واختفت.

وقف جيد محملقًا مكتئبًا. ما الذى يعرفه غير سحر القرية، تعويذات لاستدعاء الماعز، وشفاء البثور، ولنقل الأحمال، أو تصليح القدور؟

– "لا أمارس هذه الحيل." كان هذا كافيًا بالنسبة لفيتش الذى رغب فى الرحيل، لكن جاسبر قال: "ولمَ لا؟"

– "لأن السحر ليس لعبة، لا يلعبه الجونتيون من أجل المتعة أو المديح." أجاب جيد بغرور.

– "لماذا تلعبها إذن؟" قال جاسبر، "المال؟"

– "لا"، ولكن الحق أن جيد لم يستطع أن يفكر فى أى جواب آخر ينقذ كبرياءه أمام جاسبر. وضحك جاسبر، ومضى وهو يقودهم عبر هضبة روك، وتبعه جيد عابسًا وقلبه مضطرب، وهو يعرف أنه بدا أحمقًا، وفى قلبه كان يلوم جاسبر على كل هذا.

رقد جيد تلك الليلة على المرتبة تغطيه عباءته فى غرفته الحجرية الصغيرة المظلمة بصمت القصر الكبير فى روك، كانت غرابة المكان، وفكرة كل التعويذات والأسحار التى تم عملها هنا ثقيلة على نفسه، أحاط به الظلام وملأه الخوف، تمنى لو كان فى أى مكان آخر غير روك. لكن فيتش جاء إلى بابه، وفوق رأسه ويرلايت(٥) تهتز لتنير له الطريق، وقف على الباب،

(٥) الويرلايت هى كره صغيرة سحرية من الضوء الأزرق يستخدمها طلاب مدرسة روك بدلاً من المصابيح

وسأل إن كان يستطيع الدخول والتحدث مع جيد بعض الوقت، وحين دخل سأله عن جونت، ثم تكلم بطلاقة وحبٍّ عن الطرف الشرقى، وكيف أن دخان المدافئ يهب فى المساء فوق البحر الهادئ بين الجزر الصغيرة مكونًا أسماء غريبة فى السماء: كورب، كوب، هولب، فينواى، فيميش، إيفيش، كوبيش، سنيج. عندما رسم أشكال الجزر على الحجارة على الأرض بإصبعه ليُرِى جيد كيف تبدو على الخريطة، لمعت الحروف التى رسمها قليلًا وكأنها من الفضة قبل أن تختفى.

كان فيتش فى المدرسة منذ ثلاث سنوات، وسيصبح ساحرًا عما قليل؛ لذا لم يعد يفكر فى التعاويذ، بل أصبحت أمرًا منتهيًا بالنسبة له، ولكن كانت لفيتش مهارة أعظم لا يمكن تعلمها، وهى الطيبة. منذ تلك الليلة منح فيتش جيد صداقة أكيدة وواسعة، لم يستطع جيد سوى أن يبادلها.

كان فيتش ودودًا مع جاسبر أيضًا، ذلك الولد الذى تهكم على جيد فى يومه الأول على هضبة نول، يوم لم ينمح من عقل جيد ولا نسى جاسبر نفسه الذى دائمًا ما يكلمه بصوت مهذب وابتسامة ساخرة. لم يهدأ كبرياء جيد الجريح أبدًا، بل أقسم أن يثبت لجاسبر وللجميع ممن نصب جاسبر نفسه زعيمًا عليهم مدى قدرته، رغم كل حيلهم السحرية المبهرة، لم ينقذ أيًّا منهم قرية بأكملها بقوة السحر. ولم يكتب أوجيون عن أى منهم أنه سيكون أعظم سحرة جونت.

لذا، ولكى ينقذ كبرياءه، وضع كل طاقته فى العمل الذى كُلِّف به، انصب على الدروس والفنون والتواريخ والمهارات التى علمها له أساتذة روك المعروفين بعباءاتهم الرمادية، والذين يُدعون "التسعة الكبار".

كان يقضى جزءًا من النهار مع الأستاذ منشد يتعلم "ملاحم الأبطال"، و"مقامات الحكمة"، والبداية دائمًا مع أقدم الملاحم "خلق إيا". ثم بعد ذلك

ينضم إلى دستة من الطلاب الآخرين مع المعلم مفتاح الريح؛ ليتعلم فنون الجو والرياح. قضوا أيامًا كاملة مشمسة من الربيع وبدايات الصيف على خليج روك، فى قوارب ذات شراع واحد، وهم يتدربون على الإبحار بالكلمة، وتهدئة الأمواج، والكلام مع رياح العالم، وإثارة رياح السحر. كانت هذه مهارات دقيقة، وكثيرًا ما ارتطم رأس جيد فى ذراع الشراع المتدلى، حين يتأرجح القارب فجأة تحت الرياح التى تهب معاكسة، أو حين يصطدم قاربه مع قارب طالب آخر، بالرغم من اتساع الخليج من حولهم، أو حين يجد رفقاءه الثلاثة فجأة فى قلب الماء عندما تداهمهم موجة كبيرة. كانت هناك رحلات أهدأ على البر فى أيام أخرى مع الأستاذ عشبى، الذى علمهم طرق وطبائع كل ما ينمو من أشياء، والأستاذ كف الذى علمهم خفة اليد والخداع، وكذلك المهارات البسيطة لتغيير الشكل.

فى كل هذه الدراسات كان جيد منتبهًا متيقظًا، وفى خلال شهر كان قد تفوق على الطلاب الموجودين من قبله فى المدرسة بعام، خاصة فى تعلم حيل الإيهام الذى أصبح بارعًا فيها، وكأنه قد وُلد وهو يحفظها، ولا يحتاج سوى لمن يذكره بها. كان الأستاذ كف رجلًا عجوزًا لطيفًا خالى البال، يستمتع لأقصى درجة بجمال وعبقرية ما يعلمه من فنون السحر. تعود جيد عليه بسرعة، وأخذ يسأله عن هذه التعويذة أو تلك، ودائمًا كان رد المعلم هو الابتسام، وإجابة ما يريد. ولكن فى يوم ما، وبعد أن قرر جيد أن يقضى على جاسبر بشكل نهائى، سأل جيد الأستاذ كف فى قاعة الرؤى: "سيدى، كل هذه الأسحار مثل بعضها، فلو عرفت واحدًا، كأنك تعرفهم جميعًا. فأول ما تنتهى حياكة التعويذة يختفى الإيهام. الآن لو حولت هذه الصخرة إلى ماسة (وبضربة خفيفة من يده تحولت الطوبة إلى ماسة)، ماذا أفعل لأجعل هذه الماسة تظل ماسة؟ كيف يمكن غلق تعويذة التغيير، وجعلها تستمر؟"

نظر المعلم هاند على الجوهرة التى لمعت فى يد جيد براقة مثل كنز التنين (٦)، تمتم الأستاذ العجوز بكلمة واحدة: "تولك". وبدلاً من الجوهرة كانت هناك طوبة فى يد جيد، صخرة صغيرة خشنة رمادية. أخذها المعلم فى يده، "هذه صخرة، تولك هو الكلام الحقيقى، اللغة القديمة." قال المعلم وهو ينظر إلى جيد بوداعة الآن. " هذه صخرة من جزيرة روك، هى نفسها جزء بسيط من الأرض اليابسة التى يعيش عليها الناس، بمعنى أنها جزء من العالم. بقوة الإيهام تستطيع أن تغيرها لتجعلها تبدو مثل الماسة، أو الزهرة، أو الذبابة، أو شعلة النار" اهتزت الصخرة فى يد الأستاذ، وهى تتغير من شكل إلى شكل عندما ينطق بالاسم، ثم عادت إلى صورتها الأولى كصخرة. "لكن كل هذا مجرد إيهام، الوهم يخدع حواس الناظر، يجعله يرى ويسمع ويشعر أن الشىء قد تغير، لكنه لا يغير من الشىء. لكى تغير هذه الصخرة لا بد أن تغير من اسمها الحقيقى. ولو فعلت هذا لأى ذرة من العالم، يا ولدى، لأى ذرة ستكون كأنك غيرت العالم بأكمله. يمكنك أن تفعل هذا، بالفعل يمكنك أن تفعل هذا، إنه جزء من فن "الأستاذ المُحول"، وستتعلمه حين تكون مستعدًا له. ولكن حذارِ أن تغير الآن شيئًا واحدًا، ولا حتى طوبة أو ذرة رمل، دون أن تعرف الخير والشر الذى سينتج عن ذلك. فالكَوْن يا ولدى فى حالة توازن، وقد تؤثر قدرة الساحر على التغيير والاستدعاء فى هذا التوازن. هذه القوة محفوفة بالمخاطر إلى أقصى درجة، لا بد لها أن تخضع للمعرفة وتخدم الحاجة. كل ما تفعله له نتيجة، فلو أشعلت شمعة فأنت تلق بظلّ..."

---

(٦) فى حكايات الفانتازيا للتنين كنز من الجواهر الثمينة يحتفظ به فى مكان من المستحيل الوصول له

نظر الأستاذ إلى الصخرة مرة أخرى، وقال: "الصخور أيضًا نافعة كما تعرف." قال وقد خفف من الجدية، "فلو كانت كل جزر إيرثسى من الجواهر لأصبحت حياتنا صعبة. استمتع بالأوهام يا فتى، ولتدع الصخور صخورًا." ابتسم المعلم لكن جيد ظل مستاءً.

اضغط على ساحر ما ليتكلم عن أسراره، وسيتحدث تمامًا مثل أوجيون عن التوازن والخطر والظلام. ربما ظن جيد وقتها أن الساحر الذى تمكن من كل حيل الإيهام الأساسية للفنون الحقيقية للاستدعاء والتحويل لا بد وأن يكون قويًا بما يكفى لأن يفعل كل ما يريد، وليوازن العالم كما يتراءى له، ويحارب الظلام، ويدفعه بعيدًا بنوره.

قابله جاسبر فى الرواق عند خروجه من عند الأستاذ كف، وقد أصبح أكثر ودًا معه منذ ذاع صيت مهارته فى المدرسة كلها. لكن كلام جاسبر الودود بدا لجيد أكثر سخرية. "تبدو مكتئبًا سباروهوك، هل أخطأتَ فى تعويذات الإيهام؟"

ولأنه دائمًا ما يحب أن يضع نفسه فى مقام موازٍ مع جاسبر، أجابه جيد وهو يتجاهل نغمة السخرية فى صوته: "لقد سئمتُ الخداع، وكل حيل الإيهام تصلح فقط لتسلية السادة الكسالى فى قصورهم فى دومين. السحر الوحيد الذى تعلمته فى روك هو عمل الويرلايت، وبعض تحريك الطقس، أما الباقى فهو مجرد تفاهات."

– قال جاسبر: "حتى التفاهات قد تصبح خطرًا فى يد الحمقى."

عند هذا الحد استدار جيد كما لو كان قد تلقَّى صفعة على وجهه، وأخذ خطوة باتجاه جاسبر، ولكن الولد الأكبر ابتسم كما لو لم يقصد أى إهانة، أومأ برأسه بطريقته الرشيقة الجافة ومضى.

وقف جيد هناك يراقب جاسبر، والغضب يملأ قلبه، وأقسم أن يقهر خصمه فى اختبار قوة حقيقى، وليس فى مباراة لسحر الإيهام. سيثبت نفسه ويذل جاسبر، لن يترك هذا الفتى يتعالى عليه دومًا برشاقته وغطرسته وكراهيته.

لم يتوقف جيد أمام جاسبر ليفهم لماذا قد يكرهه، كان يعرف فقط لماذا يكره هو جاسبر، تعلم الصبية الآخرون فى المدرسة مبكرًا أنهم لا يستطيعون مجاراة جيد فى الهزل أو فى الجد. "مولود من بطن أمه ساحرًا، ولن نغلبه أبدا." إلا جاسبر، لم يكن يمدحه أو يتجنبه، وإنما يحتقره بابتسامة باهتة، وقف جاسبر وحده منافسًا حقيقيًا لجيد، وكان لا بد من قهره.

لم يرَ جيد، وربما لم يود أن يرَ أن فى تنافسه مع جاسبر، ذلك الذى ظل يغذيه كجزء من كبريائه، أى ملمح من الخطر، أو من الظلام الذى حذره منه الأستاذ كف يومًا.

لكن عندما يهدأ جيد، ولا يحكمه غضبه، يعرف أنه ليس كفئًا لجاسبر أو لأى من الصبية الكبار بعد، لهذا كان يعكف على عمله كالمعتاد. وفى نهاية الصيف خف العمل بعض الشىء، فأصبح هناك وقت أطول للعب: سباقات لقوارب بالتعويذات فى الميناء، مسابقات للإيهام فى قاعات القصر الكبير، وفى الليالى الطويلة فى البساتين، كانت تقام ألعاب الأستغماية الرهيبة؛ حيث لا يُرى العسكر ولا اللصوص. الأصوات فقط هى التى كانت تتحرك، وتنادى من بين الأشجار، وتتبع وتراوغ الويرلايت الباهتة. ثم عاد الطلاب إلى أعمالهم فى الخريف، وقد تجدد نشاطهم ليمارسوا أنواعًا جديدة من السحر. وهكذا مرت شهور جيد الأولى فى روك سريعة مليئة بالانفعالات والأعاجيب.

في الشتاء كان الأمر مختلفًا، فقد تم إرساله هو وسبعة آخرون من الأولاد عبر جزيرة روك إلى لسان الجزيرة البعيد؛ حيث يقف برج العزلة الوحيد شاهقًا. هناك عاش الأستاذ صاحب الأسماء وحيدًا، اسمه كيرمكارميرك، ذلك الذى ليس له سَمِىّ فى أى لغة. لم تكن هناك لا مزرعة ولا بناء حول البرج لأميال بعيدة، بل يقف البرج كئيبًا فوق المنحدرات الشمالية. رمادية كانت السحب فوق بحار الشتاء، ولا نهائية كانت القوائم والرُّتب والأشواط التى يجب أن يحفظها طلاب الأستاذ الثمانية. بينهم يجلس المعلم كيرمكارميرك على مقعد عالٍ يكتب قوائم الأسماء قبل أن يجف الحبر عند منتصف الليل، وتعود المخطوطة بيضاء مرة أخرى.

كان البرج باردًا، معتما ودائمَ الكآبة، وخاليًا من أى صوت سوى من خربشة قلم الأستاذ صاحب الأسماء، أو من تنهيدة طالب عليه أن يحفظ اسم كل لسان ونقطة، وخليج وغار وصوت، وقناة وميناء ومياه ضحلة، وسلاسل صخور، وكل شواطئ جزيرة لوسو، تلك الجزيرة الصغيرة فى البحر البلنيشى. إذا ما اشتكى الطالب فقد يعاقبه الأستاذ بتطويل القائمة، أو قد يقول الأستاذ: "على من يود أن يكون رئيسًا للسفينة أن يعرف الاسم الحقيقى لكل نقطة مياه فى قلب البحر."

كان جيد يتنهد مثلهم أحيانًا، ولكنه أبدًا لم يشتكِ؛ لأنه يرى أن فى هذا العمل الأثرى الشاق القوة التى يريدها، تراءت له تلك القوة مثل جوهرة فى قاع بئر جاف. هذا هو السحر، الاسم الحقيقى لكل شيء؛ لذا، وكما قال لهم كيرمكارميرك مرة فى ليلتهم الأولى، ولم يكررها أبدًا: "إن كثيرًا من السحرة قد يقضون عمرهم كله فى محاولة لمعرفة اسم شىء واحد، اسم واحد مخفى أو ضائع. ولا تنتهى قوائم الأسماء أبدًا، ولن تنتهى حتى نهاية العالم. اسمع وستعرف لماذا، سترى لماذا. ففى العالم الذى تحت

الشمس، وفى العالم الآخر الذى لا توجد به شمس، يوجد الكثير مما لا علاقة له بالناس ولا كلامهم، وهناك قوى خارج قواهم. لكن السحر، السحر الحقيقى، لا يمكن أن يمارسه سوى من يعرف اللغة الهاردية الخاصة بإيرثسى، الكلام الحقيقى أو اللغة القديمة التى منها نشأت هذه اللغة." لم ينس جيد هذه المقولة أبدًا.

"هذه هى اللغة التى تتكلمها التنانين، واللغة التى تكلمها سيجوى ذلك الذى رفع جزر العالم، هى لغة بطولاتنا وأغانينا، تعويذاتنا وأسحارنا وابتهالاتنا، كلماتها ترقد عميقة ومخفية ومتغيرة داخل الكلمات الهاردية. نحن نطلق على الزَّبَد فوق الموج كلمة "سوكين"، وهذه الكلمة مكونة من كلمتين فى اللغة القديمة: سوك بمعنى ريشة، وإينين بمعنى بحر، أى ريشة البحر أو الزَّبَد. لكن لا يمكنك أن تسحر الزبد باستخدام كلمة سوكين، لابد أن تستخدم الكلمة القديمة فى اللغة القديمة وهى "إيسا". قد تعرف أى ساحرة بعضًا من كلمات اللغة القديمة، لكن على الساحر الكبير أن يعرف الكثير منها. ضاع الكثير من مفردات هذه اللغة على مر السنين، وبعضها معروف فقط للتنانين وللقوى العتيقة على الأرض، وبعضهم لا يعرفه أى كائن حى، ولا يستطيع أى إنسان أن يتعلمهم جميعًا؛ لأنه لا يوجد حد أو نهاية لهذه المفردات.

هذا هو السبب، اسم البحر هو إينين، حسنًا، ولكن ما نطلقه على البحر المخفى فى اللغة القديمة هو اسم آخر، لكن لأنه لا يصح أن يكون للشىء الواحد اسمان فى اللغة القديمة، فـ"إينين" لا يمكن أن تعنى إلا "كل البحر ما عدا البحر الداخلى"، لكن بالطبع الأمر لا يتوقف عند هذا؛ لأن هناك بحارًا ومضايق لا حصر لها، ولها أسماء خاصة بها. لهذا فلو جُنَّ أى ساحر كبير قبطان، وحاول أن يلقى بتعويذة لإثارة عاصفة، أو تهدئة

عاصفة هبت على المحيط كله، يجب أن تحتوى تعويذته ليس فقط على كلمة إينين، بل أيضًا على الاسم الحقيقى لكل جزء من اليابسة والبحر خلال كل الأرخبيل، وكل المناطق الخارجية، وما بعدها حتى تنتهى كل الأسماء.

وهكذا ما يعطينا القوة لممارسة السحر يضع لنا الحدود لاستخدامها، فالساحر الكبير يستطيع أن يتحكم فقط فيما هو قريب منه، وفيما يعرف اسمه الحقيقى بالضبط دون نقصان. لو لم يكن الأمر كذلك لكان شر الأقوياء وحماقة الحكماء قد غيرا ما لا يجب تغييره، وينتهى بهذا التوازن الكونى. لو حدث هذا سيُغرق البحر غير المتوازن كل الجزر التى نعيش عليها، وستضيع كل الأصوات وكل الأسماء فى الصمت القديم."

فكر جيد طويلًا فى هذا الكلام، ولمس أعماقه، لكن عظمة الغاية لم تسهل الوقت الطويل، ولا العمل الثقيل فى البرج. وفى نهاية العام كان كل ما قاله له كيرمكارميرك "لقد بدأت بداية جيدة." ولم يزد عن هذا.

لا يقول السحرة إلا الحقيقة، وبالفعل فكل ما تعلمه جيد فى هذا العام كان مجرد بداية لما يجب أن يستمر فى تعلمه طوال حياته. خرج من البرج قبل زملائه الذين حضروا معه؛ لأنه تعلم أسرع منهم، وكانت هذه هى الميزة الوحيدة التى حصل عليها.

فى طريق عودته مشى جيد وحده عبر الجزيرة فى بداية الشتاء فى الطرق المقفرة، وعندما جاء الليل كانت تمطر، لم يلق أى تعويذة لوقف المطر؛ لأن الجو فى روك كان يتحكم به الأستاذ مفتاح الريح، ولا يمكن العبث به. فقط احتمى تحت شجرة بلوط كبيرة، وأخذ يفكر فى أستاذه القديم أوجيون، وهو ممدد هناك تحت المطر ملتف بعباءته. قد يكون أوجيون لا يزال فى تجواله الخريفى الآن فوق مرتفعات جونت، ينام فى العراء، ويتخذ

من الأشجار الخالية الأوراق سقفًا، ومن الأمطار المنهمرة جدرانًا. ابتسم جيد، كان التفكير فى أوجيون دائمًا ما يريح قلبه، ونام وقلبه سعيد هناك فى البرد المظلم الملىء بهمس المطر. عند الفجر استيقظ ليجد المطر قد توقف، ورأى أن هناك فى ثنايا عباءته حيوانًا صغير مكومًا نائمًا، زحف على ما يبدو هناك طلبًا للدفء، كان حيوانًا نادرًا، أوتاك(٧).

كان هذا الحيوان موجودًا فقط على الجزر الأربعة الجنوبية من الأرخبيل، روك وإنسمر وبودى وواتهورت. حيوانات صغيرة وناعمة، فراؤها بُنِّى داكن أو رمادى، وعيونها واسعة ولامعة. ولأن أسنانها ومزاجها حادينِ فمن النادر أن يستأنسهم أحد، ليس لهم أى نداء أو صيحة أو صوت، هز جيد الأوتاك، فاستيقظ وتثاءب مُظهرًا لسانه البنى وأسنانه البيضاء، ولكنه لم يكن خائفًا. "أوتاك" قال جيد، ثم تذكر الاسم الحقيقى له من ضمن الألف اسم الذى حفظهم للحيوانات فى البرج، ونادى عليه باسمه فى اللغة القديمة "هويج، هل تريد أن تأتى معى؟"

وقف الأوتاك فى يد جيد المفتوحة، وأخذ يلعق فراءه.

وضعه على كتفه فى ثنايا غطاء رأسه، وأركبه هناك. أحيانا يقفز ويجرى فى الغابات أثناء النهار، ولكنه دائمًا ما يعود أحيانًا بفأر الغابات كصيد له، فيضحك جيد ويخبره أن يأكل صيده وحده؛ لأنه صائم بسبب كرنفال عودة الشمس. وهكذا عاد جيد إلى روك فى وقت السَّحَر الممطر إلى بستان روك، ورأى الويرلايت لامعة تلعب فى المطر فوق سقف القصر الكبير، ودخل هناك فوجد ترحيبًا من معلميه ورفاقه فى القاعة الدافئة.

---

(٧) الأوتاك حيوان مختلق فى عالم إيرثسى من القوارض يأنس لجيد دون سبب

شعر جيد كأنها عودة إلى المنزل، ولم يكن لهذا الفتى من قبل أى منزل يعود إليه، كان جيد سعيدًا بعودته وبرؤيته الوجوه التى عرفها، وخاصة فيتش الذى تقدم نحوه بابتسامه واسعة على وجهه الأسمر. افتقد صديقه هذا العام أكثر مما كان يدرك، فى ذلك العام المنصرم أصبح فيتش ساحرًا، وليس مشعوذًا متدربًا بعد هذا، ولكن هذا لم يضع أى حواجز بينهما، فقد انخرطا فى الحديث على الفور، وبدا لجيد أنه تحدث مع فيتش فى تلك الساعة الأولى أكثر مما قال فى ذلك العام الماضى كله فى برج العزلة.

كان الأوتاك لا يزال يركب على كتفه، ويتخذ من ثنايا غطاء رأسه عشًا أثناء العشاء المخصص للكرنفال على المائدة الطويلة فى قاعة المدفأة. أُعجب فيتش بالحيوان، وحاول أن يرفع يده ليداعبه، لكن الأوتاك عض يده بأسنانه الحادة. ضحك فيتش وهو يقول لجيد: "يقولون يا سباروهوك إن الإنسان الذى تحبه الحيوانات، وتفضله على الآخرين هو إنسان ستحدثه القوى العتيقة للحجر والماء بلغة الإنس فى يوم من الأيام."

أما جاسبر الذى كان يجلس بالناحية الأخرى فقال: "يقولون إن لكل ساحر جونتى حيوانًا أليفًا، فمعلمنا نيميريل لديه الغراب، وتقول الملاحم إن الساحر الأحمر لآرك كان لديه خنزير برى مربوط بسلسلة ذهبية، ولكنها المرة الأولى التى نسمع عن ساحر لديه فأر فى غطاء رأسه."

وعند هذا ضحكوا جميعًا وضحك جيد معهم، كانت ليلة مرحة، وكان جيد مبتهجًا بأن يكون وسط الدفء والبهجة محتفلاً مع زملائه، لكن مثل كل ما يقوله جاسبر له كانت دعابته تحرق الدم.

في تلك الليلة حل لورد أو ضيفًا على المدرسة، كان نفسه ساحرًا ذائع الصيت وتلميذًا للساحر الأكبر، وكان يحب العودة للمدرسة أحيانًا لحضور كرنفال الشتاء، أو الرقصة الطويلة فى الصيف. كانت معه امرأته، شابة رشيقة، مصقولة مثل النحاس الجديد، شعرها الأسود مزين بالمجوهرات. من النادر أن تطأ أى امرأة القصر الكبير، ولهذا أخذ بعض من الأساتذة الكبار ينظرون لها شذرًا، بينما نظر إليها الشباب بملء أعينهم متلهفين.

– "من أجل امرأة مثل هذه، أستطيع أن أعمل تعويذات رهيبة." تنهد فيتش وضحك.

– "لكنها مجرد امرأة." رد جيد.

– "كانت الأميرة إلفاران مجرد امرأة." قال فيتش، "لكن من أجلها خُربت كل إنلاد، ومات الساحر البطل، ساحر هافنور وغرقت جزيرة سوليكا تحت البحر.

– "أساطير؟" قال جيد، ثم بدأ هو أيضًا فى التطلع إلى ليدى أو، وهو يتساءل هل هذا بالفعل جمال زائل كما تقول الحكايات القديمة.

أنشد الأستاذ الراوى مآثر الملك الشاب، وغنوا مجتمعين وينتر كارول، وعندما كانت هناك استراحة قصيرة قبل أن يرفعوا المائدة، قام جاسبر واقترب من الساحر الأكبر وضيوفه وتكلم مع ليدى أو. لم يعد جاسبر صبيًا بعد الآن، فقد أصبح شابًا طويلًا وسيمًا، وعباءته مزمومة حول عنقه بمشبك من الفضة؛ لأنه هو أيضًا أصبح ساحرًا هذا العام، وكان المشبك الفضى علامة قرب التخرج. ابتسمت السيدة على ما قاله جاسبر، وأخذت الجواهر تلمع فى شعرها الأسود، براقة. ثم بعد ذلك، وبعد أن

تلقَّى جاسبر إيماءة الموافقة من الأساتذة، ألقى جاسبر تعويذة إيهام على شرفها. أنبت شجرة بيضاء من الأرض الصخرية، وصَلَت فروعها لأعمدة السقف، وعلى كل غصن نبتت تفاحة ذهبية تلمع مثل الشمس، فقد كانت هذه السنة سَنة الشجرة. طار طائر من بين الأغصان فجأة، أبيض تمامًا، وله ذيل مثل شلال من الثلج، والتفاحات تحولت إلى بذور، ثم تحولت كل بذرة إلى قطرة من الكريستال تتساقط من الشجرة، ولها صوت مثل المطر. ثم هبت رائحة جميلة، بينما الشجرة تتمايل وتتفتح فيها أوراق نارية اللون، وزهور بيضاء مثل النجوم، ثم انتهت التعويذة والإيهام. صاحت السيدة من شدة العجب والمتعة، وأحنت رأسها المتلألئ للساحر الشاب مديحًا له ولقدرته. "تعال معنا، تعال عش معنا فى أو-توكن، هل يستطيع أن يأتى يا سيدى؟" طلبت من زوجها الكئيب على طريقة الأطفال، ولكن جاسبر رد قائلًا: "حين أتعلم مهارات تليق بأساتذتى هنا فى روك، وبمديحك سيدتى، سآتى على الرحب والسعة، وأخدمك للأبد بكل ترحاب."

وهكذا، أسعد جاسبر كل الناس هناك ما عدا جيد، الذى شارك الجميع الثناء على جاسبر بصوته من وراء قلبه. "كنت أستطيع أن أتفوق عليه." قال لنفسه فى حقد مرير، وأظلمت الدنيا كلها فى عينيه.



(٤) تحرير الشبح

د فيتش أو جاسبر كثيرًا ذلك الربيع؛ لأنهما، وقد أصبحا
يدرسان مع الأستاذ صاحب الأنساق فى سرية غابة السحر
لا يخطو أى متدرب مبتدئ أو مشعوذ. مكث جيد فى القصر
ع بقية الأساتذة على كل المهارات التى يمارسها المشعوذون:
ـ دون عصا، جلب الرياح، تحريك الطقس، الإيجاد والربط،
وحياكة التعويذات، وكذلك تعلم شغل العرَّافين والمنشدين
الأمراض، والمعالجين بالأعشاب. وحين يصبح وحده فى
كُرة الويرلايت فوق رأسه بدلًا من المصباح أو الشمعة،
رونية العتيقة ورونية إيا، اللتين تُستخدمان فى التعويذات

الكبرى، كان يكتسب كل المهارات بسهولة ويسر، حتى إن الشائعات سرت في المدرسة أن هذا الأستاذ أو ذاك قد قال إن جيد الفتى الجونتي هو أسرع طالب جاء لمدرسة روك، وحيكت الحكايات حول الأوتاك، وكيف هو روح متخفية تهمس بالحكمة في أذن جيد، حتى قيل إن غراب الساحر الأكبر قد حيَّى جيد عند وصوله باعتباره الساحر الأكبر مستقبلًا. وسواء صدقوا هذه القصص أم لا، وسواء أحبوا جيد أم لا، كان معظم رفاقه يعجبون به ويحبون الالتفاف حوله حين تغمره روح الجموح ويقرر الانضمام لهم في ألعابهم في ليالي الربيع. لكن في أغلب الأوقات عاش جيد متباعدًا عنهم، يملؤه العمل والغرور والانفعال. وبوجود فيتش بعيدًا لم يكن لديه أصدقاء، ولم يدرك أنه بحاجة لأي أصدقاء.

كان جيد في الخامسة عشرة، كان أصغر من أن يتعلم الفنون العليا للسحرة ذوي العصا، ولكنه كان سريعًا بحيث يتعلم فنون الإيهام من أستاذه الشاب المحول، والتي علمها له وحده دون الطلاب الآخرين. كما علمه التعويذات الحقيقية للتشكيل، وأوضح له أنه لو أردنا أن نغير طبيعة الشيء عن حق فيجب أن نعيد تسميته طوال فترة استمرار التعويذة، وأوضح أيضًا كيف أن هذا يؤثر على أسماء وطبائع الأشياء المحيطة بالشيء المتحول. كلَّمه عن مخاطر التحويل وأهمها حين يتحول الساحر ويغير شكله، ويصبح بهذا عُرضة لأن ينحبس في تعويذته. شيئًا فشيئًا، مأخوذًا بثقة الولد وسرعة فهمه، بدأ الأستاذ في فعل ما هو أكثر من تعليمه هذه الأسرار. علمه التعويذة الأولى من تعويذات التحويل الكبرى، ثم أخرى وأخرى، ثم أعطاه بحسن نية كتاب التحويل ليدرسه، وكان كل هذا يتم دون علم الساحر الأكبر.

عمل جيد أيضًا مع الأستاذ المستحضر، وكان رجلًا مُسنًّا متجهمًا، أثقله السحر العميق الكئيب الذى يعلمه. كان سحره خاليًا من الإيهام، سحرًا حقيقيًا يستدعى قوى الطبيعة مثل الضوء والحرارة وقوة المغناطيس، وتلك القوى الموجودة فى الوزن والشكل واللون والصوت، قوى حقيقية مستمدة من قوى الكون الواسعة التى لا يمكن سبر أغوارها، ولا تستنفذها ولا تغيرها تعاويذ إنسان. كان الإبحار وتحريك الطقس من المهارات المعروفة بالفعل لطلابه، لكنه كان يريهم لماذا على الساحر الحقيقى أن يستخدم هذه التعاويذ عند الضرورة القصوى فقط؛ لأن العبث بمثل هذه القوى يغير من الأرض التى نحن جزء منها. وكما يقول الأستاذ " المطر على روك قد يعنى الجفاف فى أوسيكيل، والهدوء فى الطرف الشرقى قد يقابله عاصفة ودمار فى الغرب؛ فلا تعبث بالكون إلا إذا كنت تَعِى تمامًا ما أنت مقدم عليه. "

أما عن استدعاء الأشياء الحقيقية والأحياء وأرواح الأموات واستدعاء اللامرئى، تلك التعاويذ التى هى أعظم ما فى فن الاستحضار وقوة الصورة، فهذه أشياء يندر أن يتكلم الأستاذ عنها. حاول جيد مرة أو مرتين أن يدفعه للحديث عن هذه الأسرار، لكن الأستاذ ظل صامتًا، وهو ينظر إليه طويلًا بصرامة؛ حتى يتكدر جيد فى نهاية الأمر، ولا ينطق بكلمة بعدها.

وبالفعل، أحيانًا كانت حتى التعاويذ البسيطة التى تعلمها من الأستاذ المستحضر تصيبه بالقلق، كانت هناك بعض كلمات باللغة الرونية فى صفحات معينة من كتاب السحر الرئيس تبدو مألوفة له، رغم أنه لا يتذكر فى أى كتاب رآها من قبل. كانت هناك جمل فى الاستحضار يكره قولها؛ لأنها تجعله يفكر لأول وهلة فى ظلال وأشباح فى غرف مظلمة، فى باب مغلق وأشباح تمسك به من زاوية الباب. كان يطرد هذه المخاوف والذكريات سريعًا، ويقول لنفسه إن لحظات الخوف هذه ليست سوى أشباح جهله.

وكلما زاد علمه قلَّ خوفه، حتى يأت اليوم الموعود الذى لا يخاف فيه من أى شىء فى الدنيا على الإطلاق.

وفى الشهر الثانى من هذا الصيف اجتمعت كل المدرسة مرة أخرى فى القصر الكبير للاحتفال بعيد ليلة القمر وعيد الرقصة الطويلة، اجتمع العيدان معًا هذا العام فى احتفال مكون من ليلتين، وهو الأمر الذى يحدث مرة كل اثنى وخمسين عامًا.

وطوال الليلة الأولى، وهى أقصر الليالى القمرية فى السنة، تمتلئ الحقول بعزف الناى، وتكتظ شوارع ثويل بالطبول والمشاعل، وأصوات الغناء تمتد فوق مياه خليج روك التى تضيئها أشعة القمر. وعند شروق الشمس فى اليوم الثانى بدأ منشدو روك فى إنشاد سيرة إيريث آكبى الطويلة، والتى تحكى كيف بُنيت أبراج هافنور البيضاء، وعن رحلات إيريث آكبى فى الجزيرة العتيقة إيا عبر الأرخبيل، حتى قابل أورم فى أقصى الطرف الغربى عند البحر المفتوح. ذلك البطل آكبى الذى ترقد عظامه المبعثرة جنبًا إلى جنب مع عظام على شاطئ جزيرة سيليدور الوحيدة، بينما يتربع سيفه فوق أعلى برج فى هافنور، ولا يزال السيف يشتعل باللون الأحمر عند المغيب فوق البحر المخفى. عندما انتهى الإنشاد بدأ الرقص. رقص الجميع، رجالًا ونساءً، أساتذة وطلابًا، على دقات الدفوف وأنغام المزامير، فوق التراب الدافئ لشوارع روك فى وقت الغسق، وحتى الشواطئ. رقصوا حتى البحر تحت ضوء القمر الذى كان قد اكتمل فى الليلة الفائتة، واختفت الموسيقى فى صوت تكسر الموج على الصخور. وعند بزوغ الضوء من الشرق فى الفجر تركوا البحر، وعادوا للشواطئ والطرقات؛ حيث سكتت الطبول وظلت المزامير تعزف بنعومة. كان هذا فى كل جزيرة من جزر الأرخبيل فى تلك الليلة، موسيقى واحدة توحد الجميع على تلك الأرض التى يفصلها البحر بعضها عن بعض.

وحينما انتهت الرقصة الطويلة نام معظم الناس بقية اليوم، ثم تجمعوا ثانية فى المساء حول الطعام والشراب. أحضر مجموعة من الشباب الصغار - متدربين وسحرة - عشاءهم من مطعم المدرسة؛ ليكون لهم احتفالهم الخاص فى إحدى أفنية القصر الكبير، وهم: فيتش وجاسبر وجيد، مع ستة أو سبعة آخرين، وبعض من الشباب الذين تم تسريحهم حديثًا من برج العزلة، فقد شجَّع الحفل الجميع على الفرحة، حتى الأستاذ كورمكاركيك نفسه. كانوا جميعًا يأكلون ويضحكون ويلعبون ألعابًا مرحة، كما لو كانوا فى بلاط ملك من الملوك. أضاء واحد منهم الفناء بمائة من نجوم كرات الويرلايت الملونة مثل الجواهر، والتى أخذت تتأرجح بينهم وبين النجوم الحقيقية كأنها تسير فى موكب بطىء. وولدان آخران كانا يلعبان البولينج بكرات من اللهب الأخضر، ودبابيس البولينج تنط وتقفز كلما اقتربت منها الكرة. كل هذا وفيتش يجلس متربعًا فى الهواء يأكل الدجاج المشوى. حاول أحد الفتية الصغار أن يجذبه لأسفل، ولكن فيتش صعد لأعلى فى الهواء، لأبعد من أن يصله أحد مبتسمًا فى هدوء. بين الحين والحين كان يلقى بعظمة دجاجة تتحول إلى بومة تنعق وتطير بعيدًا بين النجوم. كان جيد يلقى بأسهم من الخبز على ذلك البوم فيوقعه، وعندما كان البوم والسهام يلمسان الأرض، كانا يعودان إلى حالتهما الطبيعية، عظم وخبز! حاول جيد أيضًا أن يلحق بصاحبه فى الهواء، لكن لأنه كان جاهلًا بالتعويذة كان عليه أن يرفرف بجناحيه ليظل طائرًا، وظلوا كلهم يضحكون على طيرانه ورفرفته وخبطاته. ظل جيد يرفرف هكذا بعض الوقت ليضحك أصحابه، فبعد ليلتين طويلتين من ضوء القمر والرقص والسحر والموسيقى كان جيد منطلقًا ولايهمه شىء.

وأخيرًا نزل على قدميه بجانب جاسبر، الذى لم يشاركهم الضحك والصخب، ولكنه قال : "صقر لا يستطيع الطيران..."

قال جيد وقد استدار له وهو يبتسم: "هل جاسبر درة مكنونة إذن؟ يا جوهرة بين السحرة، يا جوهرة هافنور، أسحرينا بضيائك!"

وعلى الفور قام الولد الذى أرقص الويرلايت بإحضار واحدة لترقص وتتلألأ فوق رأس جاسبر، أما جاسبر فقد أزاح الضوء بعيدًا، وأطفأه بحركة واحدة قائلا: "مللت من الصبية والضجة والسفاهة."

"يبدو أنك تكبر يا فتى!" هكذا علَّق فيتش من مكانه أعلى.

"لو كان الصمت والكآبة هما ما تبحث عنه، فربما تود أن تجرب البرج"، علق الصبى الأصغر فيهم، ثم قال جيد: "ماذا تريد يا جاسبر؟"

– "أريد صحبة أقرانى... هيا يا فيتش، اترك المشعوذين المتدربين لألعابهم."

تقدم جيد لمواجهة جاسبر، وقال متسائلًا: "ما الذى يميز السحرة عن المشعوذين؟" كان صوته هادئًا، ولكن بقية الصبية أطبق عليهم الصمت التام، فقد كان الحقد العميق واضحًا فى كلام جيد وجاسبر الآن مثل وضوح السيف خارج غمده.

– فرد جاسبر: "القوة."

– "سأتحدى قوتك... واحدة بواحدة"

– "أتتحدانى؟"

– "أتحداك."

نزل فيتش إلى الأرض، ووقف بينهما متجهم الوجه قائلًا: "المبارزات ممنوعة علينا فى السحر، وتعلمان هذا جيدًا، دعا الأمر يتوقف عند هذا."

وقف جيد وجاسبر صامتين؛ لأنهما يعرفان حق المعرفة أن المبارزة ممنوعة فى روك، وأن ما يحرك فيتش للنصيحة هو الحب، بينما ما يحركهما فى واقع الأمر هو الكراهية. تراجع غضبهما دون أن يهدأ، وعلى الفور أخذ جاسبر فيتش جانبًا، وقال بابتسامته الساخرة: "ربما عليك أن تُذكر صديقك راعى الأغنام مرة أخرى بالقانون الذى يحميه، فهو يبدو متجهمًا، أتعجَّبُ كيف تصوَّر أننى سأقبل التحدى منه؟ من شخص برائحة الأغنام؟ مشعوذ لا يعرف تعويذة التحول الأولى"؟

– فناداه جيد: "جاسبر، ما الذى تعرفه ولا أعرفه؟"

للحظة، وبدون أن ينطق، اختفى جيد من أنظارهم، ووقف مكانه صقر كبير يرفرف، فاتحًا منقاره يصرخ، وفى لحظة أخرى وقف جيد ثانية فى مكانه فى ضوء المصباح المهتز ينظر إلى جاسبر نظرة مسمومة.

تراجع جاسبر إلى الوراء فى دهشة، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة، وقال كلمة واحدة: "إيهام."

تمتم الآخرون، وقال فيتش: "لم يكن هذا إيهامًا، بل تحول حقيقى. ويكفى هذا يا جاسبر، اسمع..."

قال جاسبر: " هذا كاف ليثبت أنه اختلس نظرة على كتاب التحول دون علم أستاذه. ماذا لديك أيضًا يا راعى الأغنام؟ استمر، تعجبنى المصيدة التى تبنيها لنفسك، كلما حاولت أن تثبت أنك ندٌّ لى أظهرت معدنك."

عند هذا استدار فيتش إلى جيد وقال بدماثة: "سباروهوك، هل تكون رجلًا حقيقيًا وتكف عن هذا الآن؟ تعال معى."

نظر جيد لصديقه وابتسم، وقال "احتفظ بهويج من أجلى من فضلك، ممكن؟" وضع الأوتاك، والذى كان كالعادة راكبًا على كتفه، فى يدى فيتش. لم يدع هذا الكائن أى مخلوق سوى جيد يلمسه من قبل، ولكنه استجاب لفيتش وتسلق ذراعه، ثم تكوم على كتفه وعيناه الواسعتان واللامعتان ثابتتان على سيده.

- "الآن، ماذا ستفعل لتثبت أنك أحسن منى يا جاسبر؟" قال جيد محتفظًا بهدوئه السابق.

- "ليس على أن أفعل أى شىء يا راعى الجديان. لكن انتظر، سأعطيك الفرصة، يأكل الحسد قلبك مثل الدودة، يومًا ما على هضبة روك تفاخرت أن السحرة الجونتيون لا يلعبون. تعال إلى هضبة روك الآن، وأرنا ماذا يفعل السحرة الجونتيون بدلًا من الألعاب."

- "بكل سرور." أجاب جيد. وقف الأولاد الصغار ينظرون إلى جيد فى هدوئه بدهشة، فقد اعتادوا أن يروا حدته عند أى موقف يهينه. أما فيتش فحملق فيه بشعور من الخوف المتزايد، حاول أن يتدخل مرة أخرى ولكن جاسبر قال: "ابق بعيدًا يا فيتش، ماذا ستفعل بالفرصة التى أعطيها لك يا راعى الغنم؟ هل سترينا خداعًا بصريًا؟ كرة نار؟ أم تعويذة لعلاج الجديان من الجرب؟"

- "ماذا تريدنى أن أقدم يا جاسبر؟"

هز الولد الأكبر كتفيه بدون مبالاة، وقال: "استدع روحًا من الموتى..."

- "سأفعل."

- "لن تفعل" قالها جاسبر، وهو ينظر إليه مباشرة، وغضبه يفوق احتقاره فى نارها، "لن تفعل... لن تفعل، أنت تتباهى وتتفاخر."

- "بحق اسمى، سأفعلها."

وقفوا جميعًا بلا حراك.

أفلت جيد من فيتش حتى لا يمنعه بالقوة، وهرول خارج الفناء دون أن ينظر خلفه، كانت الويرلايت الراقصة فوق الرءوس قد خبت الآن. تردد جاسبر للحظة، لكنه تبع جيد وتبعهما الآخرون واجمين يملؤهم الفضول والخوف.

ارتفعت منحدرات هضبة روك فى ظلام تلك الليلة الصيفية قبل طلوع القمر، كان وجود هذا التل ذاته الذى حدثت عليه معجزات كثيرة فى الماضى ثقيلًا مثل ثقل الهواء حولهم. حين وصلوا إلى منحدر التل فكروا فى عمق جذوره، كانت أعمق من البحر، تصل إلى النيران السرية الأزلية والعمياء لبطن الأرض. وقفوا عند المنحدر الشرقى، بينما النجوم تبدو معلقة فوق العشب الأسود عند هلال التل فوقهم، والهواء ساكن.

مشى جيد عدة خطوات بعيدًا عن الآخرين، ثم استدار قائلًا فى صوت واضح: "جاسبر، روح من تريدنى أن أستدعى؟"

- "استدعِ من تريد، فلن يسمعك أحد." اهتز صوت جاسبر قليلًا من الغضب وهو يقول هذا. فأجابه جيد ساخرًا "هل أنت خائف؟"

لم يقف ليسمع رده إن كان قد رد أصلًا، لم يعد يهتم بجاسبر الآن، ذهب الغضب والكره من قلبه، وحلت محلهما الثقة المطلقة فى نفسه، وهو يقف

على هضبة روك. لم يعد بحاجة لأن يحسد أحدًا الآن، كان يعرف أن قوته فى تلك الليلة على تلك الأرض القاتمة المسحورة أقوى من أى وقت مضى، كانت قوته تملؤه حتى كاد يرتعش من إحساس المقدرة الكامنة المكبوحة بصعوبة بداخله. عرف الآن أن جاسبر أقل منه بكثير، ربما دوره فى حياة جيد خادم وليس ندًّا. شعر جيد بجذور التل تحت قدميه تمتد لأسفل فى الظلمة، وفوقه رأى نيران النجوم، ما بين الأرض والسماء شعر بكل شىء تحت إمرته، ورهن إشارته، فكأنه وقف فوق مركز الأرض.

– "لا تخف." قال لجاسبر مبتسمًا: "سأستدعى روح امرأة، أتخاف النساء؟ سأستدعى إلفارين، حسناء ملاحم إنلاند."

– "ماتت منذ آلاف السنين، ترقد عظامها بعيدًا فى بحر إيا، وربما لم يكن هناك أى امرأة بهذا الاسم."

– "وهل تؤثر السنون والمسافات مع الموتى؟ هل تكذب الملاحم؟" قال جيد بالسخرية نفسها، ثم أردف قائلًا: "راقب الهواء بين أصابعى." استدار بعيدًا ووقف ساكنًا.

مد جيد ذراعيه ببطء فى حركة مهيبة، كانت هذه هى الإشارة الترحيبية التى تفتح الاستحضار، وبدأ يتكلم.

كان قد قرأ الكلمات الرونية لتعويذة الاستحضار هذه فى كتاب تعاويذ الاستحضار الخاص بأوجيون منذ عامين ونصف، ولم يرها بعد هذا. وقتها قرأ هذه التعويذة فى الظلام، أما هذه الليلة كان كمن يراها، وكأن الصفحة مفتوحة أمامه، غير أنه أمسى الآن يفهم ما يقرؤه، يرتله عاليًا كلمة بكلمة، بل يرى علامات حياكة التعويذة بالصوت وحركة الجسم واليد.

وقف الصبية يراقبون دون صوت أو حركة إلا من حركة رعشة أجسامهم، فالتعويذة الكبيرة بدأت فى العمل. كان صوت جيد لا يزال ناعمًا، لكنه تغير بفعل الإنشاد العميق، رغم أنه لم يعرف الكلمات التى ينطقها. ثم سكت فجأة. ثم هبت ريحُ تزأر فى الحشائش، خر جِيد على ركبتيه وصاح عاليًا، ثم انكفأ على وجهه كما لو كان يحتضن الأرض بذراعيه، وحينما قام كان يحمل على ذراعيه المشدودتين شيئًا داكنًا. كان هذا الشىء ثقيلًا لدرجة أنه ترنح تحت ثقله ليقوم واقفًا. كانت الرياح تعوى الآن فى حشائش التل السوداء المتشنجة، ولم تعد النجوم مرئية حتى وإن لمعت فى السماء.

كانت كلمات التعويذة تتحرك وتُتمتم الآن على شفتى جيد، ثم صرخ مرة أخرى بوضوح عاليًا: "إلفارين!"

وثانيةً: "إلفارين."

انقسمت الكتلة السوداء الصماء التى رفعها من قبل، وخرج من بين يديه عمود دوار من الشعاع مثل بيضة من الضوء تمتد من الأرض حتى نهاية ذراعه الممدودة، وبداخل البيضة شكل يتحرك، جسم بشرى، امرأة طويلة تنظر وراء كتفها، كان وجهها جميلًا وحزينًا ومرعوبًا.

لمعت تلك الروح لبرهة قصيرة هناك، ثم ازداد لمعان البيضة بين يدى جيد، اتسعت وامتدت مثل شق فى ظلام الليل والأرض، مثل فتق فى قماش الأرض، يبرق منه شعاع مخيف، ومن خلال ذلك الشق اللامع كانت هناك كتلة تحاول الخروج بجهد جهيد، مثل شبح أسود سريع وكريه قفز مباشرة على وجه جيد.

ترنَّح جيد تحت ثقل هذا الشيء وأطلق صرخة قصيرة مبحوحة، قفز الأوتاك الصغير من فوق كتف فيتش، وكأنه سيهاجم، وهو يصرخ عاليًا، رغم أنه بلا صوت.

سقط جيد على الأرض وهو يكافح ويتلوى، بينما الشق البراق فى ظلمة العالم فوقه يتسع ويمتد. هرب الصبية الذين كانوا يشاهدون هذا، وانحنى جاسبر على الأرض وهو يخفى عينيه من الضوء المخيف، وحده فيتش هو الذى جرى لصديقه، فرأى كتلة الشبح الملتصقة بجيد مثل وحش أسود فى حجم طفل صغير، رغم أنه بدا وكأنه ينتفخ وينكمش، كان كتلة بدون رأس أو وجه، بل فقط أطراف أربعة أخذت تنهش وتمزق وجه جيد. علا نشيج فيتش من الرعب، ولكنه مد يديه محاولاً أن يشد هذا الشيء بعيدًا عن صديقه، وقبل أن يلمسه كان قد رُبط وعجز عن الحركة.

خبا الضوء الفظيع، وانقفل شرخ الأرض ببطء، بينما بالقرب تكلم صوت ببطء مثل شجرة تهمس أو نافورة تلعب.

لمعت النجوم مرة أخرى، وابيضت الحشائش على التل بضوء القمر الطالع. التأم جرح الليلة، وعاد توازن الضوء والظلام، واختفى الوحش الشبحى، رقد جيد ممددًا على ظهره، ويداه ممددتان بجانبه، وكأنها قد احتفظت بإشارة افتتاحية التعويذة، وجهه مسودًا بالدماء، وقميصه مبقع بها، والأوتاك يرقد فوق كتفه يرتعد. فوقه وقف رجل عجوز تلتمع عباءته شاحبة فى طلوع القمر: الساحر الأكبر نيميريل.

تأرجحت عصا إيميريل الفضية فوق صدر جيد، تارة يلمس بها قلبه برفق، تارة فوق شفتيه وهو يهمس. بدأ جيد يتحرك وشفتاه تنفتحان شهقًا، ثم رفع الساحر الأكبر العجوز عصاه، ووضعها على الأرض، واستند عليها وهو مطأطئ الرأس، كما لو كانت قواه قد خارت ولا يقدر على الوقوف.

أخيرًا وجد فيتش فى نفسه القدرة على الحركة، عندما نظر حوله كان الجميع هناك، ومعهم أساتذة الاستحضار والتحول، كان من الطبيعى أن يعملوا معًا لإحداث هذاالسحر العظيم. لديهم قدرة عجيبة على الحضور بسرعة إذا ما استدعت الحاجة، وإن فاقهم جميعًا فى السرعة الساحر الأكبر نيميريل. أرسلوا جميعًا لطلب المساعدة الآن، بعضهم ذهب ليساعد الساحر الأكبر، بينما ذهب البعض - ومن بينهم فيتش - ليحملوا جيد لحجرة أستاذ عشبى، أستاذ الاستشفاء.

مكث الأستاذ المستحضر طوال الليل.على هضبة روك يراقب، لم يتحرك أى شىء على جانب الهضبة فى البقعة التى انفتحت فيها بطن الأرض، لم يزحف أى شبح فى ضوء القمر باحثًا عن الشق الذى خرج منه ليعود لملكته. هرب الشبح من إيميريل ومن جدران التعاويذ الشاهقة التى تحيط بالجزيرة وتحميها، لكنه أصبح حرًّا طليقًا فى العالم الآن، يختبئ فى مكان ما. لو كان جيد قد مات هذه الليلة كان الشبح ليحاول أن يجد العتبة التى دخل منها للعالم ليتبعه إلى مملكة الأموات، أو ينزلق راجعًا من حيث أتى، وهذا ما انتظره المستحضر على تل روك، لكن جيد كان لا يزال على قيد الحياة.

وضعوه على الفراش فى غرفة الإشفاء، وباشر الأستاذ عشبى علاج جروح وجهه وحلقه وكتفه، كانت جروحًا غائرة، مهترئة ومقززة، لا يتوقف الدم الأسود عن النزف منها متدفقًا حتى تحت قوة التعاويذ، ورغم أنهم وضعوا عليها أوراق البريوت (٨) الشافية الملفوفة، رقد جيد محمومًا لا يرى ولا ينطق مثل عصا تشتعل داخل نار، دون أية تعويذة تطفئها.

---

(٨) أوراق البرويوت هي نبات مختلق شاف .

وليس ببعيد فى الفناء المكشوف للقصر؛ حيث كانت النافورة تتراقص، رقد الساحر الأكبر بلا حركة، باردًا، باردًا للغاية، فقط عيناه كانتا حيتين ترقبان تساقط المياه وحركة أوراق الشجر التى يضيئها القمر. من حوله لم تكن هناك أية تعاويذ أو إشفاء. كل من حوله يرقبه بهدوء، يتحدث بعضهم مع البعض من وقت لآخر، ثم يعاودون النظر إلى سيدهم ثانية وهو يرقد ساكنًا، أنفه مثل منقار الصقر، وجبهته العالية وشعره الأبيض مصبوغان بضوء القمر، وكلهم بلون العظام، فقد استنفذ الساحر كل قوته ليتحكم فى التعويذة المنفلتة، ويبعد الشبح عن جِيد، وذهبت كل مقدرته الجسدية بسبب هذا، وبدأ يحتضر. لكن احتضاره كان عجيبًا؛ لأنه موت ساحر عظيم تمرَّس على المشى مرارًا فى المنحدرات الجافة لملكة الموت وهو حى، رجل يموت ويعرف طريقه للموت عن ثقة. وعندما نظر الساحر من خلال أوراق الشجرة لم يعرف الناس من حوله، إن كان يراقب نجوم الصيف تخبو فى ضوء الفجر، أم يراقب النجوم الأخرى التى لم تطلع يومًا ما على أى تل ولم ترَ أى فجر.

أما غراب أوسيكيل، حيوانه الأليف طوال ثلاثين عامًا، فقد اختفى! لا يعرف أحد أين ذهب. "لقد سبق سيده." قال الأستاذ صاحب الأنساق وهو فى فترة المناوبة.

ثم بدأ اليوم دافئًا وصافيًا، بينما القصر الكبير وكل شوارع ثويل غارقة فى الصمت، حتى قرعت الأجراس عند الظهر فى برج الأستاذ الراوى وأعلنت الخبر برنينها القاسى.

وفى اليوم التالى اجتمع الأساتذة التسعة لمدرسة روك فى مكان ما تحت الشجر الداكن لغابة السحر العتيقة، وهناك قرروا أن يختاروا من كل

سحرة روك فى إيرثسى من يحل محل الساحر الأكبر، أقاموا تسعة جدران من الصمت حولهم فلا يسمعهم شخص، ولا تتحدث لهم قوة.

جنشر أوف واى كان اختيارهم، ولهذا ذهبت سفينة على الفور عبر البحر المخفى لإحضار جنشر إلى روك ثانيةً، وقف المعلم مفتاح الريح فى مقدمة السفينة، وأثار ريح السحرة فى الشراع لتغادر السفينة بسرعة وتختفى.

لم يعرف جيد وقتها أى شىء عن كل هذا، فقد رقد أعمى وأصم وأبكم طوال أربعة أسابيع فى ذلك الصيف القائظ، رغم أنه كان يئن ويصرخ أحيانًا مثل الحيوانات. وأخيرًا، وعندما بدأت معجزات الأستاذ عشبى تؤتى ثمارها، بدأت الجروح فى الالتئام وأخذت الحمى فى الاختفاء. شيئًا فشيئًا بدأ يسمع ثانيةً، رغم أنه لم يتكلم أبدًا.

وفى أحد أيام الخريف الصافية فتح المعلم عشبى مصاريع نوافذ غرفة جيد الذى لم يرَ غير العتمة منذ ظلام تلك الليلة على هضبة روك، فخبأ جيد وجهه المُندَّب فى كفيه، وبكى عندما رأى نور النهار والشمس ساطعة.

حتى عندما جاء الشتاء لم يكن جيد ليتكلم سوى بلسان متلعثم، ولهذا تركه المعلم عشبى فى حجرات الاستشفاء محاولًا أن يعيد الصحة لذهنه وجسمه تدريجيًا. ولم يتركه المعلم إلا فى أوائل الربيع، مرسلًا إياه ليقدم فروض الولاء للساحر الأكبر الجديد، مثلما قدم ذلك الواجب بقية طلاب المدرسة.

لم يكن مسموحًا لأى من رفاقه أن يزوروه فى شهور مرضه، والآن، وبينما كان يمر بجانب بعضهم، كانوا يتساءلون: "من هذا؟" قبل أن يحدث

ما حدث كان قويًا رشيقًا وخفيفًا، أما الآن فقد هدّه الألم، يمشى مترددًا، لا يرفع وجهه أبدًا، فجانب وجهه الأيسر أصبح شاحبًا من كثرة الندوب. تجنب من يعرفونه ومن لا يعرفونه، ومشى فى طريقه إلى باحة النافورة، وهناك حيث وقف منتظرًا إيميريل يومًا ما وجد جنشر ينتظره.

ارتدى الرجل العباءة البيضاء مثل الساحر الأكبر الراحل، لكنه مثل كل الرجال من المنطقة الشرقية كان داكن البشرة، عميق النظرة ثقيل الحواجب، انحنى جيد وقدم تحيته وطاعته، بقى جينشر صامتًا لفترة.

– "أعلم ما فعلت." قال بعد طول انتظار، "ولكننى لا أعلم ما أنت، ولا أستطيع تقبل ولائك."

وقف جيد وسند بيده على جذع شجيرة بجانب النافورة ليزن نفسه، كان لا يزال بطيئًا فى إيجاد الكلمات، فقال: "هل على أن أغادر روك يا سيدى؟"

– "هل تريد أن تغادر روك؟"

– "لا"

– "ماذا تريد؟"

"أن أبقى، أن أتعلم أن أمحو... الشر."

"لم يستطع إيميريل نفسه أن يفعل هذا – لا، لن أتركك تغادر روك، لا شىء يحميك سوى قوة الأساتذة هنا، والتحصينات الموضوعة على الجزيرة لطرد الكائنات الشريرة. لو رحلت الآن سيعثر هذا الشىء الذى أطلقته عليك على الفور، ويدخلك ويتحكم بك. لن تصبح إنسانًا من بعدها، بل وحشًا، جيبيث[٩]، دمية، تنفذ إرادة الشبح الشرير الذى أخرجته لضوء

(٩) الجيبيث هو شخص تمتصه إحدى القوى الشريرة وتفرغه من محتواه وتتحكم به ومن خلاله

النهار. لا بد من أن تنتظر هنا لتكتسب القوة والحكمة اللازمتين لتدافع عن نفسك تجاهه، إن كنت يومًا ستفعل هذا. حتى الآن ينتظرك، بالقطع ينتظرك. هل رأيته بعد هذه الليلة؟

ـ "فى الأحلام فقط." ثم قال بعد فترة وصوته يقطر ألمًا وخجلًا: "لورد جينشر، لا أعرف ما كان هذا، ذلك الشىء الذى خرج من التعويذة والتصق بى."

– "ولا أنا أعرف، لا اسم له، بداخلك قوة هائلة طبيعية، ولكنك استخدمت قوتك خطأ لتلقى تعويذة لم يكن لك عليها سلطان، ولا كنت تعرف ما ستحدثه من آثار على الضوء والظلام، الحياة والموت، الخير والشر. اندفعت لتفعل هذا بالكبرياء والكراهية. هل هناك أى عجب من أن النتيجة هى الدمار؟ لقد استدعيت روحًا من أرواح الموتى، لكن معها جاءت قوة من قوى الموت، جاءت غير مدعوة من مكان بلا أسماء، تريد أن تعمل الشر من خلالك. القوة التى استدعيتها بها هى القوة نفسها التى تمارسها عليك، كلاكما مربوط بعضكما ببعض. إنه ظل غرورك، ظل جهلك، ظل تلقيه أنت نفسك. هل للظل اسم؟"

– وقف جيد سقيمًا ومنهكًا، ثم قال أخيرًا: "ليتنى كنت مت!"

– "ومن أنت لتحكم بهذا؟ أنت الذى أعطى لك نيميريل حياته؟ أنت بأمان هنا. ستعيش هنا، وتستمر فى تدريباتك، يقولون عنك إنك كنت ماهرًا، استمر فى عملك، اعمله جيدًا، هذا كل ما بوسعك الآن."

وهكذا انتهى جينشر من كلامه، واختفى فجاة مثل كل السحرة. تراقصت النافورة فى ضوء الشمس، وراقبها جيد لفترة وهو يستمع

لصوتها، ويفكر فى إيميريل. ذات مرة وفى هذا الفناء نفسه شعر وكأنه كلمة ينطقها ضوء الشمس، الآن نطق الظلام أيضًا، نطق بكلمة لا يمكن إسكاتها.

غادر الفناء ذاهبًا لغرفته القديمة فى البرج الجنوبى التى تركوها فارغة من أجله، ظل هناك وحده. عندما يدق الجرس للعشاء كان ينزل، ولكنه لم يكن ليتحدث إلى أى من الصبية الآخرين على المائدة الطويلة، ولا حتى يرفع وجهه لهم، ولا حتى لمن كانوا يحيونه برقة بالغة. لذا بعد يوم أو اثنين تركوه وحيدًا. وكان هذا بالتحديد ما أراده، أن يبقى وحيدًا؛ لأنه يخشى ما قد يقوله دون قصد. لم يكن أىٌّ من جاسبر أو فيتش هناك، ولم يسأل عنهما. فقط كان الصبية الذين قادهم ورأسهم هناك، لكنهم كانوا قد سبقوه الآن بسبب الشهور التى ضاعت منه. ودرس فى الربيع والصيف مع صبية أصغر منه، ولم يبرع فوقهم لأن كلمات أى تعويذة، حتى أقل تعويذة إيهام، كانت تقف على لسانه وتتلعثم يديه فى حرفتهما.

فى الخريف كان عليه أن يذهب مرة أخرى إلى برج العزلة؛ ليدرس مع الأستاذ صاحب الأسماء. تسعده تلك المهمة التى كان يمل منها من قبل؛ لأن الصمت والتعلم الطويل الممل بدون تعاويذ كانا ما يرغبهما ويحتاجهما، وحيث لا داعى مطلقًا لاستدعاء تلك القوة التى يعلم أنها لا تزال بداخله. جاءه زائر فى الليلة قبيل مغادرته، زائر يرتدى عباءة سفر بنية، ويحمل عصا من البلوط تنتهى بقطعة من الحديد. وقف جيد لرؤية عصا الساحر.

– "سباروهوك."

رفع جيد عينيه عندما سمع الصوت... كان فيتش هو من يقف هناك، متينًا ومربعًا كالعادة، ربما وجهه الأسمر الغليظ قد كَبُر بعض الشىء، لكن

ابتسامته ظلت كما هى، على كتفه يقبع حيوان صغير، فراؤه بنى مخطط وعيونه لامعة.

– "لقد ظل معى بينما كنتَ مريضًا، والآن أنا حزين لفراقى له، وأكثر حزنًا أننى سأفترق عنك أنت يا سباروهوك. لكننى سأعود للوطن. هياهويج، عد إلى سيدك الأصلى!" ربت فيتش على الأوتاك، ووضعه على الأرض. جلس الأوتاك على فراش جيد، وأخذ يغسل فراءه بلسانه البنى الجاف مثل ورقة شجر صغيرة. ضحك فيتش، لكن جيد لم يستطع الابتسام، انحنى ليخفى وجهه وهو يداعب الأوتاك.

– قال جيد: "تصورت أنك لن تأت لتزورنى يا فيتش."

ورغم أنه لم يقصد أى عتاب، لكن فيتش أجاب: "لم أستطع الحضور من قبل؛ منعنى الأستاذ عشبى، ومنذ الشتاء وأنا نفسى محبوس مع الأستاذ فى غابة السحر العتيقة، ظللتُ حبيسًا حتى فزت بعصاى السحرية. اسمع، حين تصبح حرًا أنت الآخر عليك أن تأتى إلى الطرف الشرقي. سأنتظرك. المدن الصغيرة هناك مبهجة، والسحرة مكانتهم عالية."

– "حرًا..." تمتم جيد، وهز كتفيه بلا مبالاة، وهو يحاول أن يبتسم.

نظر له فيتش، ليس كما اعتاد أن يفعل من قبل بالحب نفسه، لكن بمزيد من غموض الساحر. "لن تظل مربوطًا على روك إلى الأبد." قال فيتش بوداعة.

– "حسنًا... لقد فكرت أنه ربما أحضر للعمل مع الأستاذ فى برج العزلة؛ لأكون من هؤلاء الذين يبحثون فى الكتب والنجوم عن الأسماء الضائعة وهكذا... وأيضًا حتى لا أسبب المزيد من الأذى، إن لم يكن الكثير من النفع..."

– قال فيتش: "ربما، لست عرَّافًا، لكننى لا أرى أمامك غرفًا وكتبًا، بل بحورًا بعيدة ونار التنانين وأبراج مدنٍ، وكل ما يراه الصقر فى طيرانه حين يطير عاليًا وبعيدًا."

"وخلفى... ماذا ترى خلفى؟" سأل جيد، وقام وهو يتكلم حتى عكس المصباح المشتعل فوقهما ظله على الحائط والأرض. ثم لف وجهه جانبًا وتمتم: "لكن قل لى فيتش أين ستذهب؟ وماذا ستفعل؟"

– "سأعود لأهلى، لأرى إخوتى، أختى التى سمعتنى أتحدث عنها، تركتها طفلة، ولكنها على أعتاب التسمية الآن، شىء عجيب! ثم سأجد لنفسى عملًا كساحر فى إحدى الجزر. كم أود أن أبقى للتحدث معك سباروهوك، لكن سفينتى ترحل الليلة والمد عالٍ بالفعل. سباروهوك، لو كان طريقك إلى الشرق يومًا تعال إلىَّ. ولو احتجتنى يومًا أرسل فى طلبى، أو نادنى باسمى الحقيقى: إيستاريول.

عند هذا رفع جيد وجهه المندب، وتلاقت عيونهما.

– "إيستاريول، اسمى الحقيقى هو جيد."

وبهدوء ودَّع بعضهما بعضًا، ثم استدار فيتش، ونزل إلى الساحة الحجرية، وغادر روك.

وقف جيد مندهشًا بعض الوقت، مثل مَن تلقَّى للتو أخبارًا عظيمة، وعليه أن يأخذ نفسًا عميقًا لاستيعابها. كانت هدية الاسم الحقيقى التى أعطاها له فيتش، هدية عظيمة بالفعل.

لا يعرف الاسم الحقيقى للشخص سواه ومَن سماه. قد يختار المرء بعد فترة أن يقوله لأخيه، أو زوجته، أو صديقه، لكن من يعرفون الاسم

لا ينطقونه أبدًا بمسمع من طرف ثالث، بل يستخدمون اسمه العرفى أو الكُنية، مثل سباروهوك، أو فيتش، أو أوجيون أمام الآخرين. وإذا كان الناس العاديون يخفون أسماءهم الحقيقية عن كل من حولهم، سوى القلة ممن يحبونهم ويثقون بهم تمامًا، فعلى السحرة أن يضاعفوا هذا الحذر؛ لأنهم أخطر وأكثر عرضة للخطر من بقية الناس. من يعرف الاسم الحقيقى للشخص تصبح حياة هذا الشخص تحت سيطرته. ولهذا بدا الأمر لجيد - الذى كان قد فقد كل الثقة بنفسه - أن فيتش يعطيه المنحة التى لا يعطيها سوى الصديق لصديقه برهانًا واضحًا منه على الثقة.

جلس جيد على فراشه، وترك كرة الويرلايت فوق رأسه تخفت مرسلةً ريحًا كريهة، ربت على الأوتاك الذى غطَّ فى النوم على ركبته، كما لو لم ينم فى أى مكان آخر.

كان القصر الكبير ساكنًا، خطر ببال جيد أن اليوم يماثل عشية بداية مشواره الخاص، حين أعطاه أوجيون اسمه الحقيقى. مرت أربع سنوات منذ هذا اليوم، تذكر برودة النهو الجبلى الذى مشى فيه عاريًا دون اسم، انغمس فى التفكير فى بقع أخرى مضيئة من نهر آر؛ حيث اعتاد أن يعوم، وفى قرية الشجرات العشر تحت الغابات الجبلية العظيمة المنحدرة فى ظلال الصباح، عبر شوارع القرية المتربة، وشرارة النار المتطايرة تحت منفاخ الحداد، وفى عصرية شتوية، وكوخ الساحرة المعتم المعطر؛ حيث الهواء ثقيل من الدخان والتعويذات. غاب كل هذا عن ذهنه لوقت طويل، والآن وضح كل شىء فى ذهنه، وهو على أعتاب السابعة عشرة، جاءته كل السنين والأماكن فى حياته المتقطعة القصيرة، وأصبحت وحدة متكاملة مرة

أخرى، واستطاع أن يعرف ثانيةً وأخيرًا بعد ذلك الوقت الطويل الضائع مَن هو، وأين هو.

ولكن أين سيذهب فى عمره القادم؟ هذا ما لم يستطع أن يتبينه، بل خاف أن يتبينه.

فى الصباح التالى شرع فى رحلته عبر الجزيرة، والأوتاك على كتفه مثل العادة. هذه المرة استغرقت الرحلة ثلاثة أيام، وليس اثنين ليصل إلى برج العزلة، وكان متعبًا حتى النخاع حين تراءى له البرج فوق مياه البحر ذات الرذاذ فى اللسان الشمالى. بالداخل كان الجو مظلمًا وباردًا، مثلما تذكر تمامًا، والأستاذ كيريمكارمريك يجلس فوق مقعده العالى يكتب قوائم طويلة من الأسماء. لمح جيد، فقال له دون ترحيب، وكأنه لم يبعد عن البرج يومًا: "اذهب إلى الفراش، لا فائدة من شخص مرهق، غدًا يمكنك أن تفتح كتاب إنجازات الصناع، وتتعلم الأسماء التى فيه."

عاد إلى القصر الكبير فى نهاية الشتاء، وأصبح ساحرًا من بعد أن كان من قبل مشعوذًا متدربًا. وتقبل الساحر الأعظم جينشر أوف واى فروض ولائه تلك المرة، ومن ثَم بدأ فى مذاكرة الفنون العليا والأسحار، تاركًا فنون الإيهام والخداع البصرى إلى أعمال السحر الحقيقى، متعلمًا ما يجب عليه أن يتعلمه؛ ليستحق عصاه السحرية. وكانت الصعوبة التى واجهها فى النطق بالتعاويذ قد زالت على مر الشهور، ولكنه لم يرجع أبدًا لسرعة التعلم نفسها كما كان، بعد أن لقّنه الخوف من الظل الشبحى درسًا قاسيًا. لم يحدث ما يسوء من جراء تعلمه الأعمال الكبرى للخلق والتشكيل، وهى الأعمال الأخطر. وبدأ يتساءل أحيانا إن كان الشبح الذى أطلقه قد ضَعُف أو هرب خارج العالم بشكل ما؛ لأنه لم يعد يظهر ولا حتى فى أحلامه. لكن فى أعماق قلبه كان يعرف أن هذا أمل زائف.

تعلم جيد من الأساتذة، ومن أمهات كتب السحر كل ما يمكنه عن ذلك المخلوق الذى أطلقه، الحق أن ما عرفه كان قليلًا، فلم يكن هناك أى وصف أو كلام مباشر عن مثل ذلك المخلوق، فقط كانت هناك تلميحات هنا وهناك فى الكتب القديمة عن وحش شبحى مثل الذى أطلقه. لم يكن شبحًا فى هيئة إنسان، ولا مخلوق من قوى الأرض العتيقة، لكنه مرتبطًا بهذا وذاك.

فى كتاب "موضوع التنانين"، الذى قرأه جيد بعناية بالغة، كانت هناك حكاية عن تنين قديم خضع لسطوة إحدى القوى القديمة، حجر متكلم فى أقصى الأراضى الشمالية. وكما يقول الكتاب: "وبأمر الحجر تكلم ليستدعى روحًا من عالم الأموات، لكن السحر انحرف بسبب إرادة الحجر، وخرج مع الروح الميتة شىء ما لم يتم استدعاؤه، فابتلعه من الداخل، وأخذ يدمر الناس على هيئته." لكن الكتاب لم يذكر ماهية هذا الشىء، ولا كيف انتهت القصة. ولم يعرف الأساتذة من أين يأتى مثل هذا الشبح، لكنهم حاولوا.

قال الساحر الأكبر: "الشبح مصدره الموت." وقال الأستاذ المحول: "من الجانب الخطأ من العالم." وقال الأستاذ المستحضر: "لا أعلم." ثم جلس بجانب جيد فى مرضه، عبوسًا ومهمومًا كعادته، وقال: "لا أعلم، ولكننى أعرف أن القوة التى استدعت هذا الشىء قوة عظيمة، ربما هى قوة واحدة، صوت واحد، صوتك أنت. لكن ماذا يعنى هذا؟ لا أعلم. ستكتشف أنت هذا، عليك أن تكتشف هذا بنفسك أو تموت، بل أسوأ من أن تموت..." قال هذا بهدوء، وعيناه المعتمتان تنظران على جِيد، "لقد ظننت وأنت صبى أن الساحر بمقدوره أن يفعل أى شىء، هكذا ظننت أنا أيضًا، هكذا ظننا

جميعًا. لكن الحقيقة أنه كلما انصقل معدن الإنسان واتسعت معرفته ضاق الطريق أمامه، حتى يجد نفسه فى النهاية لا يختار أن يفعل إلا ما يجب عليه فعله."

بعد عيد ميلاده الثامن عشر أرسله الساحر الأكبر ليعمل مع الأستاذ صاحب الأنساق فى غابة السحر العتيقة، وما يدور هناك لا يتكلم أحد عنه فى أى مكان آخر. يُقال إنه لا توجد تعويذات هناك، لكن المكان كله عبارة عن عمل عظيم من السحر، فأحيانًا يمكن رؤية الأشجار وأحيانًا أخرى لا يمكن ذلك، ولا تجد دائمًا الأشجار فى المكان نفسها، أو الجزء من جزيرة روك! يقال إن أشجار البستان نفسها أشجار حكيمة. يقال إن الأستاذ صاحب الأنساق يتعلم سحره الأعظم هناك فى الغابة، وأنه لو ماتت الأشجار هناك ماتت معها حكمته، وعندما يحدث ذلك سترتفع المياه، وتغرق جزر إيرثسى هى وكل الأرض التى يعيش عليها الناس والوحوش، الأرض التى رفعها سيجوى من الأعماق قبل وقت الأساطير.

ولكن كل هذا فى حكم الإشاعات التى لا يتحدث السحرة عنها.

مرت الشهور، وأخيرًا عاد جيد فى يوم ربيعى للقصر الكبير دون أدنى فكرة ما الذى سيُطلب منه بعد ذلك. كان بانتظاره رجل عجوز على الباب المؤدى لهضبة روك عبر الحقول. لم يعرفه جيد فى البداية، لكنه عصر ذهنه، وتذكر أنه هو الرجل الذى سمح له بالدخول أول مرة منذ خمس سنوات.

ابتسم الرجل العجوز، وهو يحيه بالاسم، وسأله: "هل تعرفنى؟"

فكر جيد فى هذه اللحظة لأول مرة كيف يُحكى أن هناك تسعة أساتذة

فى روك، ورغم أنه رأى ثمانية فقط، وهم: مفتاح الريح، ويد، وعشبى، والراوى، والمحول، والمستحضر، وصاحب الأسماء، وصاحب الأنساق. كان الناس دائمًا ما يتحدثون عن أن الساحر الأكبر هو الأستاذ رقم تسعة، إلا أنه تذكر الآن لأول مرة أن تسعة أساتذة اجتمعوا معًا لاختيار الساحر الأكبر الجديد بعد موت نيميريل.

- قال جيد: "أظنك الأستاذ حارس بوابة المدرسة."

- "هذا صحيح، لقد استحققت دخول المدرسة عندما نطقت باسمك، وحتى تستحق حرية الخروج منها عليك أن تنطق باسمى أنا." قال الرجل العجوز وهو يبتسم، وينتظر الرد من جيد، وقف جيد مذهولاً.

يعلم جيد ألف طريقة وطريقة، ليعرف أسماء الناس والأشياء، فقد كان هذا جزءًا من تعليمه فى روك، وبدون الأسماء لا يجدى أى سحر حقيقى. لكن معرفة اسم ساحر، أستاذ ساحر، أمر آخر، فعلى اسم الساحر أن يظل مخفيًا مثل إبرة فى كوم قش، ومحميًا مثل عرين. أى فضول سحرى لمعرفة اسمه سيُقابله بسحر أقوى، وأى حيل ذكية ستفشل، وأى أسئلة ملتوية ستُخذل بالطريقة نفسها، وستنقلب تلك القوة على نفسها بشكل مدمر.

- "الباب الذى تحرسه ضيق يا سيدى، ولا بد أن أبقى هنا فى الحقول، وأبدأ الصيام حتى أفقد الوزن، وأصير نحيفًا لأستطيع المرور من خلاله."

- فقال الرجل مبتسمًا: "خذ وقتك."

وهكذا مشى جيد بعيدًا بعض الشىء، وجلس تحت شجرة على ضفاف نهر ثويلبيرن، وترك الأوتاك يلعب فى جدول النهر ويصطاد الكابوريا. غربت

الشمس بعد وقت طويل فقد كان الربيع طويلًا، وبدأت أنوار المصابيح تلمع فى نوافذ البيت الكبير، بينما كانت شوارع ثويل حوله مظلمة. كان البوم ينعب فوق أسطح المنازل، والخفافيش تتطاير فوق الجدول وقت الغسق. كل هذا وجيد لا يزال يفكر كيف يعرف اسم الأستاذ حارس البوابة بالحيلة أو بالسحر. وكلما فكر أكثر تأكد أنه لا توجد طريقة من بين كل فنون السحر التى تعلمها فى روك، فى السنوات الخمس التى قضاها، لانتزاع الاسم من ساحر أستاذ.

نام فى الحقول تحت النجوم، والأوتاك يتخذ من جيبه عشًا، بعد أن ارتفعت الشمس ذهب إلى الباب، وهو لا يزال صائمًا وقرعه، فتح له حارس الباب.

– "سيدى، لن أستطيع أن آخذ اسمك منك فلست قويًا بما فيه الكفاية لذلك، ولن أخدعك لتقول لى الاسم فلست حكيمًا بما فيه الكفاية. لذا فأنا راضٍ أن أبقى هنا، وأتعلم وأخدم كيفما تشاء، حتى تقرر أن تجيبنى بالصدفة على سؤال عندى."

– "اسأل سؤالك."

– "ما هو اسمك؟"

ابتسم حارس الباب، ونطق باسمه لجيد، أما جيد فقد دخل القصر الكبير لآخر مرة بعد أن ردد الاسم وراءه.

لما غادر جيد القصر مرة أخرى، كان يرتدى عباءة ثقيلة زرقاء، هدية من منطقة لوتورنج، وهو المكان الذى كان عليه أن يخدم فيه بوصفه ساحرًا. حمل عصا فى مثل طوله من شجر الطقسوس تنتهى بالبرونز، ودعه حارس الباب وهو يفتح له الباب الخلفى المصنوع من السندان والعاج، ونزل إلى شوارع ثويل؛ حيث تنتظره سفينة فوق مياه الصباح المتلألئة.



(٥) تنين بندور

جزيرة روك، فيما ما بين هوسك وإنسمار، توجد تسعون
ـيرد هى الأقرب إلى روك، وسيبيش هى الأبعد فى البحر
ـ أحد على وجه التحديد إن كان عددهم تسعين أم لا، فهى
ـمة، فلو عددتَ الجزر ذات الآبار العذبة لوجدتها سبعين،
صخرة كبيرة لتجاوزت المائة، دون أن تنتهى بعدُ، ويتغير
فالقنوات تجرى ضيقة بين الجزر، والمد الهادئ للبحر
ـد فيها، وقد تجد يومًا ثلاث جزر فى المد العالى، بينما تجد
ـزيرة واحدة فى المد المنخفض. وبالرغم من خطورة المد
ـن المشى يستطيع أن يبحر، بل لديه قاربه الصغير، بينما

ربات البيوت يجدفن فى القنوات للتزاور ولشرب شاى الراشووش[١٠] مع الجارات. ينادى المجدفون على آلاتهم بالأغانى ما بين التجديفة والأخرى، كل الطرق من المياه المالحة لا يحدها سوى الشبك الممتد من بيت إلى بيت لاصطياد السمك الصغير، المعروف باسم التوربيز[١١]، وزيت هذا السمك هو كنز الجزر التسعين. هناك القليل من الجسور فى المدن الكبيرة، وكل جزيرة صغيرة تزدحم ببيوت الصيادين والمزارع، وكل مجموعة جزر تتجمع فيما يعرف بالمنطقة، وهى تتكون من عشر جزر أو عشرين. من ضمن هؤلاء كانت لوتورنينج، فى أقصى الغرب، فى ذلك الجزء الوحيد من الأرخبيل؛ حيث توجد بيندور، وهى الجزيرة التى دمرها ، ومن خلفها مياه الطرف الأقصى الغربى، وهى الآن مهجورة.

هناك وجد جيد بيتًا مُعدًا لساحر المنطقة الجديد، بيتًا على تل وسط حقول الشعير الخضراء محميًا من الرياح الغربية بمنحدرات من أشجار البينديك، والتى كانت محملة بالأزهار الحمراء فى هذا الوقت.

من باب البيت كان المرء يطل على الأسقف القشية للبيوت، ومنحدرات وحدائق وجزر أخرى بأسقف قشية، وحقول وتلال، ومن بين كل هؤلاء كانت كل قنوات البحر المشرقة. بيت فقير، بدون نافذة، بأرضية ترابية، ولكنه كان أفضل من البيت الذى وُلد فيه. وقف أهل جزيرة لوتورنينج يشعرون بالخجل أمام البيت، وأمام ساحرهم المهيب، وأخذوا يعتذرون: "لا يوجد عندنا طوب لنبنيه به، لسنا أغنياء، رغم أنه لا أحد يموت هنا من الجوع". قال أحدهم، ثم آخر: "سيظل جافًا على الأقل، فقد عملت على

(١٠) شاى (الراشووش) هو المشروب العشبى الساخن الرئيسى على جزيرة جونت والجزر التسعين فى إيرثسى.

(١١) التوربيز نوع آخر من الكائنات البحرية المختلفة فى عالم إيرثسى

السقف القشى بنفسى يا سيدى." وجد جيد البيت مثل القصر؛ لهذا شكر الثمانية عشر رجلًا من مجلس المنطقة، وعاد كل منهم إلى بيته فى قاربه الصغير، ليحكى للصيادين وربات البيوت كيف أن ساحرهم الجديد شاب غريب الأطوار عبوس، يتكلم قليلًا، ولكنه صادق ومتواضع.

فى الحقيقة لم يكن هناك أى مجال للغرور فى لوتورنينج، عادة ما يذهب السحرة الذين تعلموا فى روك إلى المدن والقلاع لخدمة السادة الذين يضعونهم فوق الرأس. أما الصيادون المساكين ممن يعملون فى لوتورنينج لم يكونوا ليحظوا سوى بساحرة بسيطة، أو مشعوذ عادى ليسحر شباك الصيد، ويتمتم فوق المراكب، ويشفى الناس والحيوانات من العلل. ولكن فى السنوات الأخيرة باض تنين بندور، وخرج من البيض تسعة تنانين صغيرة، تتخذ من قلاعٍ سادة البحر فى بندور عرينًا لها، تجرجر بطونها القشرية طلوعًا ونزولًا على السلالم الحجرية، وعبر الأبواب المكسورةٍ هناك. ولأن الجزيرة جرداء توقع الجميع أنهم فى يوم ما سيطيرون بحثًا عن الغذاء. وبالفعل شهد الناس رحلات من أربعة تنانين فوق الشواطئ الشرقية الجنوبية لهوسك، كانت الرحلات للتجسس فقط، وليس للتدمير، يحط فيها فوق قطعان الأغنام والحظائر والقرى. ورغم أن لا يجوع بسرعة، إلا أنه إن جاع فلن يمكن إسكاته، ولهذا استغاث الناس فى لوتورنينج بجزيرة روك لترسل لهم ساحرًا يحميهم مما ينتظرهم فى الطرف الغربى، ورأى الساحر الأكبر أن معهم كل الحق، ولهذا أرسل جيد.

_ "لا توجد راحة ولا شهرة ولا ثروة فى هذا المكان، وربما ولا حتى المغامرات." قال الساحر الأكبر لجيد فى اليوم الذى نصبه ساحرًا.

– "سأذهب." كان رد جيد، ليس من باب الطاعة فقط، فمنذ تلك الليلة المشئومة على هضبة روك انصرف قلبه بعيدًا عن حب الشهرة والظهور

بالقدر نفسه الذى رغب فيهما من قبل، والآن أصبحت القاعدة أنه يشك فى قوته، ويخاف من تجربتها. كذلك أثار الكلام عن التنانين فضوله، لم تقترب التنانين من جونت لمئات السنين، بينما لن يقترب تنين واحد قيد أنملة من أى سحر أو منظر أو رائحة لجزيرة روك، هناك التنانين ليست إلا موضوع للأغانى الملحمية والحكايات، يرويها الناس ولا يرونها. تعلم جيد كل ما يمكن أن يتعلمه عن التنانين فى روك، لكن أن تقرأ عن الشىء أمر، وأن تراه بنفسك هذا أمر آخر. كانت الفرصة أمامه سانحة، ولهذا أجاب بالموافقة على الفور. هز الساحر جريشنر رأسه بالموافقة، وإن ظلت نظرته كئيبة، فقال: "أخبرنى، هل تخاف من ترك روك، أم أنك مشتاق للرحيل؟" فهز رأسه قائلًا: "كلاهما سيدى.

– "لا أعرف إن كنت أفعل الصواب بأن أرسلك بعيدًا عن الأمان هنا أم لا، قال الساحر بصوت خفيض، "لا أرى طريقك، كله معتم بالنسبة لى، وهناك قوة فى الشمال، شىء ما قد يدمرك، لكن ما هذا الشىء؟ وأين؟ هل هو فى ماضيك، أم ينتظرك فى المستقبل؟ لا أعرف، كله معتم. عندما حضر رجال لو تورنينج هنا فكرت فيك على الفور، فهو يبدو مكانًا آمنًا، بعيدًا عن المشاكل، مكانًا قد يعطيك الوقت لتستجمع قوتك، ولكنى أقول إننى لا أعرف إن كان هناك أى مكان آمن بالفعل لك. لا أريد أن أرسلك إلى الظلام."

بدا المكان مشرقًا بما يكفى لجيد فى البداية، فعاش هناك يراقب السماء الغربية، وهو يصغى السمع جيدًا بأذنى الساحر لأصوات أجنحة الحرشفية. لكن لم يأت أى تنين، كان جيد يصطاد عند اللسان، ويهتم بحديقته الصغيرة، ويقضى أيامًا كاملةً يفكر فى صفحة واحدة، أو كلمة، فى أحد أمهات كتب السحر الذى أحضرها معه من روك، وهو يجلس فى الخارج فى الهواء الصيفى تحت أشجار البينديك، بينما الأوتاك ينام بجانبه، أو يصطاد

الفئران فى غابات النجيل والأقحوان، ويخدم أهل لو تورنينج معالجًا لكل الأمراض، ومحركًا للطقس كلما طلبوا منه. لم يخطر بباله أنه كساحر قد يخجل من هذه المهارات المتواضعة، فقد كان يومًا ساحرًا طفلًا فى قرية أفقر من هذه، ومع هذا فقلما طلب منه أهالى لو تورنينج شيئًا، فهو عندهم مُهاب؛ ليس فقط لأنه ساحر من روك، جزيرة الحكمة والحكماء، ولكن لصمته الدائم، ووجهه الملىء بالندوب. كان به بالرغم من صغر سنه ما يبعد الناس عنه ويشعرهم بالقلق تجاهه. ومع هذا فقد وجد صديقًا، صانع قوارب، عند أقرب جزيرة باتجاه الشرق، اسمه بيتشفيرى، تقابلَا أول مرة عند لسان الصيد، حين توقف جيد ليشاهده وهو يثبت صارى المركب الصغير، نظر إلى الساحر الشاب بابتسامة على وجهه، وهو يقول: "ها هو عمل شهر كامل على وشك الانتهاء، أعتقد أنك كنت تستطيع إنهاءه فى لحظة بكلمة واحدة، صحيح؟"

– "ربما" أجاب جيد، لكنها ستغرق فى اللحظة الثانية على الأرجح، إلا لو حافظت على التعويذات... اسمح لى..." وتوقف.

– "حسنًا سيدى."

"مركب جميل صغير، لا تحتاج لشىء على الإطلاق، لكن لو أردت يمكننى أن ألقى عليها تعويذة ربط لتحافظ عليها مربوطة، أو تعويذة إيجاد لتساعدها أن تجد طريقها للوطن دائمًا من البحر."

تكلم جيد بتردد، فلم يكن يود إحراج الرجل، لكن وجه بيتشفيرى تهلل عند سماع هذا، وقال: "المركب الصغير لابنى. إنه كرم بالغ منك ومروءة أن تلقى عليها بأسحارك." قال هذا، وصعد على اللسان ليأخذ بيد جيد ويشكره.

ومن يومها وهما يعملان معًا فى صناعة وتصليح القوارب. جيد يحيك التعويذات السحرية فوق العمل اليدوى لبيتشفرى على المراكب التى يصنعها ويصلحها، فى المقابل كان بيتشفيرى يعلم جيد كيف يصنع المركب ويتعامل معه دون أسحار، فهذه المهارة من الإبحار البسيط كانت مُحرَّمة وغامضة بشكل ما فى روك. كثيرًا ما خرج جيد وبيتشفيرى وابنه الصغير إيوث للإبحار فى القنوات والبحيرات، بالشراع أو مجدفين، حتى أصبح جيد بحارًا ماهرًا، وتوثقت الصداقة بينهما.

فى نهاية الخريف مرض ابن صانع القوارب بيتشفيرى، أرسلت الأم لساحرة جزيرة تيسك، التى تعرف شيئًا ما عن العلاج، وبدا أن كل شيء يتحسن يومًا أو اثنين، لكن فى ليلة عاصفة جاء بيتشفيرى يدق الباب على جيد، ويرجوه أن يأتى لينقذ الطفل. أسرع معه جيد إلى القارب فى الظلام والمطر، وهناك رأى الطفل يرقد على فراشه، والأم منحنية بجانبه فى صمت، بينما الساحرة تحرق جذور الكورلى، وتتمتم بأنشودة ناجيان، وهذا أفضل ما تعرفه للعلاج. لكنها همست فى أذن جيد: "سيدى الساحر أرى أنها الحمى الحمراء، وأن الطفل سيموت الليلة."

عندما انحنى جيد، ووضع يده على الطفل رأى هذا أيضًا، وتراجع للخلف للحظة. فى الشهور الأخيرة من مرضه الطويل علمه الأستاذ عشبى الكثير من علم الطب، وكان أول وآخر هذه الدروس هو هذا: "عالج الجرح، وداوِ المرض، لكن دع الروح المُحتضرة ترحل."

رأت الأم هذه الحركة، وأدركت معناها، وصرخت عاليًا من الحزن واليأس. انحنى عليها بيتشفيرى قائلًا: "السيد سباروهوك سينقذه يا زوجتى، لا داعى للبكاء، اللورد سباروهوك هنا، ويستطيع أن ينقذه."

عند سماع بكاء الأم، والثقة التى أعطاها له بيتشفيرى، لم يعرف جيد كيف يحبطهما، فكذب رؤيته، وفكر أنه ربما يمكن إنقاذ الطفل فقط لو تم تخفيض الحرارة، وقال: "بيتشفيرى، سأحاول."

وبدأ فى غسل الطفل بماء المطر الذى جلبوه للتو من الخارج، وبدأ يتمتم بإحدى تعويذات الحمى، لكن التعويذة لم تكتمل، ولا تشكلت من الأصل، وفجاة شعر أن الطفل يموت بين ذراعيه.

استدعى جيد كل قوته فجأة، ودون أن يفكر فى نفسه أرسل روحه بحثًا عن روح الطفل لتعيده لأمه، وهو ينادى: "إيوث" ظنًّا منه أنه سمع استجابة ضعيفة لندائه الداخلى. أعاد النداء مرة أخرى، ثم رأى الطفل الصغير يجرى بسرعة أمامه نحو منحدر مظلم، منحدر كبير على تل كبير، لم يكن هناك صوت، والنجوم فوق التل لم تكن نجومًا قد رآها من قبل، ورغم هذا فقد كان يعرفها بالاسم: الحزمة، الباب، الملتف، الشجرة. نجوم لا تغرب، ولا يغلبها أى نهار. تبع جيد روح الطفل الميت أكثر مما ينبغى.

الآن، وقد عرف هذا، قد وجد نفسه وحيدًا على جانب التل، كان من الصعب الرجوع...بل مستحيل. استدار ببطء، وببطء مد قدمه للأمام ليتسلق التل عائدًا، ثم قدمه الأخرى، أخذ يمشى خطوة بخطوة، كل خطوة مليئة بالتصميم، وكل خطوة أصعب من التى سبقتها.

لم تتحرك النجوم، ولا هبت ريح على الأرض الجافة، فى كل مملكة الظلام لم يتحرك شىء سواه صاعدًا ببطء، ووصل إلى نهاية التل، ورأى حائط الأحجار المنخفض هناك. لكن عندما عبر الجدار رأى شبحًا يواجهه.

لم يكن للشبح جسم إنسان أو وحش، كان بلا شكل، بالكاد يراه أمامه، لكنه كان يهمس له بدون صوت، ويتجه نحوه. وقف الشبح فى ناحية الأحياء، بينما وقف جيد ناحية الموتى.

فهو إما أن يهرب منه وينزل التل باتجاه الموت عبر الصحارى والمدن المظلمة للموتى، أو يخطو عبر الجدار نحو الحياة؛ حيث ينتظره الشبح، ذلك الشر الغامض.

كانت معه عصاه الروحية، رفعها عاليًا، وبهذه الحركة عادت له قوته، وهو يجاهد لعبور الجدار مباشرة، من خلال الشبح اشتعلت العصا بضوء أبيض مفاجئ، ضوء مُذهل يعمى الأبصار فى هذا المكان المعتم. قفز وشعر بنفسه يسقط، ثم لم يرَ شيئًا بعد هذا.

أما ما رآه بيتشفيرى والزوجة والساحرة فكان ما يلى: الساحر توقف بتعويذته فى منتصفها، وحمل الطفل لبرهة دون حراك، ثم وضع الطفل بحرص على فراشه، ثم قام ووقف حاملًا عصاه، ثم فجأة رفع عصاه عاليًا، واشتعلت بالنار البيضاء، وكأنه يمسك بصاعقة فى قبضة يده، وقتها بان كل ما فى المنزل غريبًا ومكشوفًا فى هذه النيران المفاجئة. وعندما أفاقت أعينهم من هذا الذهول رأوا الشاب منحنيًا إلى الأمام على الأرض الترابية بجانب الفراش الذى يرقد عليها الطفل.

ظن بيتشفيرى أن الساحر قد مات أيضًا، وبينما كانت زوجته تبكى وهو يقف مذهولًا رأت الساحرة - التى كانت على دراية ببعض مما يقال عن السحر الحقيقى، والطرق التى قد يمشيها الساحر الحقيقى - رأت أن جيد فى حالته هذه بارد وخالٍ من الحياة، كما رقد أمامهم، يجب أن يُعامل بوصفه مريضًا أو ممسوسًا. حملوه إلى البيت، وتركوا معه امرأة عجوز ترى إن كان سينام ويفيق، أم سينام إلى الأبد.

كان الأوتاك مختبئًا فى العوارض الخشبية للسقف كعادته عند وجود غرباء فى البيت، وظل هناك، بينما المطر يعصف بالجدران، والنار تخبو فى

المدفأة، والعجوز ينكفئ رأسها على صدرها من النعاس. ثم زحف وجاء إلى جيد، وهو يرقد فى فراشه بلا حياة متخشبًا، وبدا يلعق يديه ومعصميه، يلعق طويلا بصبر بلسان بُنى مثل ورقة الشجر، انحنى على رأسه، وأخذ يلعق صدغه ووجهه المليء بالندوب وعينيه المغلقتين، وببطء شديد، وتحت هذه اللمسة الحانية، أفاق جيد، وهو لا يعرف أين هو، أو ماذا حدث، أو ما ذلك الضوء الرمادى فى الهواء من حوله، وهو ضوء الفجر البازغ فى الدنيا. وبعد أن أفاق تكوم الأوتاك عند كتفه كالعادة ونام.

حين فكر جيد مليًّا فيما حدث لاحقًا، عرف أنه لو لم يلمسه أحد فى هذه الليلة التى رقد فيها بلا روح، لو لم يناده أحد ليعود للحياة بشكل أو بآخر، لكان ضاع إلى الأبد. كانت فطرة الحيوان الذى أخذ يلعق رفيقه المصاب هى التى أنقذته. رأى جيد فى هذه الفطرة الحكيمة ما يعادل قوته السحرية فى عمقها، ومن يومها آمن أن الحكيم هو من يظل بالقرب من الكائنات الحية، حتى لو لم يفهم لغتها. وفى السنوات الأخيرة جاهد ليتعلم كل ما يمكن تعلمه، بصمت، من عيون الحيوانات، من طيران الطيور، وحركة الأشجار العظيمة البطيئة.

لقد قام جيد برحلته الأولى لعالم الموتى، عبره لأول مرة مفتوح العينين عبورًا لا يقدر عليه سوى السحرة الكبار، ولا يأمن حتى أكبرهم أن يعود من هذه الرحلة سالمًا. لكنه عاد للحزن والخوف، الحزن على موت ابن صديقه، والخوف على نفسه، ولم يفهم لماذا كان الساحر الأكبر يخشى من إرساله خارج روك قبل هذا، وما الذى أظلم الرؤية أمام الساحر وقتها بشأن مستقبله، فالظلام نفسه هو ما كان ينتظره. ظلام بلا اسم، شىء لا ينتمى لهذا العالم، ظل شبحى صنعه، أو أطلقه بيده، يربض عند الفاصل ما بين الموت والحياة على شكل شبح. انتظره كل هذه السنين الطويلة، ووجده هناك أخيرًا، وسيأتى فى أثره طالبًا الالتصاق به الآن، مستمدًا منه القوة لنفسه، ليبتلع حياته ويرتدى جسمه.

بعدها أخذ يحلم بالشبح على شكل دب، لا رأس له ولا جسم، يتخبط فى أرجاء المنزل باحثًا عن الباب، لم يكن قد حلم بهذا الحلم منذ التئام جروحه التى سببها له الشبح. وعندما يستيقظ تكون جروحه مشدودة ومؤلمة.

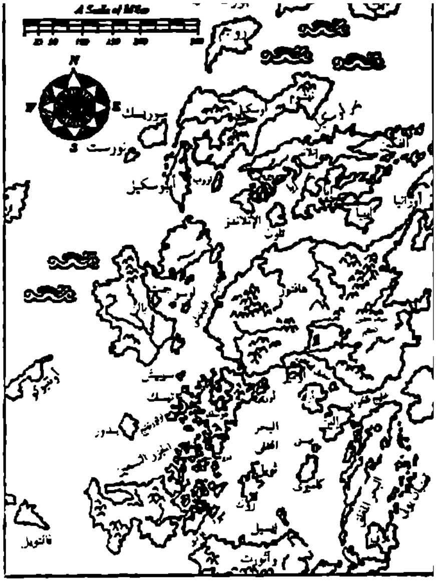
كان جيد فى أزمة، فعندما كان يحلم أو يفكر فى الشبح كان ينتابه الفزعِ البارد الرهيب نفسه، ويفقد الحس والقوة، ويصبح بليد الفهم مذهولاً. استشاط غضبًا من جُبنه، لكن هذا لم يقدّم أو يؤخِرّ فى الأمر. حاول أن يؤمِّن بعض الحماية لنفسه، لكن أين الحماية من كائن ليس بدم ولا لحم؟ كائن غير حى، وغير روحى، بلا اسم ولا ماهية، سوى ما أعطاه هو له بنفسه، قوة رهيبة خارج قوانينِ العالم المضىء. كل ما يعرفه عنه هو أنه ملتصق به، ويحاول أن ينفذ إرادته من خلاله، وهو من صنعه فى المقام الأول. لكن بأى شكل سيأتى، وهو لم يتخذ لنفسه شكلًا بعد؟ وكيف سيأتى؟ لم يعرف إجابة لأى من هذه الأسئلة.

لهذا أقام ما استطاع من الحواجز السحرية بالتعاويذ حول منزله والجزيرة التى يعيش فيها، وهذه الجدران التعويذية لابد من تجديدها ما بين الحين والآخر، ولهذا فسريعًا ما ظهر له أنه لا نفع منه لسكان الجزيرة، وهو يستنفذ قوته على تحصين الجدران، ماذا سيفعل بين عدوين؛ لو جاء من بيندور؟

جاءه الحلم مرة أخرى. فى هذه المرة كان الشبح فى بيته، بجانب الباب، يتجه نحوه فى الظلام، ويهمس له بكلمات لا يفهمها. صحا مرعوبًا، وأرسل الويرلايت تضىء كافة أرجاء المنزل فى كل ركن، حتى لم يعد يرى أشباحًا. ثم وضع بعض الخشب على الفحم فى المدفأة، وجلس فى ضوء المدفأة ينصت لصوت رياح الخريف تتخلل السقف القشى، وتنوح فوق

الأشجار الجرداء، وفكر طويلًا طويلًا، استيقظ غضب قديم وعميق فى قلبه، لن يحتمل أن ينتظر طويلًا هذا الانتظار الذى لا حول له ولا قوة، وهو حبيس على تلك الجزيرة الصغيرة، يتمتم بتعويذات لا قيمة لها لتحميه. لكنه لا يستطيع أن يرحل ببساطة هكذا، لو فعل هذا سيكون قد خان ثقة أهل الجزيرة وتركهم لهذا التنين الرهيب دون حماية. لم يكن هناك أمامه سوى طريق واحد.

فى الصباح، ذهب إلى المرسى الرئيس لجزيرة لو تورنينج، ووجد كبير الجزيرة هناك، فقال له: "لابد أن أرحل من هنا، أنا فى خطر كبير، وأعرضكم جميعًا للخطر معى، لابد أن أذهب، وأتخلص من التنانين على بندور، عندها ستنتهى مهمتى هنا، وأستطيع أن أذهب بحرية، ولو فشلت سيكون من الأفضل أن تعرفوا من البداية أننى بلا فائدة. فشلى هناك هو ذاته فشلى هنا على الجزيرة."



أهل الجزيرة يحملق فيه فاغر الفم: "لورد سباروهوك،
ـعة تنانين على جزيرة بندور".

منهم لا يزالون صغارًا."

كبير..."

، لابد أن أرحل من هنا، أطلب الإذن لأن أخلصكم من خطر
."

– "كما ترغب سيدى." قال الرجل بأسَى. ظن كل من سمع هذا الحوار أنها حماقة بالغة من الساحر الشاب، وراقبوه يرحل بوجوه مكفهرة، متوقعين ألَّا يسمعوا منه ثانيةً أبدًا. ألمح البعض أنه سيعود من خلال هوسك إلى البحر المخفى، تاركًا إياهم للخطر، بينما ظن البعض – ومن بينهم بيتشفيرى – أن الساحر ذهب عقله، ويسعى للموت.

على مدار أربعة أجيال من البشر تحاشى الناس الاقتراب من جزيرة بندور، ولم يسعَ أى ساحر لأن يحارب التنين هناك؛ فالجزيرة كانت بعيدة عن أى طريق سفر، يمتلكها قراصنة، صيادو عبيد، مشعلو حروب، مكروهون مِن كل مَن عاش فى المنطقة الغربية من إيرثسى. ولهذا لم ينتقم أحد للورد بندور حين هجم التنين عليه وهو ورجاله يحتفلون، وأحرقهم بنيرانه، وأخرج أهل البلدة من قريتهم إلى البحر وهم يصرخون، تُركت بندور للتنين دون انتقام، جزيرة كاملة بعظامها وجواهرها وأبراجها وكنوزها المسروقة من الأمراء الراحلين لسواحل بالن وهوسك.

كل هذا يعرفه جيد جيدًا وأكثر، فمنذ جاء إلى لوتورنينج وهو يسترجع كل ما يعرفه عن التنانين فى ذهنه؛ لذا فقد أبحر إلى بندور فى قاربه الصغير، دون تجديف ولا مهارة الإبحار التى علمها له بيتشفيرى، أبحر بالسحر وريح الساحر فى شراعه، وتعويذة على مقدمة المركب وعلى قاعه؛ ليحتفظ بريح السحر فعالة. راقب ليرى الجزيرة الميتة تظهر من فوق الأمواج، كانت السرعة ما يريد ولهذا استخدام ريح السحر فقد كان يخشى أن ما وراءه أكثر مما أمامه، لكن بينما اليوم يمر تحولت قلة صبره من خوف إلى ضراوة محمودة، على الأقل هو يسعى لهذا الخطر من تلقاء ذاته، وكلما اقترب ازداد ثقةً فى أنه فى هذه الساعة وفى هذا الوقت كان حرًّا، لا يجرؤ الشبح على تتبعه وهو ذاهب إلى فك .

جرت الأمواج برءوسها البيضاء فوق البحر الرمادى، بينما السحب الرمادية تسبح فوق الرءوس فوق الرياح الشمالية. اتجه غربًا بريح السحر، وظهرت له صخور بندور، وشوراع المدينة الساكنة، وأبراجها المتهالكة المبعثرة.

عند دخوله الميناء، وهو خليج صغير على شكل هلال، أسقط تعويذة الريح، وسكن القارب، وظل يتهادى على المياه، ثم استدعى قائلًا: "يا مغتصب جزيرة بندور، تعال ودافع عن كنوزك."

ضاع صوته وسط صوت الأمواج المتكسرة على الشواطئ المحترقة، ولكن التنانين لها آذان حادة السمع، لذلك طار واحد منهم بسرعة من فوق أطلال أحد المبانى مثل وطواط كبير، جناحه نحيف، وظهره مغطى بالشوك، يلف فى دوائر ريح الشمال نحو جيد. تشجَّع جيد عند رؤية الكائن الذى هو أسطورة عند أهله، وضحك ونادى: "اذهب إلى العجوز، وأخبره أن يأتى يا دودة الريح."

كان هذا واحدًا من التنانين الصغار، وضعته أنثى تنين من الطرف الأقصى الغربى هناك منذ سنوات، وتركته مع إخوته فى غرفة مشمسة فى أحد الأبراج، وطارت ثانية، تاركة إياهم مع تنين بندور العجوز؛ ليراقب الصغار وهم يزحفون خارج قشور البيض مثل السحالى السامة.

لم يجب ، لم يكن كبيرًا، ربما بحجم سفينة ذات أربعين مجدافًا، فى رقة الدودة، أغشية أجنحته السوداء فى متناول اليد. لم ينضج بعد، ولم يكتسب صوته شيئًا من مكر التنانين. جاء مباشرة إلى جيد فى مركبه الصغير، فاتحًا فكه ذا الأنياب، ينقض مثل السهم من الهواء، كل ما فعله جيد هو تقييد أجنحته وأطرافه بتعويذة سريعة، وإرساله إلى البحر ليغرق مثل الطوبة، وينغلق عليه البحر الرمادى.

طار إثنان من التنانين مثل هذا من قلب البرج العالى فى بندور، وجاءا بالطريقة نفسها نحو جيد، وبالطريقة نفسها قيدهما وأغرقهما دون حتى أن يرفع عصا الساحر.

الآن، وبعد وقت قصير، جاء ثلاثة آخرون من قلب الجزيرة، واحد منهم كان أقوى من الجميع، وهو يقذف بدوائر من النار من فكه، وجاء اثنان يطيران، يرفرفان بأجنحتهما بينما هاجمه الكبير من الخلف ليحرقه ومركبه بنفخة من أنفاسه النارية. فكر جيد أنه لن يستطيع تقييد التنانين الثلاثة بتعويذة واحدة؛ لأن اثنين منهم جاءا من الشمال، وواحد من الجنوب. وفى اللحظة التى أدرك فيها هذا، ألقى جيد تعويذة تحوُّل، وما بين طرفة عين وانتباهتها كان قد طار من مركبه فى شكل تنين كبير.

وبعد أن فرد جناحيه ومد مخالبه، واجه التنينين الأصغر وحرقهما بالنار، ثم استدار ليواجه الثالث الذى كان أكبر منه ومزودًا بالنار أيضًا. فوق الرياح والأمواج الرمادية، تواجه الاثنان، التويا، عضَّ بعضهما بعضًا، انقض بعضهما على بعض، حتى ارتفع الدخان بينهما محمرًا من وهج الأفواه النارية. طار جيد فجأة إلى الأعلى، وتبعه الآخر، فى وسط الطيران رفع جيد جناحيه، توقف وانقض كما ينقض الصقر على الفريسة، والمخالب مفرودة، وهو يضرب ويأخذ الثانى من العنق والجنب. اهتاجت الأجنحة، وتساقط دم الأسود الثقيل فى البحر، خلَّص تنين بندور نفسه، وطار على ارتفاع منخفض كسيحًا حتى الجزيرة، ليزحف إلى أحد الكهوف، ويختبئ هناك.

على الفور رجع جيد إلى هيئته الأولى، وعاد إلى قاربه، فمن الخطر المحقق أن يبقى على هيئة هذه أكثر مما ينبغى. كانت يده متفحمة بدم الأسود

الحارق، ورأسه يدخن من النار، لكن لم يكن هذا مهمًا الآن. فقط انتظر ج
حتى التقط أنفاسه، وصاح عاليًا: "رأيت ستة منهم، ذبحت خمسة حت
الآن، أعرف أن هناك تسعة، اخرجوا يا دود الأرض!"

لم يتحرك مخلوق، ولم يطلع صوت لفترة طويلة على الجزيرة، فق
كانت الأمواج تضرب بعنف على الشاطئ، إلا أن جيد شعر بأن أعلى بر
فى الجزيرة قد تغير شكله، وبدا منتفخًا من أحد الجوانب، وكأنه قد أنب
ذراعًا، ارتعب من سحر التنانين، التنانين العجوزة قوية وخبيثة السد
للغاية، سحرهم يشبه سحر الإنس، وإن كان لا يشبه سحر الإنس. لكن ب
دقيقة أيقن أن ما يراه هو خدعة عينيه، وليس حيلة من التنين ، فما اعتقد أ
جزء من البرج لم يكن سوى كتف تنين بندور العظيم، وهو يتحرك وينز
جسده، ويرفع نفسه ببطء.

وعندما وقف على قدميه أخيرًا كانت رأسه الحرشفية ذات القرن
واللسان الثلاثى، أعلى من البرج المهدم، وقدماه ذواتا المخالب تقف عل
أنقاض المدينة كلها، كانت قشوره رمادية مسودة، تختزن ضوء النهار مث
الصخور المتكسرة، تنين أعجف مثل كلب الصيد، ضخم مثل التل، وقف
جيد مشدوهًا، فلا ملحمة ولا حكاية كان بإمكانها أن تعده لمثل هذا المنظر
كان على وشك أن ينظر فى عينيى ويتوه هناك، لكنه نظر بسرعة بعيدًا ع
العيون الخضراء الزيتية التى راقبته، من الخطر النظر فى عينيى . نظ
أمامه، وأمسك بعصاه فى يده، تلك العصا التى بدت الآن أمام التنين مث
فرع الشجرة الهزيل.

فقال بصوته الجاف العميق: "أيها الساحر الشاب، كان عندى ثمانية
من الأبناء، قتلت خمسة منهم، والسادس يموت الآن. كفى، لن تأخذ كنز
بهذه الطريقة."

- "لا أريد كنزك."

هسهس الدخان الأصفر من خياشيم ، كانت هذه ضحكته ، وقال:

"ألا تريد أن تنزل على الشاطئ، وتلقى نظرة على كنزى يا صغيرى، فهو يستحق النظر إليه."

- "لا يا تنين." كانت قوة التنانين فى الهواء والنار، ولا يحاربون بمحض إرادتهم فوق البحر، (كان وجود جيد فى البحر هو تفوقه الوحيد حتى هذه اللحظة ولم يكن يتخلى عنه) ، وإن لم يعد واثقًا من أن ذلك الشريط الرفيع من الماء بينه وبين هو أى ميزة على الإطلاق.

كان من الصعب ألَّا ينظر فى العيون الخضراء المترقبة.

قال : "أنت ساحر صغير جدًّا، لم أعرف أن بنى الإنسان يمتلكون قوتهم فى هذا السن الصغير." تكلم ، كما فعل جيد باللغة القديمة، فهى لغة التنانين. المشكلة أن اللغة القديمة تجبر الإنسان على قول الحقيقة فقط ولا شيء غيرها، بينما الوضع مختلف للتنين؛ فهى لغة التنانين الأصلية، ويستطيعون بسهولة الكذب بها، يستطيعون لَىّ معانى الكلمات للوصول لغايات زائفة، ويستطيعون أن يوقعوا بالمستمع الصغير فى متاهات من مرايا الكلمات، التى تعكس كل منها الحقيقة، دون أن تؤدى بهم إلى أى مكان. هذا ما تم تحذير جيد منه دائمًا، ولهذا كان يستمع للتنين بأذن متشككة، وقليل من الثقة. لكن كلمات بدت له واضحة ومباشرة: "هل أتيت تطلب مساعدتى، أيها الساحر الصغير؟"

- "لا يا تنين."

– "ومع هذا فأنا أستطيع أن أساعدك، ستحتاج للمساعدة قريبًا ضد ذلك الذى يطاردك فى الظلام."

وقف جيد مشدوهًا وقال:

– "ما هذا الذى يطاردك؟ اذكر لى اسمه."

– هذا لو استطعت أنا أن أسميه..." أوقف جيد نفسه.

ارتفعت حلقتان من الدخان من فوق رأس التنين الطويل، من الخياشيم التى كانت عبارة عن حفرتين من النار.

– "لو عرفت اسمه لسيطرت عليه أيها الساحر الصغير، ربما أستطيع أن أخبرك باسمه لو رأيته عن قرب، وسيأتى عن قرب لو بقيت على هذه الجزيرة، لو أردته بعيدًا عنك عليك أن تهرب، وتظل تجرى وتهرب منه، ثم سيتبعك ثانية، هل تريد أن تعرف اسمه؟"

وقف جيد ساكنًا لفترة، كيف عرف التنين بالظل الشبحى الذى أطلقه؟ لم يستطع أن يخمن كيف سيعرف اسم الشبح حين يراه. قال الساحر الأكبر إن الشبح بلا اسم، لكن للتنانين حكمتها الخاصة، قلة قليلة من البشر يعرفون ما يعرفه التنين ، ولماذا يعرفه وهؤلاء القلة هم فرسان التنانين. الشىء الوحيد الذى يعرفه التنين جيد أنه رغم أن التنين يقول الحقيقة، ورغم أن بإمكانه أن يساعده ليعرف ما اسم الشىء الذى يطارده، وبهذا يعطيه القوة فوقه، إلا أنه يفعل هذا لمصلحته الخاصة.

– فقال جيد بعد صمت طويل : "من النادر أن تقدم التنانين المساعدة لبنى البشر."

– "لكن من الشائع جدًّا أن تلعب القطط مع الفئران قبل افتراسها."

– "لكننى لم أحضر هنا لألعب، حضرت هنا لأعقد صفقة معك."

ارتفع ذيل التنين حادًّا مثل السيف فوق ظهره المحنى، ذيل طوله خمسة أضعاف طول أى سيف، تلوى الذيل وانعقف مثل العقرب، وارتفع فوق البرج. تكلم التنين بعدها بجفاف: "لا أعقد صفقات، آخذ فقط، ما الذى عندك تقدمه وأنا لا أستطيع أن آخذه بإرادتى وقتما أحب؟"

– "الأمان، أمانك، أقسم أنك لن تطير شرق بندور، وسأقسم أن أتركك آمنًا."

خرج صوت فظ من حنجرة مثل انهيار جليدى، أو صخور تتساقط من الجبال. تراقصت النيران من فوق لسانه الثلاثى، رفع جسمه عاليًا، وهو يطل من فوق الأطلال: "تعرض علىَّ الأمان؟ تهددنى؟ بمَ؟

– "باسمك... ييفود."

اختلج صوت جيد وهو ينطق الاسم، ومع هذا نطقه عاليًا وواضحًا. وعند النطق بالاسم سكن التنين تمامًا. مرت دقيقة، ودقيقة أخرى. وعندها ابتسم جيد وهو يقف هناك فى تلك الرقاقة التى أسماها قاربًا، رهن حياته ومغامرته على تخمين وصل له من مذاكرة أمهات كتب السحر عن التنانين فى روك، تخمين أن تنين بندور هذا هو نفسه الذى دمر غرب أوسيكيل فى عهد إلفارين وموريد، وتم إبعاده عن أوسيكيل بواسطة ساحر إلت الحكيم فى التسمية، وكان التخمين صحيحًا.

– "الآن نحن متساويان ييفود، لديك قوتك، ولدى اسمك، هل تقايض الآن؟"

سنون طويلة مرت على التنين وهو ممدد بكَسل على الجزيرة، يرقب صغاره يمرحون ويجربون أجنحتهم بين الأنقاض، والمجوهرات والذهب المتناثر على الجزيرة بين التراب والطوب والعظام، سنون طويلة وهو نائم لا يزعجه صوت ولا حركة شراع. كان من الصعب الحركة الآن، ومواجهة هذا الساحر الصغير، ذلك العدو الضعيف الذى جفل ييفود عند رؤية عصاه السحرية.

– "يمكنك أن تختار تسعة جواهر من كنزى، اختر الأفضل، خذها واذهب." هسهس الصوت، وانتحب داخل فك التنين الطويل، وهو يقول هذا الكلام.

– "لا أريد جواهرك ييفود."

– "أين ذهب طمع البشر؟ كان البشر يعشقون الأحجار اللامعة فى الأيام الخالية فى الشمال. الآن أعرف ما تريد أيها الساحر الصغير، أنت أيضًا تريد أمانك. أعرف ما ينقذك، الرعب الذى يطاردك أستطيع أن أخبرك باسمه."

قفز قلب جيد داخل ضلوعه، وتمسك بعصاه، وهو يقف ساكنًا مثل التنين، ويحارب الأمل الذى داهمه فجأة.

لم تكن حياته هى التى كان يقايض بشأنها، بل حياة الناس فى إيرثسى. لم يكن بمقدوره أن يمارس إلا سلطة واحدة فقط فوق التنين، لهذا وضع الأمل جانبًا، وفعل ما يجب عليه فعله.

– "ليس هذا ما أريد ييفود."

عندما نطق جيد باسم التنين الحقيقى كان كما لو قيده بطوق سحرى محكم رفيع، وأحكمه حول عنقه. كان بمقدوره أن يشعر بكراهية التنانين العميقة، وتجربتهم المريرة مع البشر فى نظرته، استطاع أن يرى المخالب الحديدية للتنين، كل منها فى طول ذراع الإنسان، كان يشعر بالنار الحارقة الكامنة فى حنجرة التنين ، لكن الطوق حوله كان محكمًا محكمًا.

ثم تكلم ثانية: "ييفود، أقسم باسمك أنه لا أنت ولا أى من ذريتك ستقترب ثانية من إيرثسى."

اندفعت النيران براقة وعالية من فم التنين وقال: "أقسم باسمى."

ساد الصمت فوق الجزيرة، وخفض رأسه الكبير.

عندما رفعه ثانية كان الساحر قد ذهب، وشراع قاربه يبدو مثل نقطة بيضاء فوق الموج ناحية الشرق، متجهًا نحو الجزر الكبيرة المكسوة بالزينة فى البحار الداخلية. وفى فورة غضبه حطم التنين البرج تحت ثقل جسمه، وضرب بجناحيه فى الهواء، فغطى بهما كل المدينة المحطمة، لكن قَسَمَه قيده، ولم يطر وقتها، ولا فى أى وقت آخر لجزر الأرخبيل.



(٦) مطارد

شعَر جيد بالخوف من الشبح يملأ قلبه ثانية أول ما اختفت جزيرة بندور وراءه، وهو فى طريقه باتجاه الشرق. كان من المؤلم أن يحل محل خطر التنين الواضح، هذا الخطر المبهم اليائس من الشبح. أوقف رياح السحر، وأبحَر برياح العالم؛ لأنه لم يرغب فى السرعة الآن. لم تكن عنده خطة واضحة، ماذا يفعل؟ فعليه أن يهرب، لكن إلى أين؟ إلى روك؛ لأنه على الأقل هناك محمى، وربما يتلقّى المشورة من الحكماء هناك فيما يفعل.

كان عليه أولًا أن يعود إلى لوتورنينج ليحكى لأهل الجزيرة حكايته مع التنين ، وعندما انتشر الخبر أن الساحر قد رجع بعد خمسة أيام من رحيله أتوا فى قواربهم من كل صوب وحدب؛ ليلتفوا حوله، ويستمعوا لقصته محملقين. حكى قصته، وبعدها قال أحدهم: "لكن مَن منا رأى بعينيه معجزة التنانين المذبوحة، و المرعوبة؟ ماذا لو...؟"

فقال كبير الجزيرة بغلظة "صه." لأنه كان يعرف، مثلما يعرفون جميعًا، أن الساحر ربما يقول الحقيقية بطرق ماكرة، لكنه إذا قال شيئًا فهو الحقيقة، فهذه هى مهارة الساحر وقوته. لهذا تعجب المستمعون، ثم زال الخوف عنهم، وابتهجوا، والتفوا حول ساحرهم الشاب، وطلبوا سماع الحكاية ثانية. وعند هبوط الليل لم يعد بحاجة لأن يحكى حكايته مع التنين، فقد أصبحوا يحكونها أفضل منه. وبسرعة شديدة كان منشد القرية قد وضع كلمات الحكاية على لحن قديم، وبدأ الناس يغنون أغنية سباروهوك. اشتعلت نيران الاحتفال، ليس فقط فى جزر اللوتورنينج، لكن في كل المدن فى الجنوب والشرق. وتناقل الصيادون الأخبار من مركب إلى مركب، من جزيرة إلى جزيرة قائلين: "انتهى الخطر، لن تعود التنانين إلى بندور مرة أخرى."

تلك الليلة، تلك الليلة فقط، كانت بهجة عظيمةً لجيد؛ فلن يقترب الشبح منه وهو وسط نيران الشكر التى توهجت فوق كل تل وشاطئ، ولن يقترب منه خلال هذه الدوائر الفرحة من الراقصين التى التفت حوله، كان الراقصون يتمايلون بشعلات نيرانهم فى تلك الليلة الخريفية العاصفة، فتبدو وكأنها تتلألأ براقة، كثيفةً، وخاطفةً فوق الريح.

فى اليوم التالى قابل جيد بيتشفيرى: "لم أكن أعرف أنك بهذه القوة، سيدى الساحر." كان فى صوته خوف، خوف من أنه يومًا قد صاحب مثل هذا الرجل القوى. وكان فى صوته أيضًا عتاب؛ لأنه لم يستطع إنقاذ ولده الصغير، رغم أنه ذبح التنانين. من بعدها امتلأ جيد من جديد بذلك الضيق الذى دفعه لبندور فى المقام الأول، ويدفعه الآن خارج لوتورنينج. ترك بيته فى اليوم التالى، رغم أنهم كانوا يحتفلون به بقية العمر، يمجدونه ويفخرون به، لكنه رحل حاملًا معه عصاه وكتبه والأوتاك فوق كتفه فقط.

غادر الجزيرة فى قارب تجديف مع زوج من الصيادين أرادا شرف اصطحابه، كانت أغنيته مع التنين تتردد فى كل مكان وهو مبحر، بين المراكب التى تملأ القنوات الشرقية للجزر التسعين، وتحت نوافذ البيوت التى تطل على المياه، تتردد بعد أرصفة نيش ومراعى درومجان وورش صناعة الزيوت كريهة الرائحة فى جيث. قبل أن يصل لأى من هذه الأمكنة سبقته شهرته وأغنيته، وتنافس الناس فى استضافته فى هذه الليلة ليحكى لهم قصة . عندما وصل إلى سيرد انحنى رئيس السفينة الذى طلب منه توصيله إلى روك، وقال له: "شرف لى ولسفينتى أيها السيد الساحر."

وهكذا أعطى جيد ظهره للجزر التسعين، لكن قبل أن ترحل السفينة من الميناء الداخلى لسيرد وترفع شراعها هبت ضدها رياح قوية من الشرق، وهو أمر غريب؛ لأن السماء كانت صافية، والجو بدا معتدلاً هذا الصباح. كانت روك تبعد ثلاثين ميلاً فقط من سيرد، ولهذا أبحروا غير عابئين. وحتى عندما ارتفعت الرياح أبحروا وأبحروا.

كانت السفينة الصغيرة مثل معظم سفن البحر المخفى، تحمل شراعًا أماميًا وخلفيًا يمكن لفه للإمساك بالرياح المعاكسة، وقبطانها رجل ماهر فخور بمهارته وسفينته؛ لهذا أخذ يراوغ بالسفينة تارة شمالاً وتارة شرقًا، لكن السحب والأمطار تجمعت فوق السفينة، التى أخذت تغير اتجاهها بعنف، لدرجة أنها كادت أن تنحرف عن مسارها. قال رئيس السفينة لجيد الذى كرمه بالجلوس جانبه فى مؤخرة السفينة: "سيد سباروهوك!" رغم أنه بالطبع كان من الصعب الحفاظ على أى شكل من التكريم وسط هذه الأمطار والرياح التى أغرقتهم فى عباءاتهم الحريرية، "سيدى سباروهوك، ألا يمكنك أن تقول كلمة تهدئ من الريح؟"

– "كم نبعد عن روك؟"

- "قطعنا أكثر من نصف الطريق، لكننا لم نتحرك على الإطلاق فى تلك الساعة الأخيرة سيدى."

تكلم جيد للريح فهدأت بعض الشيء، وأبحرت السفينة بهدوء بعض الوقت، لكن انهمرت سيول عنيفة من جهة الجنوب، مما دفع بالمركب جهة الغرب مرة أخرى. تكسرت السحب، وفارت فى السماء، وصرخ رئيس السفينة بغضب: "هذه الرياح الحمقاء تهب من كل ناحية!"

اكفهر وجه جيد حين سمع هذا، لكن السفينة وطاقمها كانوا فى خطر بسببه، ولهذا جلب رياح السحر فى شراعها، وعلى الفور بدأت السفينة تشق طريقها مباشرة إلى الشرق، وبدا السرور على وجه رئيس السفينة ثانية، لكن شيئًا فشيئًا، ورغم أن جيد ظل محتفظًا بالتعويذة سارية، إلا أن رياح السحر ضعفت وارتخت، وبدا كما لو أن السفينة قد سكنت تمامًا على الأمواج لبرهة، وارتخى شراعها وسط كل جلبة الريح والمطر، ثم وبصوت مثل الرعد دارت الدفة، وانحرفت السفينة وتقافزت باتجاه الشمال مثل القط المذعور.

استند جيد على أحد القوائم، والسفينة ترقد على جانبها وصاح: "ارجع إلى سيرد يا رئيس."

أخذ الرئيس يشتم ويلعن، ويصيح أنه لن يعود: "عندى ساحر على ظهر السفينة، وأنا أفضل رؤساء المراكب فى المهنة، وهذه واحدة من أفضل المراكب، وتريدنى أن أرجع؟!"

لكن المركب استدارت مرة أخرى، كما لو كانت فى دوامة، واضطر الرئيس أن يتمسك بقائم حتى يبقى ثابتًا على السطح. قال له جيد: "اتركنى على سيرد وأبحر حيث تشاء. هذه الريح ليست ضد سفينتكم، وإنما ضدى أنا."

– "ضدك أنت، ساحر من سحرة روك؟"

– "ألم تسمع برياح روك يا رئيس؟"

– "تلك التى تبعد القوى الشريرة عن جزيرة الحكماء، وما لك أنت بها، وأنت مروِّض التنانين وفارسها؟"

أجاب جيد باقتضاب مثلما يفعل السحرة عادةً: "هذا شىء بينى وبين ظلى". ولم يزد عن هذا، وهم يبحرون عائدين تحت السماء التى بدأت تصفو باتجاه سيرد.

امتلأ قلب جيد بالخوف، وهو يغادر أرصفة سيرد. بدأت الأيام تقصر، والغسق يقترب، وهو الوقت الذى يتضاعف فيه قلق جيد وخوفه، ويبدو له كل شارع تهديدًا جديدًا. كان عليه أن يمنع نفسه من النظر وراء كتفه دائمًا على الشبح. ذهب مباشرة إلى بيت الشاطئ؛ حيث يعيش الرحالة والمسافرون مؤقتًا، يأكلون معًا على حساب مجلس الجزيرة، ويستطيعون المبيت فى القاعة الكبيرة، كانت هذه هى ضيافة الجزر الغنية لزوار البحر المخفى.

اقتصد قطعة من اللحم من طعامه. وعندما جلس فى المساء بعد العشاء حول المدفأة أخذ يلاطف الأوتاك ليخرج من ثنية غطاء رأسه حيث قبع طيلة اليوم، حاول أن يجعله يأكل، بالتربيت عليه، وبالهمس له باسمه: "هويج... هويج... صديقى الصغير، صديقى الصامت..."

لكن الأوتاك لم يأكل، بل زحف إلى جيب جيد ليختبئ. كانت هذه إشارة كافيةً لجيد، الذى كان يشعر بالقلق والخوف بمجرد النظر إلى السواد الكبير فى أطراف الغرفة الكبيرة، لأن يعرف أن الشبح ليس ببعيد.

لم يعرفه أحد هناك، ولا تكلم عنه أحد، فقد كانوا جميعًا من المرتحلين، من جزر مختلفة لم تسمع به ولا بأغنية سباروهوك. اختار فراشه فى النهاية ونام، لكنه ظل مفتوح العينين طوال الليل فى تلك القاعة المسقوفة بين الأغراب النائمين. حاول أن يحدد طريقه، وأن يخطط أين يذهب، وما يجب عليه أن يفعله، لكن كل اختيار وكل خطة كانت مسدودة بنذير شؤم، وعبر كل طريق كان الشبح منتظرًا، فقط روك كانت خالية من الشبح، لكن بات واضحًا أن جيد ممنوع من الذهاب هناك؛ بسبب التعاويذ القوية العالية حول الجزيرة. كانت رياح روك التى قامت ضده خير دليل على أن ما يطارده قد أصبح أقرب ما يكون.

ما يطارده شىء بدون جسد، ولا يعرف ضوء الشمس، كائن من مملكة بلا ضوء، بلا مكان، بلا زمان، يتحسس هذا الشبح طريقه خلف جيد عبر الأيام وبحار العالم المشمس، ويأخذ شكلًا مرئيًا فقط فى الكوابيس والظلام. لم يتخذ بعد شكلًا أو كينونة تشرق عليها الشمس، هذا ما كان فى ملحمة بطولات هود "يخلق نور الصباح الأرض والبحار، ويخرج من الأشباح الأشكال دافعًا بالحلم إلى مملكة الظلام." لكن لو حدث أن أمسك الشبح بجيد فقد يمتص منه قوته، ويأخذ الوزن والدفء والحياة من جسده، وكذلك يأخذ منه الإرادة التى تحركه.

كان هذا هو المصير المحتوم الذى يرآه جيد فى بداية كل طريق، وكان يعرف أنه من الممكن أن يلقى هذا المصير، فالشبح يزداد قوة كلما اقترب منه، وربما يكون قد حصل على القوة الكافية الآن لتسخير قوى ورجال الشر تحت خدمته، وبالتالى يستطيع أن يظهر له إشارات خداعة، أو يتحدث معه بأصوات غير حقيقية. كل ما يعرفه أنه ربما يقبع الشبح الآن داخل أحد الرجال النائمين معه فى هذه الزاوية، أو هذا الركن من بيت البحر، وربما

يجد ملاذًا فى أحد النفوس السوداء، ينتظر جيد ويراقبه، يتغذى على ضعفه وقلقه، يعيش على خوفه.

كان كل هذا فوق احتماله، لم يكن يثق فى المصادفة أبدًا، وكان عليه أن يذهب إلى حيث تأخذه المصادفة.

مع أول لسعات البرد فى الفجر نهض، وتعجل فى مشيه تحت النجوم الخابية إلى أرصفة سيرد، عازمًا على أن يأخذ أول سفينة خارجة تقبل به راكبًا. كانت مركبًا محملة بالزيت، تنطلق إلى ميناء هافنور العظيم عند الفجر. طلب جيد من رئيسها الركوب معهم، كانت عصا الساحر هى جواز سفره وأجرة ركوبه. أخذوه معهم بكل ترحاب، وأبحرت السفينة فى تلك الساعة. ارتفعت حالة جيد النفسية عند رؤية المجاديف الأربعين الطويلة تتحرك، والطبلة التى تحافظ على الإيقاع تعزف له موسيقى شجاعة.

ورغم ذلك لم يعرف ما الذى سيفعله فى هافنور، وإلى أين سيذهب بعدها. بدا له اتجاه الشمال جيدًا مثل غيره من الاتجاهات، كان من أهل الشمال نفسه، وآمل أن يجد سفينة تأخذه من هافنور إلى جونت ليرى أوجيون ثانية. أو ربما يجد سفينة تأخذه إلى الأطراف لأبعد ما يستطيع، فيفقد الشبح أثره وييأس منه، لم تكن هناك أى خطة فى ذهنه، ولم يظهر أى طريق واضح، فقط عليه أن يهرب.

حملت المجاديف الأربعون السفينة خروجًا من سيرد عبر مائة وخمسين ميلًا من البحر الممطر قبل غروب اليوم التالى، جاءوا إلى ميناء فى أوريمى على الساحل الشرقى من أرض هوسك الكبيرة، فالسفن التجارية هذه تبحر نهارًا جنب السواحل، وتنام ليلًا فى الموانئ بقدر الإمكان. نزل جيد على الشاطئ، فالوقت لا يزال نهارًا، وتجول فى شوارع مدينة الميناء دون هدف والهم يركبه.

كانت أوريمى مدينة قديمة كثيفة البناء بالطوب والحجر، محاطة بالأسوار ضد أسياد هوسك المجرمين، المخازن على الأرصفة مثل القلاع وبيوت التجار مثل الأبراج المحصنة. لكن كل هذه القصور الكبيرة بدت لجيد المهموم مثل ستائر يقبع وراءها الظلام الفارغ، والمارة الذين عبروا بجانبه إلى أعمالهم مشغولين بدوا له مثل أشباح رجال صامتة. وعندما غابت الشمس عاد جيد إلى الرصيف مرة أخرى، وحتى هناك فى ضوء المغيب الأحمر الواسع فى نهاية اليوم بدت له الأرض والشمس معتمة وساكنة.

- "إلى أين، سيدى الساحر؟"

هكذا حيَّاه أحدهم فجأة من ورائه، حين استدار ليراه رأى رجلًا يرتدى ثوبًا رماديًّا، ويحمل عصا ليست بعصا ساحر. كان وجه الغريب مخفيًّا من الضوء الأحمر بغطاء رأسه، لكن جيد شعر بالعيون المختفية ترقبه. جفل جيد لرؤيته، ورفع عصا السحر بينه وبين الغريب، سأل الغريب بوداعة: "ممَّ تخاف؟"

- "ذلك الذى يتبعنى."

- "ماذا إذن؟ أنا لست ظلك."

وقف جيد ساكنًا، يعرف أن هذا الرجل أيًا كان ليس ما يخشاه، فهو ليس بشبح ولا ظل ولا جيبيث، كان لهذا الرجل صوت وصلابة وسط العتمة المحيطة. أنزل غطاء رأسه الآن فظهر وجهه، غريبًا متجعدًا، دقيق الملامح، أصلع الرأس عجوزًا، رغم أن السنين لم تظهر فى صوته.

- قال الرجل ذو الرداء الرمادى: " لا أعرفك، ولكننى أعتقد أننا لا نلتقى صدفة. سمعت حكاية يومًا عن شاب ذي ندوب، شق طريقه للعظمة

والمُلك فى قلب الظلام، لا أعرف إن كانت هذه حكايتك أم لا، لكن أصغِ لما أقول، لو احتجت لسيف تحارب به الأشباح اذهب لقصر تيرنون، فلن تنفعك عصا الساحر هذه.“

تصارع الأمل والريبة فى عقل جيد، وهو يستمع للغريب، يعرف الساحر فى بداية طريقه أن معظم لقاءات حياته لا تحدث مصادفة، سواء كانت للخير أم للشر.

– ”فى أى أرض يقع قصر تيرنون؟“

– ”فى أوسيكيل.“

عند سماع كلمة ”أوسيكيل“ رأى جيد لبرهة، بخدعة من ذاكرته، غرابًا أسود على نجيل أخضر ينظر له جانبًا بعينٍ مثل الصخر المصقول، ويتكلم، لكن الكلمات كانت منسية.

قال جيد وهو دائم النظر إلى الرجل: ”لهذا الاسم وقع ثقيل على النفس.“ وحاول أن يعرف أى نوع من الرجال هو، فطريقته تشى بأنه مشعوذ، أو ربما ساحر، لكن رغم الجرأة التى تكلم بها مع جيد، علت وجهه نظرة غريبة مقهورة، كما لو كان رجلًا مريضًا، أو سجينًا، أو عبدًا مملوكًا.

– ”أنت من روك، سحرة روك يعطون الأسماء السوداء لأى سحرة من مكان آخر غيرهم.“

– ”أى رجل أنت؟“

”مسافر رحالة، وكيل تاجر من أوسيكيل، أنا هنا فى مهمة عمل.“ هكذا رد الرجل، وعندما لم يسأله جيد أى شىء آخر، حيَّاه، وتمنى له ليلة طيبة، واختفى خلف الشارع الضيق فوق رصيف الميناء.

عاد جيد وهو حائر: هل يكترث لهذه الإشارة أم لا؟ ونظر لاتجاه الشمال، كان الضوء الأحمر يزول سريعًا من فوق التلال ومن فوق البحر الهائج، وكان الغسق الرمادى قد حل، وفى أعقابه جاء الليل الأسود.

ذهب جيد بقرار مفاجئ ناحية الأرصفة إلى صياد كان يلملم شبكته في زورقه الصغير، فحيَّاه قائلا: "هل تعرف أى سفينة فى الميناء تتجه شمالا إلى سيميل أو إنلاندز؟"

– "السفينة الطويلة هناك من أوسيكيل، قد تتوقف فى الإنلاندز."

وبالسرعة نفسها انطلق جيد إلى السفينة التى أشار لها الصياد، سفينة طويلة بستين مجدافًا، رفيعة مثل الثعبان، مقدمتها العالية الملتوية محفورة ومطعمة بالصدف، مقابض مجاديفها مدهونة بالأحمر، وحرف سيفل مكتوب بالأسود باللغة الرونية على كل واحد. بدت سفينةً جادة، كئيبة، سريعة. بحث فيها جيد عن الرئيس، وسأله الذهاب معه إلى أوسيكيل.

– "هل معك لتدفع؟"

– "عندى بعض المهارة مع الرياح."

– "أنا من محركى الطقس، لن تضيف جديدًا. أليس لديك ما تعطيه؟ ماذا عن النقود؟"

فى لو تورنينج دفع رجال الجزيرة لجيد ما استطاعوا من القطع العاجية التى يستخدمها التجار فى الأرخبيل، لم يكن ليأخذ أكثر من عشرة قطع، رغم أنهم عرضوا أكثر من هذا. عرض هذه على الرجل الأوسيكيلى الآن، لكنه هز رأسه وقال: "لا نقبل بهذه، لو لم يكن عندك ما تدفعه فلا مكان لك على السفينة."

– "هل تحتاج لرجال؟ عملت مجدِّفًا فى سفينة من قبل."

– "حسنا، ينقصنا رجلان، اذهب واتخذ لنفسك مقعدًا." قال رئيس السفينة هذا ومشى، ولم يلقِ بالًا لجيد من وقتها.

وهكذا، وضع جيد عصاه وحقيبة كتبه تحت مقاعد المجدفين، وأصبح طوال عشرة أيام مريرة من الشتاء أحد مجدفى هذه السفينة الشمالية. غادروا أوريمى عند الفجر، وفى اليوم نفسه ظن جيد أنه لن يستطيع أن يكمل عمله على السفينة أبدًا. لم يكن ذراعه الأيسر سليمًا بسبب جروحه القديمة فى كتفه، ولم يؤهله التجديف الكثير فى قنوات لوتورنينج للشد والشد والشد فى تلك السفينة الطويلة على صوت الطبلة. كل مناوبة تجديف كانت من ساعتين أو ثلاثة؛ حيث يأخذ فريق آخر من المجدفين مقاعدهم، ولم يكن وقت الراحة كافيًا سوى لأن تتخشب عضلات جيد أكثر وأكثر، ثم يعود ثانيةً للمجداف. زاد الأمر سوءًا فى اليوم التالى، لكنه تحسن بعد هذا، حين تعوَّد على الجهد وازداد احتماله.

لم تكن هناك مودة بينه وبين طاقم السفينة، مثل التى عرفها على السفينة الشبح، حين ذهب إلى روك لأول مرة؛ والسبب أن طاقم السفن الجونتية والأندرياتية شركاء فى التجارة، يعملون معًا لمصلحة واحدة، بينما تجار أوسيكيل يستخدمون العبيد، أو يستأجرون البحارة للتجديف، ويدفعون لهم عملات ذهبية صغيرة. ليس الذهب سببًا للزمالة الحقيقية أو الود. ولأن نصف البحارة كانوا عبيدًا، مجبرين على العمل، كان رؤساء السفن نخاسي عبيد قساةَ القلوب. بالطبع لم يكونوا يجلدوا بالسوط أيًّا من البحارة المأجورين أو الراكبين مثله، لكن أى صداقة وود هذين بين فريق عمل بعضه يُضرب بالسياط، وبعضه الآخر لا؟ كان الكلام قليلًا على هذه

السفينة، فالبحارة فى الأغلب رجالٌ من أوسيكيل لا يتحدثون لغة الأرخبيل، ولكن لكل لَكْنة خاصة بهم، رجال أصحاب بشرة مشرقة اللون ولكنها باهتة، بشوارب سوداء متدلية، وشعور مسدلة.

"كيلوب"، أى الرجل الأحمر، كان هو اسم جيد بينهم، ورغم أنهم يعرفون أنه ساحر، إلا أنهم لم يعيروه أى اهتمام، بل تعاملوا معه بحذر واحتقار، ولم يكن هو فى أى مزاج لتكوين صداقات. حتى وهو على مقعد التجديف يعمل كواحد من ستين مُجدِّفًا فى سفينة تسابق نفسها فوق البحر الرمادى الخالى، كان يشعر بنفسه ضعيفًا وقليل الحيلة، وحين ترسى السفينة فى موانئٍ غريبة ليلًا، ويلتف بعباءته لينام، كان يحلم بأحلام ترهقه، ويحلم ثانيةً مستيقظًا بأحلام شريرة لا يتذكرها حين يصحو، رغم أنها تظل معلقة حول السفينة ورجالها، وتملؤه بالشك فى كل واحد منهم.

كل الرجال الأوسكيلين الأحرار يحتفظون بسكين طويلة عند الفخذ، وفى يوم ما كان جيد يتشارك مع زميله فى مقعد المجدف فى وجبة الظهيرة، وسأله أحد الرجال: "هل أنت عبد أم حانث باليمين يا كيلوب؟"

- "لا هذا ولا ذلك."

- "لماذا لا ترتدى السكين إذن؟ خائف من القتال؟ قال هذا الرجل سكيورِه متهكمًا.

- "لا."

- "هل يقاتل كلبك من أجلك؟"

قال آخر: "أوتاك ليس كلبًا، بل أوتاك." ثم قال شيئًا ما بالأوسكيلية لسكيوره جعله يعبس ويمشى بعيدًا. وهو يستدير لمح جيد تغيرًا فى وجهه، تلطخًا أَو تغيرًا فى ملامح الوجه، كما لو كان قد حوله شىء أو استخدمه

شيء لبرهة، وأخذ ينظر من خلال عينى سيكورِه جانبًا على جيد. لكن فى اللحظة التالية رأى جيد سيكورِه أمامه، وكان يبدو له عاديًا، فقال جيد لنفسه إن ما رآه هو خوفه الشخصى، ورعبه الخاص منعكسًا فى عيون الآخرين. لكن فى تلك الليلة التى قضوها فى إسين حلم جيد بسكيوره يمشى فى منامه، ومن بعدها أخذ يتحاشى الرجل بقدر الإمكان، وكذلك فعل سكيوره، ولم يدر بينهما حديث على الإطلاق من بعدها.

غاصت الجبال المكللة بالثلوج من ورائهم باتجاه الجنوب، يعتمها ضباب الشتاء. واصلوا التجديف بعد ثغر بحر إيا؛ حيث غرقت إلفارين منذ زمن بعيد، وواصلوا بعد إنلاند. رست السفينة يومين فى ميناء بيريلا، مدينة العاج، فى كل الموانئ التى رسوا فيها لا تطأ أقدام الطاقم الأرض. وحين تشرق الشمس المحمرة يجدفون ثانية داخل البحر الأوسيكيلى، وبداخل الرياح الشرق غربية التى تهب لا يحدها حد على اتساع الطرف الأقصى الشمالى الخالى من الجزر. فى هذا البحر المرير أحضروا حمولة السفينة بأمان، وخرجوا فى اليوم التالى من بيريلا إلى ميناء نيشوم، مدينة التجارة فى أوسيكيل الشرقية.

ونيشوم مدينة رمادية تقبع خلف حاجز أمواج طويل هو الميناء، وخلف المدينة تلال جرداء تحت سماء مثلجة معتمة. لقد ابتعدت السفينة كثيرًا عن ضوء الشمس فى البحر المخفى.

صعد مفرغو المراكب من نيشوم لتفريغ حمولة المركب: ذهب، فضة، جواهر، حرير فاخر، ومشغولات جنوبية، تلك الأشياء الغالية التى يكتنزها سادة أوسيكيل، وخرج أحرار السفينة. وقف جيد ليسأل أحدهم عن الطريق، وحتى هذه اللحظة منعه شكه فى كل من حوله أن يخبر أحدهم مقصده، لكن

الآن، وبعد أن أصبح وحيدًا على أرض غريبة، كان عليه أن يطلب المعونة. فرد الرجل عليه بتعجل، وقال إنه لا يعرف. لكن سكيورِه الذى سمع الحوار أجاب: "قصر تيرنون؟ على مراعى كيكسميت، أنا ذاهب بهذا الاتجاه."

لم يكن سكيورِه هو الصحبة التى يتمناها جيد، لكن لأنه لا يعرف لا اللغة ولا الطريق لم يكن عنده خيارات سوى أن يذهب معه، على أى حال لم يكن الأمر ذا قيمة، فلم يختَرِ المجئ هنا، بل دُفع لهذا، والآن يُدفع أكثر. شد غطاء رأسه، وحمل عصاه وحقيبته، وتبع الرجل الأوسيكيلى عبر الشوارع، عاليًا باتجاه التلال المثلجة. اختبأ الأوتاك الصغير فى جيب قميصه المصنوع من جلد الغنم تحت العباءة، رافضًا الركوب على كتفه كما كانت عادته فى البرد. امتدت التلال إلى أراضى المستنقعات متدفقة على مدى البصر، مشوا فى صمت زاده صمت الشتاء المطبق على كل الأرض.

وسأله جيد: "متى نصل؟" وذلك بعد ما مشيا عدة أميال دون أثر لقرية أو مزرعة فى أى اتجاه، وبعد أن تذكر أنه لا طعام معهم، فأدار سكيوره رأسه، ورفع غطاء رأسه، وقال: "ليس ببعيد."

كان وجهه قبيحًا، شاحبًا، خشنًا، قاسيًا، لكن جيد لم يخش أى آدمى، رغم أنه يخشى المكان الذى قد يقوده إليه الآدمى. أومأ برأسه، ومشيا فى طريق ضيق خلال الثلج الخفيف والشجيرات. من وقت لآخر كانت تقطع هذا الطريق الضيق طرق أخرى، أو تتفرع منه، الآن كانت مدخنة نيشوم قد اختفت خلف التلال فى النهار الآخذ فى الإظلام، دون أى إشارة إلى أين عليه أن يذهب، أو أين ذهب بالفعل. وعندما مشيا عدة ساعات ظن جيد أنه قد رأى خدشًا فى السماء مثل سن أبيض بعيدًا فوق التلال فى الشمال الغربى، لكن ضوء النهار القصير أخَذ يخبو، وعند ارتفاع الطريق مرة أخرى كان لا

يزال عاجزًا أن يتبين إن كان هذا الشيء برجًا أو شجرة أو أى شيء آخر.

سأله جيد وهو يشير: "هل نذهب هناك؟"

لم يرد سكيورهِ، لكنه استمر فى المشى مكممًا فى عباءته الثقيلة بغطاء رأسها الأوسيكيلى، الذى يشبه المنقار ذا الفراء. كانا قد مشيا طويلًا، وبدأ جيد يغلبه النعاس من كثرة المشى، ومن العمل المضنى أيامًا وليالى طويلة على السفينة. بدا له الأمر كما لو كان يمشى إلى الأبد، وسيمشى إلى الأبد بجانب هذا الكائن الصامت عبر هذه الأرض الصامتة المعتمة، تبلد كل شيء بداخله، الحذر والهمة، ومشى كما لو كان فى حلم طويل طويل، لا يذهب فيه لأى مكان.

اختبأ الأوتاك فى جيبه، واستيقظ خوف غامض فى عقله. ثم أجبر نفسه أخيرًا على الكلام: "ما المسافة الباقية، سكيوره؟"

– بعد صمت أجاب سكيوره دون أن يستدير: "ليس ببعيد."

لكن الصوت لم يكن مثل صوت إنسان، بل مثل صوت وحش، خشن ودون شفاه، صوت يحاول أن يتكلم.

توقف جيد، حوله من كل مكان امتدت التلال الخالية فى ضوء الغسق الغامق، لف الثلج المتساقط قليلًا قبل أن يهطل. فقال جيد: "سكيوره." فتوقف الآخر واستدار، لم يكن هناك وجه تحت غطاء الرأس المنقارى.

وقبل أن يتمكن جيد من إلقاء تعويذة أو استدعاء أى شيء نطق الجيبيث بصوته الخشن باسمه: "جيد". فانحبس جيد فى اسمه، وعجز على أن يُحدث أى تحولات، وتقيد فى ماهيته الحقيقية، وواجه الجيبيث دون

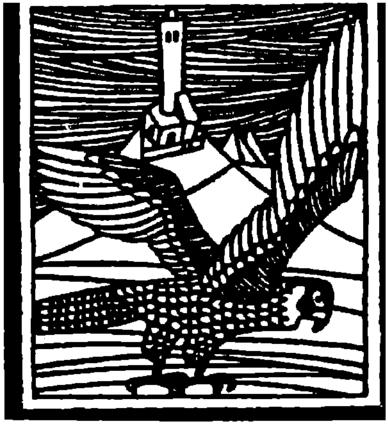
مقاومة. لم يكن هناك له من قوة خارجية تساعده فى تلك الأرض الغريبة، فلا أحد سيأتى له، أو يهب لمساعدته. وقف عاريًا بدون حاجز بينه وبين العدو سوى عصا خشبية فى يده اليمنى.

ذلك الشىء الذى ابتلع عقل سيكوره، وتملك من جسده جعله يخطو متحسسًا بذراعيه باتجاه جيد، ملأت جيد عاصفة من الرعب، فقفز للأمام وهوى بعصاه على غطاء الرأس الذى أخفى وجه الشبح. تساقطت العباءة وغطاؤها على الأرض تحت تأثير الضربة القوية، كما لو كانتا مملوءتين بالهواء فقط، ثم تلويتا وانتفختا، وقام الجيبيث ثانية. تصفى جسم الجيبيث من مادته الحقيقية، وأصبح مثل القشرة أو الدخان فى شكل إنسان، جسد غير حقيقى بداخله الشبح الحقيقى. مد الشبح يديه تجاه جيد بعنف وقوة كأنما تفجر من قلب الرياح، كان يحاول الإمساك به كما فعل على هضبة روك، ولو فعل لأزاح جانبًا قشرة سكيوره — الجيبيث - ودخل فى جيد ليمتصه من الداخل ويمتلكه، وهذا ما يريده تمامًا. ضربه جيد مرة أخرى بعصاه التى يخرج منها الدخان محاولًا إبعاده، ولكنه عاد ثانيةً، وضربه مرة أخرى، ثم أخيرًا أسقط جيد العصا التى اشتعلت وخبت بعد أن أحرقت يده، وتراجع واستدار فجاة وانطلق هاربًا.

جرى والجيبيث فى أعقابه، عاجزًا عن الإمساك به، لكنه استمر فى المطاردة دون تراجع. لم ينظر جيد إلى الخلف أبدًا. ظل يجرى... يجرى... يجرى... يجرى عبر الأراضى الواسعة القاتمة بدون ملجأ واحد يلجأ إليه، ناداه الجيبيث مرة أخرى باسمه: "جيد." بصوته الخشن المدوى، لكن رغم أن الجيبيث تمكن من قوة جيد السحرية، إلا أنه لم يمتلك قوته الجسدية، ولم يوقفه عن الجرى.

اشتد الليل على المطارِد والمطارَد، وهطل الثلج عبر الطريق الذى لم يعد يراه جيد أصلًا، أوشكت عيناه على الانفجار من التعب واشتعل حلقه، لم يعد يجرى، بل كان يتخبط ويتعثر، وعلى الرغم من هذا لم يستطع المطارِد أن يلحق به أبدًا، رغم أنه كان دائمًا فى أعقابه. بدأ يهمس له ويتمتم مناديًا عليه، وعرف جيد الآن أن هذا الهمس كان فى أذنيه طوال حياته، فقط تحت مستوى السمع، لكنه الآن يسمعه بوضوح، وكان عليه أن يخضع له، يستسلم ويقف. ضغط على نفسه أكثر مجاهدًا للصعود على منحدر عالٍ أمامه. ظن أنه قد رأى ضوءًا أمامه، وسمع صوتًا ينادى: "تعال، تعال."

حاول أن يجيب لكنه فَقَد صوته، وبرق الضوء حقيقيًّا لامعًا عبر بوابة، لم يستطع أن يرى الجدران، لكنه رأى البوابة. عند رؤيتها توقف، فاقترب الجيبيث من عباءته من الوراء، متلمسًا جوانبها حتى يمسك به من الخلف. اندفع جيد عبر الباب اللامع بآخر قوة لديه، حاول أن يستدير ليغلق الباب فى وجه الجيبيث، لكن رجليه لم تحملاه. ترنح ومد يديه طلبًا للمساعدة، غامت الأضواء فى عينيه، وشعر بنفسه يسقط ويسقط، ويتلقاه أحد وهو يسقط، لكن عقله المنهك انزلق للظلمات.



(٧) طيران الصقر

ولفترة طويلة رقد يفكر أنه من الرائع أن يصحو ثانية،
صحو أبدًا، ولا أن يرى ضوء النهار العريض من حوله
سبح على هذا الضوء، أو يبحر بقارب فوق مياه بالغة
ن أنه فى الفراش، ولكن ليس كأى فراش نام فيه من قبل،
بع أرجل محفورة، والحشيات كانت أكياسًا من الحرير
ريش، ولهذا شعر أنه يطفو. ومن حول الفراش فى كل
. حمراء لتبعد تيارات الهواء. كانت الستائر مربوطة
جانب. نظر جيد على الغرفة ذات الجدران والأرضية
ں النوافذ العالية شاهد المراعى بنية وجرداء، وبقع الثلج
تحت شمس الشتاء الضعيفة، وشعر بالغرفة عالية فوق

وقع لحاف من الريش على الأرض حين قام جيد ليقف، وحينها رأى نفسه رداءً تونيك من الحرير المطعم بالفضة مثل الأمراء. وعلى كرسى بجانب الفراش كان هناك حذاء وعباءة مزينة بفراء البيلاوى[11] جاهزين للاستخدام. جلس لبرهة هادئًا ومتبلد الحس، كما لو كان تحت تأثير تعويذة، ثم قام واقفًا يبحث عن عصاه، لكن لم يجد أى عصا. رغم أنه وجد يده اليمنى مدهونة ومربوطة، إلا انها كانت محترقة من عند الأصابع والكف، وشعر الآن بالألم يدب فيها، وبالوجع فى كل جسمه.

وقف ساكنًا لبرهة، ثم همس بصوت منخفض، وبدون أمل: "هويج، هويج." راح هذا الكائن القوى الوفى أيضًا، تلك الروح الصامتة التى ساعدته للخروج من مملكة الموت يومًا ما. هل كان لا يزال معه بالأمس حين كان يجرى؟ هل كان هذا بالأمس أم منذ أيام عديدة؟ لم يعرف. كان كل شىء معتمًا وغامضًا فى عقله: الجيبيث، والعصا المحترقة، والجرى، والهمس، والبوابة. حتى الآن لم يكن هناك شىء واضح، همس باسم حيوانه الأليف مرة أخرى بدون أمل، فتجمعت الدموع فى عينيه.

دق جرس ما فى مكان بعيد، ثم رن جرس آخر عذب خارج الغرفة مباشرة، انفتح الباب، ودخلت امرأة عبر الغرفة، وقالت وهى تبتسم: "مرحبًا سباروهوك."

دخلت شابة طويلة ترتدى الأبيض والفضى، تزين رأسها بشبكة من الفضة فوق شعرها، الذى انساب مثل شلال من المياه السوداء.

انحنى جيد جامدًا.

---

(١١) فراء البيلاوى هو فراء الحيوان مختلف فى الرواية اسمه البيلاوى.

- "لا تتذكرنى؟"

- "أتذكرك، سيدتى."

فى حياته كلها لم يرَ سيدة حسناء يضاهى ملبسها جمالها سوى ليدى أو التى حضرت مع زوجها إلى كرنفال مدرسة روك، وكانت مثل الشمعة المضيئة، لكن هذه السيدة كانت مثل القمر الأبيض الجديد.

- "قلت إنك لن تتذكرنى، رغم أنك كثير النسيان، لكن أهلًا وسهلًا بك هنا كصديق قديم."

- "ما هذا المكان؟" سأل جيد، وهو لا يزال جامدًا وثقيل اللسان، وجد أنه من الصعب أن يكلمها، ومن الأصعب ألّا ينظر إليها. كانت ملابسه الأميرية غريبة، والأرض الحجرية التى يقف عليها غريبة، والهواء نفسه الذى يتنفسه غريبًا، كان هو نفسه غريبًا.

"هذا المكان هو قصرَ تيرنون، زوجى بينديرسك هو حاكم هذه البلاد من مراعى كيكسميت إلى جبال أوس، وهو حارس الحجر الثمين المعروف باسم حجر تيرنون. أما أنا فهنا فى أوسيكيل يسموننى سيريت، أو الفضة فى لغتهم. وأنت تُدعى سباروهوك أحيانًا، وقد جعلوك ساحرًا فى جزيرة الحكماء."

نظر جيد على يده المحترقة، وقال على الفور: "لا اعرف ما أنا. كانت لدىَّ القوة فى الماضى، ضيعتها على ما أظن."

- "لا، لم تضيعها، وإن فقدتها فهذا فقط لتستعيد عشرة أضعافها. أنت بأمان من الشىء الذى طاردك إلى هنا يا صديقى؛ فهذا البرج محاط بجدران قوية من الحجارة وأشياء أخرى، هنا تستطيع أن تستريح وتجد قوتك ثانية. هنا أيضًا تستطيع أن تجد قوى مختلفة وعصا جديدة لن تحترق

فى يدك. وقد يكون الطريق السيئ قد قادك لنهاية جيدة. على أية حال. تعال معى الآن، دعنى أريك أملاكنا" .

كانت تتكلم بعذوبة شديدة، لدرجة أن جيد تبعها طائعًا لإغراء صوتها وحده.

كانت غرفته بالفعل عالية جدًا فى البرج الذى ارتفع مثل ناب حاد فوق قمة التل، مشى خلف سيريت نزولًا على السلالم الرخامية، عبر الغرف والقاعات الفاخرة، وخلف النوافذ التى تطل من كافة الاتجاهات على التلال البنية الخالية من أى بيت أو شجرة، والتى تمتد عارية تحت سماء الشتاء المشمسة. فقط فى أقصى الشمال وقفت قمم بيضاء حادة فى قلب زرقة السماء، وللجنوب يستطيع المرء أن يتخيل لمعان البحر.

كان الخدم يفتحون أبواب القاعات والغرف لجيد وللسيدة، وهما يدخلان ويخرجان، ثم يقفان جانبًا.كل الخدم كانوا من الأوسيكيلين الصارمين باهتى البشرة. أما السيدة، فرغم أنها كانت مشرقة البشرة، إلا أنها بعكس الخدم، كانت تتكلم الهاردية جيدًا، لدرجة أنه بدا لجيد أنها تتكلمها باللكنة الجونتية.وبعد ذلك أخذت جيد لرؤية زوجها بيندسيرك أمير تيرنون، الذى كان عمره ثلاثة أضعاف عمرها، كان أبيض ونحيفًا مثل العظم ومعتم العينين. حيًا الأميرُ جيد ببرود، وأخبره أن يحل عليهم ضيفًا كما يحب. ثم لم يتبادل معه بعد هذا سوى أقل القليل من الكلام، ولم يسأله عن رحلته، ولا على العدو الذى طارده حتى هنا، ولا سألته السيدة سيريت عن أى من هذا أيضًا.

لو بدا هذا كله غريبًا فلم يكن سوى جزء يسير من غرابة المكان ووجوده فيه. لم يصفُ عقل جيد أبدًا، ولا استطاع رؤية الأمور بشكل واضح. رغم

أن حضوره لهذا المكان مصادفة، لكن المصادفة كانت تبدو مرتبة بالكامل، أو حضوره مرتبًا، لكن كل الترتيبات قد أتت بعضها مع بعض مصادفة. الوضع كالآتى، كان جيد قد بدأ رحلته إلى الشمال، أخبره غريب فى أوريمى أن يطلب المساعدة هنا، وكانت سفينة أوسيكيلية بانتظاره، ثم قاده سكيوره هنا. كم من هذا هو ترتيب الشبح الذى يطارده؟ أم أنه هو ومن يطارده تم إحضارهما هنا بقوة أخرى؟ أيكون قد تبع ذلك الطعم، وتبعه الشبح متخذًا من سكيوره سلاحًا حين حانت الفرصة؟ لا بد أن هذا ما حدث، فكما قالت سيريت الشبح لا يمكنه دخول قصر تيرنون؛ فهو لم يرَ له أثرًا، ولا شعر بوجوده منذ أن استيقظ فى البرج. لكن ما الذى أحضره هنا؟ فهذا ليس بالمكان الذى يحضر إليه المرء صدفة، حتى فى عتمة ذهنه استطاع أن يتبين هذا، لا يأتى غريب إلى تلك البوابات أبدًا، والبرج يقف وحيدًا وبعيدًا، وظهره دائمًا للطريق فى نيشوم، المدينة الأقرب. لا يأتى أحد إلى هذه القلعة، ولا يخرج منها أحد، تطل كل نوافذها على المراعى الخربة.

كان جيد يطل من تلك النوافذ على الخارج، وهو جالس فى غرفته العالية فى البرج، يومًا بعد يوم، أصبح كسولًا ومحبطًا وبردانًا. كان الجو دائمًا باردًا فى البرج، بالرغم من كل السجاجيد والمفروشات والستائر المعلقة، والملابس المطعمة بالفراء، والمدافئ الرخامية الكبيرة، برد مختلف داخل العظام، داخل النخاع، برد لا يدفئه شىء. وفى داخل قلب جيد كان العار البارد باقيًا، لا يزيله شىء، فهو لا يتوقف عن التفكير فى كيف قابل عدوه، وكيف هزمه، وكيف جرى من أمامه. فى عقله رأى كل أساتذته فى روك مجتمعين، ووسطهم الساحر الأكبر جيشنر عابسًا، وكذلك نيميريل بينهم، وأوجيون، وحتى خالته الساحرة التى علمته أول تعويذاته، كلهم كانوا يراقبونه، وهو يعرف فى أعماق قلبه أنه قد خذلهم جميعًا. فى عقله

كان يدافع عن نفسه قائلًا: "كان لا بد أن أجرى، لو لم أَجْرِ لتمكن الشبح منى، كان بالفعل قد تمكن من سيكوره، وأخذ جزءًا من قوتى، ولم أستطع أن أحاربه. كان يعرف اسمى؛ فوجب على أن أهرب. إذا أصبح الساحر جيبيث فتلك قوة رهيبة من الشر والدمار، كان لا بد أن أهرب." لكن لا يرد أحد ممن يتحدث معهم داخل عقله، ويظل يراقب الجليد وهو يهبط خفيفًا ومستمرًا على الأرض الخالية تحت النافذة، ويشعر بالبرد العنيد يزداد بداخله، حتى لا يتبقى بداخله من مشاعر سوى السأم.

وهكذا ظل جيد متباعدًا لعدة أيام بسبب الكآبة، وحين ينزل من غرفته كان دائم الصمت والجمود. أربكه جمال سيدة القلعة، وشعر فى هذه الأجواء الغنية المرتبة والغريبة بأنه قد وُلد ليكون ويعيش راعى غنم.

كانوا يتركونه يخلو بنفسه حين يفضل الوحدة، وحين لا يطيق أفكاره، ولا مشاهدة الجليد المتساقط أكثر من هذا، كانت سيريت تجلس معه فى إحدى القاعات المقوسة المفروشة، والمزودة بمدفأة أسفل غرفته فى البرج، وهناك كانا يتكلمان. لم تكن سيريت، سيدة هذه القلعة، مرحة أو سعيدة، وإن كانت لا تتوقف أبدًا عن الابتسام، ورغم علمه بهذا إلا أن ابتسامة واحدة منها كانت تريحه وتخفف قلقه. وبسرعة أصبحا يتقابلان يوميًا للكلام طويلًا، وبهدوء وبدون هدف، بعيدًا عن وصيفاتها اللاتى لا يفارقنها عند المدفأة أو النافذة، أو فى الغرف العالية من البرج.

أما الأمير العجوز فكان يقضى أغلب وقته فى غرفاته الخاصة، ولا يظهر إلا كل صباح، حين يتمشى ذهابًا وإيابًا فى الفناء الداخلى الجليدى للقلعة، وكأنه مشعوذ عجوز قضى طيلة الليل فى تشكيل التعويذات. أما حين كان يلحق بجيد وسيريت للعشاء، كان يجلس صامتًا، وهو ينظر إلى

زوجته الشابة بنظرة قاسية ونهمة. فبدأ جيد يرثى لحالها؛ لأنها كانت مثل غزال أبيض محبوس، أو مثل عصفور أبيض مقصوص الريش، أو خاتم فضى فى إصبع رجل عجوز. كانت سيريت إحدى مقتنيات كنز بينديسيرك، وحينما كان أمير القلعة يتركها، كان جيد يقبع بجانبها يبهجها، ويسلى وحدتها مثلما تفعل هى.

– "ما حكاية ذلك الحجر الذى يعطى لهذه القلعة اسمها؟" سألها جيد مرة، وهما جالسان حول الأطباق الذهبية الفارغة والكئوس الذهبية، فى غرفة الطعام الكهفية المضاءة بالشموع.

– "ألم تسمع به؟ إنه شهير جدًا."

– "لا، أعرف فقط أن سادة أوسيكيل من ذوى الكنوز الشهيرة."

– "لا، هذا الحجر أحسن منهم جميعًا. تعال، هل تود أن تراه؟"

ابتسمت سيريت، وعلى وجهها نظرة من السخرية والجرأة، وكأنها تخاف مما تفعل. ثم خرجت بالشاب من القاعة إلى الممرات الضيقة لقاعدة البرج، نزولًا إلى باب مغلق تحت الأرض لم يره من قبل. فتحت هذا الباب بمفتاح فضى، وهى تنظر إلى جيد بنفس الابتسامة المتحدية، وكأنها تشجعه أن يدخل معها. خلف الباب ممر، ومن خلفه باب ثانٍ فتحته بمفتاح ذهبى، ومن ورائهم باب ثالث فتحته بإحدى تعويذات الفتح العظمى، وعلى الباب الأخير رأوا من خلال ضوء شمعتها غرفة صغيرة مثل زنزانات السجون.

– سألته سيريت: "هل رأيته؟"

نظر جيد حوله، والتقطت عين الساحر حجرًا واحدًا من الأحجار التى

كانت على الأرض. مثل بقية الأحجار على الأرض كان قطعة من الحجر العطن الثقيل بلا شكل محدد، لكنه شعر بقوتها كأنها تتحدث معه عاليًا. انحبس الصوت فى حنجرته، وشعر بإعياء يغمره للحظة. كان هذا هو الحجر الأساسى لهذا البرج، المكان المركزى. وكان هذا المكان باردًا، باردًا للغاية، لن يدفئه شىء. كان هذا الحجر عتيقًا، عتيقًا للغاية ومحبوسًا به روح قديمة ورهيبة. لم يرد جيد على سؤال سيريت إن كان يرى الحجر بالنفى أو الإثبات، لكنه وقف ساكنًا، ولهذا، وبنظرة سريعة عليه، أشارت سيريت إلى الحجر: "هذا هو حجر تيرنون. هل تتساءل لماذا نُخفى حجرًا ثمينًا مثل هذا فى أعمق حجرات كنوزنا؟"

لم يرد جيد، وإنما وقف ساكنًا ومنتبهًا، فربما تكون تختبره، ولكنه ظن أنه ليس لديها أى فكرة عن طبيعة الحجر لتتكلم عنه بهذا الاستخفاف، بل لم تعرف عنه ما يكفى لتخافه، فقال: "أخبرينى عن قوته."

– "هذا الحجر مصنوع من قبل أن يرفع سيجوى جزر العالم فوق البحر المفتوح. مصنوع بالضبط حين خلق العالم، وسيبقى حتى نهاية العالم، لا يعنى الزمن شيئًا لهذا الحجر. لو وضعت يدك عليه، وسألته سؤالًا سيجيبك بحسب قوتك. للحجر صوت لو تعرف كيف تسمع، سيحدثك عما كان ويكون وما سيكون. أخبرنا عن قدومك لهذه الأرض، هل تود أن تسأله سؤالًا الآن؟"

– "لا."

– "سيجيبك."

– "ليس لدى ما أسأله."

– همست سيريت بصوتها الناعم: "قد يخبرك كيف تهزم عدوك"

وقف جيد صامتًا.

– "هل تخاف من هذا الحجر؟" سألته غير مصدقة، فأجابها: "نعم."

رمقته سيريت بعيون لامعة فى قلب الغرفة المميتة، تلك الغرفة المحاطة بجدار بعد جدار من التعاويذ والحجارة، وفى ضوء الشمعة الوحيدة التى أمسكتها قالت: "سباروهوك، أنت لست بخائف."

– "ولكننى لن أتحدث لهذه الروح." أجاب جيد وهو ينظر لها مباشرة بجرأة رهيبة، "سيدتى، هناك روح محبوسة فى ذلك الحجر، والحجر محبوس بتعويذة ربط وقفل سحرى وحارس وجدران ثلاثية فى أرض خربة، ليس لأنها روح ثمينة، ولكن لأنها روح شريرة، لا أعرف ما الذى قالوه لك عنها هنا، ولكن أنت، أنت الشابة الرقيقة لا يجب أن تلمسى هذه الجوهرة أبدًا، ولا تنظرى لها، ستضرك سيدتى."

– "ولكننى لمستها، وتحدثت لها وسمعتها تتحدث، ولم تضرنى فى شيء."

واستدارت، وخرجا من خلال الأبواب والممرات حتى وصلا إلى السلالم الكبيرة، وهناك أطفأت شمعتها، وافترقا بقليل من الكلمات.

نام جيد نومًا قليلا متقطعا تلك الليلة٠ لم يكن التفكير فى الشبح هو ما يؤرِّقه، بل كانت صورة الحجر البنى العجيب، وفوقه البرج، قد طردت الشبح من تفكيره، أرَّقه أيضًا وجه سيريت اللامع الذى بدا مثل الشبح فى ضوء الشمعة وهى تنظر له. مرارًا وتكرارًا كان يشعر بنظراتها عليه،

ولا يستطيع أن يحدد أى نظرة كانت على وجهها عندما رفض أن يلمس الجوهرة، إن كانت تحتقره أو مجروحة من رفضه. وعندما رقد لينام أخيرًا كانت الفُرش فى برودة الثلج، فظل مستيقظًا يفكر فى الجوهرة، وفى عيون سيريت.

فى اليوم التالى وجدها فى الغرفة المقوسة ذات الرخام الرمادى التى تضيئها شمس المغيب؛ حيث عادة ما تقضى وقت العصر فى اللعب أو فى غزل النسيج مع خادماتها. قال لها: "تقبلى اعتذارى سيدة سيريت، يبدو أننى ضايقتك."

فقالت ضاحكة: "لا." ثم كررتها "لا." وصرفت خادماتها. وعندما أصبحا وحدهما استدارت إلى جيد، وقالت: "يا ضيفى العزيز، يا صديقى، أنت صافى البصيرة، لكنك لا ترى كل ما هناك لتراه. فى جونت، فى روك يعلمون الأسحار الرفيعة. لكنهم لا يعلمون كل الأسحار. هذه أوسيكيل، أرض الغربان، ليست بالأرض الهاردية ولا قوة للسحرة الكبار هنا، ولا يعرفون عنها سوى القليل. تحدث أشياء هنا لا يتعامل معها أساتذة المعرفة فى الجنوب، وتوجد أشياء هنا لا توجد فى قوائم أصحاب الأسماء. عادة يخاف المرء مما لا يعرفه، لكن لا يوجد ما تخشاه هنا فى قلعة تيرنون، شخص آخر أضعف منك له أن يخاف، ولكن ليس أنت سباروهوك، أنت مولود بالقوة التى تحكم بها ذلك الحجر فى الزنزانة. اسمع: أنت هنا لهذا السبب."

– "لا أفهم."

– "هذا لأن زوجى الأمير بينديسيرك لم يكن صريحًا معك بما يكفى، سأكون أنا صريحة. تعالَ اجلس بجانبى." فجلس بجانبها على إفريز

النافذة العميق المبطن. ملأت شمس المغيب النافذة بضياء دون دفء، وبالأسفل على البرارى التى كانت بالفعل قد بدأت تغوص فى الظلام، كان جليد الليلة الماضية لا يزال يرقد جامدًا مثل نعش أبيض ثقيل فوق الأرض.

تكلمت سيريت بنعومة الآن: "بيندسيرك هو أمير، ووريث تيرينون، لكنه لا يستطيع أن يستخدم الحجر، لا يستطيع أن يجعله يخدمه بالكامل، ولا أنا أيضًا، لا وحدى ولا معه. لا أنا ولا هو نملك القوة والمهارة، لكنك تمتلكهما معًا."

– "كيف تعرفين هذا؟"

"من الحجر نفسه. قلت لك إن ذلك الحجر قد أخبرنا بقدومك، فهو يعرف سيده. انتظرك أن تأتى، انتظرك حتى قبل أن تُولد، انتظر من يستطيع أن يحكمه، من يستطيع أن يجعل حجر التيرنون يجيب على أسئلته، ويفعل به ما يحب، يمكنه أن يتحكم فى قدره ومصيره. هو شخص لديه القوة ليسحق أعدائه فى هذا العالم، وفى العالم الآخر. الآن الأمر بيدك، وبقدر اختيارك، قَلَّ أو كَثُر، ليس عليك سوى أن تطلب."

رفعت عينيها الغريبتين له مرة أخرى، واخترقته نظرتها، لدرجة أنه شعر بالبرودة تسرى فى جسمه، ومع كل قوتها كان هناك خوف على وجهها كما لو كانت تستنجد به، ولكنها تستكبر أن تطلب. شعر جيد بالرعب وهى تضع يدها على يده بينما تتكلم. كانت لمستها لطيفة، ويدها صغيرة وبيضاء على يده السمراء القوية. قال لها متضرعًا: "سيريت، لا أمتلك تلك القوة التى تظنينها، ما كنت أمتلكه يومًا رميته بعيدًا. لا أستطيع أن أساعدك، ولست نافعًا لك. لكننى أعرف جيدًا أن قوى الأرض العتيقة ليست ملكًا للناس، ليست قوة ليد الإنسان أبدًا، وفى يده لا تنتج سوى الشر،

وسوء الوسيلة، وسوء الخاتمة. لم أنجذب إلى هنا سيريت، بل اندفعت إلى هنا، والقوة التى دفعتنى تعمل على تدميرى. لا أستطيع مساعدتك."

- "ذلك الذى يلقى بقوته قد يمتلئ بقوة أخرى أعظم منها أحيانًا."

قالت سيريت وهى تبتسم، كما لو كانت تطرد مخاوفه وأوهامه الطفولية، ولكننى أعرف أكثر منك: كيف أتيت إلى هنا، ألم يتحدث معك رجل فى شوارع أوريمى؟ كان رسولاً، خادمًا من تيرينون. كان ساحرًا يومًا ما، لكنه ألقى بعصاه ليخدم قوة أعظم من أى ساحر كبير. وحضرت أنت إلى أوسيكيل، وعلى مراعيها حاولت أن تحارب الشبح بعصاك الخشبية، وبالكاد أنقذناك منه، فهو أكثر مكرًا مما تخيلناه، وقد سحب بالفعل الكثير من قوتك. فقط الشبح يحارب الشبح، وفقط الظلام يهزم الظلام. اسمع سباروهوك، ماذا تحتاج لتهزم الشبح الذى ينتظرك خارج هذه الأسرار؟"

- "أحتاج ما لا أستطيع معرفته، اسمه."

"حجر التيرنون، الذى يعرف كل ميلاد، وكل ميتة، وكل الموجودات قبل وبعد الموت، يعرف الذى لا يولد والذى لا يموت، العالم المشمس والعالم المعتم، حجر التيرنون هذا سيقول لك على اسمه."

- "والثمن؟"

- "لا يوجد ثمن، قلت لك إن الحجر سيطيعك ويخدمك مثل العبد."

لم يرد جيد، كان مهزوزًا ومعذبًا، وهى تمسك بيديه الآن بين يديها، وتُمعن النظر إلى وجهه. كانت الشمس قد غابت الآن وراء الأفق المعتم، وحتى الهواء قد أصبح معتمًا، لكن وجهها كان يلمع بالفخر والنصر بعد أن رأت عزيمته تهتز بداخله، وهمست بنعومة: "ستكون أقوى من كل الرجال، ستكون ملكًا عليهم، سوف تحكم وسأحكم معك."

فجأة وقف جيد، وبخطوة واحدة استطاع أن يرى مباشرة اللورد بينديسرك بجانب الباب واقفًا ينصت ويبتسم.

وأخيرًا صفا عقل جيد، واستطاع أن يرى. نظر إلى سيريت تحته وقال: "إنه النور الذى يهزم الظلام." قال وهو يتمتم: "النور..."

كانت كلماته تضىء له الطريق، كما لو كانت هى نفسها النور، ولهذا استطاع أن يرى بوضوح كيف انجذب إلى هذا المكان، كيف تمت غوايته إلى هنا، وكيف استغلوا خوفه ليقودوه إلى هنا، وكيف إذا تملكوا منه لن يتركوه. أنقذوه من الشبح لأنهم لا يريدونه عبدًا للشبح، قبل أن يكون عبدًا للحجر. وأول ما تقبض إرادة الحجر على إرادته سيدخلون الشبح داخل القلعة؛ لأن الشبح سيجعل منه جيبيث، والجيبيث عبد أفضل من الإنسان. لو كان قد لمس الحجر أو تحدث معه مرة واحدة لكان قد ضاع إلى الأبد. ومع هذا، مثلما لم يستطع الشبح اللحاق به، لم يستطع الحجر الإمساك به، ليس بالكامل. استسلم لهما، ولكن ليس تمامًا. لا يستطيع الشر أن يتحكم فى الأرواح الرافضة.

وقف جيد بين بينديسرك وسيريت، كلاهما استسلم للشر، كلاهما خضع له، وأخذ ينظر بينهما وبيديسيرك يتقدم نحوه، فقال الأمير بينديسيرك بصوت جاف أجش لسيريت: "قلت لك، قلت لك إنه سيفلت من بين يديك. كلهم مهرة، هؤلاء المشعوذون الجونتيون. وأنت امرأة حمقاء أيضًا من جونت، تتوهمين أنه بإمكانك أن تخدعينا معًا، وتحكمينا معًا بقوة الجوهرة، وتستخدمين حجر التيرنون لأغراضك الخاصة. لكننى أنا سيد هذا الحجر، وهذا جزاء الزوجة الخائنة : "إيكافور آى أويلوانتار." كانت هذه تعويذة تغيير، وارتفعت يدا بينيدسيرك الطويلتان لتشكيل المرأة

المذعورة إلى شيء قبيح، خنزير أو كلب أو شمطاء مخبولة. تقدم جيد للأمام ودفع يدى بينديسرك بيديه بكلمة واحدة فقط. ورغم أنه كان بدون عصا الساحر، وبالرغم من وجوده على أرض غريبة، أرض شريرة مركز للقوى السوداء، إلا أن إرادته هى التى حكمت الموقف. وتوقف بينيسيرك متجمدًا، بينما عيناه المعتمتان المثبتتان على سيريت تقطران كراهية عمياء.

قالت بصوت مرتجف: "تعال، تعال بسرعة قبل أن يستدعى خدام الحجر يا سباروهوك."

وكأن هناك صدى صوت يهمس فى كل البرج، همهمة جافة متكسرة تسرى فى كل الأحجار وكل الجدران، كما لو كانت الأرض نفسها تتكلم.

جرت سيريت عبر الممرات والقاعات، وهى تمسك بيد جيد، ونزلا على السلالم الطويلة المنحنية، خرجا إلى الفناء؛ حيث لا يزال ضوء المغيب الفضى الأخير معلقًا على الثلج الممتزج بالطين. اعترض طريقهما ثلاثة من حراس القلعة، وهم يتساءلون عابسين كما لو كانوا قد اشتموا مؤامرة من هذين الاثنين تجاه سيدهم، فقال أحدهم: "لقد هبط الظلام سيدتى." وقال الآخر: "لا تستطيعين الخروج للركوب الآن."

– "اغربوا عن وجهى يا أوساخ". هكذا صاحت سيريت باللغة الأوسكيلية الحادة، فسقط الرجال من حولها على الأرض، وَهُمْ يتلوون، وأحدهم يصرخ عاليًا.

– "لا بد أن نخرج خارج البوابة، لا يوجد طريق آخر، هل ترى البوابة؟ هل تجدها سباروهوك؟"

كانت تشد يده بصعوبة، ومع هذا كان مترددًا: "أى تعويذة ألقيتِها عليهم؟"

– "دفعتُ بالرصاص الساخن إلى نخاع عظامهم، سيموتون منه. هيا بسرعة، أقول لك بسرعة، سيطلق خدم الحجر علينا، وأنا لا أستطيع أن أرى البوابة، البوابة مسحورة بسحر عظيم. بسرعة!"

لم يفهم جيد ماذا تعنى بهذا، فالبوابة المسحورة التى تتكلم عنها كانت واضحة له تمامًا. أخذ سيريت من خلالها على الثلج المهجور فى الفناء الأمامى، ثم ألقى بإحدى تعويذات الفتح، وعبر بها من خلال بوابة جدران التعويذات.

تغير شكل سيريت وهما يعبران بوابة قلعة التيرنون، خلت من ضيائها الفضى، ورغم أنها لم تكن أقل جمالا تحت ضوء القمر الموحش على البرارى، لكن بان له ملمح الساحرة القاسية على وجهها. عرفها جيد أخيرًا، كانت ابنة لورد رى ألبى، ابنة مشعوذة أوسيكيل، تلك التى سخرت منه منذ زمن بعيد على المراعى الخضراء بالقرب من بيت أوجيون. وهى نفسها التى أرسلته ليقرأ تلك التعويذة التى حررت الشبح. لكنه لم يتوقف طويلا أمام هذا، فقد كان ينظر حوله فى كل اتجاه منتبهًا، باحثًا عن الشبح الذى لابد وأنه ينتظره فى مكان ما خارج الجدران المسحورة. ربما لا يزال فى شكل الجيبيث، متخذا من جثة سكيوره ملبسًا له، أو ربما يختبئ فى مكان ما فى تلك الظلمة المتكاثرة، منتظرًا أن يمسك به ليخفى وحشيته تحت جسم جيد. شعر بقربه، لكنه لم يره، لكن بعد أن دقق النظر رأى شيئًا صغيرًا معتمًا نصفه مدفون فى الثلج على بعد خطوات من البوابة. انحنى والتقطه فى يديه الاثنتين. كان هذا الشىء هو الأوتاك، وفراؤه القصير الجميل ملطخ بالدماء وجسمه الصغير خفيف وجامد وبارد فى يديه.

"حوِّل شكلك... حول شكلك، إنهم قادمون." صرخت سيريت، وهى تمسك بيده، وتشير إلى البرج الذى وقف خلفهم مثل ناب طويل أبيض فى

وقت الغسق. من أفاريز نوافذ قاعدة البرج رأى جيد مخلوقات سوداء تزحف مقتربة، تفرد أجنحة طويلة، تضرب وتدور مقتربة ببطء نحو الأسوار حيث يقف جيد وسيريت على جنب التل بلا حماية. كان الهمس المتحشرج الذى سمعاه بالداخل يزداد مثل أنين ورعشة فى قلب الأرض تحت قدميهما.

تصاعد الغضب فى قلب جيد، امتلأ بحنق يغلى تجاه كل هذه الأشياء الميتة التى تخادعه، وتنصب له الأفخاخ وتصطاده. "حوِّل نفسك، حول نفسك." صرخت فيه سيريت، وبتعويذة أطلقتها من بين أنفاسها المتلاحقة تحولت إلى نورس رمادى وطارت. لكنِ جيد لم يحول نفسه، بل انحنى واقتلع فرعًا من العشب البرى ارتفع جافًا وضعيفًا من قلب الجليد حيث رقد الأوتاك. رفع العود عاليًا، وكلمه باللغة الحقيقية فاستطال وغلظ، وعندما أنهى تعويذته كان يمسك فى يده بعصا ساحر. حين حلقت حوله مخلوقات الموت السوداء من تيرنون، وضرب أجنحتهم بعصاه لم تكن نيران الموت هى التى تخرج من العصا، وإنما نيران السحر التى لا تحرق، بل تبعد بعيدًا.

عادت المخلوقات للهجوم. كائنات فجة من عصور ما قبل الطير والإنسان، كائنات نسيها ضوء الشمس، واستدعتها القوة الخبيثة الكامنة فى روح الحجر العتيقة التى لا تنسى. حلقوا حول جيد وانقضوا عليه. شعر بشفرات مخالبهم تمسح الهواء حوله مثل المنجل، وشعر بالإعياء من رائحة الموت النتنة المنبعثة منهم. أخذ يتفادى ويضربهم بعصاه النارية التى صنعها بغضبه المتأجج من عود حشيش برى. وفجأة قاموا جميعا مثل غربان ترتعب من فريستها واستداروا فى الاتجاه الذى طارت فيه سيريت فى هيئة النورس. ورغم أن أجنحتهم الكبيرة بدت بطيئة إلا أنهم طاروا بعيدًا تدفعهم كل ضربة وكل حركة فى الهواء باتجاهها. لن يصمد أى نورس طويلًا أمام سرعتهم الفائقة.

وبسرعة تماثل سرعته حين كان فى روك غير جيد شكله إلى صقر عظيم، ليس صغير الصقر أو الميسان كما أطلقوا عليه صغيرًا، وإنما الباز الهائل الذى يطير بسرعة البرق والأفكار. طارد مطارديه وهو يحلق بجناحين مخططين قويين حانيين. اسودّ الهواء حوله بخدام الحجر، بينما لمعت النجوم من بينهم جميعًا. رأى أمامه السرب الأسود المهتاج كله يندفع نحو نقطة واحدة فى منتصف الهواء. وخلف تلك البقعة السوداء التى شكلها السرب كان البحر باهتًا بضوء النهار الأخير. وبسرعة ومباشرة اندفع جيد الصقر إلى قلب خدام الحجر، فتبعثروا مثلما تتبعثر المياه من حول حجر مرمى فى الماء. لكنهم كانوا قد اصطادوا سيريت فريستهم وتساقطت الدماء من منقار أحدهم، والتصق الريش الأبيض بمخالب آخر، واختفى المشهد من أى نورس فوق البحر الشاحب.

كانوا فى طريقهم نحو جيد بالفعل بسرعة وبفظاظة، ومناقيرهم الحديدية مفتوحة على آخرها. أما هو فالتف من فوقهم، مطلقًا صرخة الصقر المرعبة، ثم انطلق مثل السهم نحو شواطئ أوسيكيل، ومنها إلى البحر المتلاطم.

ظلت مخلوقات الحجر الرهيبة بعض الوقت تنعب، ثم عادوا واحدًا بعد الآخر إلى المراعى الداخلية مطأطئين الرأس. لا تعبر القوى العتيقة حدود البحر، فكل منها مربوط بمكان محدد: جزيرة، كهف، حجر أو نبع ما. ولهذا عادت نُذُر الشؤم السوداء إلى البرج؛ حيث استقبلهم لورد بينيدسيرك بالبكاء أو الفرح. لكن جيد لم يلتفت، بل انطلق بأجنحة الصقر وغضب الصقر فوق بحر أوسيكيل، نحو الشرق فى قلب الريح والليل.

عاد أوجيون إلى بيته متأخرًا من جولاته الخريفية، أكثر صمتًا وأكثر وحدة مع مرور السنين. فى الآونة الأخيرة حاول سيد جزيرة جونت

الجديد أن يسمع منه أى كلمة بشأن موضوع يخص مغامرة قرصنة، لكنه لم يسمع منه ولا كلمة، وغادر مغتاظًا. أوجيون الذى سمعه الناس وهو يكلم العناكب فى شبكاتها، ويحيى الأشجار بحفاوة من قبل، لم ينطق بكلمة لسيد الجزيرة، ولربما كان هناك ما يضيق به صدر أوجيون؛ لأنه قضى كل الصيف والخريف وحيدًا فى الجبال، وأخيرًا عاد إلى بيته.

فى الصباح التالى لعودته قام متأخرًا من النوم، وخرج لجلب الماء النقى من النبع الذى يجرى قريبًا من بيته لعمل كوب من شاى الراشوش. كانت أطراف البحيرة مثلجة، والطحالب الذابلة بين الصخور مغطاة بزهور من الجليد. ورغم أن ضوء النهار كان عريضًا وساطعًا إلا أن الجو لم يصف بعد، فكل غرب جونت من الشواطئ إلى قمة الجبل كانت غائمة. وبينما وقف الساحر الكبير بجانب النبع ينظر على الأراضى الهابطة والميناء والمساحات الرمادية الشاسعة من البحر، رفرفت أجنحة فوقه. نظر إلى أعلى، ورفع ذراعه قليلًا، فحط على معصمه صقر هائل. تعلق بمعصم أوجيون كما لو كان طائر صيد مدرب، لكن بدون طوق مكسور، أو جرس أو علامة على مخلبه، تشبثت المخالب بمعصم أوجيون بقوة، وارتعشت الأجنحة المخططة، بينما كانت العيون المستديرة الذهبية مهتاجة وثقيلة.

قال أوجيون بوداعة للصقر: "هل أنت رسول أم رسالة؟ تعال معى." وبينما يتحدث كان الصقر يتطلع إليه. صمت أوجيون للحظة، ثم قال: "أعطيتك اسمك يومًا ما على ما أظن." ثم تقدم إلى منزله، ودخل وهو لا يزال يحمل الصقر على معصمه، ثم وضع الصقر على المدفأة، وعرض عليه الماء. لكنه لم يكن ليشرب. ثم بدأ أوجيون فى إلقاء تعويذة بهدوء شديد، وهو يحيك شبكة من كلام السحر بأصابعه. وحين اكتملت التعويذة قال بنعومة: "جيد." دون أن ينظر إلى الصقر بجانب المدفأة. انتظر بعض الوقت، ثم قام إلى الشاب الذى وقف يرتجف بليدَ العينين أمام المدفأة.

كان جيد يرتدى الملابس الفاخرة الغريبة ذات الفراء، رغم أنها كانت مهلهلة ومتخشبة من آثار ملح البحر. وقف نحيلًا ومحنيًا، وشعره نحيل حول وجهه المندب.

خلع أوجيون العباءة المتربة الغالية من على كتف جيد، وقاده إلى الغرفة الحائطية المجوفة؛ حيث اعتاد أن ينام، وأرقده هناك على فراشه، ثم ألقى عليه تعويذة نوم، ولم ينطق بكلمة، فقد كان يعرف أن جيد فاقد للسان الإنس الآن.

حين كان صبيًا، ومثل كل الصبيان، كان يظن أن اتخاذ أشكال مختلفة سحرية لعبة مسلية، سواء كان الشكل شكل إنسان أو حيوان، شجرة أو سحابة، وهكذا يلعب على ألف شكل من أشكال الوجود. لكنه كساحر تعلم ثمن هذا التغيير، وهو خطورة أن تفقد هويتك تمامًا، وتفقد حقيقتك وأنت تلعب. فكلما قضى المرء وقتًا أطول فى شكل ما بعيدًا عن حقيقته ازداد الخطر. وكل مشعوذ متدرب يعرف قصة ساحر بورديجر من واى، الذى كان يحب أن يتغير لشكل الدب، وظل يفعل هذا أكثر وأكثر حتى كَبُر الدب بداخله، ومات الإنسان، وأصبح دبًّا قتل ولده الصغير فى الغابات، حتى اصطادوه وذبحوه. وكم من الدرافيل فى البحر المخفى كانت فى الأصل سحرة، نسوا حكمتهم وأساميهم فى بهجة البحر المتواصلة.

اتخذ جيد شكل الصقر وهو فى محنة وغضب شديدين، وحين طار من أوسيكيل إلى جونت كان فى عقله فكرة واحدة فقط؛ أن يهرب من خطر الحجر المسحور والشبح، أن يهرب من الأراضى الخائنة الباردة، أن يعود للبيت. كان غضب الصقر وشراسته قد أصبحا غضبه وشراسته، وإرادته قد أصبحت إرادة الصقر. لهذا فقد عبر فوق الإنلاند، وانحنى فقط لشربة

ماء من بركة ماء منعزلة فى غابة، ثم انطلق مرة أخرى مدفوعًا برعبه من الشبح خلفه، وعَبَر ممرًا بحريًا ضيقًا اسمه "فك الإنلاند"، واستمر فى الطيران، شرقًا من الجنوب، جبال أورانيا على يمينه وتلال أندراد على يساره، وأمامه البحر فقط، حتى ظهرت أخيرًا من فوق الأمواج تدريجيًا قمة الجبل البيضاء لجونت. وطوال هذا الرحلة الهائلة بليلها ونهارها نسى جيد كل شىء، سوى جناحى الصقر وعينى الصقر، ولم يعد يعرف سوى ما يعرفه الصقر فى طيرانه: الجوع والريح ومسار الطيران.

عاد جيد إلى المرفأ الصحيح، قليلون على روك وواحد فقط على جونت من كان يستطيع أن يعيده إلى صورته الأولى.

استيقظ جيد متوحشًا وصامتًا، لم يتحدث إليه أوجيون أبدًا، فقط أعطى له الماء واللحم، وتركه يجلس عاكفًا على المدفأة مثل صقر كبير عبوس كئيب وسقيم، حين يأتى الليل ينام. وهكذا فى صباح اليوم الثالث جاء إلى المدفأة؛ حيث كان الساحر الكبير جالسًا يحملق فى النيران، وقال: "سيدى..."

– قال أوجيون: "مرحبًا ولدى."

– قال جيد بصوت غليظ أجش: "رجعت لك كما تركتك، أحمق."

ابتسم أوجيون قليلًا، وحرك جيد ليجلس أمامه حول المدفأة، وبدأ يعد بعض الشاى.

كان بواكير الثلج قد بدأت تتساقط على المنحدرات السفلى لجونت، ورغم أن مصاريع نوافذ أوجيون كانت جميعها مغلقة، إلا أنهم سمعوا صوت هطول الثلج ناعمًا على السقف، ثم سكون الجليد حول المنزل كاملًا.

جلسَا هناك فترة طويلة جدًا، وجيد يحكى حكاية السنين الماضية لأستاذه منذ تركه وركب على السفينة الشبح. لم يسأل أوجيون أى أسئلة، وحين انتهى جيد بقى ساكنًا فترةً طويلة يفكر، ثم نهض وأعد بعض الخبز والجبن والشراب وأكلا معًا، وعندما انتهيا ورتبا المكان تكلم أوجيون.

- "جراح مريرة تلك التى تحملها يا ولدى."

- "لم يعد لدى أى قوة تجاه هذا الشىء."

هز أوجيون رأسه، ولم ينطق لبرهة، ثم قال: "الغريب أنه كانت بك قوة لهزيمة ساحر فى أرضه هناك فى أوسيكيل. كانت لديك قوة كافية لتبعد وتهاجم خدام القوى القديمة للأرض فى الحجر المسحور، وفى بيندور كانت لديك القوة لتواجه."

رد جيد: "فى أوسيكيل كنت أمتلك الحظ فقط وليس القوة." ثم ارتجف جيد ثانية وهو يفكر فى برد بلاط تيرنون الذى يشبه برد الكوابيس المميت، ثم قال: "، كنت أعرف اسمه. أما ذلك الشىء الشرير فلا اسم له."

- "لكل الأشياء أسماء." قالها أوجيون بقوة، جعلت من الصعب على جيد أن يردد أمامه ما قاله الساحر الأكبر جيشنر، بأن تلك القوة التى أطلقها جيد لا اسم لها. والحق أن تنين بندور عرض عليه أن يخبره عن اسمه، لكنه لم يثق فى كلام التنانين، بينما لم يصدق مطلقًا وعد سيريت بأن الحجر المسحور سيخبره عما يريد.

- "لو كان للشبح اسم فلا أعتقد أنه سيتوقف ليخبرنى به."

- "لا، ولا أنت توقفت لتخبره عن اسمك، ومع هذا فقد عرفه. فى

مراعى أوسيكيل ناداك باسمك، ذلك الاسم الذى أعطيتك إياه. أمر غريب، غريب!"

وعاد لتجهمه مرة أخرى. وأخيرًا قال جيد: "أتيت إلى هنا طالبًا للمشورة أستاذى، ولست لاجئًا، فلن أجلب هذا الشر إلى بيتك؛ لأنه سيأتى سريعًا إذا بقيت. فى يوم من الأيام أبعدته من هذه الغرفة نفسها."

" لا، لم يكن الشبح، بل كان نذيره. شبح الشبح، ولا أستطيع أن أبعده بعيدًا الآن. أنت فقط تستطيع أن تفعل هذا."

- "لكننى لا حول لى ولا قوة أمامه. هل هناك أى مكان..." ثم غاص صوته قبل أن ينطق السؤال.

- قال أوجيون بهدوء: "لا يوجد مكان آمن لك، لا تحول نفسك ثانية يا جيد. يسعى الشبح لتدميرك ويدفعك لهوية الصقر. لا، ولا أعرف إلى أين يجب أن تذهب، ومع هذا فعندى فكرة من الصعب أن أطرحها عليك."

حرَّك صمت جيد أوجيون لأن ينطق بالحقيقة، فقال أخيرًا: "عليك أن تستدير راجعًا."

- "أستدير راجعًا!"

"لو تقدمت للأمام، أعنى لو واصلت الجرى، أينما تهرب ستجد الخطر والشر؛ لأنه يسوقك ويدفعك ويختار الطريق الذى تمشى فيه. عليك أن تختار، عليك أن تبحث عمن يبحث عنك، عليك أن تصطاد الصياد."

لم ينطق جيد.

- قال الساحر الكبير: "على نبع آر أعطيتك اسمك، نبع يهبط من الجبل إلى البحر، يعرف المرء منتهاه وغايته، لكنه لا يعرفه جيدًا إلا إذا

استدار وعاد لبدايته، واحتضن تلك البداية وضمها لوجوده. فإن لم يكن المرء قشة يغطيها التيار، ويلفها فى دوامات، فعليه أن يكون التيار ذاته، من منبعه إلى مصبه في البحر. لقد رجعت إلى جونت، إلى الوطن، رجعت لى يا جيد. الآن أريدك أن تستدير بثبات، وتسعى إلى المنبع وما يحتويه، هناك يكمن الأمل.»

– قال جيد والرعب فى عينيه: «هناك سيدى؟ أين؟»

لم يرد أوجيون.

– «لو استدرت، لو فعلت مثلما تقول، ورحت أصطاد الصياد فلن يدوم الصيد طويلًا. فأقصى أمانى الشبح أن يلقانى وجهًا لوجه. عندما حدث ذلك مرتين من قبل هزمنى فى المرتين.»

– قال أوجيون: «المرة الثالثة ستكون معجزة.»

أخذ جيد يمشى في الغرفة ذهابًا وإيابًا من المدفأة إلى الباب، ومن الباب إلى المدفأة، ثم قال: «ماذا لو هزمنى؟» ورددها جيد قائلًا لنفسه أو لأوجيون: «سيأخذ معرفتى وقوتى ويستخدمهما، الآن يهددنى وحدى، لكن لو لبسنى، وتملك منى، سيعمل الشر من خلالى.»

– «هذا صحيح، لو هزمك.»

– «نعم، لكن لو هربتُ ثانية فسوف يجدنى ثانية بالتأكيد... لقد نفذت قوتى فى الهرب.»

ثم قطع جيد الغرفة مرة أخرى ذهابًا وإيابًا لبعض الوقت، ثم استدار فجأة، وركع عند قدمى أستاذه، وقال: «سيدى، لقد مشيتُ مع أعظم السحرة، وعشت على جزيرة الحكمة والحكماء، لكنك معلمى الحقيقى.» قالها جيد بحب، وبكثير من السعادة المشوبة بالحزن.

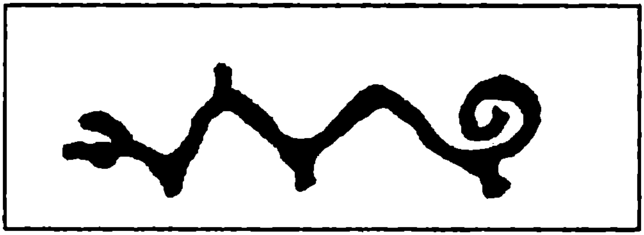
قال أوجيون: "حسنًا، تعرف هذا الآن، صحيح أنك عرفته متأخرًا، لكن أفضل من ألّا تعرفه أبدًا. لكنك يا جيد ستكون سيدى فى النهاية." قال هذا، وقام وأشعل نارًا حتى احمرت، وعلق فوقها غلاية الماء لتغلى، ثم ارتدى معطفه الجلدى، وقال: "لا بد أن أرعى غنمى، راقب الغلاية يا بنى."

حين عاد من الخارج مغطى بالبَرَد، وحذاؤه يطبع آثارًا من الجليد على الأرض. كان يحمل قصبة طويلة من شجر الطقسوس، وجلس يعمل عليها بقية العصر، وبعد العشاء بالسكين والمبرد والتعاويذ على ضوء المصباح. كان يمرر يده عليها من فوقها لأسفلها؛ ليتأكد من خلوها من أى عيب. وكان يغنى بصوت خفيض وهو يعمل. أما جيد، الذى كان لا يزال سقيمًا، أخذ ينصت، وبينما يغالب النوم تخيل نفسه طفلًا فى كهف الساحرة فى قرية الشجرات العشر فى ليلة جليدية مظلمة، لا يضيئها سوى النار، والهواء ثقيل برائحة الأعشاب والدخان. سرح عقله وهو يستمع إلى الأغنية الطويلة الناعمة بتعاويذها، وملاحم الأبطال الذين حاربوا قوى الظلام وانتصروا أو انهزموا فى جزر بعيدة من قديم الأزل.

قال أوجيون وهو يعطى العصا الجديدة لجيد: "خذ، لقد أهداك الساحر الأكبر عصا من خشب الطقسوس، وهو اختيار جَيِّد، كنت أدخر هذه القصبةَ لأصنع قوسًا طويلًا، لكنها أفضل هكذا. عمت مساء يا ولدى."

وبينما استدار جيد لينام فى تجويفه القديم، وهو لا يجد من الكلمات ما يشكر بها معلمه، راقبه أوجيون وهمس: "يا صقرى الصغير، طر بأمان."

فى برد الفجر استيقظ أوجيون ليجد جيد قد رحل؛ ترك له رسالة على طريقة السحرة بالحروف الرونية على المدفأة، كانت حروفًا فضية تختفى وهو يقرأ: "سيدى، أنا ذاهب للصيد."



(٨) الصيد

فى ظلمة الشتاء بدأ جيد رحلته من رى ألبى قبل شروق الشمس، وقبل الظهر كان قد وصل إلى ميناء جونت. أعطاه أوجيون ملابس نظيفة، بنطالًا وقميصًا وثوبًا من الجلد والكتان بدلًا من ملابسه الأوسكيلية الفاخرة، لكن جيد احتفظ بعباءته الشتوية ذات الفراء. وهكذا بدأ رحلته لابسًا عباءته، خالى اليدين سوى من العصا الداكنة التى ماثلت طوله. جاء إلى بوابة الأرض، وهناك على الفور عرف كل الحراس المستريحين تحت تماثيل التنانين المحفورة أنه ساحر، وضعوا حرابهم جانبًا، وأفسحوا له الطريق دون سؤال، وظلوا يراقبونه حتى اختفى من الطريق.

على رصيف الميناء سأل جيد عن السفن المتجهة إلى شمال أو غرب إنلاند أو الأنرداد أو أورانيا. كانت إجابة الجميع أنه لن تغادر أى سفينة ميناء جونت الآن، بينما عيد عودة الشمس على الأبواب، وفى بيت الشاطئ أخبروه أنه حتى سفن الصيد لن تذهب إلى البحر فى هذا الجو المتقلب.

قدموا له العشاء فى حجرة المؤن فى بيت البحر من تلقاء أنفسهم فنادرًا، ما يستجدى الساحر عشاءه. جلس بعض الوقت مع حمالين السفن وبنائيها ومحركى الطقس، مستمتعًا بحواراتهم المتناثرة، ولكنتهم الجونتية المتذمرة. كانت بداخله رغبة جارفة أن يبقى هنا فى جونت، ويعيش فى سلام فى مسقط رأسه مثل أى شخص عادى على أرض المعمورة العزيزة، مبتعدًا عن كل المغامرات والسحر، ناسيًا كل القوة والرعب. كانت تلك رغبته، أما إرادته فكانت شيئًا آخر. وبعد أن عرف أن الميناء لن تغادره أية سفن لم يبقَ طويلًا فى بيت الشاطئ، ولا فى المدينة، وإنما مشى باتجاه رصيف الميناء، حتى وصل إلى أول قرية صغيرة إلى شمال جونت، وهناك سأل بين الصيادين، حتى وجد واحدًا يرغب فى بيع قاربه.

كان صاحب القارب رجلًا عجوزًا صارمًا، وقاربه لا يزيد عن اثنى عشر قدمًا، مصنوع بطريقة الألواح المتراكبة، ومع هذا فقد طلب ثمنًا عاليًا فيه، فقد كانت على القارب وعلى صاحبه وابن صاحبه تعويذة أمان فى البحر لمدة عام. فالصيادون الجونتيون لا يخشون شيئًا بقدر ما يخشون البحر.

تلك التعاويذ التى يعلقون عليها الكثير من الأمل فى الطرف الشمالى من الأرخبيل لم تنقذ أحدًا من قبل من عاصفة، ولا أمواج هائجة، لكن كل ما فى الأمر أنه لو ألقاها شخص عليم بالطقس المحلى وطرق الملاحة ومهارات البحارة فهى تشكل بعض الحماية اليومية للصياد. عمل جيد على التعويذة

بإخلاص طوال الليل وطوال اليوم التالى دون أن يحذف منها شيئًا. عمل بثقة وصبر، رغم أنه كان شريد الذهن من الخوف، وأفكاره تأخذه إلى أسود الأماكن، وهو يتخيل كيف سيظهر له الشبح ثانية. متى؟ وأين؟ وحين تمت التعويذة وألقاها على القارب، كان التعب قد بلغ منه مبلغًا كبيرًا، فنام هذه الليلة فى بيت الصياد، فى فراش معلق مصنوع من معدة الحوت، وقام من النوم فى الفجر، وهو يفوح برائحة الرنجة. ثم ذهب إلى الخليج الصغير أسفل منحدر كاتنورث؛ حيث كان مركبه الصغير.

دفع به فى المياه الهادئة، فبدأت المياه تنبثق بهدوء منه على الفور، وثب جيد إلى القارب بخفة القطة، وعلى الفور بدأ فى العمل على الألواح المتفككة والأوتاد المتعفنة، كان يعمل على القارب بالأدوات والتعاويذ كما كان يعمل مع بيتشفيرى فى لوتورنينج. تجمع أهالى القرية صامتين على مسافة ليست بقريبة منه؛ ليشاهدوا يديه السريعتين، ويستمعوا إلى صوته الناعم. أتقن هذه المهمة أيضًا، وعملها بصبر وتؤدة حتى تحسن القارب وتحصن تمامًا. ثم وضع عصاه التى أعطاها له أوجيون كعمود الصارى، وثبت عبرها لوحًا من الخشب المتين، وتحت راجعة السارية هذه غزل جيد شراعًا من التعاويذ على منوال الريح، شراعًا مربعًا بلون الثلج على مرتفعات جونت، عند رؤية هذا غارت النساء المراقبات وتنهدن. ثم وقف عند العمود، وأثار رياح السحر بخفة، فتحرك المركب فوق المياه، وجرى عبر الخليج العظيم باتجاه المرتفعات المدببة. وعندما وجد الصيادون المراقبون أن مركب التجديف المرتشح ينساب تحت الشراع بنفس سرعة ورشاقة طيور الماء هللوا وتقافزوا على الشاطئ فى ذلك الجو البارد، نظر جيد إلى الخلف، ووجدهم لا يزالون يحيونه تحت المرتفعات التى ارتفعت ثلوجها إلى السحاب.

أبحر عبر الخليج بين المرتفعات إلى البحر الجونتى، هناك حدد مساره باتجاه الغرب ليعبر شمال أورانيا، ليعود مثلما جاء. فربما يكون الشبح قد تبع رحلته الصقرية عبر الأيام والرياح من أوسيكيل· قد يجوب بحثًا عنه أو قد يأتى مباشرة، لا يستطيع أن يجزم. لكن إن لم يكن قد تراجع تمامًا إلى عالم الأحلام فحتمًا سيرى جيد، ويعود ليقابله وهو يبحر مكشوفًا فوق البحر المفتوح.

فى البحر تمنى أن يقابله، لو كان لقاؤه حتميًا. لم يعرف لماذا، لكنه كان يرتعب لفكرة أن يقابل هذا الشىء على البر ثانية. قد تخرج العواصف والوحوش من قلب البحر، لكن لا تخرج قوى الشر منه. الشر يأتى من قلب البر. كذلك لم يكن هناك أى بحر ولا نهر ولا جدول فى تلك الأرض القاتمة فى عالم الموت الجاف الذى زاره جيد، المكان الجاف الخالى من الماء هو الموت. ورغم أن البحر نفسه كان مخاطرة كبيرة فى هذا الوقت من الشتاء إلا أن جيد اعتبر هذا الخطر، ومثل هذا التقلب وعدم الاستقرار فرصة نجاة وحماية له، فإذا ما قابل هذا الشبح فى نهاية حماقته الكبيرة فربما على الأقل يستطيعان أن يتصارعا ويمسك بعضهما ببعض، وحينها يسحبه بثقل جسمه وثقل الموت الذى ينبعث منه إلى ظلمات البحر العميق، وهناك لن يخرج ثانية، وبهذا يكون على الأقل سيضع فى موته حدًا لذلك الشر الذى أطلقه على الدنيا فى حياته.

أبحر فى بحر هائج حاد، تتدلى السحب من فوقه، وتسير معه مثل ستائر عريضة داكنة فى حالة حداد. لم يستخدم رياح السحر، بل اعتمد على رياح العالم التى هبت حادة من ناحية الشمال، كان الشراع يعدل نفسه ليمسك بالرياح طالما حافظ على قوامه المصنوع من التعاويذ، وكان يفعل هذا بكلمات كالهمس. لو لم يستخدم هذا السحر لاستحال عليه أن يحتفظ بهذا

القارب المتهالك فوق تلك المياه الهائجة. تقدَّم للأمام، وهو يمعن النظر حوله فى كافة الاتجاهات. أعطته زوجة الصياد رغيفين ودلوًا من الماء، ولهذا بدأ يأكل بعد عدة ساعات حين تراءت له صخرة كيمبر، الجزيرة الوحيدة بين جونت وأورانيا. أكل وشرب وامتلأ قلبه بالامتنان للسيدة الجونتية الصامتة التى أعطته الطعام. أبحر بعد أن لمح الأرض بسرعة، وهو يتجه أكثر ناحية الغرب الآن، تحت رذاذ خفيف مثلج فوق البحر. خلا المكان من أى صوت سوى من صرير المركب وصفعات الموج الخفيفة على مقدمة القارب. لا شىء على امتداد البصر، لا طائر ولا قارب. لا يتحرك شىء سوى المياه الأزلية والسحب السائرة. كان يسير إلى غرب السحب نفسها التى تذكرها حين كان يطير بينها وتطير إلى شرقه فى طيرانه كصقر فى هذا المسار نفسه. وقتها نظر إلى البحر الرمادى بالأسفل تمامًا مثلما ينظر على الهواء الرمادى بالأعلى.

لم يكن هناك أى شىء أمامه، وقف وهو يرتعش، سقيمًا من النظر والتمعن فى السواد الخالى بحثًا عن الشبح. قال محدثًا نفسه: "هيا، تعال، ماذا تنتظر أيها الشبح؟" لم يتلق إجابة، ولم يجد أى حركة أكثر سوادًا بين الضباب والأمواج. إلا أنه كان مُوقنًا الآن أن هذا الشىء قريب، ويسعى حثيثًا فى أثره. نادى بعزم قوته فجأةَ: "أنا هنا، أنا جيد الميسان، سباروهوك، أنا هنا وأستدعى ظلى."

أصدر القارب صريرًا، وتلعثمت الأمواج حوله، وصفرت الريح قليلًا على الشراع الأبيض. ولا يزال جيد ينتظر، يده على عمود الشراع محملقًا فى الرذاذ الجليدى، الذى أصبح يهطل كالثياب الممزقة على البحر من اتجاه الشمال. ثم رأى الشبح فى قلب المياه آتيًا.

لم يكن الشبح في جسد سكيوره الآن، ولا كان في شكل الجيبيث وهو يتبعه في قلب البحر والريح، ولا اتخذ شكل الحيوان كما جاء له على تل روك، أو كما يظهر في أحلامه، ومع هذا فقد كان له شكل محدد الآن حتى في وضح النهار. في سعيه الحثيث وراء جيد، في صراعه مع جيد فوق المراعي، امتص من قوته، وربما كان استدعاء جيد له بهذه القوة والوضوح قد أجبره على اتخاذ شكل وصورة ما محددين. بالتأكيد بدا الآن أقرب إلى صورة الإنسان، وإن كان بلا ظل، هو نفسه ظل. لذا فقد جاء عبر البحر، عبر فكي إنلاند باتجاه جونت، مثل شيء مريض معتم، يخطو بصعوبة فوق الأمواج، ينظر إلى الريح وهي تهب ومعها المطر البارد.

ولأن ضوء النهار كان يعميه، ولأن جيد هو من استدعاه، رآه جيد قبل أن يراه، عرفه جيد من بين بقية المخلوقات، من بين كل الأشباح.

في عزلة بحر الشتاء الرهيبة وقف جيد يشهد ما يرعبه، بدا كأن الرياح تزيح الشبح بعيدًا عن القارب، والأمواج تتسارع من تحته وترهق عينيه، فبدا كأنه يقترب أكثر وأكثر من جيد. كان من الصعب أن يحدد إن كان يتحرك أم لا. كان الشبح قد رآه الآن، ورغم أن عقل جيد خلا من كل شيء سوى الرعب والخوف من لمسة الشبح، من الألم البارد القاسي الذي التهم حياته كلها، إلا أنه انتظر ساكنًا. ثم نادى بأعلى صوته فجأة على رياح السحر لتهب قوية ومفاجئة في شراعه الأبيض، وقفز قاربه مباشرة على ذلك الشيء الذي تعلق بين الرياح.

في صمت مطبق استدار الشبح وفر هاربًا وهو يرتجف.

فوق الرياح فر الشبح تجاه الشمال، فوق الرياح أبحر قارب جيد، سرعة الشبح ضد رياح السحر والعاصفة المطرة ضدهما معًا. صرخ

الساحر الصغير فى قاربه وفى شراعه وفى الأمواج، كما يصرخ الصياد فى كلابه حين يكون الذئب على مرمى بصر. وجلب لهذا الشراع ريح كفيلة بأن تشطر أى شراع قماشى نصفين، ولكنها دفعت بالقارب عبر البحر مثل سحابة من الرغاوى الطائرة تسوقها الرياح إلى الأمام باتجاه هذا الظل.

استدار الشبح الآن مشكلًا نصف دائرة، وهو يبدو مفككًا وباهتًا مثل دخان تسوقه الريح، ولكنه ليس إنسانًا. ثم استدار للخلف فجأة، وجرى مع العاصفة كأنه ذاهب فى اتجاه جونت.

أدار جيد القارب باليد وبالتعويذة، فتقافز على الماء مثل درفيل وهو يلف سريعًا. أسرع كثيرًا مما بدأ، لكن الشبح كان قد ذاب من أمام عينيه. فالمطر، ممتزجًا بالجليد والثلج، كان مثل السياط على ظهره وخده الأيسر، وانعدمت الرؤية عنده أكثر من مائة ياردة للأمام. وبسرعة، ولأن العاصفة اشتدت، فَقَدَ جيد أثر الشبح. لكنه كان واثقًا من مساره، وكأنه يتتبع آثار وحش على الجليد، وليس خيالًا على الماء. ورغم أن ريح العالم كانت باتجاهه الآن، إلا أنه رفع ريح السحر فى الشراع، فأضحى مثل سهم منطلق من الرغاوى المفتتة فى مقدمة القارب السميكة، وانطلق القارب يلطم الماء وهو يجرى.

ظل الصياد وصيده فى مسارهما الغريب، واليوم يقترب نحو المغيب. أدرك جيد أنه بسرعته هذه فى الساعات الأخيرة لا بد أنه قد أصبح جنوبَ جونت الآن، وفى طريقه إلى سبيفى أو تورهيفين، أو ربما حتى قد تجاوز كل هذه الجزر إلى البحر المفتوح. لم يعرف أين هو، ولم يكترث، طارد الشبح وخوفه أمامه الآن.

وفجأة رأى الشبح قريبًا منه للحظة. هدأت رياح العالم، واستسلم الجليد النشط الذى صاحب العاصفة لضباب كثيف ممزق بارد. من خلال هذا الضباب لمح جيد الشبح يهرب إلى يمينه، تحدث إلى الريح والشراع، وأدار الدفة وتبعه، رغم أنه على أية حال كانت تلك مطاردة عمياء؛ لأن الضباب كان يزداد كثافة ويفور ويتمزق كلما اتحد مع رياح التعويذة، قافلًا على المركب من كل اتجاه، ومكوِّنًا شحوبًا كاملًا يخفى الرؤية والضوء. حتى عندما نطق جيد بالكلمات الأولى لتعويذة التجلية، ظهر الشبح مرة أخرى على اليمين، لكن من على مقربة شديدة وهو يمهل السير، كان الضباب يهب من خلال رأسه المعدوم الوجه، ورغم هذا كان يتخذ شكل رجل، شبح رجل، مشوَّهًا ومتغيرًا. غيَّر جيد اتجاهه مرة أخرى، وهو يظن أنه قد أوقع بعدوه، إلا أن الشبح تبخر تمامًا فى تلك اللحظة، وتحطم القارب على الأرض مصطدمًا بصخور فى مياه ضحلة أخفاها الضباب عن ناظره. وبالكاد استطاع جيد أن يتمسك بالعصا، ويتفادى أن ينطرح أرضًا قبل أن تضربه الموجة التالية. كانت موجة هائلة قذفت بالقارب خارج الماء، ودفعت به على صخرة، تمامًا مثلما قد يرفع شخص قوقعة حلزون ويكسرها.

كم كانت عصا أوجيون متينة، رائعة، وسحرية فى تلك اللحظة! لم تنكسر، بل اعتلت الماء مثل جذع الشجرة الطافى الجاف. تشبث بها جيد بكلتا يديه، وهو ينجذب للخلف، بينما الأمواج تنحسر عن الصخور، لهذا وجد جيد نفسه فى مياه عميقة، آمنًا من التحطم على الصخور حتى الموجة التالية. حاول بكل قوته أن يبقى رأسه على الماء، والماء المالح يعمى عينيه ويخنقه، بينما هو يقاوم جاذبية البحر. فى عمق محنته لمح شاطئًا رمليًا بجانب الصخور، وهو يحاول أن يحرر نفسه من ارتفاع الموجة التالية، حاول بعزم قوته وبمساعدة العصا السحرية أن يطلع على هذا الشاطئ،

لكنه لم يقترب. كان ارتفاع الماء وانحساره يأخذه ذهابًا وإيابًا مثل الخرقة البالية، وبرد البحر يسحب كل الدفء في جسمه بسرعة، ضعف تدريجيًا حتى لم يعد يستطع تحريك ذراعيه، ولا رؤية الصخور ولا الشاطئ ولا الطريق أمامه. فقط كانت هناك جلبة المياه حوله، تحته، فوقه، من كل جانب، تعميه، تخنقه وتغرقه.

ثم جاءت موجة هائلة من تحت الضباب الممزق، لفَّته عدة مرات، وقذفت به مثل لوح خشب طافٍ إلى الشاطئ.

وهناك رقد، وهو لا يزال متشبثًا بعصاه بكلتا يديه، حاولت موجات أقل ارتفاعا أن تسحبه وتطويه بعيدًا تحت الرمال، بينما الضباب يصفو ويطبق عليه، ثم ينهمر المطر الجليدي من فوقه.

تحرك بعد وقت طويل، رفع نفسه على قدميه وركبتيه، وبدأ يزحف بصعوبة على الشاطئ بعيدًا عن حافة الماء. كان الليل معتمًا الآن، لكنه همس للعصا فأضاءت كرة ويرلايت فوقه. وجاهد والكرة فوقه تنير له الطريق، شيئًا فشيئًا إلى التلال الرملية. كان مهزومًا ومحطمًا وباردًا، لدرجة أن ذلك الزحف على الرمال المبتلة، في قلب ذلك الظلام الذي يملؤه صوت رعد البحر، بدا له أصعبَ شيء قام به في حياته كلها. وللحظات شعر أن صوت البحر والرياح من خلفه يبعد ويموت، والرمال المبتلة من تحت يديه تتحول لتراب، وشعر بالنجوم من خلف ظهره ترمقه بنظرة غريبة ثابتة. ربما كان يموت، لكنه لم يرفع رأسه ليرى، واستمر في الزحف، وبعد قليل بدأ يسمع صوت لهاثه، وشعر بالرياح القارصة تضرب وجهه بالمطر.

أخيرًا، أعادت الحركة الدفء إلى جسده، وبعد أن زحف حتى التلال؛ حيث تهبط زخات المطر أضعف وأقل، نجح في الوقوف على قدميه، وهمس

بكلمات لتقوية ضوء الويرلايت فوق رأسه، فقد كان الظلام حالكًا، ثم اتكأ على عصاه، ومشى نصف ميل أو أكثر بداخل الجزيرة، وهو يتعثر ويقوم ويتوقف ويحاول، وعندما ارتفع به تل رملى سمع صوت البحر ثانية عاليًا مرة أخرى، فالتلال كانت تنحدر مرة أخرى نحو البحر. واكتشف جيد الأمر: لم تكن تلك جزيرة، وإنما مجرد شِعب من الشعاب الصخرية فى قلب المحيط.

كان منهكًا لدرجة تفوق اليأس، لكنه تنهد، ووقف هناك مستندًا على ذراعه فترة طويلة، مرعوبًا. لكن جيد العنيد استدار لليسار لتكون الرياح على ظهره على الأقل، وجرجر قدميه نزولًا من التل الرملى العالى، وهو يتحسس أعشاب البحر المحنية التى يكسوها الجليد؛ بحثًا عن أى تجويف يلجأ له. بينما رفع عصاه ليرى أمامه لمح بآخر قدرته على النظر ضوءًا باهتًا بعيدًا يأتى من حائط خشبى مبتل.

كان الحائط مثل عشة أو كوخ صغير وضعيف، كما لو كان مَن بناه مجرد طفل. ضرب جيد على الباب المنخفض بعصاه، ظل الباب مغلقًا. دفعه جيد ودخل، وهو ينحنى بالكامل ليدخل. كان من المستحيل أن يقف معتدلًا داخل الكوخ. بالداخل لمعت نيران المدفأة، وعلى ضوئها استطاع جيد أن يرى رجلًا بشعر أبيض طويل يقبع فى رعب بجانب الحائط الأبعد من الكوخ، وبجانبه رجل أو امراة ينظر له من وراء كومة من الثياب المهلهلة على الأرض.

– همس جيد: "لن أؤذيكما".

لم يقولا أى شىء. نظر جيد لأحدهما ثم للآخر، كانت عيونهما ممتلئة بالرعب، فوضع عصاه جانبًا.

أخذ الشخص الذى كان يقبع وراء كومة الملابس يبكى بشدة. خلع جيد عباءته التى أصبحت ثقيلة من الماء والثلج، خلع كل ما يرتدى، وعكف على النار طلبًا لبعض الدفء قائلًا: " أعطونى شيئًا أستر به نفسى." قالها جيد بصوت أجش، بصعوبة بالغة من بين أسنانه المصطكة وجسمه المرتعش. لم يجيباه، هذا إن كانا قد سمعاه من الأصل. مد يديه، وأخذ خرقة من على الفراش وجدها من جلد الماعز، يبدو أنه قد مرَّ عليها سنوات طويلة فتهلهلت واكتست بالدهن الأسود الآن، فجفف بها نفسه، حين فعل هذا تأوه الشخص المختبئ تحت الفراش من الرعب، لكن جيد لم يلقِ له بالًا، وهمس "لو لديك أى خشب فزد هذه النار قليلًا يا رجل، فقد جئت لك فى ساعة العسرة، ولا أنوى أن أؤذى أحدًا."

لم يتحرك الرجل العجوز، بل أخذ يرقبه فى رعب وذهول.

توقف جيد، ثم سأل بعد لحظة: "هل تفهمنى؟ هل تتكلم الهاردية؟ كارجاد؟"

عند هذه الكلمة أومأ الرجل فورًا إيماءة واحدة مثل عروسة ماريونيت معلقة بخيط. لكن تلك الكلمة الوحيدة كانت كل ما يعرفه جيد من اللغة الكارجية، ولهذا انتهى الحوار بينهما. وجد بعض ألواح من الخشب بجانب جدار، فألقمها النار بنفسه، ثم أشار لهما بأنه يريد الماء، فقد أعياه شرب ماء البحر المالح، والآن كاد العطش أن يقتله. أشار الرجل العجوز بخضوع إلى قوقعة كبيرة كان بها الماء، وأشار الرجل إلى قوقعة أخرى بها شرائح من السمك المجفف. جلس جيد متربعا بجانب النار، وشرب وأكل قليلًا، وحين عادت له بعض العافية والإدراك أخذ يتساءل أين هو. حتى برياح السحر لم يكن ليبحر إلى بلاد الكارجيين، لا بد وأن هذه الجزيرة فى البحر

المفتوح إلى الشرق من جونت، لكنها إلى الغرب أيضًا من كارجاد آت. كان من العجيب وجود أى إناس على مثل هذا الرصيف الرملى، ربما كانا من المنبوذين المنفيين، أو من الناجين من الغرق، لكن جيد كان متعبًا جدًا فلم يشغل باله بهذا الأمر أكثر من هذا.

استمر فى تقليب عباءته للحرارة حتى تجف، جفت الأجزاء الفضية من الفراء البيلاوى بسرعة. وبمجرد أن أصبح الوجه الصوفى للعباءة دافئًا، دون حتى أن يجف، لف نفسه فيه، وتمدد بجانب المدفأة، وهمس لضيفيه الصامتين: "ناما أيها التعساء." ووضع رأسه على المخدة الرملية ونام.

بقى على الجزيرة التى لا اسم لها، حين صحا أول صباح كان محمومًا مريضًا، وكل عضلاته تؤلمه. رقد مثل لوح الخشب الطافى فى الكوخ طوال هذا اليوم والليلة بجانب المدفأة، فى اليوم الذى تلاه صحا متيبسًا متألمًا، لكنه قد تعافى من الحمى. لبس ملابسه المكسوة بالملح، فلم يكن هناك ماء كافٍ لغسلها، وخرج ليرى ذلك المكان الذى سحبه الشبح له.

كانت الجزيرة عبارة عن بقعة صخرية رملية فى وسط البحر، بحجم ميل واحد لا يزيد فى أقصى اتساع لها، ولا تزيد فى الطول عن هذا، محفوفة من كل جانب بالصخور فى مياه ضحلة، وأسراب الأسماك. جزيرة لا تنبت فيها شجرة ولا زرع سوى أعشاب البحر الملتوية. يقف الكوخ وسط تجويف بين الكثبان الرملية، يعيش فيه الرجل العجوز وامرأته فى هذا الفراغ التام للبحر الخالى. بُنى الكوخ، أو تكوم فوق بعضه، من ألواح الخشب الطافية والأغصان. تأتى المياه من بئر صغير مالح بجانب الكوخ، الطعام من السمك والقواقع، مجفف أو نيئ، بجانب أعشاب الصخور، الجلود المهلهلة التى

رآها جيد فى الكوخ، والكثير من الإبر العظمية، وصنانير صيد السمك، وخيوط الصنانير، لم تكن من الجديان كما ظن جيد فى البداية، وإنما من أسد البحر، فقد كان هذا حقًا المكان المثالى الذى قد يأتى له أسد البحر ليربى صغاره فى الصيف. لكن لا يأتى أحد لمثل هذا المكان. لم يرتعب العجوزين منه لأنه ساحر، أو لأنهما ظناه شبحًا؛ لكن ببساطة لأنه إنسان، فقد نسيا أن هناك فى العالم أناسًا غيرهما، لم يتراجع أبدًا خوف الرجل منه، فكلما كان جيد يقترب لمسافة تكفى لأن يلمسه كان يقفز بعيدًا مكشرًا عن أنيابه من بين كومه شعره الأبيض القذر. فى البداية كانت المرأة تئن وتختبئ تحت كومة الملابس المهلهلة التى تستخدمها فراشًا كلما اقترب منها، لكن بينما كان يرقد محمومًا فى الكوخ المظلم، رآها تجلس القرفصاء، تحملق فيه بعيون غريبة غبية يملؤهما الحنين، وبعد فترة أحضرت له الماء، لكن حين اعتدل ليأخذ منها الماء ليشرب فارتعبت وأوقعتها، وانسكب الماء كله على الأرض، ثم بدأت تبكى، ثم جففت عينيها بشعرها الأبيض الطويل.

الآن أخذت ترقبه، وهو يعمل على الشاطئ صانعا قاربًا جديدًا من الألواح الخشبية للمركب القديم، ومن الألواح الطافية على الشاطئ، مستخدمًا القدوم الحجرى الخاص بالرجل العجوز، وكذلك تعويذة ربط. لم يكن فيما يفعل إصلاحًا للقارب، ولا صناعة لقارب جديد؛ لأنه لم يتوافر لديه الخشب الكافى، وإنما وجب عليه أن يوفر كل الباقى بالسحر المحض. لكن المرأة العجوز لم تكن تراقب عمله الرائع، بل كانت ترقبه هو شخصيًا، وفى عينيها شوق غامض. وبعد قليل دخلت وعادت بسرعة، وفى يدها هدية، حفنة من بلح البحر جمعتها من على الصخور. أكلها جيد كما أعطتها له، نيئة، مبللة بماء البحر. ويبدو أن هذا أكسبها بعض الشجاعة، فقد عادت إلى الكوخ، ورجعت بشىء جديد فى يدها، صرة ملفوفة فى قماش مهلهل.

وبخجل، وهى ترقب تعبيرات وجهه، فتحت الصرة ببطء ورفعتها إليه ليراها.

كانت الصرة عبارة عن فستان من الحرير المطرز، مبقع بالملح، مصفر بعامل الزمن، على صدر الفستان وجد جيد تطريزًا باللؤلؤ بشكل يعرفه جيدًا، الأقواس المزدوجة لإخوة الإله، شعار إمبراطورية الكارجاد يعلوه التاج.

أشارت المرأة العجوز المجعدة المتسخة، مرتديةً ملبسها المهلهل من جلد الفقمة، إلى الفستان الحريرى الصغير، ثم أشارت إلى نفسها، وابتسمت ابتسامة صغيرة لا معنى لها مثل ابتسامة الأطفال. ثم أخرجت من جيب سرى داخل الفستان شيئًا صغيرًا أعطته لجيد، قطعة صغيرة من المعدن الداكن، ربما قطعة مجوهرات مكسورة مثل نصف دائرة أو خاتم مكسور. أشارت إلى جيد بأن يأخذه، ولم تسكت حتى فعل، وعندها ابتسمت ثانية بعد أن أعطته هدية، أما الفستان فقد لفته ثانية بعناية فى أغطيته القذرة، ورجعت بسرعة إلى الكوخ لتخفى الشىء الغالى بعيدًا.

وضع جيد الخاتم المكسور فى جيبه بعناية شديدة، وقلبه ينفطر من الشفقة على المرأة. خمن الآن أن هذين الاثنين كانا يومًا ما طفلين صغيرين من العائلة المالكة لإمبراطورية الكارجاد. أرسلهما غاصب أو طاغية، عزف عن سفك الدماء الملكية، إلى هذه الجزيرة البعيدة عن أراضى الكارجاد التى لا يعرف بها أحد، ليعيشا أو يموتا. ربما كان الولد يبلغ وقتها من العمر تسع أو عشر سنوات، والبنت وقتها كانت طفلة صغيرة سمينة فى ردائها الحريرى المطرز باللؤلؤ. وعاش الاثنان، أربعين سنة، خمسين سنة، على صخرة كبيرة فى قلب المحيط هى تلك الجزيرة، أمراء الخراب.

لكن حقيقة ذلك التخمين لم يتأكد منه إلا بعد هذا بسنوات، حين قاده البحث عن خاتم إيريث آكبى إلى الأراضى الكارجية، وإلى مقابر آتوان.

انتهت ليلته الثالثة على الجزيرة بشروق هادئ باهت، فقد كان هذا هو يوم عودة الشمس، أقصر أيام السنة. كان قاربه المصنوع من الخشب والسحر والخردة والتعاويذ جاهزًا. حاول أن يخبر العجوزين أنه على استعداد لأن يأخذهما معه إلى أى بلد: جونت أو سبيفى أو توريكلز، وربما حتى يتركهما على أى من شواطئ كارجاد لو أرادا هذا، رغم أن الأراضى الكارجية لم تكن آمنة لأى من سكان الأرخبيل ليغامر فيها. لكنهما رفضا أن يتركا جزيرتهما المقفرة. لم تفهم العجوز ما أراد أن يخبرهما بالإشارة والكلام، لكن الرجل العجوز فهم ورفض. رأى جيد من تعبيرات وجهه وهو يهز رأسه رافضًا، ويعود يهز وجهه رافضًا، أن كل ذكريات العجوز عن العالم الآخر والناس الآخرين كانت مجرد دماء وصراخ وعمالقة.

لهذا ملأ جيد قربة من جلد الفقمة بماء البئر هذا الصباح، واستعد للرحيل. ولأنه عجز عن شكر العجوزين على إطعامه وإيوائه، ولأنه كان خالى اليدين، ولم يستطع أن يهادى المرأة العجوز كما كان يود، فعل كل ما يستطيع، ووضع تعويذة على البئر المالح الفقير، فارتفع الماء عاليًا عذبًا وصافيًا مثل عيون جونت الجبلية، ولم يتوقف من يومها. وبسبب هذه العين أصبح للجزيرة مكان واسم على الخريطة، يسميها البحارة جزيرة نبع الماء. لكن الكوخ اختفى وطمست عواصف الشتاء المتتالية كل أثر للعجوزين، اللذين عاشا كل حياتهما هناك، وماتا فى الوحدة.

بقى العجوزان مختبئين فى الكوخ، كما لو كانا يرفضان أن يريا جيد ينزل قاربه فى الجزء الجنوبى من الجزيرة. ترك رياح العالم التى تهب بثبات من الشمال تملأ شراعه، وأبحر للأمام فى قلب البحر.

الآن، كان بحث جيد فى البحر غاية فى الغرابة، فقد كان صيادًا لشىء لا يعرفه، ولا يعرف أين يجده فى كل نواحى إيرثسى، شىء عليه أن ينقب عنه بالتخمين والحظ تمامًا، كما كان الشبح ينقب عنه. كلاهما لا يرى حقيقة الآخر. كان جيد مرتبكًا ومحتارًا من طبيعة الشبح غير المادية تمامًا، مثلما كان الشبح مذهولاً من ضوء الشمس والأشياء المادية. لكن جيد تأكد من أمر واحد فقط؛ أنه الآن قد أصبح الصياد والشبح هو الفريسة، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الشبح قد استغل قلة حيلته حين خدعه، وقذف به على الجزيرة، ولكان قد انقض عليه حين تخبط فى الظلام، ورقد على الشاطئ نصف ميت فى الكثبان العاصفة. لكنه لم يفعل، فقط سحبه هناك، ثم هرب غير قادر على مواجهته. رأى جيد فى هذا أن أوجيون كان بلا شك على حق، فالشبح غير قادر على سحب القوة منه طالما انقلب عليه، وعلى هذا فعليه إذن أن يبقى منقلبًا عليه مطاردًا إياه، رغم أن الطريق بارد وطويل عبر كل تلك البحار الواسعة، ورغم أنه لم يملك دليلاً سوى رياح الجنوب . كل ما سيطر على جيد وقتها كان حدسًا ضعيفًا ان الإتجاه الصحيح إما إلى الجنوب أو الشرق .

قبل حلول الليل رأى على البعد إلى يساره سواحل أراض واسعة، وهذه لابد أن تكون كارجاد آت. إذن فلا بد أنه فى الطرق البحرية لذلك الجنس الأبيض. لهذا توخى الحرص، وشدد المراقبة علّه يلمح أى سفينة أو قارب كارجى. وتذكر، وهو يبحر خلال حمرة المغيب، ذلك الصباح من طفولته فى قرية الشجرات العشر، وهؤلاء المحاربين ذوى الريش، وتذكر النار والضباب. وحين فكر ذلك اليوم أدرك وبوخز فى ضميره كيف خدعه الشبح بخدعته نفسها التى خدع بها العدو يومًا، حين أحدث حوله الضباب نفسه، وكأنه يجلب تلك الخدعة من ماضيه الشخصى؛ ليعميه تمامًا عن الخطر أمامه، ويوشك على إهلاكه.

حافظ على مساره باتجاه الجنوب، فغاصت الأرض من خلفه عند دخول الليل. امتلأ كل شىء بالظلام، حتى تجويف الموج نفسه، بينما لمعت قمم الموجات فوق الماء بضوء صافٍ لا يزال محمرًا من جهة الغرب. غنى "وينتر كارول" ، ومثل تلك الأغانى التى من المعتاد أن يتغنى بها الناس فى عيد عودة الشمس، كان صوته صافيًا يهبط على الفراغ فى وسط صمت البحر، ثم هبط الليل وظهرت النجوم.

ظل مستيقظًا طوال هذه الليلة الطويلة، وهو يراقب طلوع النجوم من فوق يده اليسرى، يراها تختفى فى قلب المياه العميقة السوداء على يمينه، وطوال الوقت تحمله رياح الشتاء باتجاه الجنوب فوق بحر غير مرئى. فقط كان يغفو دقيقة أو دقيقتين، ثم يصحو بشكل مفاجئ. فذلك القارب الذى يبحر فيه لم يكن بالفعل قاربًا حقيقيًا بل شىء نصفه سحر وشعوذة، والنصف الآخر من الألواح الطافية من طرح البحر، لدرجة أنه لو تكاسل عن إلقاء تعويذات التشكيل والربط لتهاوى القارب وتفكك، وانجرف تمامًا مثلما ينجرف حطام السفينة فوق الأمواج. كان الشراع أيضًا منسوجًا من الهواء والسحر، ولن يصمد طويلًا أمام الرياح لو نام، بل لربما يتحول إلى نفخة من الهواء. كانت تعاويذ جيد متماسكة وقوية، لكن أساسها ضعيف، ولابد من تجديدها طوال الوقت؛ ولهذا لم ينم طوال هذه الليلة. كان من الممكن أن يهون الأمر ويتيسر كثيرًا لو سافر فى هيئة درفيل أو صقر، لكن أوجيون حذره من تغيير شكله، وهو يعرف الآن قيمة نصائح أوجيون. ولهذا فقد أبحر باتجاه الجنوب تحت النجوم التى تغيب باتجاه الغرب، حتى مرت الليلة الطويلة ببطء، وأشرقت شمس العام الجديد على كل البحر.

وبعد شروق الشمس رأى الأرض أمامه، لكنه كان يتحرك ببطء باتجاهها، فقد هبطت ريح العالم مع بدء اليوم، فرفع رياح السحر فى

الشراع لتدفعه للأمام باتجاه الارض. وعند رؤيتها تحرك الخوف في قلبه ثانية، ذلك الرعب الغائر نفسه فى قلبه الذى دفعه للهرب. تبع جيد خوفه مثلما يتتبع الصياد الآثار الواسعة الغليظة المخلبية للدب، دب قد يستدير وينقض عليه من قلب الأدغال، لقد أصبح قريبًا الآن، يعرف هذا جيدًا.

كانت الأرض التى لاحت من فوق البحر تقترب شيئًا فشيئًا، تبدو غريبة المظهر، فما ظهر من بعيد على أنه جدار جبلى كان عبارة عن نتوءات جبلية وعرة، ربما جزر منفصلة، ومن بينها البحر يجرى فى قنوات ضيقة. ورغم أن جيد كان قد استغرق وقتًا كبيرًا فى دراسة خرائط كثيرة فى برج الأستاذ صاحب الأسماء على جزيرة روك، لكنها فى معظمها كانت خرائط للأرخبيل، أما الآن فقد كان فى الطرف الشرقى، ولا يعرف ما تلك الجزيرة. لم يفكر كثيرًا فى هذا، كان الخوف هو ما يقبع أمامه ويرقد خلفه، ويختبئ منه منتظرًا إياه بين المنحدرات والغابات فى الجزيرة التى يتجه اليها.

عبست المنحدرات التى تعلوها الغابة الداكنة فى وجه قاربه، وارتفعت فوقه عالية. وهب رذاذ الموج المتكسر على اللسان على شراعه حين حملت ريح السحر قاربه بين رأسين عظيمين، ودخلت به إلى قناة بحرية تجرى بعمق داخل البر، لا تتسع لأكثر من سفينتين. كانت المرتفعات تنحدر مباشرة نحو الماء الداكن من أثر انعكاس المرتفعات الباردة عليه، كان الجو ساكنًا وهادئًا للغاية.

خدعه الشبح على مراعى أوسيكيل، وخدعه فى قلب الضباب إلى الصخور، والآن يأتى به هنا. هل سيكون هناك خدعة ثالثة؟ هل كان هو من دفع بالشبح إلى هنا، أم هو الذى سحبه؟ لم يعرف، فقط كان يعرف يقينًا عذاب الرعب فى قلبه، وأن عليه إنهاء ما شرع فى عمله: اصطياد الشبح،

وملاحقة رعبه إلى مصدره. وبحرص شديد تقدم وهو يدقق النظر أمامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه، كان قد ترك ضوء الشمس خلفه على البحر المفتوح، لكن هنا فى تلك القناة كان الظلام، بدت الفتحة ما بين الرأسين مثل بوابة براقة وبعيدة من خلفه، حين نظر على البحر المفتوح. وكلما تقدم فى القناة متتبعًا جذر الجبل الذى تنبع منه المرتفعات، ارتفعت أكثر، وضاقت القناة أكثر فأكثر. دقق النظر فى الفلق أمامه، ويمينًا ويسارًا على المنحدرات التى تنتشر فيها الكهوف مثل بثور الوجه، ويتراص فيها الحجر الجلمود، وتنحنى فيها الأشجار، وجذورها تكاد تكون فى الهواء. لم يتحرك شىء، والان اقترب من نهاية الخليج الذى أصبح كتلة عالية فارغة من الصخر تحتضنها آخر أمواج البحر بخفة فى جدول ضيق. لم تترك صخور الجلمود المتساقطة، وجذوع الأشجار الملتفة المتعفنة سوى طريق ضيق للاستمرار. فخ! فخ داكن تحت جذور الجبل، فخ وقع فيه. لم يتحرك شىء أمامه ولا فوقه، كل شىء سكن سكون الموت، لم يستطع التقدم أكثر من هذا.

لف قاربه مستعينًا بالتعويذة والمجداف البديل بعناية بالغة؛ خوفًا من أن يرتطم القارب بالصخور، أو يعلق بين فروع الأشجار والجذور المتناثرة، حتى أصبح القارب على طريق الخروج بالفعل، وبدأ جيد فى رفع ريح لتأخذه من حيث أتى، وإذ بالكلمات تقف على لسانه، ويغوص قلبه فى صدره. نظر خلف كتفه ليرى الشبح واقفًا وراءه فى القارب.

لو كان قد ضيع لحظة واحدة لضاع بالكامل، لكنه كان مستعدًا، واندفع ليقتنص ويمسك هذا الشىء الذى ظل يتراقص ويرتعش أمامه فى متناول ذراعه. لن ينفعه السحر الآن، فقط جسده، حياته نفسها ضد هذا الذى لا يحيا. لم يتكلم كلمة واحدة، وإنما هاجم وهاجم وغطس القارب،

وانحدر تحت الحركة والاندفاع المفاجئين. سرى ألم رهيب فى ذراعيه وصدره، ألم كتم الهواء فى صدره، وملأه ببرد مثلج، حتى إنه أعمى عينيه، ومع هذا لم يكن فى يديه التى أمسكت الشبح سوى الفراغ؛ الظلام والهواء.

انكفأ على وجهه، فتمسك بعمود الشراع ليقى نفسه السقوط، واندفع النور إلى عينيه مثل القذيفة. رأى الشبح يرتعش منسحبًا، وينكمش فى بعضه، ثم يمتد باتساع فوقه، وفوق الشراع للحظة. ثم يتراجع ويهرب، بلا شكل، باتجاه البوابة اللامعة بين المرتفعات.

ركع جيد على قدميه، بينما القارب المربوط بالتعاويذ ينحدر ثانية ويهتز، ثم يستقر ويطفو على المياه المتلاطمة. قبع فى القارب عاجزًا عن الكلام والتفكير، مجاهدًا ليسحب نفسه حتى نبهته المياه الباردة تحت ركبتيه، أنه لابد من أن يعتنى بقاربه؛ لأن التعاويذ التى تربطه ببعضه تضعف. وقف متمسكًا بعصاه، وأعاد حياكة تعويذة الربط كأحسن ما يكون. كان يشعر بالبرد والتعب، يداه وذراعاه ينبضان بالألم، وقوته قد ذهبت منه تمامًا. تمنى أن يكون هناك بالأسفل، فى ذلك المكان المظلم؛ حيث يلتقى الجبل والماء وينام، ينام على الماء المهتز الهائج.

لم يستطع أن يفهم ما إن كان إنهاكه نوعًا من السحر ألقاه الشبح عليه، أو نتيجة للبرد الشنيع من جراء لمسته، أم فقط من البرد والجوع وقلة النوم وفقدان قوته، لكنه فى كافة الأحوال حاول ألَّا يستسلم له، رفع ريح سحر خفيفة، وتبع الشبح فى طريقه الضيق تجاه البحر.

لم يعد هناك أى رعب، لم يعد هناك أى متعة. لم تعد هناك أى مطاردة، لم يعد هناك صياد ولا فريسة. للمرة الثالثة سعى للشبح بنفسه، وسعى للإمساك به بيديه هاتين. لكنه لم يمسكه، وإنما ربط بينهما برباط ما، علاقة

لا تنفصم، لم يعد بحاجة لمطاردة هذا الشيء بعد الآن ولا تتبعه، ولا سينفعه الهرب منه. لن يستطع أيهما الهرب بعد الآن، حين تحين ساعتهما الأخيرة سيلتقيان.

لكن حتى تحين تلك الساعة لا توجد راحة ولا هدوء لجيد، ليلًا أو نهارًا، لا على الأرض ولا البحر. عرف الآن، وكانت معرفة شديدة القسوة، أن مهمته لم تكن إزالة ما صنع، بل إكمال ما بدأ.

أبحر من بين المرتفعات الداكنة للبحر الواسع؛ حيث ضوء الصباح اللامع، ورياح جيدة تهب من الشمال.

شرب ما بقي له من ماء فى القارورة، وتقدم حتى وصل إلى مضيق واسع بينه وبين جزيرة ثانية تمتد إلى الغرب. ثم عرف المكان مستدعيًا خرائط الطرف الشرقية، كانتا جزيرتى اليدين، جزيرتين وحيدتين باتجاه الأراضى الكارجية. أبحر بينهما، ووصل إلى الساحل عند المساء، والسحب العاصفة تتجمع من الشمال. وصل عند الساحل الجنوبى للجزيرة الغربية، وجد هناك قرية صغيرة فوق الشاطئ، ينحدر منها جدول يصب فى البحر. لم يهتم إن كانوا سيرحبون به أم لا، يريد فقط أن يحظى ببعض الماء والدفء والنوم.

كان أهل القرية أناسًا خجولين غلاظًا، أرعبتهم عصا الساحر ووجهه الغريب، لكنهم كانوا مضيافين لرجل أتى وحده عبر البحر قبيل عاصفة. منحوه اللحم والشراب بوفرة، والدفء، وأصوات البشر الذين يتكلمون بلغته نفسها الهاردية، ثم أعطوه الماء الساخن ليستحم، ويغسل برد وملح البحر عن جسده، وأخيرًا الفراش لينام.



(٩) إيفيش

قضى جيد ثلاثة أيام فى تلك القرية فى جزيرة اليد الغر
ويستريح ويعد قاربًا من الخشب المتين، وليس من التعاويذ و
قاربًا مثبتًا بقوة بالأوتاد، ومدعومًا بعمود الصارى الخاص
منفصل، وبهذا يستطيع أن يبحر وينام حين يريد. مثل كل قو
والأطراف البعيدة كان القارب مبنيًا من أعواد الخشب المت
ألواح الخشب متداخلة، ومثبتة واحدًا فوق الآخر لمزيد من ا

فى البحار العالية. كانت كل أجزاء القارب جيدة الصنع وقوية، دعم جيد قوة خشبه بالكثير من التعاويذ الداخلية؛ لأنه عرف أنه سيذهب به بعيدًا. صُنع القارب ليتحمل رجلين أو ثلاثة، مالكها الأصلى يقول إنه هو وإخوته أبحروا به من قبلُ فى البحار العالية والجو السيئ، ولم يخذلهم، بل حملهم جميعًا بشجاعة.

وعلى عكس الصياد الخبيث فى جونت أراد الرجل العجوز صاحب المركب أن يعطيه لجيد دون مقابل؛ خوفًا منه، أو إعجابًا بسحره. لكن جيد دفع له على طريقة السحرة معالجًا عينيه من المياه البيضاء التى كانت فى طريقها أن تعميه. بعدها قال له الرجل العجوز مبتهجًا: "أطلقت أنا وإخوتى على المركب اسم الطائر المهاجر: ساندرلينج، لكن أطلق أنت عليها اسم: العين المفتوحة، وارسم عيونًا على مقدمتها، وسيخرج امتنانى لك وشكرى من قلب ذلك الخشب؛ ليحرسك ويحميك من الصخور والمياه الضحلة، ممتن لك يا ولدى، فقد نسيت شكل الضوء وامتداده فى العالم، حتى أعدتَه لعيونى مرة أخرى."

وبينما كانت القوة تعود له تدريجيًّا، كان على جيد الانتهاء من بعض الأعمال الأخرى فى جزيرة اليد. كان سكان الجزيرة مثل الناس الذين عاشرهم طفلًا فى جونت، ربما أفقر منهم، لكن يشبهونهم، ولهذا شعر بالألفة بينهم، ألفة لا يشعر بها فى بلاط الملوك. كان يعرف احتياجاتهم الملحة دون أن يسأل، ولهذا فقد ألقى تعويذات شفاء على الأطفال المرضى والعُرجان، وتعويذات نمو ووفرة على القطعان النحيفة من الغنم والماعز، ووضع حرف الرونية سيمن على المغازل والأنوال والأدوات البرونزية والمجاديف، والأحجار التى أحضروها له لتؤدى كل هذه الأدوات عملها بشكل أفضل، ووضع حرف الرونية بير على أسطح الأكواخ لتحمى المنازل وأصحابها من النار والريح والجنون.

عندما أصبح قاربه "العين المفتوحة" جاهزًا ومزودًا بخزين وافر من الماء والسمك المجفف، بقى فى الجزيرة يومًا واحدًا ليعلم راويها الصغير "بطولات موريد" و"الرسم الهافنورى". كان من النادر أن تأتى سفينة من الأرخبيل إلى جزر اليد، ولهذا فقد كانت الأغانى الملحمية التى ظهرت من مائة عام اختراعًا مذهلًا لهؤلاء الفلاحين، ومن بعدها تلهفوا ليسمعوا المزيد من حكايات الأبطال. لو كان جيد حرًّا فى وقته ومتفرغًا لبقى معهم أسبوعًا أو شهرًا ليعلمهم كل ما يعرف من الملاحم. لكنه فرد الشراع فى الصباح التالى مباشرة فوق البحار الواسعة للطرف. لقد اتجه الشبح جنوبيًا، لم يكن بحاجة لأى تعاويذ ليعرف هذا، كان يعرف عن يقين كما لو كان بينهما حبل سرى ملتف، مهما طالت بينهما المسافات، ومهما اتسعت البحار والأراضى. لهذا خرج فى طريقه المحتوم واثقًا غير متعجل ولا آمل، وحملته رياح الشتاء إلى الجنوب.

أبحر يومًا وليلة فى البحر الخالى، ثم وصل فى اليوم الثانى إلى جزيرة صغيرة اسمها فيميش كما قيل له. حملق فيه القرويون فى الميناء بشك وريبة، ثم هرع مشعوذهم إليه، وبعد أن نظر مدققًا إلى جيد انحنى، وقال بصوت متملق متفاخر: "سيدى الساحر، اعذر جرأتى، نتشرف بتقديم أى شىء قد تحتاجه لرحلتك: طعام، شراب، قماش لشراعك، حبال، فى هذه اللحظة تحديدًا تزود ابنتى قاربك بزوجين من الدجاج المشوى. لكن من الحكمة سيدى أن تكمل طريقك وقتما تحب. فالناس هنا فى حالة رعب، أول أمس شاهد أهل جزيرتنا المتواضعة شخص يعبر الجزيرة من شرقها إلى غربها على قدميه، لم ير أحد أى قارب ينزله، ولا رأى أحد أى قارب يأخذه، ولا كان له أى ظل، هؤلاء الذين رأوا هذا الشخص يقولون إنه يشبهك."

عند سماع هذا طأطأ جيد رأسه واستدار راجعًا إلى الرصيف، وأبحر دون أن ينظر وراءه. لم يكن هناك أى جدوى من إرعاب أهل الجزيرة ومشعوذها. فضَّل أن ينام فى قاربه فى البحر، ويفكر جليًا فيما قاله المشعوذ، فما قاله كان مزعجًا ومحيرًا إلى حد مؤلم.

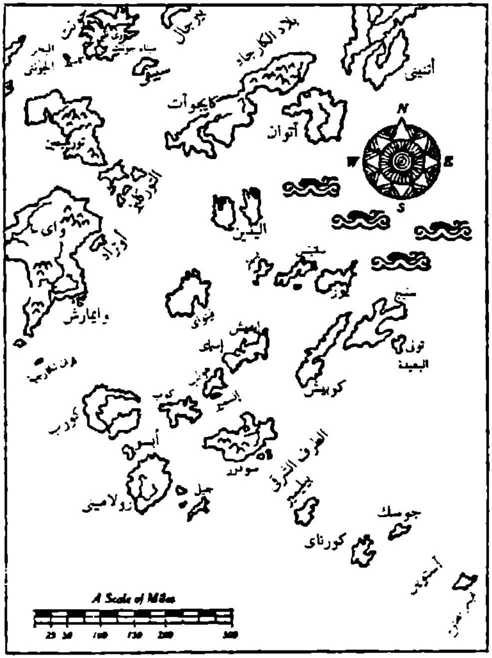
انتهى اليوم، ومرت الليلة كلها، والمطر البارد يهمس فوق البحر خلال الساعات الحالكة، والفجر الرمادى ورياح الشمال المعتدلة تحمل "العين المفتوحة" إلى الأمام. بعد الظهر هبت الرياح، ومعها الضباب والشمس تشرق من وقت لآخر، ثم فى وقت لاحق من هذه الليلة شاهد جيد الجبال المنخفضة الزرقاء لجزيرة كبيرة تضيئها شمس الشتاء، كان دخان المداخن يخلف لونًا أزرق فوق أسطح البيوت الأردوازية للمدن الموجودة بين التلال. ما أجمله من منظر فى وسط رتابة البحر الرهيبة!

تبع جيد بقاربه أحد أساطيل الصيد إلى الميناء، ثم مشى فى شوارع المدينة فى أمسية شتوية ساحرة إلى فندق صغير اسمه "هاريكى"؛ حيث تدفأت روحه وجسده بالشراب الساخن وضلوع الضأن المشوى. على موائد الفندق كان هناك بعض التجار الرحالة، وبعض الناس من القرويين العاديين حضروا من أجل الشراب والأخبار والصحبة. لم يكونوا قومًا خجولين مثل صيادى جزر اليدين، بل أهل مدن نشيطين أصحاء. بالتأكيد عرفوا على الفور أن جيد ساحر، لكن لم يقولوا شيئًا على الإطلاق، باستثناء أن صاحب الفندق الثرثار ذكر فى كلامه أن مدينتهم "إيسماى" تتشرف بأن تشترك مع بقية مدن الجزيرة فى الخدمات النفيسة التى يقدمها ساحر كبير ممن تعلموا السحر فى جزيرة روك، بل سلمه الساحر الأكبر العصا السحرية بنفسه. ورغم أنه خارج البلدة فى الوقت الحالى لبعض الأمور لكنه يعيش فى بيت العائلة فى إسماى، وبالتالى لا توجد حاجة هناك لأى ممارس آخر

من ممارسى الفنون العليا للسحر. فكما يقولون: "إن كان للمركب رئيسان غرقت، أليس كذلك يا سيدى؟" هكذا قال الرجل بابتسامة عريضة.

لا مكان إذن لجيد ليتكسب عيشه من السحر فى هذا المكان، وبهذا يكون قد تلقى طردًا غليظًا فى فيميش، وطردًا لطيفًا من إيسماى، وهنا تعجب مما يقال عن طيبة سكان الطرف الشرقي. هذه الجزيرة هى إيفيش، مسقط رأس صديقه الحميم فيتش، ولكنها لم تبدُ مكانًا ودودًا كما وصفها فيتش يومًا لجيد.

فى واقع الأمر كان سكان إيسماى طيبين، لكنهم شعروا بما يعرفه هو على وجه اليقين، أنه مختلف عنهم، مفصول عنهم، شعروا بأنه مشئوم يطارد شيئًا أسود، كان جيد مثل ريح باردة تعبر من خلال غرفة تدفئها نار المدفأة، أو مثل طائر أسود تحمله عاصفة من بلاد غريبة. وكلما رحل سريعًا حاملًا معه قدره المشئوم كان هذا أفضل.



"أنا في مهمة بحث، ولن أبقى هنا سوى ليلة أو ليلتين." هكذا رد جيد ببرود، عندها نظر صاحب الفندق إلى عصا الساحر في زاوية الغرفة ولم يزد، فقط صب لجيد المزيد من الشراب حتى فار من الكوب.

عرف جيد أن عليه أن يبقى ليلة واحدة فقط في إيسماي، فلا ترحاب له هنا أو في أي مكان. لكنه سئم برودة البحر الفارغ، سئم الصمت الخالي من أي بشر يؤنسه. قال لنفسه إنه سيبقى ليلة واحدة في إيسماي، ثم

يرحل فى الصباح. لكنه نام متأخرًا، وفى الصباح كان الثلج يهطل خفيفًا، فتلكأ حول حارات وشوارع المدينة ليشاهد الناس مشغولين فى أعمالهم. شاهد أطفالاً متدثرين بمعاطف من الفراء يلعبون فى الثلج، يبنون القلاع ورجال الثلج، وسمع حوارات تجلجل عبر الشارع من الأبواب المفتوحة، وشاهد الحداد فى عمله ووجهه محمرًا مغطى بالعرق، وهو ينفخ فى الكير، وشاهد النساء على مغازلهن فى ضوء ذهبى خافت من الداخل، واليوم يقترب من نهايته، وهن يتوقفن للحظات للكلام مع الزوج، أو للابتسامة فى وجه طفلٍ صغير هناك فى دفء البيوت. شاهد جيد كل هذا من الخارج وهو وحيد، منبوذ، وشعر بقلبه ثقيل بداخله، رغم أنه لم يكن ليعترف بأنه حزين. وعندما حل الليل كان لا يزال يتلكأ فى الشوارع، وهو يكره العودة إلى الفندق. سمع رجل وامراة يتحدثان بمرح، وهما يعبران بجانبه نحو ميدان المدينة، فاستدار على الفور، فقد كان يعرف هذا الصوت جيدًا.

تبعهما، ولحق بهما فى ضوء الغسق الأخير الذى تضيئه المصابيح البعيدة. تراجعت الفتاة إلى الخلف، بينما حملق الرجل فيه ورفع عصاه التى حملها بينهما كأنها حاجز لإبعاد الخطر أو الشر. كان هذا فوق احتمال جيد.، تهدج صوته وهو يقول: "ظننتك ستعرفنى يا فيتش."

لكن فيتش ظل مترددًا للحظة.

قال فيتش: "أنا أعرفك." ثم وضع عصاه على الأرض، ومد يده واحتضن جيد قائلًا: "أعرفك! أعرفك! مرحبًا يا صديقى! يا لهذا اللقاء البائس الذى قابلتك به! كما لو كنت شبحًا يأتينى من الخلف، وأنا الذى انتظرتك حتى تحضر، وبحثت عنك."

– "إذن فأنت الساحر الذى يتفاخرون به هنا فى إيسماى؟ كنت أشعر بهذا."

" نعم، أنا ساحرهم، لكن اسمع. دعنى أحكِ لك لماذا لم أعرفك فى البداية. ربما بحثت عنك أكثر من اللازم. هل كنت هنا فى إيفيش منذ ثلاثة أيام؟"

– "حضرت بالأمس فقط."

– "رأيتك فى شوارع كور، تلك القرية بأعلى الجبال، منذ ثلاثة أيام. أعنى أننى رأيت صورة منك، تقليدًا لك، أو ربما شخصًا يشبهك. كان أمامى يخرج من البلدة، وتلوى عند المنعطف حين رآنى. ناديت لكن لم يرد أحد، تبعته ولم أجد أحدًا، ولا حتى رأيت أى آثار، رغم أن الأرض كانت متجمدة، أمر غريب وعجيب. والآن حين رأيتك تخرج من بين الظلال تصورت أننى أمام خدعة جديدة، سامحنى يا جيد." همس باسم جيد الحقيقى بصوت منخفض، حتى لا تسمع الفتاة التى تقف خلفه.

– "لا تقلق، صديقى إستاريول. أنا جيد بنفسه، سعيد برؤيتك." قالها هامسًا هو الآخر وهو ينطق باسم صديقه الحقيقى.

لكن إستاريول شعر بما هو أكثر من هذا فى صوت جيد، ولهذا أكمل كلامه معه بلغة الكلام الحقيقى: "تأتينى من قلب الظلام متأزمًا يا جيد، ومع هذا فحضورك بهجة لى." ثم عاد للكلام معه بلكنة سكان الطرف الشرقى الهاردية: "تعال، تعال للبيت معنا. هذه أختى، أصغرنا، أجمل منى كما ترى، لكنها أقل مهارة بالطبع. اسمها يارو. يارو، هذا هو سباروهوك صديقى، أمهرُنا."

حيته الفتاة: "سيدى الساحر." ورفعت يدها على رأسها، وأخفت عينيها بيديها باحتشام كما تفعل النساء عادةً فى المنطقة الشرقية، كانت عيناها صافية، وخجولة، وفضولية. ربما كانت فى الرابعة عشرة من العمر، سمراء مثل أخيها، وإن كانت نحيفة ورشيقة للغاية. على كُمها يوجد تنين صغير بحجم كف اليد، بأجنحته ومخالبه.

رحلوا فى الشارع المظلم معًا، وعلق جيد وهم يرحلون: "يقولون فى جونت أن النساء الجونتيين يتحلين بالشجاعة، ومع هذا لم أر أى امرأة جونتية تتحلى بتنين كسوار لها."

ضحكت يارو من كلامه، وأجابته على الفور: "هذا ليس تنينًا، وإنما هاريكى(١٢)، أليس لديكم هاريكى فى جونت؟" لكنها عادت للخجل، وأخفت عينيها مرة أخرى.

- "لا، وليس لدينا تنانين. أليس هذا بتنين؟"

- "تنين صغير، يعيش فى أشجار البلوط، يأكل دبابير وديدان وبيض الصقور. لا ينمو أكثر من هذا بأى حال. يا سيدى ما أكثر ما أخبرنى أخى عن الحيوان الأليف الذى كان معك، الكائن البرى، الأوتاك، ألا يزال معك؟"

- "لا."

استدار فيتش له بسؤال، لكنه أمسك لسانه، ولم يسأل شيئًا إلا بعد هذا بفترة طويلة، حين أصبحا معًا وحدهما أمام المدفأة فى بيت فيتش.

رغم أن فيتش كان الساحر الكبير الرئيس لجزيرة إيفيش كلها،

---

(١٢) الهاريكى هو حيوان مختلق فى إيرثسى عبارة عن تنين بحجم كف اليد .

إلا أنه اتخذ من إيسماى – مسقط رأسه – سكنًا له، يعيش فيه مع أخيه الصغير وأخته. أبوهم كان تاجرًا من تجار البحر المتيسرين، ولهذا كان البيت واسعًا ومتينًا، ممتلئًا بالخزف الغنى والمنسوجات الثمينة، وأوعية البرونز الموضوعة على الأرفف والدواليب المحفورة. فى أحد أركان الغرفة الرئيسة وجد هاربًا كبيرًا، وفى الركن الآخر وجد مغزل يارو مطعمًا بالعاج. فى هذا البيت كان فيتش سيدًا حقيقيًا وساحرًا عظيمًا بالرغم من بساطته الشخصية. كان هناك خادمان عجوزان فى رفاهية البيت نفسه، والأخ الأصغر مورى فتى مرح، وكذلك يارو كانت فتاة سريعة وصامتة مثل سمكة صغيرة، تخدم الصديقين، وتقدم لهما العشاء، تأكل معهما وتتحدث معهما، ثم تندس فى هدوء إلى غرفتها. كان كل شىء هناك مؤسسًا بعناية، هادئًا وواثقًا، نظر جيد حوله إلى الغرفة الدافئة، وقال: "هكذا يجب أن يعيش المرء."

"نعم، هذه إحدى الطرق الجيدة التى يعيش بها المرء، هناك طرق أخرى أيضًا. الآن يا صديقى أخبرنى كل ما حدث لك، وما مررت به منذ تحدثنا آخر مرة. وكذلك أخبرنى فى أى رحلة أتيت إلى هنا، فأنا أستطيع أن أجزم أنك لن تبقى طويلًا معنا هذه المرة."

أخبره جيد بكل شىء، وحين انتهى ظل فيتش صامتًا لفترة طويلة جدًا، ثم قال: "سأذهب معك يا جيد."

– "لا."

– "سأذهب."

”لا إيستاريول؛ هذه ليست مهمتك، ولا هذا عملك السيئ. بدأتُ طريق الشر هذا وحدى، وسأنهيه وحدى، لا أريد أن يعانى أحد من أجلى، خاصة أنت، أنت الذى حاولت أن تكف يدى عن هذا الشر من البداية يا إستاريول.“

قال فيتش ببساطة وكأنهما يناقشان أمرًا عاديًا: ”كان الكبرياء دائمًا ما يقودك يا جيد، اسمع، هذا هو طريقك أنت بلا شك. لكن لو فشل البحث عن الشبح ألا يجب أن يكون أحدهم حاضرًا حتى يحذر سكان الأرخبيل؟ فوقتها سيكون هذا الشبح قد اكتسب قوة هائلة. وإذا ما نجحت في بحثك ألا يجب أن يشهد هذا أحدهم ليخبر به الناس فى الأرخبيل، ليعرف الناس الملحمة ويتغنون بها؟ أعلم أنه لا فائدة لك منى فى عملك هذا، ولكننى أعتقد أنه لا بد أن أذهب.“

وافق جيد بعد هذا الإقناع، ولكنه قال: ”أعلم أنه لم يكن لى أن أبقى هنا يومًا آخر، ولكننى بقيت!“

”تعلم أن السحرة لا يلتقون مصادفة، وكما قلت أنت بنفسك، فقد كنت معك منذ بداية الرحلة، فيصح أن أتبعك للنهاية“. ثم وضع خشبًا جديدًا فى النار، وجلسا يحملقان فى ألسنة اللهب لفترة.

– ”هناك من لم أسمع به منذ تلك الليلة فى روك، ولا قلب لدى لأسأل عنه، أى من رفقاء المدرسة، جاسبر أعنى.“

– ”لم يكتسب عصاه أبدًا، رحل عن روك فى تلك الليلة نفسها، وذهب إلى جزيرة ليصبح مشعوذًا فى بلاط لورد أو-توكن. لا أعرف عنه غير هذا.“

ثم عادا للتأمل فى النيران مرة أخرى والاستمتاع بالدفء (فقد كانت الليلة باردة جدًا) على أرجلهما ووجهيهما، وهما يجلسان على إفريز المدفأة، وأرجلهما تكاد تكون بين النيران.

وأخيرًا قال جيد بصوت خفيض: "أنا خائف إستاريول، وسوف يزداد خوفى عندما تكون معى حين أذهب. هناك فى جزيرة اليد، فى ذلك الجزء المنتهى من المضيق أمسكت بالشبح، أعنى حاولت الإمساك بالشبح، لكن لم يكن هناك ما أمسك به، ولم أستطع أن أهزمه. هرب منى. تبعته، لكن هذا قد يحدث ثانية، وثانية. لم يعد عندى طاقة لمحاربة هذا الشيء. ربما لا يوجد نهاية حزينة أو سعيدة لهذا الأمر، ربما لا يوجد ما يغنيه الناس عنى، ربما لا توجد نهاية. ربما على أن أتنقل من بحر لآخر، من أرض لأخرى، فى مغامرة لا طائل منها، مطاردة شبحية."

"حذار." قالها فيتش بسرعة، وهو يرفع يده اليسرى بحركة معينة تبعد الفأل السيئ. وبرغم كآبته ابتسم جيد عند سماع هذا، فقد كان هذا سحر أطفال وليس سحر سحرة كبار. كانت هناك دائما براءة القرويين فى فيتش رغم أنه أيضًا حاد وشديد الفطنة، ويواجه الأشياء مباشرة، ثم قال: "هذا خاطر أسود، وأنا أثق فى أنه غير حقيقى. أعتقد أننى سأرى نهاية ما رأيته يبدأ. بطريقة أو أخرى ستعرف ماهية هذا الشيء الذى يطاردك وطبيعته، وبهذا ستعرف كيف تمسكه وتربطه وتتغلب عليه. ورغم أن السؤال عن ماهية هذا الشيء سؤال صعب، إلا أن ما يقلقنى ولا أفهمه هو كيف أن الشبح يجوب الدنيا فى شكلك الآن، أو فى شكل قريب من شكلك على الأقل، كما يقول الناس فى فيميش، وكما رأيت أنا فى إيفيش. كيف يكون هذا؟ ولماذا؟ ولماذا لم يفعل هذا فى الأرخبيل؟"

– "كما يقولون: القواعد تتغير فى الأطراف البعيدة."

– "هذا صحيح بالفعل؛ فقد تعلمت تعاويذ جيدة فى روك لا قوة لها هنا، أو ينحرف مفعولها تمامًا، كما أن هنا تعاويذ لم أتعلمها فى روك تعلمتها

فى أماكن أخرى. لكل أرض قواها الخاصة، وكلما بَعُد المرء عن الأراضى الداخلية قلت معرفته بهذه القوى وأحكامها. لكننى لا أعتقد أن هذا فقط ما يحدث ذلك التأثير فى الشبح."

- "ولا أنا. أعتقد أن توقفى عن الهرب منه ومهاجمتى له قد أحدثا فيه هذا التغيير، وأعطياه الشكل والهيئة، بل أوقفاه عن أخذ المزيد من القوة منى. كل ما أفعله له صداه بداخله، هو صنعيتى."

- "فى أوسيكيل نطق باسمك، وبهذا أوقفك عن ممارسة أى سحر ضده. لماذا لم يفعل هذا ثانية، هناك فى جزيرة اليد؟"

- "لا أعرف، ربما يسحب من ضعفى القوة اللازمة ليتحدث، فهو يتحدث بلسانى، وإلا كيف يعرف اسمى؟ كيف عرف اسمى؟ عصرت ذهنى طويلًا حول هذا عبر كل البحار، منذ تركت جونت، ولكن دون جدوى. ربما لا يمكنه الكلام على الإطلاق فى شكله، أو بالأحرى الشكل الذى يتخذه، ربما فقط يتحدث فى شكل يستعيره، أو فى شكل الجيبيث. لا أعلم."

- "إذن عليك أن تحترس من لقائه فى شكل الجيبيث مرة أخرى."

رد جيد قائلًا: "أعتقد.." قال ذلك وهو يمد يده نحو الفحم طلبًا للدفء، وكأنه استشعر برودة داخلية مفاجئة، ثم قال: "أعتقد أننى لن أفعل؛ فكلانا مرتبط بالآخر الآن. لا يستطيع أن يفر بعيدًا منى ليمسك برجل آخر، ويفرغه من إرادته ووجوده، كما فعل مع سكيوره. بإمكانه أن يمتلكنى لو ضعفت ثانية، وحاولت الهرب منه، لو قطع هذا الرابط فسوف يمتلكنى. ومع هذا، حينما أمسكت به بكل قوتى، تحول إلى بخار، هواء، وهرب منى. وسيفعل هذا ثانية، ومع هذا فهو لا يستطيع الهروب؛ لأننى أجده دائمًا. مربوط أنا

بهذا الكائن الخبيث، وسأظل مربوطًا إلى الأبد؛ حتى أعرف الكلمة التى تحكمه، اسمه الحقيقى."

سأل صديقه وهو يمعن التفكير: "هل هناك أسماء فى العوالم المظلمة؟"

- "جيشنر، الساحر الأكبر، يقول لا توجد أسماء هناك، لكن أستاذى الساحر أوجيون قال هناك أسماء."

- "لا تنتهى خلافات السحرة." اقتبس فيتش، وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

- "أقسمت الساحرة التى كانت تخدم القوى العتيقة فى أوسيكيل أن الجوهرة كانت ستخبرنى باسم الشبح، لكننى لم أعتمد على هذا. ومع هذا كان هناك تنين عرض علىَّ مقايضة اسم الشبح باسمه، ليتخلص منىَّ، وقد فكرت وقتها أن التنانين قد تنجح فيما يختلف حوله السحرة."

- "هذا صحيح، وإن كان مؤلمًا. لكن أى تنين هذا؟ لم تخبرنى بأنك كنت تتحدث مع التنانين منذ تحدثنا آخر مرة."

تحدثا معًا حتى وقت متأخر تلك الليلة، ورغم أنهما كانا دائمًا ما يعودان إلى موضوع البحث عن الشبح المؤلم ثانية، إلا أن سعادتهما فى وجودهما معًا غطت على كل هذا. فالحب بينهما كان قويًا وثابتًا، لا يهزه الزمن ولا الظروف. فى الصباح استيقظ جيد تحت سقف بيت صديقه، ورغم أنه كان لا يزال ناعسًا إلا أنه شعر بقوة غريبة، كما لو كان فى مكان محصن من الشر والأذى. أحاطت به هذه السكينة طوال اليوم، ولم يأخذ هذا على أنه نذير شؤم، بل نعمة.

أحس أن بخروجه من هذا المنزل قد يخرج من الجنة الوحيدة التى عرفها، ولهذا قرر أن يسعد بهذا الحلم القصير طالما استمر.

ولارتباط فيتش ببعض الأعمال التى يجب الانتهاء منها قبل رحيله عن إيفيش، خرج مع خادمه وصبيه إلى القرى المجاورة، وبقى جيد مع يارو وأخيها مورى. مورى كان أوسطهما سنًا، لكنه بدا وكأنه صبى صغير؛ فقد خلا تمامًا من أى موهبة سحرية، ولم يذهب إلى أى مكان، ولا غادر إيفيش ولا توك ولا هولب من قبل، شاب ذو حياة ناعمة وسهلة. راقبه جيد فى تعجب وبعض من الحسد، وبالضبط هكذا نظر إليه مورى وكل منهما متعجب، رغم أنهما فى السن نفسه، ومع هذا فحياتاهما مختلفتان إلى هذا الحد. تعجب جيد كيف لشخص عمره تسعة عشر عامًا أن يكون خالى البال إلى هذا الحد، وفى إعجابه بوجه مورى اللطيف والمبهج شعر جيد بأنه هزيل وفظ، بينما لا يدرى أن مورى يحسده على ما هو عليه، يحسد حتى تلك الندوب التى تملأ وجهه، والتى ظنها آثار مخلب تنين، ورأى فيها العلامة المميزة السحرية للبطولة.

ولهذا ظل الشابان على تحفظ بعضهما مع بعض، أما يارو فقد زالت هيبتها من جيد ولا عجب فقد كان فى بيتها، وهى سيدة البيت، وجيد كان فى منتهى اللطف معها، يجيب على أسئلتها الكثيرة، والتى كان فيتش يرفض الإجابة عليها. ظلت مشغولة طوال هؤلاء اليومين، تعد فطائر القمح للمسافرين، وتغلف السمك المجفف واللحم المقدد، وأى خزين لازم للمركب، حتى أمرها جيد أن تتوقف؛ لأنه لا ينوى أن يستمر فى الإبحار إلى سيليدور دون توقف.

- "وأين سيليدور؟"

– "بعيدًا بعيدًا فى الجانب الغربى؛ حيث التنانين موجودة فى كل مكان مثل الفئران."

"من الأفضل البقاء فى الشرق إذن حيث التنانين فى حجم الفئران. ها هو اللحم، أمتاكد أنت أنه لا حاجة لك بالمزيد؟ اسمع، لا أفهم شيئًا. أنت وأخى ساحران كبيران، تستطيعان أن تشيرا بأيديكما، وتتمتما بالكلمات وينقضى الشىء، لماذا تجوعان إذن؟ وإذا جاء العشاء وأنتما فى البحر، فلماذا لا تقولان: فطيرة باللحم، فتظهر الفطيرة وتأكلان؟

– "حسنًا يمكننا أن نفعل هذا بالتأكيد، لكننا لا نرغب فى أن نأكل تعويذاتنا، (فطيرة اللحم) مجرد كلمات، يمكننا إعطاؤها الرائحة الشهية والطعم الجميل والحشوة، لكنها ستظل كلمة تخدع المعدة، ولا تعطى أى قوة للجائعين."

قال مورى: "السحرة إذن ليسوا طباخين!" قالها وهو يجلس بعرض مدفأة المطبخ من جيد، يحفر غطاء صندوق من الخشب؛ فقد كان نجارًا بالحرفة، رغم أنه لم يكن نجارًا نشيطًا.

قالت يارو: "ولا الطباخون سحرة، للأسف." وهى تجثو على ركبتيها لترى إن كانت المجموعة الأخيرة من الفطائر قد نضجت أم لا، كانت تخبزها على طوب المدفأة، وواصلت قائلة: "لكننى لا أفهم بعد، سباروهوك، لقد رأيت أخى، وحتى صبيه، يُخرِجون نورًا فى الأماكن المظلمة، بكلمة واحدة، والضوء يلمع وينير، والضوء ليس كلمة، وإنما ضوء تستطيع أن ترى به طريقك."

– "نعم، الضوء قوة، قوة عظيمة نوجد بها، لكنها توجد فى نفسها

ولنفسها، بمعزل عن احتياجاتنا. ضوء الشمس وضوء النجوم هما الزمن، والزمن هو الضوء، فى ضوء الشمس، فى الأيام والسنين توجد الحياة. قد تستدعى الحياة الضوء، وتسميه فى المكان المظلم. لكن عادةً حين ترى الساحر يسمى شيئًا ليظهر، ليس هذا هو الشىء نفسه إيهام. فالساحر لا يستدعى قوة أكبر منه شخصيًا. لكن أن تستدعى شيئًا غير موجود على الإطلاق، وتفعل هذا بواسطة نطق اسمه الحقيقى، فهذه مهارة كبيرة، ولا يجب الاستخفاف بها، ليس من أجل الجوع. يارو، انظرى لقد سرق تنينك الصغير فطيرة!"

أنصتت يارو بعناية، وهى تحملق فى جيد وهو يتكلم، لدرجة أنها لم تر الهاريكى وهو يجرى من مكانه على المدفأة، ويستولى على فطيرة أكبر منه. أخذت المخلوق الصغير ذا القشور فى حجرها، وأطعمته قطعًا صغيرة من الفطيرة، بينما تتفكر فيما قاله جيد.

"وهكذا، فلن تستدعيا فطيرة اللحم الحقيقية خوفًا من أن تقلبا ما يتكلم عنه أخى دائمًا، وأنساه... عن... عن..."

– رد جيد بهدوء لأنها كانت فى منتهى الجدية: "التوازن".

– "نعم لكن حين تحطمت سفينتك، وأبحرت فى قارب مصنوع من التعاويذ ولم يغرق، هل كان هذا وهمًا؟"

– "حسنًا، كان هذا وهمًا إلى حد ما؛ لأننى لم أكن مرتاحًا لرؤية الثقوب فى قاربى؛ لهذا قمت بترقيعه حتى لا أراه. لكن قوة القارب لم تكن وهمًا، بل قوة مصنوعة بسحر آخر، تعويذة الربط. ربط الخشب كله كوحدة واحدة، كقارب. وما هو القارب إلا شىء يطفو لا يسرب الماء؟ وكذلك

كان يمكن أن يتسرب الماء إلى قاربى لولا تجديدى باستمرار." ثم انحنى من مقعده، وأخذ فطيرة من فوق طوب المدفأة، وقلبها بين يديه، وقال: "أنا أيضًا سرقت فطيرة."

– "وحرقت أصابعك. وحين تجوع هناك فوق المياه الخالية بين الجزر البعيدة ستفكر فى هذه الفطيرة، وتقول: لو لم أسرق تلك الفطيرة لكنت آكلها الآن، واحسرتاه. سآكل فطيرة أخى إذن ليجوع معك."

قال جيد: "وهكذا يعود التوازن." وهى تأخذ فطيرة ساخنة، تمضغها نصف محمصة وهى تضحك وتشرق بالطعام. لكنها عادت للجدية بسرعة ثانية، وسألت: "أود كثيرًا لو فهمت ما تقوله لى... لكننى غبية جدًا."

– "أختى الصغيرة، أنا الذى أفتقر لموهبة الشرح، ربما لو كان عندنا بعض الوقت..."

قالت يارو: "سيكون عندنا المزيد من الوقت، حين يعود أخى ستعود معه لفترة على الأقل، أليس كذلك؟"

فأجابها جيد برفق: "لو استطعت."

توقفا لبرهة، ثم سألت يارو: "أخبرنى بشىء آخر لو لم يكن سرًّا، ما القوى العظيمة الأخرى غير الضوء؟"

– "ليس هذا سرًّا، كل القوى واحدة فى المصدر والنهاية على ما أظن، السنون والمسافات، النجوم والشموع، الماء والريح والسحر، المهارة فى يد الإنسان، والحكمة فى جذر الشجرة، كلها تنشأ معًا. اسمى واسمك والاسم الحقيقى للشمس، أو نبع مياه، أو طفل لم يولد بعد، كلها مقاطع وحروف

فى الكلمة العظيمة التى تنطقها النجوم اللامعة ببطء شديد، لا توجد قوى أخرى، ولا اسم آخر.

قال مورى وهو يضع سكينته على الخشب المحفور: "وماذا عن الموت؟"

أنصتت الفتاة، ورأسها الأسود اللامع منحنٍ.

رد جيد ببطء: "حتى تُنطق الكلمة لا بد من وجود الظلام... قبلها وبعدها..." ثم قام فجأة وهو يقول: "ليس من حقى أن أتحدث عن هذه الأشياء. كلمتى التى كانت لى قلتها خطأً. من الأفضل أن أبقى ساكتًا، لن أتكلم ثانيةً. اسمعى، ربما لا توجد قوى حقيقية سوى قوى الظلام." ثم ترك المدفأة والمطبخ الدافئ، وأخذ عباءته، وخرج فى المطر البارد المنهمر فى الشوارع الشتوية.

قال مورى فى خوف وهو ينظر بعيدًا خلف جيد: "إنه ملعون."

قالت الفتاة: "أظن أن رحلته هذه هى رحلة موته، ورغم أنه يعرف هذا إلا أنه يقوم بها." ثم رفعت رأسها ونظرت لألسنة اللهب، وكأنها تشاهد من خلال النيران مسار القارب الذى أتى من البحر وحيدًا فى الشتاء، وواصل مسيره فى البحار الوحيدة، ثم اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تقل شيئًا.

رجع فيتش إلى المنزل فى اليوم التالى، واستأذن وجهاء القوم فى إيسماى فى الذهاب مع صديقه، ورغم أنهم عارضوا تمامًا ذهابه إلى البحر فى منتصف الشتاء فى رحلة مميتة ليست حتى رحلته، ورغم أنهم وبخوه، إلا أنهم لم يستطيعوا منعه فى النهاية؛ لأنه بعد أن استمع لهم ضجر من توبيخ العجائز، وقال: "أنا ملككم، بالنسب والعُرف وبواجبى نحوكم، وأنا

ساحركم. لكن حان الوقت لأن تتذكروا أنه رغم أننى خادم إلا أننى لست خادمكم. حين أتمكن من العودة سأعود، الوداع.“

عند الفجر، حين ارتفع الضوء الرمادى من جهة الشرق، أبحر الرجلان فى قارب (العين المفتوحة) من ميناء إيسماى، ورفعا شراعًا بُنيًّا قويًّا. على رصيف الميناء وقفت يارو تشاهدهما، مثلما تفعل زوجات البحارة وأخواتهم على كل سواحل إيرثسى، يرقبن رجالهن فى خروجهم للبحر دون أن يلوحن بأيديهن، أو ينادين عليهم، فقط يقفن هادئات فى عباءات بُنية أو رمادية، هناك على الشواطئ التى تظل تتضاءل وتتضاءل من القارب، بينما المياه بينهما تزيد وتكبر.



(١٠) البحر المفتوح

غاص المرفأ الآن بعيدًا عن النظر، بينما نظرت ا
على قارب (العين المفتوحة) أمامها على بحار تزداد اتس
الرفيقان المسافة ما بين إيفيش وسودرز، مائة ميل في
والرياح العكسية. بقيا فى الميناء وقتًا قصيرًا لملء قربة
قماش مكسوّ بالقار للشراع لحماية أدواتهم من ماء البحر
يهتما بهذا من قبلُ؛ لأن الساحر عادة ما يترك مثل تلك الـ
لأسهل وأتفه للتعاويذ، سحر بسيط ذلك السحر الذى يـ
وبهذا يوفر عليهما حمل الماء. لكن جِيد كان عازفًا عن
أو أن يدع فيتش يستخدمه. كل ما قاله هو: "من الأفضـ

يسأل صديقه عن السبب، أو يجادله. وعندما ملأت الريح شراعهما شعرا بانقباضة باردة بداخلهما مثل ريح الشتاء. المرفأ، والميناء، والأمان، كل هذا أصبح بالخلف الآن، وهما قد رحلا بعيدًا. بدأ الصديقان طريقًا كل أحداثه خطرة، وكل ما يحدث فيه له دلالة ومعنى. كانا يتجهان الآن نحو مركز التوازن فى طريقهما الذى بدآه، وقد تغير أضعف التعاويذ حظهما، وتقلب توازن القوى والقدر. كانا فى مكان يلتقى فيه النور والظلام، وعلى من يسافر فى مثل هذه الحالة ألا يقول أى كلمة بلا اكتراث.

وبعد أن تحركا ثانية، وبدآ فى الالتفاف حول سواحل سودرز؛ حيث تذوب السهول الجليدية فى التلال الضبابية، توجه جيد بالقارب إلى الجنوب مرة أخرى، ودخلا فى مياه لا يجرؤ على دخولها حتى كبار التجار فى الأرخبيل، على حافة الطرف الأبعد.

لم يسأل فيتش صديقه أى سؤال عن الرحلة، فهو يعلم أن جيد لم يختاره رفيقًا، إنما ذهب هو معه حيث وجب عليه أن يذهب. وحين تضاءلت جزيرة سودرز وراءهما، وحين هسهست الأمواج، وضربت مقدمة القارب، واستدارت المياه الرمادية من حولهما حتى لامست أطراف السماء، سأل جيد صاحبه: "ما الأرض التى تقع أمامنا؟"

"لا توجد أى أرض جنوب سودرز، فى الجنوب الشرقى تبحر طويلا لتجد القليل من الجزر: بيلمير، كورناى، جوسك وآستويل. آستويل تُدعى أيضًا الأرض الأخيرة، وبعدها البحر المفتوح.

"وماذا فى الجنوب الغربى؟"

"رولومينيي وهى أحد جزر الطرف الشرقى، ومن حولها بعض الجُزر الصغيرة: روود وتوم وجزيرة الأذن التى لا يرتادها الناس. ثم لا يوجد شيء حتى ندخل الطرف الجنوبى".

- "قد نفعل."

قال فيتش: "لا أفضل هذا؛ فهى جزء كريه من العالم كما يقال، مليء بالعظام والأعاجيب. يقول البحارة إن هناك نجومًا يمكن رؤيتها من الماء ما بين جزيرة الأذن وفارسورر، لا يمكن رؤيتها من أى مكان آخر، نجوم لم يسميها أحد من قبل."

"نعم، كان هناك هذا الساحر على السفينة التى أحضرتنى إلى روك لأول مرة، وحدثنى عن هذا. وحدثنى أيضًا عن أهل (الطوف) هؤلاء الذين يسكنون الطرف الجنوبى، والذين لا يأتون للأرض سوى مرة واحدة فى العام؛ للحصول على ألواح الخشب لعمل الأطواف، ثم يبحرون بقية أيام السنة وشهورها بين تيارات المحيط بعيدًا عن أى منظر للأرض. أود أن أرى أهل الطوف هؤلاء."

- "وأنا لا أود أن أراهم أبدًا. قربنى من البر والبريين، واترك البحر فى شأنه، وأنا فى شأنى."

قال جيد، وهو يمسك بحبل الشراع، وينظر على كل اللون الرمادى الممتد أمامه: "أتمنى لو أرى كل مدن الأرخبيل: هافنور فى قلب العالم، وإيا حيث تولد الأساطير، وشيليث ذات النوافير، وكل المدن والأراضى العظيمة. والأراضى الصغيرة والأراضى الغريبة والأطراف الخارجية، كل هؤلاء أيضًا. أريد أن أبحر إلى ممر هناك فى الغرب أو إلى الجنوب إلى أطواف

الجليد، ومن بعدها إلى أرض هويجين. البعض يقول إن الأرض هناك أعظم بكثير من الأرخبيل، والبعض يقول إنها مجرد جزر صخرية وشعاب مرجانية، ومن بينهم الجليد. لا أحد يعلم. أود أن أرى الحيتان فى البحار الشمالية. لكننى لا أستطيع. علىَّ أن أذهب حيث يجب أن اذهب، وأعطى ظهرى لكل تلك الشواطئ المشرقة. كنت فى عجلة شديدة من أمرى يومًا، والآن لم يعد لدى أى وقت. قايضت كل الشواطئ المشرقة والمدن والأراضى البعيدة من أجل سطوة القوة، من أجل ظل، شبح، ظلام." وهكذا كساحر من ظهر ساحر، صنع جيد من خوفه وندمه ملحمة غنائية، مرثية قصيرة، نصف موسيقية، أغنية يغنيها الجميع، ورد صديقه عليه بجزء من كلمات البطل فى "مآثر إيريث أكبى"، آه لو أرى بيت الأرض فى المشرق ثانية، وأبراج هافنور البيضاء..."

وهكذا أبحر الصديقان فى طريقهما الضيق عبر البحار المهجورة، كان أكثر ما رآياه فى هذا اليوم سربًا من الأسماك الفضية تسبح إلى الجنوب، لكنهما لم يريا درفيلا واحدًا يقفز، ولا فقمة تطير، ولا طيورًا مائية تخترق المياه الرمادية. وحين أظلم الشرق واحمر الغرب، أحضر فيتش الغذاء وقسمه بينهما، وقال: "هذا آخر الشراب، اشرب نخب من فكر، ووضع الشراب للعطشى فى الجو البارد: لأختى يارو."

عند هذا نفض جيد الأفكار القاتمة من ذهنه، وتوقف عن الحملقة فى البحر، وحيَّى يارو بإجلال كبير، ربما أكبر من فيتش ذاته، فالتفكير فيها جلب إلى عقله عذوبتها وضحكتها الطفولية. لم تكن يارو مثل أى شخص عرفه يومًا. (ومن هن البنات التى عرفهن يومًا؟ لكنه لم يفكر فى هذا) "هى مثل سمكة المينيو الصغيرة، تعوم فى بركة صافية دون دفاع، لكنك لا تستطيع أن تمسك بها."

نظر له فيتش مباشرة، وهو يبتسم، وقال له: "أنت ساحر بالفطرة يا جيد، اسمها الحقيقى هو كيست." وفى اللغة القديمة كيست تعنى المينيو، وجيد يعرف هذا جيدًا، وأسعد هذا قلبه، لكنه قال بعد قليل بصوت منخفض: "لم يكن لك أن تخبرنى باسمها الحقيقى على ما أظن."

لكن فيتش الذى لم يفعل هذا من فراغ قال: "اسمها بأمان معك مثلما هو معى، ومع هذا فقد عرفته وحدك دون أن أخبرك."

غاص الأحمر فى الغرب، وتحول الرمادى إلى أسود، وتحولت السماء والبحر إلى الظلام. تمدد جيد فى قاع القارب لينام، وهو ملتف فى عباءته من الصوف والفراء، أما فيتش فبدا يروى من بطولات إنلاند، وهو ممسك بحبل الشراع، غنى فيما غنى حين ترك الساحر الكبير موريد الأبيض هافنور فى سفينته الطويلة بلا مجاديف، وشاهد إلفاران فى البساتين فى الربيع عندما أتى إلى جزيرة سوليا. نام جيد قبل أن يصل فيتش بأغنيته إلى النهاية الحزينة لحبهما، وقبل موت موريد ودمار إنلاند، وقبل أن تبتلع الموجة الكبيرة المهولة بساتين سوليا. صحا عند منتصف الليل، وأخذ يراقب بينما نام فيتش. أبحر القارب بقوة فى البحر المتلاطم، وهو يهرب من الريح العنيفة التى مالت بشراعها، مبحرًا فى إظلام تام فى الليل. لكن الظلام تبدد، وقبل الفجر كان القمر النحيف يلقى بضوء ضعيف يلمع بين السحب البنية.

"يخبو القمر ليظلم." تمتم فيتش بهذه الكلمات وهو يصحو عند الفجر، حين هبطت الرياح الباردة. نظر جيد على نصف الدائرة البيضاء على المياه الشرقية الباهتة ولم ينطق. يطلقون على أول سواد للقمر يعقب عيد عودة الشمس "الفالوز"، وهو القطب العكسى لأيام القمر والرقصة

الطويلة فى الصيف، أيام نحسات للمسافرين والمرضى، لا يُعطى الأطفال أسماءهم وقت الفالوز، ولا يتغنى أحدهم بملاحم، ولا تُسن السيوف أو الأدوات الحادة، ولا يُقسم فيها أحد. الفالوز هو المركز الأسود للسنة، وهو الوقت الذى تحدث فيه كل الأشياء معكوسة.

خرجا من سودرز فى ثلاثة أيام، وهم يتبعون طيور البحر وآثار الساحل حتى بيليمير، جزيرة صغيرة تتكوم فوق البحر الرمادى. يتحدث أهلها الهاردية، لكن على طريقتهم هم تصبح غريبة حتى على فيتش ذاته. نزل الشابان عليها للماء العذب واستراحة من البحر، فى البداية رحب أهل الجزيرة بهما فى تعجب وفرحة، وكان هناك مشعوذ مجنون لم يتوقف عن الكلام عن الثعبان الكبير الذى يلتهم قواعد الجزيرة ويفككها، وسيتركها تطفو مثل قارب منحل، وتنجرف إلى حافة العالم. فى البداية حيَّاهما بكياسة، لكنه حين نظر إلى جيد أطال النظر، وأخذ يصيح ويتبعهما فى الشوارع، وهو ينعتهما بأنهما خُدام ثعبان البحر وجواسيس. ومن بعدها أخذ الناس فى بيليمير ينظرون لهما بشك وريبة رغم علمهم بأن المشعوذ مجنون، ولهذا لم يبق فيتش وجيد كثيرًا على الجزيرة، بل عاودا رحلتهما مرة أخرى قبل الليل، متجهين دومًا جهة الجنوب والشرق.

فى تلك الليالى من الإبحار لم يتكلم جيد عن الشبح أبدًا، ولا عن طريقه فى البحث عنه، ولا فيتش، فقط كان يتساءل (كلما تبعوا المسار نفسه أبعد وأبعد عن الأراضى المعروفة لإيرثسى): "هل أنت متأكد." وردًا على هذا السؤال كان جيد دائمًا ما يقول: "هل يُسأل الحديد أين يقع المغناطيس؟" ويومئ فيتش برأسه ويمضيان، ولا يزيد أحدهما عن هذا. لكن من وقت لآخر كانا يناقشان طرق وحيل السحرة الكبار القدامى لمعرفة أسماء القوى والموجودات: كيف أن نيرجير من بالن تعلم اسم الساحر الأسود من

محادثة سمعها بالصدفة بين تنينين، وكيف أن موريد رأى اسم عدوه على تراب سهول معركة إنلاند مكتوبًا بحبات المطر. تكلما عن تعاويذ الإيجاد، و"الأسئلة المجابة" التى لا يستطيع غير الأستاذ صاحب الأنساق أن يسألها فى روك، لكن غالبًا ما كان جيد ينهى الحوار بأن يتمتم الكلمات التى قالها له أوجيون منذ زمن بعيد: "لتسمع عليك أن تصمت." ثم يصمت ويتأمل ساعة بعد ساعة، وهو ينظر على البحر فى مقدمة المركب. خُيِّل لفيتش وقتها أن صديقه ينظر من خلال الموج والمسافات، والأيام الرمادية القادمة على ذلك الشىء الذى يتبعانه، والنهاية القاتمة لرحلتهما.

عبرا بين كورناى وجوسك فى جو سيئ، فلم يريا الجزيرة فى الضباب والمطر، ولم يعرفا أنهما قد عبراها بالفعل، إلا فى اليوم التالى حين رأيا أمامهما جزيرة ذات أحجار مقببة، تدور فوقها نوارس البحر فى أسراب ضخمة يُسمع صوتها من بعيد. هذه ستكون آستويل، الأرض الأخيرة، جنوبها وشرقها كل الخرائط خالية."

أجاب جيد: "ومع هذا فمن يعيشون هنا قد يعرفون أراضى أخرى."

"لماذا تقول هذا؟" سأله فيتش؛ لأن جيد لم يكن مرتاحًا وهو يتكلم. لكن إجابة جيد على هذا كانت مفاجئة وغريبة فى طريقتها، فقد قال: "ليس هناك، ليس فوق البحر، بل على اليابسة، أى يابسة؟ بعد جداول البحر المفتوح، بعد الينابيع، خلف بوابات ضوء النهار."

ثم رجع إلى صمته، وعندما تكلم ثانية كان صوته عاديًا، كما لو كان قد تحرر من تعويذة أو رؤية ولا يتذكرها.

كان ميناء آستويل بين مرتفعين، على الشاطئ الشمالى من الجزيرة، وكل أكواخ المدينة تواجه الشمال والغرب. كما لو كانت الجزيرة توجه وجهها بالرغم من بُعدها الشديد تجاه إيرثسى، تجاه الإنسانية.

أحيط وصول الغرباء فى موسم لا تبحر فيه سفينة حول آستويل بالإثارة والخوف، قبعت كل النساء فى الأكواخ الخوص يحملقن فى العتبات، ويخبئن أولادهن خلف ملابسهن وهن ينزوين فى ظلام الأكواخ؛ خوفًا من غرباء البحر. بينما تجمع الرجال فى ملابس مهلهلة فى دائرة محكمة حول جيد وفيتش، وهم يحملون فئوسًا أو سكاكين من الصدف، رجال ضعاف البنية. لكن بمجرد أن زال خوفهم رحبوا بالضيفين ترحيبًا كبيرًا، ولم تنته أسئلتهم. نادرًا ما تأتيهم أى سفينة، ولا حتى من سودرز أو رولومنى، فلا شىء هناك ليتاجروا فيه مقابل البرونز والأدوات الفخمة. لا يوجد لديهم حتى الخشب. قورابهم زوارق صغيرة من الخيزران المجدول. البحار الشجاع فقط هو من يجرؤ على الإبحار بعيدًا حتى جوسك أو كورناى فى قارب مثل هذا، عاشوا فى عزلة هناك على أطراف كل الخرائط، لم يكن لديهم أى ساحر أو مشعوذ، ولم يتعرفا على الساحرين ولا عصيّهما، بل اقتصر إعجابهم فقط على الخشب الجيد. رئيسهم - أو رجل الجزيرة الأول كما يدعونه - رجل عجوز جدًا، وهو وحده من كل الناس الذى رأى أى إنسان من الأرخبيل. ولهذا كان شكل جيد ولونه أعجوبة بالنسبة لهم، فأحضروا صغارهم لرؤية الأرخبيلى حتى يتذكروه حين يكبرون. لم يسمعوا بجونت قط، بل هافنور وإيا، ولهذا اعتبروه سيدًا من هافنور، فحاول بقدر الإمكان أن يجيب عن أسئلتهم عن المدينة البيضاء التى لم يرَها ابدًا. لكن عند قدوم الليل زاد قلق جيد، فسأل الرجال أخيرًا وهم يجلسون حول المدفأة فى النزل؛ حيث أحاطهم الدفء، ورائحة روث الجديان، وحزم النباتات التى لا يملكون غيرها للتدفئة: "ماذا بعد الشرق من جزيرتكم؟"

صمتوا، بعضهم مبتسم، والبعض عابس.

قال الرجل العجوز: "البحر، لا توجد أرض بعد ذلك."

"هنا آخر الأرض؟ لا توجد أرض بعد هذا. لا يوجد سوى الماء حتى حافة العالم."

– "إنهما من الحكماء يا أبى، رحالة، بحارة، ولربما يعرفان ما لا نعرفه عن أرض لا نعرفها."

– "لا توجد أى أرض شرق هذه الأرض." قال هذا، ونظر إلى جيد طويلًا، ولم يتحدث إليه ثانية.

نام الرفيقان فى دفء المكان الخانق، وقبل ضوء الفجر أيقظ جيد صديقه هامسًا: "إيستاريول استيقظ، لا نستطيع أن ننتظر، هيا لنذهب."

– قال فيتش وهو يغالب النعاس: "لماذا مبكرًا هكذا؟"

– "لسنا مبكرين بل متأخرين، لقد تبعت الشبح ببطء شديد، ويبدو أنه هرب منى، وسيكتب نهايتى، لا يجب أن يهرب منى، على أن أتبعه أينما ذهب، لو ضيعته سأضيع."

– "أين ستتبعه؟"

– "إلى الشرق، تعال، ملأتُ قِرَب الماء."

وهكذا تركا الكوخ قبل أن يستيقظ أى من أهل القرية، سوى رضيع بكى قليلًا فى الظلام، ثم سكت. وعلى ضوء النجم الخافت وجدا طريقهما للمركب، فكاها من الحجارة حيث قيداها من قبل، ودفعا بها إلى المياه

السوداء. أبحرا من آستويل إلى البحر المفتوح فى أول يوم من أيام الفالوز النحسات قبل طلوع الشمس.

كانت سماؤهما صافية، ورياح العالم باردة وممطرة من الشمال الشرقى، لكن جيد رفع ريح السحر، وكان هذا أول فعل سحرى يقوم به منذ أن ترك جزيرة اليدين فى هذه الرحلة. جرى القارب سريعًا باتجاه الشرق، ارتعش القارب تحت الأمواج الكبيرة المشمسة التى ضربته بقوة، وأخرجت منه الرذاذ مثل الدخان، لكنه أبحر بالقارب بشجاعة كما وعده صاحبه. أما القارب فكان يتجاوب مع ريح السحر، كأى سفينة مسحورة فى روك.

لم ينطق جيد طوال الصباح سوى ليجدد تعويذة الريح، أو ليبقى القوة المسحورة فى الشراع، وأتم فيتش نومه المضطرب فى قاع المركب، وعند الظهر أكلا. وزّع جيد الغذاء بحرص وتقتير، مضغ كل منهما السمك المجفف، وأكلا كيك الذرة، ولم ينطقا.

وعند العصر كان المركب لا يزال يشق عباب البحر تجاه الشرق، لا يستدير ولا يبطئ، وأخيرًا كسر جيد صمته، وسأل: "هل أنت مع الذين يؤمنون بأنه لا يوجد سوى بحار بلا شطآن بعد الأطراف الخارجية، أم مع الذين يتخيلون أرخبيلات أخرى، وأراضى واسعة غير مكتشفة على الوجه الآخر للعالم؟"

"فى هذه اللحظة أنا أؤمن بأن للعالم وجهًا واحدًا، وأن مَن يبحر أبعد من اللازم سيقع من حافته."

لم يضحك جيد، فقد ذهب منه كل المرح، ولكنه قال: "من يعرف ما الذى قد يصادفه المرء هناك؟ ليس لنا أن نعرف، ونحن الذين نمشى بمحاذاة شواطئنا وسواحلنا."

– "سعى البعض لأن يعرف، ولم يعد أبدًا، ولم تأتِ لنا أى سفينة من أراضٍ لا نعرفها."

لم يرد جيد.

طوال هذا اليوم والليلة انطلقا مدفوعين بقوة ريح السحر، فوق أمواج المحيط العالية تجاه الشرق. راقب جيد من الشفق حتى الفجر؛ لأن فى الليل تزداد القوة التى تجذبه أو تبعده. كان دائمًا ما ينظر للأمام، رغم أن عينيه فى قلب الظلام لم تريا أبعد من العينين المرسومتين على مقدمة المركب. عند الفجر كان وجهه شاحبًا من التعب، وجسمه متيبسًا من البرد؛ لدرجة أنه استحال عليه أن يفرده، فهمس لصديقه: "حافظ على ريح السحر من الغرب يا إستاريول." ثم نام.

لم يكن هناك شروق للشمس، فقد بدأ المطر يضرب من الشمال الشرقى بسرعة، لم تكن تلك عاصفة، فقط كان المطر الطويل البارد للشتاء، وبسرعة كان المركب يغرق فى الماء برغم القماش الواقى للشراعِ الذى اشترياه، غرق فيتش فى الماء حتى العظم، ووجد جيد يرتعش فى نومه. وشفقةً على صديقه حاول فيتش أن ينأى بالقارب بعيدًا عن تلك الرياح الجالبة للمطر ولو قليلًا، لكن قدرته على تحريك الطقس لم تكن فعالة، وهو بعيد كل هذا البعد عن الأرض، ولم تسمعه ريح البحر المفتوح، رغم أنه أبقى على ريح السحر قوية استجابة لإرادة جيد.

اعترى الخوف فيتش، وتساءل عن قوة السحر الباقية فيه هو وجيد، وهما على هذا البعد من الأرض المأهولة.

راقب جيد البحر طوال الليل والقارب يتجه شرقًا، عند بدء اليوم ارتخت ريح العالم نوعًا ما، وأشرقت الشمس بقوة، لكن الأمواج المنتفخة أضحت عالية لدرجة أن "العين المفتوحة" كان عليها أن تنحدر، وتتسلق الأمواج كما لو كانت جبالًا، وتتوقف عند قمة الموجة، ثم تغوص فجأةً، ثم تتسلق ثانية الموجة القادمة، وهكذا بلا نهاية.

عند مساء هذا اليوم تكلم فيتش أخيرا قاطعًا الصمت: "صديقى، حين تحدثنا كنت واثقًا بأننا سنصل إلى أرض فى النهاية، لن أشكك فى رؤيتك، لكن أيكون كل هذا خدعة من صنع الظل الشبحى الذى تتبعه ليغويك أبعد وأبعد فى قلب المحيط؛ حيث لا يصل إنسان؟ فقوتنا قد تتغير وتضعف فوق البحار الغريبة، بينما الشبح لا يتعب ولا يجوع ولا يغرق."

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب على مقعد التجديف، إلا أن جيد نظر إليه الآن كما لو كان من مسافة بعيدة، وعبر بئر عميق، وقال أخيرًا: "نحن نقترب، إستاريول."

وعند سماع كلماته هذه عرف فيتش أنها كلمات حق، ورغم خوفه إلا أنه وضع يده فوق كتف جيد وقال: "حسنًا، حسنًا."

راقب جيد فى هذه الليلة أيضًا؛ فقد عجز عن النوم فى الظلام، ولا حين أشرقت شمس اليوم الثالث، وهما ينطلقان بالسرعة الثابتة الرهيبة نفسها فوق الماء، وفيتش يتعجب لقدرة جيد على الحفاظ على مثل تلك الريح القوية للسحر فى البحر المفتوح، بينما هو يشعر بقوته تخذله وتضعف وتتشتت. وظلا ينطلقان وينطلقان، حتى بدا لفيتش أنهما سيبحران بعد ينابيع البحر، وشرقًا بعد بوابات النهار، كما قال جيد.

بقى جيد فى المركب، وهو ينظر للأمام كالعادة، لكنه لم يكن ينظر على المحيط الآن، ربما ليس على المحيط نفسه الذى ينظر عليه فيتش. المياه المتصاعدة كانت تجاور حد السماء، وحيث نظر جيد كان هناك حجاب يتداخل ويحجب البحر والسماء الرماديين، والظلام يزيد والحجاب يتكاثف. لم يكن أى من هذا واضحًا لفيتش، إلا عندما نظر لوجه صاحبه، وحينها رأى الظلام فى عينيه للحظة. انطلقا، وانطلقا. ورغم أنهما فى ريح واحدة، إلا أن الأمر بدا كما لو كان فيتش يذهب باتجاه الشرق فى بحر العالم، وجيد يذهب وحده فى عالم آخر؛ حيث لا شرق ولا غرب، لا شمس تطلع ولا تغرب، ولا نجوم تضىء.

وقف جيد فجأة فى مقدمة القارب، وصاح عاليًا، فارتخت ريح السحر، وانتهى تقدم السفينة، وظلت تعلو وتهبط على الأمواج مثل قطعة من الخشب. ورغم أن ريح العالم هبت قوية كالعادة من جهة الشمال، إلا أن الشراع البنى كان مرتخيًا وساكنًا، وهكذا عَلِقَ المركب فوق الأمواج، تحركه بقوتها الكبيرة، دون أن يتجه إلى أى مكان.

قال جيد: "أنزل الشراع." ونفذ فيتش على الفور، بينما جيد يفك المجاديف، ويضعها فى أقفالها، ويبدأ التجديف منحنيًا.

لم يفهم فيتش الذى لم ير سوى الأمواج اللاهثة لماذا يجدفان الآن، لكنه انتظر، وسريعًا ما شعر أن ريح العالم تخفت وتخفت، وأن الأمواج تتلاشى، وأن صعود وهبوط القارب يقل ويقل، حتى بدا فى النهاية أنه تحت تجديف جيد يسكن تمامًا، كما لو كان فى خليج تقفله الأرض من كل ناحية. لم ير فيتش ما رآه جيد، رغم أنه حاول بصعوبة تبين ما أمامهما من بين ضربات المجداف، ورغم أنه لم ير المنحدرات الكبيرة تحت النجوم الثابتة، إلا أنه بدأ

يرى بعين الساحر ظلامًا يرتفع فى تجاويف الموجات حول القارب فى كل اتجاه، ورأى الموج المتلاطم ينخفض ويسكن، كما لو كانا قد انحبسا وسط الرمال.

لو كان هذا سحر إيهام فقد كان قويًّا للغاية، قوة فوق العقل، حولت البحر المفتوح إلى يابسة. وفى محاولة استجماع شجاعته تمتم فيتش بتعويذة الكشف، وهو يرقب ما بين الكلمة والكلمة، بحثًا عن أى تغيير أو اهتزاز فيما أمامه فى جفاف المحيط وضحالته. لكن لم يتغير شىء. ربما لا تعمل التعويذة هنا، وربما لا يوجد إيهام، وقد وصلا لنهاية العالم.

ودون أن يلتفت أبطأ جيد فى التجديف، وهو ينظر خلف كتفه دائمًا، ويختار طريقه بين المياه الضحلة، والقنوات التى كان يراها وحده. اهتزت المركب بينما رافدتها تنسحب. وتحت الرافدة كان هناك عمق المحيط، رغم أنهما جنحا لليابسة بالفعل. رفع جيد المجاديف، وهى تتخبط فى أقفالها بصوت عالٍ؛ لأن المكان خلا من أى صوت آخر. اختفت كل أصوات المياه والريح والخشب والشراع فى صمت رهيب أبدىٍّ، وبقى المركب دون حركة، لا يوجد حتى صوت الهواء. تحول المحيط إلى رمال ظلالية لا يطؤها أحد، لا يتحرك شىء فى السماء القاتمة، ولا على الأرض الجافة الوهمية، التى امتدت وامتدت فى ظلام متكاثر حول القارب.

وقف جيد، وأخذ عصاه، ونزل بخفة من القارب، ظن فيتش أنه سيقع من القارب ويغوص فى البحر، البحر الذى حتمًا يوجد خلف ذلك الحجاب الرفيع المعتم، الذى يخبئ الماء تحته. لكن لم يكن هناك أى بحر، مشى جيد من القارب، وكانت آثار أقدامه تظهر على الرمال السوداء؛ حيث يذهب وتهمس قليلًا تحت خطوته.

بدأت عصاه تلمع، ليس بضوء الويرلايت، وإنما ببريق أبيض لامع، أخذ يزداد لمعانًا حتى احمرت أصابعه.

مشى حثيثًا بعيدًا عن القارب لكن دونما اتجاه، لم يكن هناك أية اتجاهات، لا شمال ولا جنوب، لا شرق ولا غرب، فقط كان هناك ما هو حوله وما هو بعده.

بالنسبة لفيتش، الذى كان يراقب، بدا الضوء له وكأنه نجم بطىء، يتحرك عبر الظلام الذى يزيد من حوله، ويتكاثف، وينضم على بعضه البعض. وهذا أيضًا ما رآه جيد، وهو ينظر دائمًا إلى الأمام من خلال الضوء. وبعد قليل رأى الشبح عند الطرف الخارجى للضوء، كان الشبح قادمًا تجاهه فوق الرمال.

ظهر هذا الظل الشبحى بلا شكل فى البداية، ثم بدأ يتخذ أشكالاً كلما اقترب: رجل، رجل عجوز على ما يبدو، أشيب وعبوس، ورغم أن جيد رأى فى الشبح أبيه الحداد، إلا أنه لم يكن رجلًا عجوزًا بل شابًا. كان جاسبر، وجه جاسبر الوسيم المتغطرس، بعباءته المطرزة بالفضة، ومشيته الرشيقة، وبنظره كراهية ثبتها على جيد فى قلب الهواء المظلم بينهما. لم يتوقف جيد، بل هدأ من خطوته، ورفع عصاه أعلى، وهو يتقدم للأمام، فلمعت، وعلى ضوئها سقطت صورة جاسبر من الشبح المقترب، وأصبح بيتشفيرى. لكن وجه بيتشفيرى كان منتفخًا وشاحبًا، وكأنه وجه رجل يغرق، وكان يمد يديه وكأنه يدعوه. لم يتوقف جيد، بل تقدم، رغم أن الباقى بينهما الآن كان بضع ياردات. فجأة تغير الشىء الذى يواجهه تمامًا، وتمدد من الناحيتين كما لو فتح جناحين عظيمين رقيقين، ذبلا وانتفخا، وانكمشا مرة أخرى. رأى جيد للحظة وجه سيكوره الأبيض، ثم عينين معتمتين محدقتين، وفجأة

وجهًا مخيفًا لم يعرف هل هو لرجل أم لوحش، بشفتين غائضتين، وعينين مثل حفر من الفراغ الأسود.

عند رؤية هذا رفع جيد عصاه عاليًا، واشتعل بريقها بقوة، وبياضها يحترق بضوء يسوى كل ذلك الظلام الأزلى ويمسحه. فى ذلك الضوء اختفى الشكل الإنسانى من الظل. تجمع مع بعضه البعض، وانكمش واسود، وزحف على أربعة أطراف مخلبية على الرمال، واستمر فى التقدم، وهو يرفع ما يشبه الخرطوم دون شفاهِ أو آذان أو عيون. وحين تواجهَا ظهر الشيء حالك السواد فى ضوء العصا البراق، ورفع نفسه عاليًا. فى صمت تقابل الإنسان والظل وجهًا لوجه.

عاليا واضحًا، نطق جيد باسم الظل، وفى اللحظة نفسها نطق الظل باسمه دون شفاه أو لسان. كلاهما نطق الاسم نفسه: "جيد." كان الصوتان صوتًا واحدًا.

عد جيد يديه، وأمسك بالظل، بتلك النفس السوداء التى مدت نفسها إليه. تلاقى الضوء والظلام، واتحدا.

أما بالنسبة لفيتش الواقف يراقب كل هذا فى وقت الغسق المعتم من بعيد فوق الرمال، بدا له أن جيد قد هُزم؛ لأنه رأى الضوء البراق يخفت. ملأه الغضب واليأس، وقفز على الرمال لمساعدة صديقه، أو للموت معه، وجرى باتجاه ذلك الضوء المتلاشى للغسق الخالى. لكن حين جرى غاصت الرمال تحت قدميه، وجاهد معها وكأنه فى بحر من الرمال، أو فى تيار قوى من الماء، حتى استعاد العالم نفسه بصوت من الرعد، ومعجزة الصباح، ومذاق الملح، وتخبط فيتش فى البحر المفاجئ الحقيقى والحى.

وعلى مقربة كان القارب يهتز على الأمواج الرمادية، فارغًا. لم يرَ فيتش أى شيء آخر على المياه، ملأت الأمواج المتلاطمة عينيه وأعمته. ولأنه لم يكن سباحًا قويًّا جاهد حتى وصل إلى القارب ورفع نفسه، وأخذ يسعل ويمسح عينيه من الماء الذى تساقط من شعره، نظر حوله يائسًا دون أن يعرف أين ينظر، ثم لمح أخيرًا شيئًا ما قاتمًا بين الأمواج، بعيدًا فى نفس المنطقة التى كانت أرضًا منذ قليل، وأضحى الآن بحرًا هائجًا. قفز إلى المجداف، وأسرع لنجدة صديقه، وأمسك به، وجذبه إلى القارب.

كان جيد مغشيًا عليه، عيناه تحدقان، ولا يرى شيئًا، لكنه لم يكن مجروحًا فى أى مكان. عصاه الخشبية انطفأ نورها، يقبض عليها بيده اليمنى ولم يكن ليتركها. لم ينطق بكلمة، كان مبتلاً، وخائر القوى يرتعش، ربض قبالة الصارى دون أن ينظر إلى فيتش الذى رفع الشراع، وعدل القارب ليمسك بالرياح الشرقية الشمالية. لم ير شيئًا من الدنيا حوله سوى قمر جديد يلمع فى السماء فى المكان نفسه، الذى غربت فيه الشمس بين السحب الطويلة مثل خاتم من العاج، رأى ضوء الشمس منعكسًا عبر محيط الظلام.

رفع جيد رأسه، وحملق فى الهلال اللامع البعيد فى الغرب.

حملق لفترة طويلة، ثم وقف منتصبًا، وهو يمسك العصا بيديه الاثنين، كمحارب يمسك بسيفه الطويل. نظر حوله فى السماء والبحر والشراع البنى المنتفخ ووجه صديقه.

"إيستاريول، انظر، انتهى كل شيء، انتهى." قال هذا ثم ضحك، "انقفل الجرح، أنا مكتمل، أنا حر." ثم انحنى، وأخفى وجهه فى ذراعيه، وبكى مثل الأطفال.

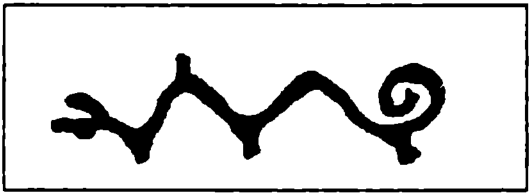
حتى هذه اللحظة كان فيتش يرقبه بخوف وحذر؛ لأنه لم يكن متأكدًا مما حدث هناك فى الأرض المظلمة، لم يكن يعرف إن كان الذى معه فى القارب جيد فعلًا أم لا. ظل مستعدًا لفترة طويلة لأن يرمى الهلب ويُغرِق القارب فى قلب المحيط؛ خوفًا من أن يرجع بها إلى موانئ إيرثسى، وبالشر الذى ظن أنه تقمص جيد قلبًا وقالبًا. لكن عندما رأى صديقه وسمعه تبدد خوفه، وبدأ يرى الحقيقة، فهم أن جيد لم يُهزم، كما أنه لم يفز، فهم أنه حين نادى على ظل موته باسمه قد اكتمل، أضحى رجلًا، رجلًا يعرف نفسه الحقيقية المكتملة، ولهذا لا يستغله أحد، ولا تمتلكه قوة خارج نفسه، وسيعيش حياته من أجل الحياة، وليس فى خدمة الدمار، أو الألم أو الظلام. فى "خلق إيا" وهى أقدم اغنية، يقال: "فقط فى الصمت تكون الكلمة، فقط فى الظلمة يكون النور، فقط فى الموت تكون الحياة، براق هو طيران الصقر فى السماء الخالية."

أبحرا ثمانية أيام، وثمانية أخرى قبل أن يصلا إلى أى أرض. كثيرًا ما اضطرا إلى ملء قرب الماء من ماء البحر المحلى بالتعاويذ، وكثيرًا ما اصطادا، لكن حين استخدما تعاويذ الصيادين كان صيدهما قليلًا؛ لأن سمك البحر المفتوح كان جاهلًا بأسمائه الحقيقية، ولا يكترث بالسحر. وعندما لم يتبق لديهما سوى فتات من اللحم المدخن، تذكر جيد ما قالته يارو حين سرق فطيرة القمح من على المدفأة، وقالت له إنه سيندم يومها على هذه السرقة حين يتضور جوعًا فى قلب البحر. ورغم أنه كان جائعًا إلا أن ذكرى يارو أسعدته، فقد وثقت دائمًا أنهما عائدان ثانية.

حملتهما ريح السحر ثلاثة أيام فقط باتجاه الشرق، لكنهما أبحرا غربًا ستة عشر يومًا. لم يعد أى إنسان من مثل تلك الرحلة البعيدة فى البحر المفتوح، مثلما فعل الساحران الشابان إيستاريول وجيد فى أيام الفالوز

البور النحسات من الشتاء فى قارب صيد مفتوح. لم تواجههما عواصف شديدة، وأبحرا بثبات بالبوصلة وبنجمهما: تولبجرين، وهم يتخذان مسارًا باتجاه شمال طريقهما المفروض، ولهذا لم يعودا إلى آستويل، بل مرا بفارتولى وسنيج دون أن يرياها، هى أول جزر رُفعت من الرأس الجنوبى من كوبيش. رأيا عبر الأمواج مرتفعات من الحجارة مثل القلاع الكبيرة، ومن فوقها تحلق طيور البحر على الأمواج المتكسرة، ودخان المداخن فى القرى الصغيرة ينساب بلونه الأزرق فى قلب الريح.

لم تكن الرحلة إلى إيفيش من هناك طويلة، وصلا إلى ميناء إيسماى فى ليلة هادئة مظلمة. ربطا العين المفتوحة، ذلك المركب الذى حملهما إلى سواحل مملكة الموت، مشيا عبر الشوارع الضيقة إلى بيت الساحر. أشرق قلباهما حين دخلا البيت للدفء والنور؛ ليجدا يارو تجرى لاستقبالهما وفى عينيها دموع الفرحة.



ختام

إذا ما كان إيستاريول من إيفيش قد حافظ على وعده، وألَّف ملحمة غنائية عن أول بطولات جيد، فقد ضاعت هذه الأغنية. لكن توجد حكاية فى الطرف الشرقى عن قارب جنح لليابسة أيامًا، بعيدًا عن أى شاطئ فى قلب عمق المحيط. فى إيفيش يقولون إنه إيستاريول الذى أبحر فى هذا القارب. فى توك يقولون إن رجلين فى قارب واجها عاصفة فوق البحر المفتوح، وفى هولب يتحدثون عن بحار هولبى، ويقولون إن قاربه لم يستطع الخروج من الرمال الخفية، وإنه لا يزال هائمًا هناك. من ملحمة الظل لم يبقَ سوى بقايا أسطورة يحملها البحر من جزيرة إلى جزيرة مثل طرح البحر. لكن فى بطولات جيد لا يُذكر أى شىء عن تلك الرحلة، ولا عن لقاء جيد مع ظله، قبل أن يبحر فى ممر ، ولا قبل أن يعيد خاتم إيريث آكبى من مقابر آتوان إلى هافنور، ولا قبل أن يعود إلى روك أخيرًا كساحر أكبر على كل جزر العالم.

المؤلفة في سطور:

أورسولا ك لوجوين

من قبل ضجة «هارى بوتر» الخيالية وترجماتها التجارية بثلاث عقود على الأقل، كتبت سيدة أمريكية بسيطة من أوريجون في شبابها رواية «ساحر من إيرثسى» فى الوقت الذي يذهب فيه أولادها الثلاثة إلى المدرسة وبعد أ يناموا. هذه الرواية العذبة تتناول حياة ساحر شاب وكيف يتعلم، عن حياته وموهبته ومسئوليته تجاه موهبته وتجاه العالم من خلال مدرسة السحرة على جزيرة روك، إنها كاتبة الخيال العلمى والفنتازيا وأدب الأطفال الأمريكية المعاصرة أورسولا ك لوجوين (Guin Ursula k. Le) مع بقية أعمالها من خيال علمى وأدب أطفال، شكلت هذه الثلاثية (التى تحولت إلى ثلاثيتين أو سداسية فيما بعد والبقةي تأتى) شكلت وجدان الكثير من الأمريكان والأوروبيين فى الستينيات السبعينيات، وساهمت هى وغيرها من كاتبات الخيال العلمى وفانتازيا فى تعميق موضوعات هذه الأنماط الأدبية الحديثة واستخدامها للتعبير عن الكثير من الموضوعات النسوية التى كانت تبحث عن عوالم جديدة لأسئلتها المعقدة .

أوروسولا ك . لو جوين .. الآن فى أوائل عقدها التاسع . لا تزال تنتج الأدب بأنماطه بغزارة. تقول إن شخصيات أعمالها تأتى لها، تطلب منها أن تقص حكايتها أو تراها كصورة بعيدة فى فضاء رحب وتجد نفسها مدفوعة لأن تمشى ناحيتها وتسمع قصتها .

جدَّة الخيال العلمى والفانتازيا كما يطلقون عليها لم تتوقف عن تلقى فانتازيا التقدير والجوائز منذ بداية تاريخها الأدبى فى أوائل الستينيات وكل عام ونوبل دائما ما تراوغها وربما لن تراها قط لأن ولائها الأعظم لإنسانيتها الحقيقية التى ترتفع فوق السياسة والحدود والجنسيات منذ بداية حرفتها

وهى ضد الإمبريالية الاستعمارية الأمريكية والغربية بكل صورها . تسقطها كواقع سياسى فى أعمالها للخيال العلمى التى تدور فى مجرة (هينيش) بكل كواكبها وأشكال الإنسانية المختلفة جدا والمتشابهة جدا التى تطرحها . منذ حرب فيتنام التى كتبت عنها (كلمة سر العالم هى الغابة) نسبة إلى عمليات إزالة الغابات التى كان يقوم بها الأمريكان هناك حتى حرب العراق الأخيرة والتى أسست بعدها حركة «شعراء ضد الحرب» وخرجت في مظاهرات وكانت تضع على شباكها يوميا رقما يتغير بعدد القتلى يراه القادم من آخر الشارع الذي تسكن به حتى ثورة ٢٥ يناير فى مصر التى كانت تضع علمها فى نافذتها .

تلك السيدة واسعة النفس هى ابنة العالم الأنثروبولوجى الشهير آرثر كروبيرو الذى كان من أهم من درسوا طبيعة الهنود الحمر، تقول إن أحدهم كان صديقا لوالدها يزورهم في البيت ويحكى لها الحكايات والأساطير تعلمت بين جدران بيتها أن تحترم نظرة الآخر للحياة وأن تجد فيها صلاحية لا تختلف عن نظرة الذات وتعلمت أن القصة سحر وأن الغريب ليس أبدا هو القادم من كوكب آخر وإنما هو الذات نفسها، وعجزنا عن رؤيتها بشكل حقيقي .

حصلت لوجوين على العديد من الجوائز بشكل عام جائزتين عن « ساحر إيرثسى» هما :

1968 Boston Globe-Horn Book award for A Wizard of Earthseea

1979 Lewis Carroll shelf Award for A Wizard of Earthsea

وجوائز أخرى عن أجزاء من السداسية هى :

2002 Locus Readers Awards : Tales from Earthsea. "The Bones of the Eart"

2003 Endeavor Award : Tales from Earthsea

ولكن هذه الكاتبة الحقيقية تعلمت أنه رغم أن الجوائز هامة لكنها ليست أهم من ولاء الفنان لما يؤمن به .

المترجمة فى سطور

منى النمورى

مدرس الأدب الإنجليزى والأدب المقارن بكلية الآداب جامعة طنطا، هى أيضا مترجمة وكاتبة إبداعية. كانت أول من عمل فى رسالة الدكتوراه على أدب الكاتبة «أوروسولا ك. «لوجوين» للخيال العلمى فى الشرق الأوسط وأول من ترجمها إلى العربية فى قصة «الراحلون عن أوميلاز» التى نشرت فى أخبار الأدب فى أغسطس ٢٠١١. تترجم أيضا إلى الإنجليزية، ولها العديد من الأعمال المترجمة والأبحاث النقدية المنشورة. حين قررت ترجمة عمل مطول للكاتبة الأمريكية لوجوين اختارت رواية (ساحر من إيرثسى) لأنها تعتقد أنها قلب أعمالها وأجملها؛ ولأنها تؤمن بأن أدب الناشئة لو كان أدبا جيدا فهو رائع لكل الأعمار.

الكاتبة فى سطور:

أورسولا كروبر لي جوين (جدة الخيال العلمى)

- أديبة أمريكية لها العديد من الإبداعات الأدبية في مجال الرواية. مؤلفة روايات خيال علمي، فانتازيا، أدب أطفال، نقد أدبى.
- ولدت في 21 أكتوبر 1929. هي ابنة الكاتبة وعالمة الإنسانيات (ثيودورا كروبر) والأنثروبولوجي (آلفرد كروبر).
- بدأت الكتابة بعمر التاسعة وعرفت بكتابتها الروايات، وقصص الأطفال، والقصص القصيرة، إضافة إلى كتابتها للشعر والمقالات.
- أول أعمالها المنشورة كان في سنة 1960، وتدور مؤلفاتها غالبا في أزمان مستقبلية أو عوالم وهمية، وتناقش السياسة، والطبيعة، والجنس، والدين، والإثنوغرافيا، وقضايا المرأة.
- فازت بالعديد من الجوائز أبرزها هوغو، ولوكس، وبولتيزر، وبجائزتين عن رواية " ساحر من إيرثسى"، هما:

- Boston Globe-Horn Book award for A Wizard of Earthsea, 1968
- Lewis Carrol Shelf Award for A Wizard of Earthsea, 1979

وجوائز أخرى عن أجزاء أخرى من السداسية هى:

- Locus Readers Awards: Tales from Earthsea, “The Bones of the Earth”, 2002.
- Locus Readers Awards: Tales from Earthsea, “The Finder”.
- Endeavor Award: Tales from Earthsea.

من أهم أعمالها:

1. The Tombs of Atuan, 1971
2. The Farthest Shore, 1972
3. Tehanu: The Last Book of Earthsea, 1990
4. Tales from Earthsea, 2001
5. The Other Wind, 2001
6. Hainish science fiction series
7. Main article: Hainish Cycle
8. Rocannon's World, 1966
9. Planet of Exile, 1966
10. City of Illusions, 1967
11. The Left Hand of Darkness, 1969
12. The Dispossessed, 1974
13. The Word for World is Forest, 1976
14. Four Ways to Forgiveness, 1995
15. The Telling, 2000
16. The Lathe of Heaven, 1971
17. The Wind's Twelve Quarters, 1975
18. Orsinian Tales, 1976
19. The Beginning Place, 1980 1986
20. The Compass Rose, 1982
21. Always Coming Home, 1985
22. Annals of the Western Shore, 2004-20071
23. Lavinia, 2008 (مترجمة للعربية: لينا عبد الرحمن)

التصحيح اللغوى : شريف محمود

الإشـــراف الفنى : حســن كـــامــل

أجمل ما فى كتب لوجوين أنها تتجنب الانتصارات الأخلاقية البسيطة والساذجة مثل انتصار الخير على الشر الذى نلقمه لأطفالنا، وكأننا نعلمهم الازدواجية من البداية. فعلى عكس قصص الفانتازيا الأمريكية والاوروبية، تتجنب لوجوين هذه الازدواجية، وتقدم لنا الشر كجزء من النفس لابد من رؤيته وقبوله، وبالتالى تحجيمه ثم منعه بقدر الإمكان. فمثلاً على سباروهوك أن يقبل ظله الأسود (ذكرياته المؤلمة، غروره، تسرعه، عمله السيئ) على أنه جزء منه، ويقبل بصبر تصحيح الخطأ، عليه أن يحتضن ما ظل يهرب منه طول حياته القصيرة حتى ينغلق جرحه، ويواصل العمر بشجاعة فيصبح يومًا الساحر الأكبر بعد أن كان ملعونًا مطاردًا.

ولعل اللافت فى هذه الرواية أنها ربما تمثل الأصل الذى خرجت منه رواية "هارى بوتر" التى وجدت صدًى واسعًا لدى الناشئين فى العالم.

تصميم الغلاف: مصطفى مختار